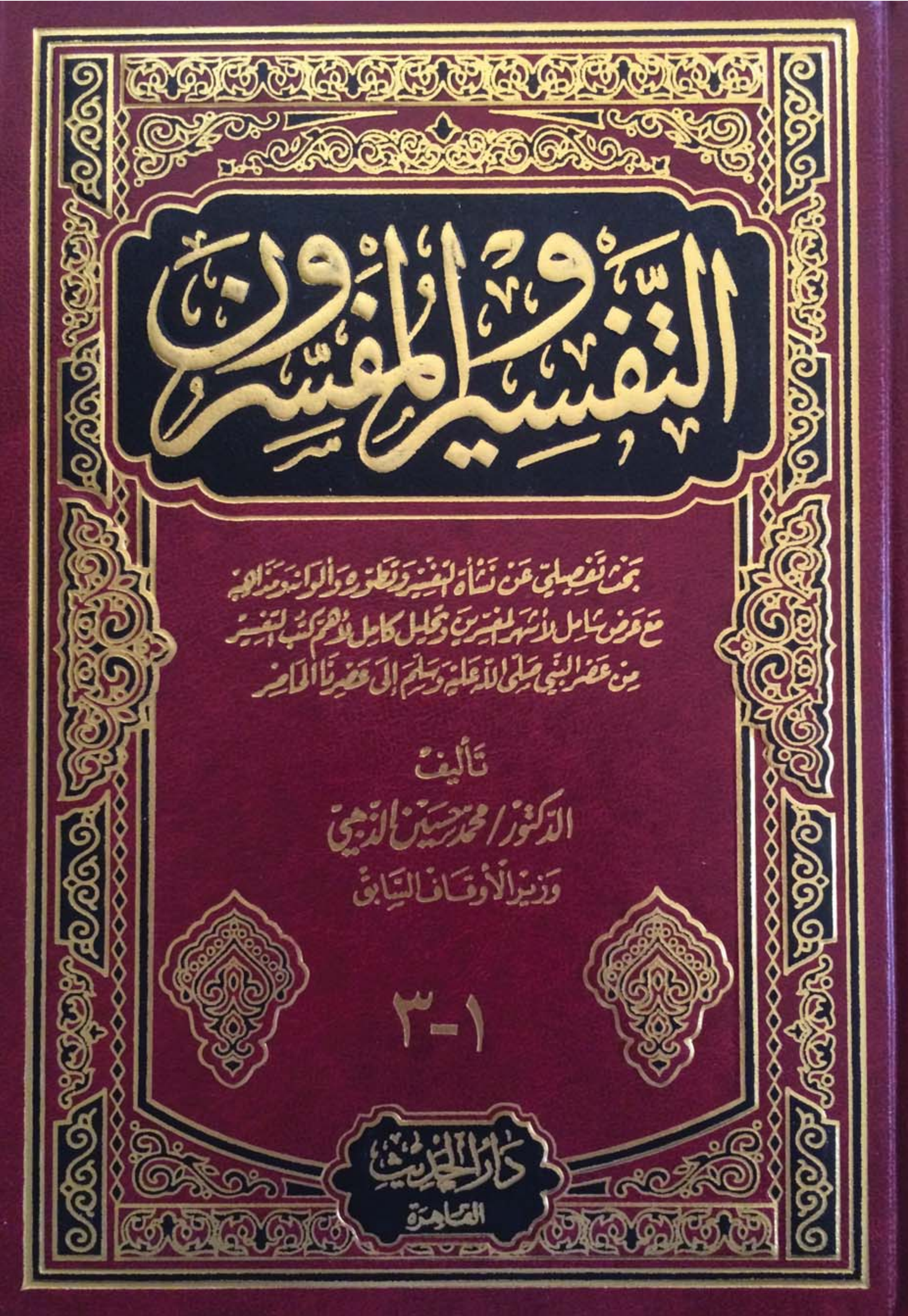
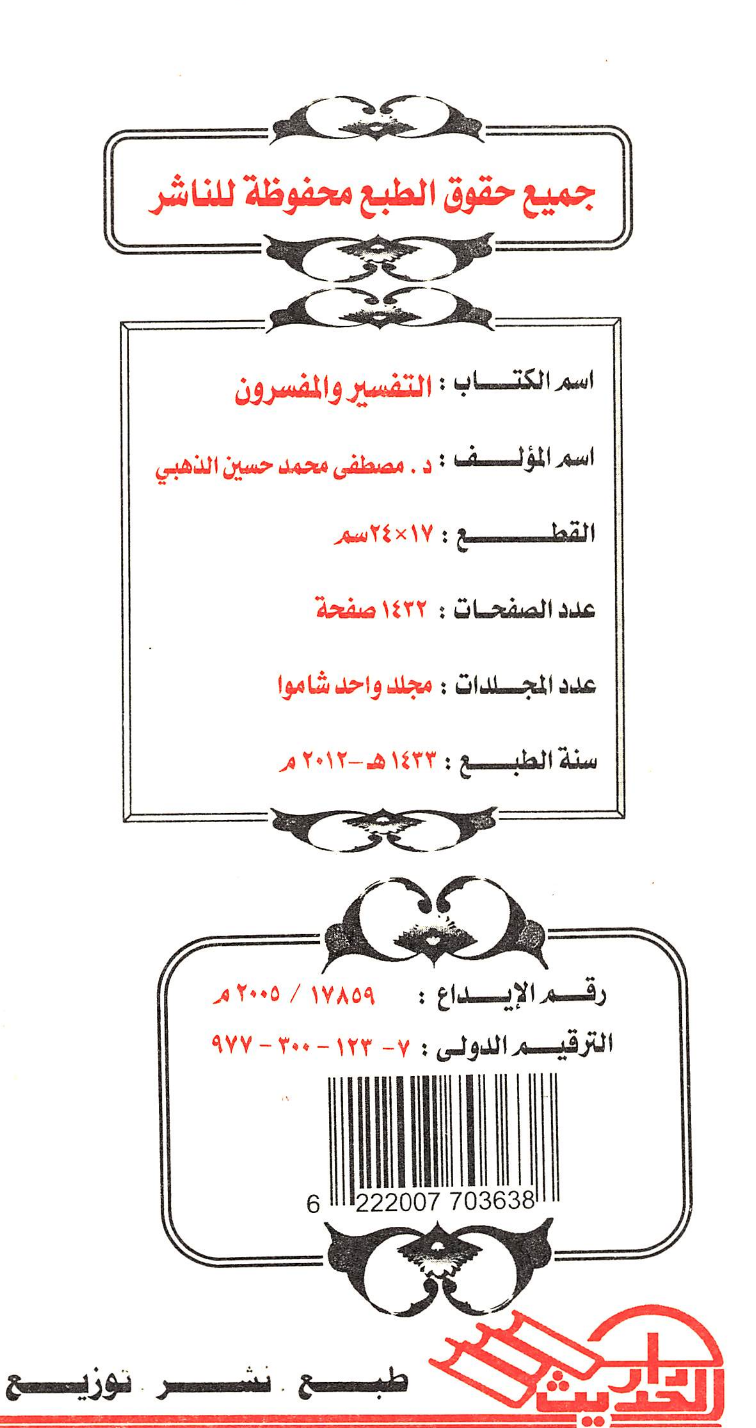

التفسير والمفسرون
بحث تفصيلي عن نشأة التفسير وتطوره وألوانه ومذاهبه
مع عرض شامل لأشهر المفسرين وتحليل كامل لأهم كتب التفسير
من عصر النبي صلى الله عليه وسلم إلى عصرنا الحاضر
تأليف
الدكتور / محمد حسين الذهبي
وزير الأوقاف السابق
١-٣
دار الحديث
القاهرة

التفسير والمفسرون



اسم الكتاب : **التفسير والمفسرون**

اسم المؤلف : **د . مصطفى محمد حسين الذهبي**

القطع : ١٧×٢٤سم

عدد الصفحات : ١٤٣٢ صفحة

عدد المجلدات : مجلد واحد شاموا

سنة الطبع : ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م

رقم الإيداع : ١٧٨٥٩ / ٢٠٠٥ م

الترقيم الدولى : ٧- ١٢٣ - ٣٠٠ - ٩٧٧

6 222007 703638

دار الحديث

طبع نشر توزيع

١٤٠ شارع جوهر القائد أمام جامعة الأزهر تليفون : ٢٥٨٩٩٤٠٩ / ٢٥٩١٨٧١٩ / ٢٥٩١٩٦٩٧ فاكس : ٢٥٩١٩٦٩٧

www.darelhadith.com E-mail: info@darelhadith.com

التفسير والمفسرون

بحث تفصيلي عن نشأة التفسير وتطوره وألوانه ومذاهبه
مع عرض شامل لأشهر المفسرين وتحليل كامل لأهم كتب التفسير
من عصر النبي صلى الله عليه وسلم إلى عصرنا الحاضر

الدكتور / مصطفى محمد الذهبي

الجزء الثالث

دار الحديث
القاهرة


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة بين يدى الكتاب

الحمـد لله الذى أنزل على عبده الكتـاب ولم يجعل له عوجًا، والصـلاة والسلام على سيدنا محمد الذى بعثه الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله.

وبعـــد ...

فقد سارت حركة النشر فى الآونة الأخيرة بخطًى متسارعة، وظهر العديد من كتب التفسير - على اخـتلاف مشاربها وتعدد مناهجها - إلى عـالم النور بعد أن ظلت عهودًا طويلة حبيسة فى عالم المخطوطات.

وحيث أن الوالد - رحمه الله - كان قد اطلع على جـزء منها بعد انتهائه من تأليف كتابه: «التفسير والمفسرون» والبعض الآخر منها طُبع بعد استشهاده، فقد عهدت إلىَّ «دار الحـــديث» بكتـابة بحث شامل عن هذه الكتب، يُبَـيِّن مناهجهـا ويوضِّح آراء مؤلفيها، ليكون ذيلا على ما خطَّه الوالد فى كتابه.

فاستخـرت الله ربى، وسألته العون والإمداد فى كـتابة هذا البحث، وأن يَمُنَّ علىَّ بإتمامه، وأن ينفع بكتابى هذا كما نفع بأصله.

وقد جعلت بحثى هذا على ثمانية أبواب:

الباب الأول: كتب انلتفسير بالمأثور عند أهل السنة.

الباب الثانى: كتب التفسير بالرأى عند أهل السنة.

الباب الثالث: كتب التفسير عند الإمامية الاثنا عشرية.

الباب الرابع: كتب التفسير عند الإسماعيلية.

الباب الخامس: كتب التفسير عند الإباضية.

الباب السادس: كتب التفسير عند الزيدية.

الباب السابع: كتب التفسير عند الصوفية.

الباب الثامن: كتب التفسير المتعلقة بآيات الأحكام.

ولم أتعرض فى بحثى هذا لكتب التفسير فى العصر الحديث، رغبة منى فى أن أُفردها بكتاب مستقل يفى بالموضوع.

وقبل أن أختم هذه المقدمة أحب أن أوضح للقارئ الكريم أنى اكتفيت فى إحالاتى التى أتكلم عليها بأن أعزوها إلى سورها، ورقم آياتها، دون عزو إلى أرقام الأجزاء والصفحات الخاصة بالكتب المنقولة منها، وقد اخترت هذا النهج وارتضيته لعدة أمور:

أولها: أن الحصول على جميع هذه الكتب ـ فى بعض البلدان ـ صار أمرًا صعب المنال، إن لم يكن ضربًا من المُحال فى كثير من الأحوال.

ثانيها: أن هذه الطريقة أدق وأسهل فى البحث نظرًا لتعدد الطبعات للكتاب الواحد، وبخاصة فى الكتب المشهورة المتداولة.

ثالثها: أن فى هذا المنهج تيسير كبير لمن يعتمدون فى أبحاثهم واطلاعاتهم على الاسطوانات المدمجة، ومواقع الإنترنت.

هذا .. ولم ألجأ إلى الإحالة إلى رقم الجزء والصفحة إلا فى الكتب التى لم تشتمل على تفسير القرآن بأكمله، ككتب الإسماعيلية، وكذلك المؤلفات التى لم تلتزم بترتيب القرآن، ككتب آيات الأحكام.

وأخيرًا أدعو الله تعالى أن يلهمنى الصواب، وأن يتقبل عملى هذا، إنه سميع مجيب.

القاهرة فى:
١٠ رمضان ١٤٢٦هـ
١٣ أكتوبر ٢٠٠٥م

دكتور
مصطفى محمد حسين الذهبى

الباب الأول

كتب التفسير بالمأثور
عند أهل السنة

١ - تفسير مقاتل بن سليمان.

٢- تفسير عبد الرزاق الصنعانى.

٣- تفسير ابن أبى حاتم.



١- تفسير مقاتل بن سليمان(١)

التعريف بصاحب هذا التفسير(٢):

هو: مقاتل بن سليمان البلخى، الأزدى بالولاء، الخراسانى، أبو الحسن، ولد بمدينة «بلخ» من إقليم «خراسان» ونشأ بها، وتحول إلى «مرو» ثم انتقل إلى العراق فنزل بالبصرة، ودخل بغداد، وكانت إذ ذاك دار الخلافة، يقصد إليها العلماء والأدباء والشعراء، وكان مقاتل واحدًا منهم، حيث قضى وقتًا طويلاً من عمره، وكان يجالس الخلفاء والأمراء.

اشتهر بتفسير القرآن الكريم، وأخذ الحديث عن جماعة من مشاهير التابعين، منهم: مجاهد بن جبر، وعطاء بن رباح، والضحاك بن مزاحم، وعطية بن سعيد العوفى، وقال الحربى: لم يسمع من مجاهد، وفى التهذيب: أنه لم يسمع من الضحاك، فقد مات الضحاك قبل أن يولد مقاتل بأربع سنين.

ولمقاتل تصانيف متعددة فى التفسير والقراءات والفقه، منها:

١- التفسير الكبير، وسنذكر ما كتبه الوالد ـ رحمه الله ـ عنه.

٢- الناسخ والمنسوخ.

٣- تفسير الخمسمائة آية.

٤- كتاب القراءات.

٥- كتاب متشابه القرآن.

٦- كتاب نوادر التفسير.

٧- الوجوه والنظائر فى القرآن، وطبع فى القاهرة (سنة ١٩٧٥م) بتحقيق الدكتور عبد الله شحاته ـ رحمه الله ـ بعنوان الأشباه والنظائر فى القرآن الكريم.

---

(١) كتب الوالد هذا البحث ، وقد ترأس اللجنة التى منحت درجة الدكتوراة للدكتور عبد الله شحاته، رحمهما الله، والترجمة فقط من زياداتى.

(٢) مصادر الترجمة: طبقات المفسرين للداودى (رقم ٦٤٢)، وفيات الأعيان (٥/ ٢٥٥ - ٢٥٧)، تذكرة الحفاظ للذهبى (١/ ١٧٤)، ميزان الاعتدال (٤/ ١٧١)، خلاصة تذهيب الكمال (٣٣٠)، تاريخ بغداد (١٣/ ١٦٠)، تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ١١١).

٨ - كتاب الجوابات فى القرآن.

٩ - كتاب الرد على القدرية.

١٠- كتاب الأقسام واللغات.

١١- كتاب التقديم والتأخير.

١٢- كتاب الآيات المتشابهات.

وتوفى مقاتل بن سليمان بالبصرة سنة خمسين ومائة.

رأى الدكتور الشهيد محمد الذهبى فى مقاتل بن سليمان:

ومقاتل بن سليمان متهم مجروح، ولا نعلم أحدًا من علماء عصره ناله مثل ما ناله من الطعن والتجريح، ولقد كان لما عُرِفَ عنه من المذاهب الردية أثر بالغ فى انصراف الناس عن علمه عامة وعن تفسيره خاصة، وإذا كنا قد وجدنا مقاتل بن حبان يقول: «ما وجدت علم مقاتل بن سليمان إلا كالبحر»، ووجدنا مَن يَنْسِبُ إلى الشافعى رضي الله عنه أنه قال: «الناس عيال فى التفسير على مقاتل» فقد وجدنا بجوار ذلك مَن اتهمه فى علمه، وعاب تفسيره، ومَن رماه بالكذب والوضع فى حديثه، ومَن قال عنه: إنه دجال، جسور، فاسد العقيدة.

والحق أن علم مقاتل بن سليمان، علم شرُّه أكثر من خيره، وضرُّه أكبر من نفعه، وإذا كان مقاتل بن حبان يقول: إن علمه كالبحر، فكثيرًا ما يحمل البحر الخَبَث، ويقذف بالغُثاء والزَّبَد.

والحق - أيضًا - أن تفسير مقاتل يحوى من الإسرائيليات والخرافات، وضلالات المشبهة والمجسمة ما ينكره الشرع ولا يقبله العقل، وإذا كان حقّا ما نُسِبَ إلى الشافعى من قوله: الناس عيال فى التفسير على مقاتل، فلست ألمح فى قوله هذا استحسانًا لتفسيره ولا ثناءً عليه، ولا أعقل من هذه العبارة - وقد بلوتُ تفسير مقاتل - إلا أن الشافعى أراد أنه كان مرجعًا للمفسرين على اختلاف مشاربهم ومذاهبهم، وجد فيه المعتدلون الفهم السليم للنص القرآنى فاقتبسوه منه، ووجد فيه أصحاب المذاهب الردية كالمشبهة والمجسمة ما يوافق هواهم فنقلوه عنه، ووجد فيه المولعون بالقصص

ورواية الأخبار معينًا فياضًا بالغرائب والأعاجيب فاستمدوا منه ما أشبع رغباتهم ووافق ميولهم.

وإذا كان هؤلاء هم عيال مقاتل على مائدة تفسيره، فما أكثر المتخَمين منهم بالمناكير والأباطيل، وما أقل مَنْ طوى صدره منهم على الحقيقة الناصعة والرأى السديد.

ما وجدنا أحدًا من العلماء أثنى على تفسير مقاتل، ومَن استحسن تفسيره منهم ـ وهذا هو ابن المبارك ـ يحتاط فى تحسينه له حتى ليكاد ينفى عنه سمة الحُسن حين يقول: «ما أحسن تفسيره لو كان ثقة».

وهذا وكيع بن الجراح يُسأل عن تفسير مقاتل بن سليمان فيقول: «لا تنظروا فيه» فيقول السائل: ما أصنع به؟ فيقول له: «ادفنه».

ويروى أبو عبد الله الذهبى عن أبى حاتم محمد بن حبان البستى أنه قال: «مقاتل ابن سليمان كان يأخذ عن اليهود والنصارى علم القرآن العزيز الذى يوافق كتبهم، وكان مشبهًا يُشَبِّه الرب بالمخلوقين، وكان يكذب مع ذلك فى الحديث».

وقد أكثر العلماء من تجريح مقاتل، كما قلنا، وإليك بعض أقوالهم:

قال أحمد بن سيار عنه: «هو متروك الحديث، ومهجور القول، وكان يتكلم فى الصفات بما لا تحل الرواية عنه».

وقال إبراهيم بن يعقوب الجوزجانى: «مقاتل بن سليمان كان دجالاً جسورًا».

وقال أبو عبد الرحمن النسائى: «الكذَّابون المعروفون بوضع الحديث على رسول الله ﷺ أربعة: ابن أبى يحيى بالمدينة، والواقدى ببغداد، ومقاتل بن سليمان بخراسان، ومحمد بن سعيد ـ ويعرف بالمصلوب ـ بالشام».

وقال عمرو بن على الفلاَّس: «مقاتل كذَّاب متروك الحديث».

وقال البخارى: «مقاتل بن سليمان سكتوا عنه» وقال فى موضع آخر: «لا شىء ألبتة».

وقال يحيى بن معين: «مقاتل بن سليمان ليس حديثه بشىء».

وقال أحمد بن حنبل: «مقاتل بن سليمان صاحب التفسير ما يعجبنى أن أروى عنه شيئًا».

وقال أبو حنيفة: «أفرط جهم فى نفى التشبيه حتى قال: إنه تعالى ليس بشىء، وأفرط مقاتل - يعنى فى الإثبات - حتى جعله مثل خلقه».

وقال أبو معاذ الفضل بن خالد المروزى: «سمعت خارجة بن مصعب يقول: لم أستحل دم يهودى، ولو وجدت مقاتل بن سليمان خلوة لشققتُ بطنه».

وبعد... فلست أرى مقاتل بن سليمان إلا راوية خرافات، ومروِّج إسرائيليات، يأخذ عن اليهود والنصارى علم القرآن - كما يقول أبو حاتم محمد بن حبان البستى - فإذا انضم إلى ذلك كونه مبتدعًا، وكذابًا، ووضَّاعًا، طرحنا كل ما يُنسب إليه من روايات فى التفسير والحديث، اللَّهم إلا إذا صحت من طريق غير طريقه.

صحة نسبة التفسير المطبوع لمقاتل بن سليمان:

وأنا فى شك من كون هذا التفسير لمقاتل، فالعصر الذى عاش فيه مقاتل كان عصر إسناد، حتى من الوضَّاعين، وما وجدنا فى تفسير مقاتل إسنادًا إلا نادرًا، وكثيرًا ما يرد فى هذا التفسير عبارة: «قال أبو محمد: قال الفراء: كذا وكذا» وأحيانًا ترد عبارة: «قال الفراء» فى سياق التفسير وفى صلبه وكأنما قائل هذه العبارة هو المفسر نفسه، ولا يعقل أن يكون مقاتل بن سليمان لأنه توفى سنة ١٥٠هـ، والفراء ولد سنة ١٤٤هـ وتوفى سنة ٢٠٧هـ، فكيف يروى عنه؟! أغلب الظن أن هذا التفسير من عمل بعض المتأخرين عن عصر مقاتل، جمع فيه ما روى عنه فى التفسير، وضم إليه من رأيه ومن أقوال غيره ما رآه مكملا له أو موضحًا لبعض ما فيه.

والتفسير مكتوب على الآلة الكاتبة ومنه نسخة مودعة فى مكتبة كلية دار العلوم، وهى التى رجعنا إليها، وفيها اضطراب فى بعض عباراتها، وتحريف فى بعض ألفاظها[١].

الإسرائيليات فى تفسير مقاتل:

وقد قرأت فى هذا التفسير، فرأيته قد حوى كل غريب وغريبة، ووجدت فيه قصصًا إسرائيلية فيها باطل كثير، ولم أجده يروى ما يذكره من ذلك ولا من غيره

---

(١) طبع هذا التفسير بعد ذلك فى الهيئة العامة للكتاب - بمصر، ثم منع من التداول أو إعادة الطبع، ولله الحمد والمنة.

مسندًا، اللهم إلا فى مواضع قليلة يكون إسناده فيها - غالبًا - إلى رجال متهمين بالكذب ووضع الأحاديث، كإسناده إلى الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس، قال السيوطى: إن الكلبى مرض فقال لأصحابه فى مرضه: كل شىء حدثتكم عن أبى صالح كذب.

ومن أمثلة ما جاء فى تفسير مقاتل بن سليمان من القصص الإسرائيلى الذى لا يعدو أن يكون من قبيل الخرافات، ما قاله فى تفسيره لقوله تعالى: ﴿قٓ﴾ فى أول سورتها، ونصه:

«وقاف: جبل من زمردة خضراء، محيط بالعالم، فخضرة السماء منه، ليس من الخلق شىء على خلقه، وتنبت الجبال منه، وهو وراء الجبال، وعروق الجبال كلها من «قاف» فإذا أراد الله تعالى زلزلة أرض أوحى إلى الملَك الذى عنده، أن يخرق عرقًا من الجبل، فتتحرك الأرض الذى يريد، وهو أول جبل خُلِقَ، ثم أبو قبيس بعده، وهو الجبل الذى الصفا تحته، ودون «قاف» بمسيرة سنة جبل تغرب فيه الشمس، يقال له: «الحجاب» فذلك قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ (سورة ص: ٣٢) يعنى بالجبل، وهو من وراء حجاب، وله وجه كوجه الإنسان، وقلب كقلوب الملائكة فى الخشية لله تعالى، وهو من وراء الحجاب الذى تغيب الشمس من ورائه، والحجاب دون «قاف» بمسيرة سنة، وما بينهما ظلمة، والشمس تغرب من وراء الحجاب فى أصل الجبل، فذلك قوله: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ يعنى بالجبل، وذلك قوله فى مريم: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ (مريم: ١٧) يعنى جبلا».

وفى الكلام تكرار ظاهر، واضطراب فى العبارة، وتفسيره غير مقبول.

وفى تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ فى أول سورتها يقول ما نصه:

«الويل: واد فى جهنم، بُعده مسيرة سبعين سنة، فيه تسعون ألف شعب، فى كل شعب سبعون ألف شق، فى كل شق سبعون ألف مغار، فى كل مغار سبعون ألف قصر، فى كل قصر سبعون ألف تابوت من حديد، وفى التابوت سبعون ألف شجرة، فى كل شجرة سبعون ألف غصن من نار، فى كل غصن سبعون ألف ثمرة، فى كل ثمرة دودة طولها سبعون ذراعًا، تحت كل شجرة سبعون ألف ثعبان، وسبعون

ألف عقرب، فأما الثعابين فطولهن مسيرة شهر، فى الغلظ مثل الجبل، وأنيابها مثل النخل، وعقاربها مثل البغال الدهم، لها ثلاثمائة وستون فقارًا، فى كل فقار قُلة سم».

وفى تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٠) من سورة الإنسان: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ نراه يقول ما نصه:

«وذلك أن الرجل من أهل الجنة له قصر، فى ذلك القصر سبعون قصرًا، فى كل قصر سبعون بيتًا، كل بيت من لؤلؤة مجوَّفة، طولها فى السماء فرسخ، وعرضها فرسخ، عليها أربعة آلاف مصراع من ذهب، فى ذلك البيت سرير منسوج بقضبان الدر والياقوت، عن يمين السرير وعن يساره أربعون ألف كرسى من ذهب، قوائمها ياقوت أحمر، على ذلك السرير سبعون فراشًا، كل فراش على لون، وهو جالس فوقها، وهو متكئ على يساره عليه سبعون حُلَّة من ديباج، الذى يلى جسده حريرة بيضاء، وعلى جبهته إكليل مكلَّل بالزبرجد والياقوت، وألوان الجواهر كل جوهرة على لون، وعلى رأسه تاج من ذهب، فيه سبعون ذؤابة، فى كل ذؤابة دُرَّة تساوى مال المشرق والمغرب، وفى يديه ثلاثة أساور: سوار من ذهب، وسوار من فضة، وسوار من لؤلؤ، وفى أصابع يديه ورجليه خواتم من ذهب وفضة، فيه ألوان الفصوص، وبين يديه عشرة آلاف غلام، لا يكبرون ولا يشيبون أبدًا، ويوضع بين يديه مائدة من ياقوتة حمراء، طولها ميل فى ميل، ويوضع على المائدة سبعون ألف إناء من ذهب وفضة، فى كل إناء سبعون لونًا من الطعام، يأخذ اللّقمة بيديه، فما يخطر على باله حتى تتحوَّل اللُّقمة عن حالها إلى الحال التى يشتهيها، وبين يديه غلمان بأيديهم أكواب: إناء من ذهب وإناء من فضة، معهم الخمر والماء، فيأكل على قدر أربعين رجلاً من الألوان كلها، وكلما شبع من لون من الطعام سقوه شربة مما يشتهى من الأشربة، فيتجشى، فيفتح الله تعالى عليه ألف باب من الشهوة من الشراب، فيدخل عليه الطير من الأبواب كأمثال النجائب، فيقومون (هكذا بالأصل) بين يديه صفّا، فينعت كلٌّ نفسَه بصوت مطرب لذيذ، ألذ من كل غناء فى الدنيا، فيقول: يا ولى الله، كُلْنى، إنى كنت أرعى فى روضة كذا وكذا من رياض الجنة، فيحلون عليه أصواتها (هكذا بالأصل) فيرفع بصره فينظر إليهم، فينظر إلى أزهاها صوتًا، وأجودها نعتًا فيشتهيها، فيعلم الله ما وراء شهوته

فى قلبه من حبه، فيجىء الطير فيقع على المائدة، بعضه قديد، وبعضه شواء، أشد بياضًا من الثلج، وأحلى من العسل، فيأكل، حتى إذا شبع منها واكتفى، صارت طيرًا كما كانت، فتخرج من الباب الذى كانت دخلت منه، فهو على الأرائك، وزوجته مستقبلة، يبصر وجهه فى وجهها من الصفاء والبياض، كلما أراد أن يجامعها ينظر إليها فيستحى أن يدعوها، فتعلم ما يريد منها زوجها، فتدنو إليه فتقول: بأبى وأمى، ارفع رأسك وانظر إلىَّ، فإنك اليوم لى وأنا لك، فيجامعها على قوة مائة رجل من الأوَّلين، وعلى شهوة أربعين رجلاً، كلما أتاها وجدها عذراء، لا يغفل عنها مقدار أربعين يومًا، فإذا فرغ وجد ريح المسك منها فيزداد حبّا لها، فيها أربعة آلاف وثمانمائة زوجة مثلها، لكل زوجة سبعون خادمًا وجارية».

وهكذا يذكر مقاتل من خرافاته وترهاته بدون إسناد وبغير نقد ما يجعله تفسيرًا لكلام الله تعالى، وما كان كلام الله بحاجة إلى مثل هذا الهراء الذى لا يليق بعاقل أن يذكره مجرد ذكر، فضلاً عن أن يشرح به كتاب الله عز وجل!! ولكنه مقاتل بن سليمان الذى عرفناه - فيما سبق - كذَّابًا، وضَّاعًا، فاسد العقيدة.

وأدهى من ذلك وأمرُّ أن نرى مقاتل بن سليمان يذكر فى غير موضع من تفسيره بعض ما دُسَّ على الإسلام من أباطيل، يذكرها دون أن يسندها وينتهى منها من غير أن يُفَنِّدها، كأنما صحت عنده، وكأنه لا يرى فيها عيبًا ولا ذمّا!!.

نقرأ تفسير مقاتل لقوله تعالى فى الآية (٣٧) من سورة الأحزاب: ﴿ **وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ** ﴾ . . . الآية، فنجده بعدما ذكر من أمر خطبة زينب لزيد، وتمنعها أول الأمر، ثم قبولها الزواج منه نزولاً على أمر الله ورسوله، يقول ما نصه:

«ودخل بها - يعنى بزينب - زيد، فلم يلبث إلا يسيرًا حتى شكا إلى النبى ﷺ ما يلقى منها، فدخل النبى ﷺ فوعظها، فلما كلمها أعجبه حسنها وظرفها، وكان أمرًا قضاه الله عز وجل، ثم رجع النبى ﷺ وفى نفسه منها ما شاء الله عز وجل، فكان النبى ﷺ يسأل زيدًا بعد ذلك: كيف هى معك؟ فيشكوها إليه، فقال له النبى ﷺ: اتق الله، وأمسك عليك زوجك، وفى قلبه غير ذلك» . . . ثم يقول:

«ثم إن النبى ﷺ أتى زيدًا فأبصر زينب قائمة، وكانت حسناء بيضاء، من أتم نساء قريش، فهويها النبى ﷺ فقال: سبحان مُقَلِّب القلوب، ففطن زيد فقال: يا رسول الله، ائذن لى فى طلاقها فإن فيها كبرًا، تعظم علىَّ وتؤذينى بلسانها، فقال النبى ﷺ: أمسك عليك زوجك واتق الله، ثم إن زيدًا طلقها بعد ذلك، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَإِذْ تَقُولُ﴾ يا محمد ﴿لِلَّذِى أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ بالإسلام ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بالعتق، وكان زيد أعرابيًا فى الجاهلية، مولًى فى الإسلام، سُبِىَ فأصابه النبى ﷺ فأعتقه ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ﴾ يعنى وتُسِرُّ فى قلبك يا محمد: ليت أنه طلقها ﴿مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ يعنى مُظْهِرُه عليك حين ينزل به قرآن ﴿وَتَخْشَى﴾ قالة ﴿النَّاسَ﴾ فى أمر زينب ﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾ فى أمرها، فقرأ النبى ﷺ هذه الآية على الناس بما أظهره الله عليه من أمر زينب إذ هويها».

ثم يمضى مقاتل فى تفسيره للآيات إلى أن يصل إلى قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ﴾ (الأحزاب: ٣٨) فيقول:

«هكذا كانت سُنَّة الله فى الذين خلوا من قبل محمد، يعنى: داود النبى ﷺ حين هوى المرأة التى فُتِنَ بها، وهى امرأة أوريا بن حنان، فجمع الله بين داود وبين المرأة التى هويها، وكذلك جمع الله عز وجل بين محمد ﷺ وبين زينب إذ هويها، كما فعل بداود عليه السلام، فذلك قوله عز وجل: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ (الأحزاب: ٣٨) فقدر الله عز وجل لداود ومحمد تزويجهما».

... يا عجبًا كل العجب لمقاتل!! كيف طوَّعت له نفسه أن يقول كل هذا فى رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ كان يعرف زينب قبل أن يزوجها مولاه زيدًا، فهى ابنة عمته، ولو كان له فيها رغبة لخطبها لنفسه قبل أن يخطبها لزيد، وقبل أن يدخل بها، أما أن تقع فى نفسه بعدما قضى زيد منها وطرًا، وأما أن يقول لزيد: أمسك عليك زوجك وكل أمنيته أن يُطَلِّقها زيد ليتزوجها هو من بعده، فذلك ما أعيذ منه رسول الله ﷺ، لأنه يحطم جانب العصمة فيه، والعصمة فى الأنبياء شرط لازم.

ومما لا يكاد ينقضى منه العجب، أن مقاتلاً برَّر فريته على رسول الله ﷺ بفرية مثلها، نسبها إلى داود عليه السلام، اختصرها هنا، وبسطها من غير تحرج ولا تأثم

عند تفسيره لقوله تعالى فى سورة ص: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ إلى قوله: ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ (الآيات من ٢١ - ٢٤).

وعند تفسير مقاتل لقوله تعالى فى سورة الحج: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ إلى آخر الآيتين (٥٢، ٥٣) نجده يفسر التمنى بالتحدث ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ أى: فى حديثه، ويستشهد على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾ (البقرة: ٧٨) أى: إلا ما يُحَدِّثون به عنها، يعنى التوراة، ثم يقول ما نصه: «وذلك أن النبى ﷺ كان يقرأ فى الصلاة عند مقام إبراهيم - عليه السلام - فنعس فقال: «أفرأيتم اللاَّت والعُزَّى ومَنَاة الثالثة الأخرى، تلك الغرانيق العُلا، عندها الشفاعة تُرتجى» فلما سمع كفار مكة أن لآلهتهم شفاعة فرحوا، ثم رجع النبى ﷺ فقال: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ (النجم: ١٩ - ٢٢) فذلك قوله سبحانه: ﴿فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ (الحج: ٥٢).

ونجد مقاتلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى سورة النجم: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ (الآيات من ١٩ - ٢٢) يقول مثل كلامه السابق، ويُصَرِّح بأن الشيطان هو الذى ألقى هذه الزيادة: «تلك الغرانيق العُلا، عندها الشفاعة ترتجى» على لسان النبى ﷺ وفى قراءته، وهذا كلام ساقط لا أصل له، ولا أعتقد إلا أنه دسيسة دسَّها على الإسلام أعداؤه من اليهود أو غيرهم، وراجت لدى مقاتل بن سليمان - كما راجت لدى نفر من المفسرين - فنقلها فى تفسيره ولم يُعَقِّب عليها ولا بكلمة واحدة تفيد بطلانها، وما كان الله ليلقى النعاس على نبيه فى صلاته، ثم يُسَلِّط عليه الشيطان فيُلقى على لسانه ما ليس قرآنًا، وهو الذى تكفل بحفظ القرآن حيث يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩).

وضمن لنبيه ﷺ جمعه له فى صدره، وقراءته على لسانه كما نزل به جبريل بقوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ﴾ أى: بلسان جبريل لا بلسان الشيطان ﴿فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ (القيامة: ١٧ - ١٩).

وقصة الغرانيق لم تثبت من طريق صحيح، وهى من وضع الزنادقة.

وإذا كنا نرى مقاتل بن سليمان يُسَوِّد صفحات تفسيره بمثل ما تقدَّم من خرافات وأباطيل، فإنَّا نراه يعنى عناية لم نرها لغيره من المفسرين، بتفسير ما لا فائدة لنا من تفسيره، ويشغل بتوافه لا يعدو أن يكون الاشتغال بها عبثًا ولهوًا.

نراه يعرض لتفسيره الآيات الواردة فى قصة قتيل بنى إسرائيل من سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ (الآيات من ٦٧ - ٧٣) فيذكر أن اسم المقتول «عاميل» والبعض الذى ضُرِبَ به هو فخذ البقرة اليمنى.

ونراه يعرض لتفسير الآيات الواردة فى شأن أصحاب الكهف: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ (الآية ١٠ وما بعدها إلى آخر القصة فى سورة الكهف) فيعنى بشكل ملحوظ ببيان ما فيها من المبهمات التى لا حاجة بنا إلى معرفتها، والتى لم يرد تعيينها من طريق صحيح، فيذكر أن اسم الملك الذى فَرَّ منه الفتية «دقيوس»، واسم الكهف الذى أووا إليه «بانجلوس»، واسم الكلب الذى تبعهم «قطمير»!!.

ويعرض لقصة الخضر مع موسى عليه السلام، فيذكر عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٧٤) من سورة الكهف: ﴿حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾ أن اسم الغلام «حسين بن كازرى» واسم أمه «سهرى» وأن الخضر قتل الغلام بحجر! وكأنه لم يكف مقاتلاً أن عيَّن آلة القتل فأضاف أن لون الحجر كان أسود.

ويعرض مقاتل لتفسير قوله تعالى فى الآية (١٨) من سورة النمل: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾ فيذكر أن النملة التى خاطبت جماعة النمل اسمها «الجرمى» ولا أدرى، لِمَ لَمْ يُعيِّن لنا مقاتل أذكرًا كانت النملة أم أُنثى؟!.

ويمضى مقاتل فى هذا العبث فى مواضع كثيرة من تفسيره، فيذكر أن الذى صنع التابوت لأم موسى لتضعه فيه عندما تُلقيه فى اليم كان رجلاً مؤمنًا، وأن اسمه «حزبيل ابن صابوث»، ويذكر أن عصا موسى كانت من الآس وأن اسمها «نفعة» وأن الحية التى انقلبت عن العصا كانت ذكرًا أشعر له عُرف.

ويذكر أن الكبش الذى فدى الله به الذبيح ـ وهو على ما فى تفسيره: إسحاق لا إسماعيل ـ اسمه «رزين» وأنه كان من الوعل، وأنه رعى فى الجنة أربعين سنة قبل أن يُذبح!!.

وكأنى بمقاتل لم يرضه أن يستأثر هو بهذا الهراء والعبث فذهب يكذب على رسول الله ﷺ، وينسب إليه شيئًا من ذلك، فعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٠) من سورة التحريم: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ﴾ . . . الآية، يقول ما نصه:

«قالت عائشة ؓ: كيف لم يسمهما الله تعالى؟ قال النبى ﷺ: «لبغضهما» يعنى امرأة نوح وامرأة لوط، قالت عائشة: فما اسمهما؟ فأتاه جبريل ﷺ فقال: أخْبِر عائشة ؓ ـ أن اسم امرأة نوح «والغة» واسم امرأة لوط «والهة»».

ولست أدرى هل تحوَّل بُغض الله لهما إلى حب حتى ذكر اسميهما؟ أم أن الله سارع لعائشة فى هواها فسماهما لها وهو كاره؟!!.

وبعد. . . فإذا كان ما تقدَّم بعض ما فى تفسير مقاتل من أباطيل فكيف يعقل أن يقول الشافعى ـ رحمه الله: الناس عيال فى التفسير على مقاتل؟ لا أعتقد ـ كما قلت سابقًا ـ أن الشافعى ـ رحمه الله ـ يقول هذه المقالة، اللَّهم إلا إذا كان يقصد بها ما شرحناها به سابقًا، أو لعله يقصد مقاتل بن حبَّان، وهو معروف بالتفسير، وقال عنه النووى: «اتفقوا على توثيقه والثناء عليه».

٢- تفسير عبد الرزاق الصنعانى

التعريف بصاحب التفسير(١):

هو عبد الرزاق بن همام بن نافع، الحميرى بالولاء، أبو بكر اليمانى الصنعانى.

ولد سنة ست وعشرين ومائة، وطلب العلم وهو ابن عشرين سنة، ولزم مَعْمر بن راشد وكتب عنه الكثير، ورحل إلى الحجاز والشام والعراق.

روى عن: أبيه وعمه وهب، ومعمر بن راشد، وأيمن بن نابل، وعكرمة بن عمار وعبد الملك بن جريج، والأوزاعى، وسفيان الثورى، وسفيان بن عيينة، وجعفر بن سليمان الضُّبعى ومالك بن أنس، وإسرائيل بن يونس، وإسماعيل بن عياش، وآخرين.

روى عنه: سفيان بن عيينة، ومعتمر بن سليمان ـ وهما من شيوخه ـ ووكيع، وأحمد بن الأزهر النيسابورى، ومحمد بن يحيى الذهلى، وأحمد بن حنبل، وعمرو الناقد، ويحيى بن معين، وعلى بن المدينى، وسليمان بن داود الشاذكونى، ومؤمَّل بن إهاب، وطائفة.

كان حافظًا كبيرًا، واسع العلم، وهو ممن شُدَّت إليه الرحال حتى قيل: ما رحل الناس إلى أحد بعد رسول الله ﷺ مثل ما رحلوا إليه.

قال على بن المدينى: قال هشام بن يوسف: كان عبد الرزاق أعلمنا وأحفظنا.

وقيل لأحمد بن حنبل: رأيت أحسن حديثًا من عبد الرزاق؟ قال: لا.

عده ابن قتيبة فى رجال الشيعة، وقال ابن الأثير: كان يتشيع، وقال ابن تيمية: كان يميل للتشيع، وروى كثيرًا من فضائل على، وإن كانت ضعيفة.

وقال الطيالسى: سمعت يحيى بن معين يقول: سمعت من عبد الرزاق كلامًا يومًا فاستدللت به على تشيعه، فقلت: إن أساتيذك الذين أخذت عنهم كلهم أصحاب سنة: معمر، ومالك، وابن جريج، وسفيان، والأوزاعى، فعمن أخذت هذا المذهب؟ فقال: قدم علينا جعفر بن سليمان الضبعى، فرأيته فاضلاً حسن الهدى، فأخذت هذا عنه.

---

(١) مصادر الترجمة: الطبقات الكبرى لابن سعد (٥/ ٥٤٨)، سير أعلام النبلاء (٩/ ٥٦٣)، الفهرست لابن النديم ٣٣٢، تذكرة الحفاظ (١/ ٣٦٤)، منهاج السنة (٤/ ٤، ٨)، مقدمة التفسير لابن تيمية ص٤٢.

ولكن محمد بن أبى المقدمى كان يرى أن جعفر الضبعى قد أخذ التشيع عن عبد الرزاق، وكان يدعو على عبد الرزاق بسبب ذلك، فيقول: فقدت عبد الرزاق، ما أفسد جعفرًا غيره.

وروى له من أئمة الشيعة: الكلينى والطوسى.

والحق الذى أراه أن عبد الرزاق كان يدعو إلى محبة أهل البيت وتعظيمهم، ويرفض الغلو فيهم.

ولعبد الرزاق من الكتب: «المصنف»، و «الجامع الكبير» فى الحديث، «تفسير القرآن» وهو ما نحن بصدده، وكتاب «المغازى»، وكتاب «السنن» فى الفقه، وكتاب «الأمالى»، وكتاب «الصلاة» وكتاب «تزكية الأرواح»، وغيرها.

توفى عبد الرزاق سنة إحدى عشرة ومائتين.

التعريف بهذا التفسير:

رتب عبد الرزاق نصوص كتابه تحت أسماء سور القرآن، والتى رُتبت بدورها على ترتيب المصحف الشريف، وقد حفظ لنا هذا التفسير (٣٧٥٥) نصًا مسندًا، يرويها عبد الرزاق عن شيوخه بإسناده إلى النبى ﷺ إذا كان النص مرفوعًا، أو إلى الصحابة والتابعين - رضي الله عنهم - إذا كان النص موقوفًا أو مقطوعًا.

وهذه الأحاديث والآثار تتعلق بإيضاح كلمة غريبة فى القرآن، أو النصوص، مع بيان فضل سورة من السور أو آية من الآيات، أو بيان سبب نزول آية أو سورة، أو بيان ما يتعلق بالآية من مسائل فقهية، أو سيرة نبوية، أو قصص الأنبياء.

هذا وقد اعترف العلماء عامة، والمفسرون خاصة، بما لتفسير عبد الرزاق من علو القدر وسمو المنزلة، وخير دليل على ذلك كثرة ما نقلوه عنه، وضمنوه كتبهم، كصنيع ابن أبى حاتم فى تفسيره، وابن جرير الطبرى - وهو المجمع على إمامته فى هذا الفن - فإنه يُضَمِّن كتابه أكثر تفسير عبد الرزاق، وكذلك فعل السيوطى فى «الدر المنثور».

هل فى تفسير عبد الرزاق ما يدل على تشيعه؟

الحق أنى قرأت هذا التفسير فلم أجد فيه ما يدل على تشيعه، أو تفضيله عليًا على غيره من الصحابة، كما أنه لم يكثر من الرواية عن علىٍّ إذا قورنت مروياته عنه بما رواه

عن ابن عباس، وأبى هريرة، وابن مسعود، وأبى سعيد الخدرى، وأنس بن مالك، وغيرهم.

روايته لبعض الأحاديث الضعيفة:

هذا وقد وقع عبد الرزاق فيما وقع فيه غيره من المفسرين من رواية بعض الأحاديث الضعيفة فى تفسيره، وهى إذا قيست بحجم مروياته فى التفسير يتبين أنها من الندرة بمكان، وإحقاقًا للحق فإن عبد الرزاق لم يورد من هذه الضعاف ما يتعلق بتفسير آية من آيات الأحكام، أو العقيدة، بل كلها فيما يختص بالقصص، والترغيب والترهيب، وفضائل الأعمال.

موقفه من الإسرائيليات:

هذا ولم يخل تفسير عبد الرزاق من الإسرائيليات، وهو يوردها دون أن يعقب عليها، وفيها ما لا يليق بمقام الأنبياء وينافى العصمة، فمثلاً عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ (يوسف: ٢٣) «روى عبد الرزاق، عن معمر، عن ابن أبى نجيح، عن مجاهد، قال: جلس منها مجلس الرجل من امرأته حتى رأى صورة يعقوب فى الجدار. وقال معمر: قال قتادة: بل رأى صورة يعقوب فى الجدار، فقال: يا يوسف أتعمل عمل الفجار، وأنت مكتوب فى الأنبياء؟ فاستحيا منه.

وروى عن الثورى، عن أبى حصين، عن سعيد بن جبير فى قوله: ﴿لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ قال: يعقوب ضرب بيده على صدره فخرجت شهوة يوسف من أنامله، وعن الثورى، عن ابن أبى نجيح، عن مجاهد قال: يعقوب مثل له.

وروى عن جعفر بن سليمان، عن يونس، عن الحسن قال: رأى يعقوب عاضًا على يده.

وروى عن ابن عيينة، عن عثمان بن أبى سليمان، عن ابن أبى مليكة قال: شهدت ابن عباس، وهو يسأل عن هَمِّ يوسف ما بلغ؟ قال: حل الهميان، وجلس منها مجلس الخاتن، فنودى: يا بن يعقوب، أتزنى فتكون كالطائر وقع ريشه فذهب يطير فلا ريش له».

موقفه من أحاديث فضائل السور والآيات :

من الأمور التى تحمد لعبد الرزاق فى تفسيره أنه صان قلمه عن ذكر الأحاديث الموضوعة فى فضائل السور والآيات القرآنية والتى اشتملت عليها بعض كتب التفسير الأخرى، واقتصر فيما ذكره من أحاديث الفضائل على ما صح سنده ومتنه، مثال ذلك ما رواه فى فضل خواتيم سورة البقرة حيث روى بإسناده إلى علقمة بن قيس قال: «من قرأ خواتم سورة البقرة فى ليلة أجزأت عنه قيام تلك الليلة».

وما رواه بإسناده إلى أبى مسعود الأنصارى قال: قال رسول الله ﷺ : «من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة كفتاه. . .».

هذا وقد طُبِع الكتاب أكثر من مرة، والطبعة التى يدى هى طبعة دار الكتب العلمية (١٤١٩هـ) وتقع فى ثلاثة مجلدات.

* * *

٣- تفسير ابن أبى حاتم

التعريف بصاحب التفسير[١]:

هو عبد الرحمن بن أبى حاتم محمد بن إدريس التميمى الحنظلى، أبو محمد االرازى.

ولد سنة أربعين ومائتين، أو إحدى وأربعين.

قرأ القرآن على الفضل بن شاذان الرازى.

وسمع من: أبيه، ويونس بن عبد الأعلى، والحسن بن عرفة، وأبى سعيد الأشجّ، وأبى زرعة، والربيع بن سليمان المؤذن، وحجاج بن الشاعر، وأحمد بن سنان القطان، وغيرهم بالحجاز والشام ومصر والعراق والجزيرة.

حدَّث عنه: أبو الشيخ، وعلى بن محمد القصار، وعبد الله بن محمد بن أسد، وابن عدى، وأبو أحمد الحاكم، وآخرون.

وكان من كبار الحفاظ، فقيهًا، مفسرًا، عارفًا بالرجال، صنف فى الفقه، وفى اختلاف الصحابة والتابعين وعلماء الامصار.

من مصنفاته: الجرح والتعديل، التفسير المسند، وهو ما نحن بصدده، الرد على الجهمية، علل الحديث، آداب الشافعى ومناقبه، الزهد، مناقب أحمد، وبيان خطأ أبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى فى تاريخه، وغيرها.

توفى بالرى سنة سبع وعشرين وثلاثمائة.

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

وهذا التفسير - إلى يومنا هذا - لم يعثر عليه كاملا، وقد طُبع ملفقًا بين ما عُثر عليه من أصله وما ضُم إليه من نقولات منسوبة لابن أبى حاتم فى كتب التفسير التى نقلت عنه كابن كثير، والدر المنثور.

---

(١) مصادر الترجمة: طبقات الحنابلة (٢/ ٥٥)، الكامل فى التاريخ (٨/ ٣٨٥)، مختصر تاريخ دمشق (١٥/ ١٩ برقم ١٤)، تاريخ الإسلام (حوادث ٣٢١ - ٣٣٠) ٢٠٦ برقم ٣٣٢، سير أعلام النبلاء (١٣/ ٣٦٣ برقم ١٢٩)، العبر (٢/ ٢٧)، تذكرة الحفاظ (٣/ ٨٢٩ برقم ٨١١)، ميزان الاعتدال (٢/ ٥٨٧ برقم ٤٩٦٥)، طبقات المفسرين للداودى (١/ ٢٥٨ برقم ٢٦٤).

والطبعة التى بين يدى هى طبعة نزار الباز (١٤١٩هـ).

وتفسير ابن أبى حاتم يُعد خير مثال للتفسير بالمأثور، مما حدا بكثير ممن جاء بعده أن يقتبس منه ويستفيد، كالبغوى وابن كثير، والسيوطى الذى قال فى الدر المنثور: «لخصت تفسير ابن أبى حاتم فى كتابى».

وإن المطالع لمقدمة المؤلف لكتابه هذا، يجده قد أبان عن منهجه فى كتابه أحسن إبانة، ويمكننا أن نلخص منهجه فيما يلى:

١- جمع ابن أبى حاتم فى كتابه ما صح ـ عنده ـ من تفسير للقرآن بالسنة وآثار الصحابة والتابعين، وتابعى التابعين، وتابعى أتباع التابعين.

٢- إذا وجد التفسير عن رسول الله ﷺ فإنه لا يذكر معه شيئًا مما ورد عن الصحابة فى تفسير الآية.

٣- فإن لم يجد التفسير عن الرسول ﷺ ووجده مرويًا عن الصحابة وقد اتفقوا على هذا الوجه من التأويل؛ فإنه يذكر أعلاهم درجة بأصح الأسانيد، ثم يسمى من وافقهم بغير إسناد، وإن كان ثَمَّ اختلاف فى التفسير ذكر الخلاف بالأسانيد، وسمى من وافقهم وحذف إسناده.

٤- فإن لم يجد التفسير عن الصحابة ووجده عن التابعين، تصرف مثلما تصرف فى تفسير الصحابة.

هذا . . وقد انفرد الكتاب بمرويات ليست فى غيره، كما حفظ لنا كثيرًا من التفاسير المفقودة، مثل: تفسير سعيد بن جبير ومقاتل بن حيان وغيرهما.

الإسرائيليات والواهيات فى تفسير ابن أبى حاتم:

ومن يقرأ تفسير ابن أبى حاتم يجد أنه حوى بين دفتيه إلى جوار الصحيح والحسن العديد من الأخبار الواهية والضعيفة، والكثير من الإسرائيليات، مثال ذلك ما ذكره عند تفسير قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ (البقرة: ٣٠) حيث قال: «سمع أبا جعفر محمد بن على يقول: السجل: ملك، وكان هاروت وماروت من أعوانه، وكان له فى كل يوم ثلاث لمحات فى أم الكتاب، فنظر نظرة لم تكن له، فأبصر فيها خلق آدم وما كان فيه من الأمور، فأسرَّ إلى هاروت وماروت ـ وكانا فى أعوانه ـ فلما قال

تعـالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ (البقرة: ٣٠) قال ذلك استطالة على الملائكة».

قلـت: قال ابن كثير - معقبًـا على ذلك: «وهذا أثر غريب وبتقدير صحته إلى أبى جعفر محـمد بن على بن الحسين الباقر فهـو نقله عن أهل الكتاب، وفيه نكارة توجب رده».

وأغرب منه ما رواه ابن أبى حاتم أيضًا حيث قال: «حدثنا أبى حدثنا هشام بن أبى عبيـد الله حدثنا عبد الله بن يحيى بن أبى كـثير قال: سمـعت أبى يقول: إن الملائكة الذين قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ كانوا عـشرة آلاف، فـخرجت نار من عند الله فـأحرقتـهم» وهذا أيضًا إسـرائيلى منكر كالذى قبله.

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ (البـقرة: ١٠٢) قال ابن أبى حاتم: «حدثنا أبى، ثنا عبـد الله بن جعفر الرقى، ثنا عبيـد الله - يعنى ابن عمر - عن زيد بن أبى أنيسة، عن المنهـال بن عمرو، ويونس بن خباب، عن مـجاهد، قال: كنت نازلا على عبد الله بن عمر فى سفر، فلمـا كان ذات ليلة، قال لغلامه: انظر طلعت الحمراء لا مرحبًا بها ولا أهلا ولا حياها الله، هى صاحبة الملكين، قالت الملائكة: رب كيف تدع عـصاة بنى آدم وهم يسـفكون الدم الحرام، وينتـهكون محـارمك، ويفسـدون فى الأرض؟ قال: إنى قد ابتليتهم، فلعلى إن ابتليتكـم بمثل الذى ابتليتهم به فعلتم كالذى يفعلون، قالوا: لا، قال: فاختاروا من خياركم اثنين، فاختاروا هاروت وماروت، فقال لهمـا: إنى مهبطكما إلى الأرض وعـاهد إليكما أن لا تشركا، ولا تزنيـا، ولا تخونا، فأهـبطا إلى الأرض، وألقى عليهـما الشبق، وأهبطت لهمـا الزهرة فى أحسـن صورة امرأة، فتعرضت لهما، فأراداهـا على نفسها، فقالت: إنى على دين لا يصلح لأحد أن يأتينى إلا من كان على مثله، قالا: وما دينك؟ قالت: الـمجوسية، قالا: الشرك، هذا شىء لا نقر به، فمكـثت عنهما ما شاء الله، ثم تعـرضت لهما، فأراداها عن نفـسها، فقالـت: ما شئتـما، غير أن لى زوجًـا وأنا أكره أن يطلع على هذا منى فأفتـضح، فإن أقررتمـا لى بدينى، وشرطتمـا لى أن تصعدا بـى إلى السماء فـعلت، فأقرا لهـا بدينها

وأتياها فيما يريان، ثم صعدا بها إلى السماء، فلما انتهيا بها إلى السماء اختُطفت منهما، وقُطعت أجنحتها، فوقعا خائفين نادمين يبكيان، وفى الأرض نبى يدعو بين الجمعتين، فإذا كان يوم الجمعة أجيب، فقالا: لو أتينا فلانًا فسألناه يطلب لنا التوبة، فقال: رحمكما الله، كيف يطلب أهل الأرض لأهل السماء؟! قالا: إنا قد ابتُلينا، قال: ائتيانى فى يوم الجمعة، فأتياه، فقال: ما أُجبت فيكما بشىء، ائتيانى فى الجمعة الثانية، فأتياه، فقال: اختارا فقد خُيرتما، إن أحببتما معاقبة الدنيا وعذاب الآخرة، وإن أحببتما فعذاب الدنيا وأنتما يوم القيامة على حكم الله، فقال أحدهما: الدنيا لم يمض منها إلا قليل، وقال الآخر: ويحك، إنى قد أطعتك فى الأمر الأول فأطعنى الآن، إن عذابًا يفنى ليس كعذاب يبقى، وإننا يوم القيامة على حكم الله، فأخاف أن يعذبنا، قال: لا، إنى لأرجو إن علم الله أنّا قد اخترنا عذاب الدنيا مخافة عذاب الآخرة أن لا يجمعهما علينا، قال: فاختاروا عذاب الدنيا، فجُعلا فى بكرات من حديد فى قليب مملوءة من نار عاليهما سافلهما».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ (آل عمران: ٢٩) قال ابن أبى حاتم: «حدثنا أبو جعفر محمد بن غالب البغدادى، حدثنى سعيد بن سليمان، حدثنا عباد - يعنى ابن العوام - عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب، عن ابن العاص - لا يدرى عبد الله أو عمرو - عن النبى ﷺ فى قوله: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ قال: ثم تناول شيئًا من الأرض، فقال: «كان ذكره مثل هذا».

وقال ابن أبى حاتم - أيضًا: «حدثنا أبى، حدثنا عيسى بن حماد ومحمد بن سلمة المرادى قالا: حدثنا حجاج بن سليمان المقرى عن الليث بن سعد عن محمد بن عجلان عن القعقاع، عن أبى صالح، عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: «كل ابن آدم يلقى الله بذنب يعذبه عليه إن شاء أو يرحمه، إلا يحيى بن زكريا فإنه كان سيدًا وحصورًا ونبيًّا من الصالحين» ثم أهوى النبى ﷺ إلى قذاة من الأرض، فأخذها وقال: «وكان ذكره مثل هذه القذاة».

قلت: قال القاضى عياض فى «الشفاء»: «اعلم أن ثناء الله تعالى على يحيى أنه كان حصورًا، ليس كما قاله بعضهم: إنه كان هيوبًا، أو لا ذكر له، بل قد أنكر هذا

حذاق المفسرين، ونقاد العلماء، وقالوا: هذه نقيصة وعيب، ولا تليق بالأنبياء، عليهم السلام، وإنما معناه أنه معصوم من الذنوب، أى لا يأتيها كأنه حُصر عنها. وقيل: مانعًا نفسه من الشهوات. وقيل: ليست له شهوة فى النساء، وقد بان لك من هذا أن عدم القدرة على النكاح نقص، وإنما الفضل فى كونها موجودة، ثم يمنعها، إما بمجاهدة كعيسى، أو بكفاية من الله ـ عز وجل ـ كيحيى عليه السلام، ثم هى فى حق من قدر عليها، وقام بالواجب فيها، ولم تشغله عن ربه درجة عليا، وهى درجة نبينا ﷺ الذى لم يشغله كثرتهن عن عبادة ربه، بل زاده ذلك عبادة بتحصينهن وقيامه عليهن وإكسابه لهن وهدايته إياهن، بل قد صرح أنها ليست من حظوظ دنياه هو، وإن كانت من حظوظ دنيا غيره، فقال: «حُبِّبَ إلىَّ من دنياكم ثلاث . . .».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ (البقرة: ٦٩) قال: «من لبس نعالا صفراء لم يزل فى سرور ما دام لابسها» وسكت عنه، مع أنه قال فى الجرح والتعديل (٩/ ٣٢٥): حديثٌ كذب موضوع.

وأخيرًا، فالكتاب فى مجمله عظيم الفائدة، ولعل الله يَمُنُّ بالعثور على نسخة كاملة منه، ويهيئ لها من علمائنا من ينقد ما فيه من الروايات نقدًا فاحصًا شاملا حتى يتبين جيدها من رديئها، وقد يسر ابن أبى حاتم هذه المهمة لمن يتصدون لها، وذلك بذكره لأسانيد مروياته فى تفسيره.



الباب الثاني

كتب التفسير بالرأى عند أهل السنة

١- تفسير ابن أبى زمنين.

٢- تفسير المهدوى.

٣- تفسير السمعانى.

٤- تفسير الماوردى.

٥- تفسير ابن الجوزى.

٦- تفسير ابن عرفة.

١- تفسير ابن أبى زمنين

التعريف بصاحب هذا التفسير[١]:

هو: محمد بن عبد الله بن عيسى بن محمد المُرِّى، أبو عبد الله الأندلسى الإلبيرى، المعروف بابن أبى زَمَنين - بفتح الميم وكسر النون - المالكى.

ولد فى أول سنة أربع وعشرين وثلاثمائة.

تفقه بإسحاق الطليطلى.

وسمع من: محمد بن معاوية الأموى، وأحمد بن مطرف، وأحمد بن الشامة، وأبان بن عيسى بن محمد، وغيرهم.

روى عنه: أبو عمرو الدانى، وأبو عمر بن الحذاء، وهشام بن سوار، والقاضى يونس، وآخرون.

وتفقه به أهل بلده وغيرهم.

وكان متفننًا بالأدب والشعر والمواعظ والأخبار، ومُجانبًا للأمراء.

اختصر «المدونة»، وصنف كتبًا، منها: منتخب الأحكام، الوثائق، حياة القلوب، أدب الإسلام، أصول السنة، المواعظ، منتخب الدعاء، ومختصر تفسير يحيى بن سلام، وهو ما نحن بصدده، وغيرها.

ومن شعره فى المواعظ:

الموت فى كل حين ينشر الكفنا ... ونحن فى غفلة عما يُراد بنا

لا تطمئن إلى الدنيا وزخرفها ... وإن توشَّحت من أثوابها الحسنا

أين الأحبة والجيران؟ ما فعلوا؟ ... أين الذين هم كانوا لنا سكنا؟

سقاهم الدهر كأسًا غير صافية ... فصيرتهم لأطباق الثرى رُهُنا

توفى فى ربيع الآخر سنة تسع وتسعين وثلاثمائة.

---

(١) مصادر الترجمة: جذوة المقتبس (١/ ١٠٠ برقم ٥٧)، ترتيب المدارك (٤/ ٦٧٢)، بغية الملتمس (١/ ١١٩ برقم ١٦١)، سير أعلام النبلاء (١٧/ ١٨٨ برقم ١٠٩)، الوافى بالوفيات (٣/ ٣٢١ برقم ١٣٧٤)، الديباج المذهب (٢/ ٢٣٢)، طبقات المفسرين للداودى (٢/ ١٦٥)، شذرات الذهب (٣/ ١٥٦)، معجم المؤلفين (١٠/ ٢٢٩).

التعريف بهذا التفسير:

وهذا التفسير مختصر لتفسير الإمام يحيى بن سلام، وطُبع مؤخرًا فى مجلدين صغيرين، والطبعة التى تحت يدى هى طبعة دار الكتب العلمية (١٤٢٤هـ).

السبب الدافع إلى اختصاره لتفسير يحيى بن سلام:

ويقول ابن أبى زمنين فى مقدمة كتابه، مبينًا سبب اختصاره لتفسير يحيى بن سلام: «وبعد، فإنى قرأت كتاب يحيى بن سلام فى تفسير القرآن، فوجدت فيه تكرارًا كثيرًا، وأحاديث ذكرها يقوم علم التفسير دونها، فطال بذلك الكتاب، وإنه للذى خبرته من قلة نشاط أكثر الطالبين للعلوم فى زماننا هذا، إلا إلى ما يخف فى هذا الكتاب على الدارس، ويقرب للمقيد، نظرت فيه، فاختصرت فيه مُكرره، وبعض أحاديثه».

منهجه فى التفسير:

أما بالنسبة إلى منهجه فى كتابه فقد حدده فى خطبة الكتاب بقوله: «وزدت فيه من غير كتاب يحيى تفسير ما لم يفسره يحيى، وأتبعت ذلك إعرابًا كثيرًا ولغة، على ما نقل عن النحويين، وأصحاب اللغة السالكين لمناهج الفقهاء فى التأويل، زائدًا على الذى ذكره يحيى من ذلك».

وقد مُيزت زيادات ابن أبى زمنين على تفسير يحيى بن سلام بأن أولها: «قال محمد»: يعنى ابن أبى زمنين. أما تفسير يحيى بن سلام فمذكور كذلك فى أوله إما: «قال يحيى» أو «يحيى».

وقد نصَّ الإمام ابن الجزرى ـ رحمه الله ـ على أن هذا الكتاب، يعنى ـ تفسير يحيى بن سلام ـ سُمع من مؤلفه بأفريقية، وشهد بأنه كتاب «ليس لأحد من المتقدمين مثله».

وكذلك نقل عن إمام القراءات أبى عمرو الدانى أنه قال: «ليس لأحد من المتقدمين مثل تفسير ابن سلام».

وقد طُبعت ستة أجزاء من تفسير يحيى بن سلام البصرى فى الجزائر بتحقيق عدة باحثين، ولم ينشر هذا التفسير كاملاً إلى اليوم.

وهذه المكانة لتفسير يحيى بن سلام دفعت العلماء كالماوردى والقرطبى،

إلى النقل عنه كالماوردى، وكذلك الاشتغال به وتدريسه واختصاره، وممن اختصره:

١- ابن أبى زمنين، وهو ما نحن بصدد دراسته.

٢- أبو المطرف القنازعى، عبد الرحمن بن مروان، (ت ٣١٤هـ)، وتفسيره مفقود.

٣- وهود بن مُحَكِّم الإباضى، وسيأتى الكلام عليه عند الحديث على تفاسير الإباضية.

قال ابن أبى زمنين فى مقدمة كتابه نقلا عن يحيى بن سلام: «ولا يعرف تفسير القرآن إلا من عرف اثنتى عشرة خصلة: المكى والمدنى، والناسخ والمنسوخ، والتقديم والتأخير، والمقطوع والموصول، والخاص والعام، والإضمار، والعربية».

وتفسير الإمام يحيى بن سلام (ت: ٢٠٠هـ) من التفاسير الأثرية حيث يعنى برواية الأحاديث والآثار المتعلقة بتفسير القرآن، ثم يُعقب ذلك بالنقد والاختيار، ويجعل مبنى اختياره على المعنى اللغوى، والتخريج الإعرابى، ويتدرج من اختيار المعنى إلى اختيار القراءة التى تتماشى وإياه، مشيرًا إلى اختياراته فى القراءة بما يقتضى أن له رواية أو طريقًا.

ويتعرض ابن أبى زمنين فى تفسيره لأسماء السور، والمكى والمدنى، ويُعنى بأسباب النزول وبعض حوادث السيرة، وغالبًا ما ينقل فى ذلك عن الكلبى. ولا يخلو تفسيره من بعض الإسرائيليات المروية عن الكلبى، دون أن يتعقبها أو يفندها.

وابن أبى زمنين نادرًا ما يذكر الأحاديث الواردة فى فضائل الآيات والسور، ومثال ذلك ما أورده فى فضل الآيتين فى ختام سورة البقرة.

كما أنه مُقِلٌّ فى استشهاده بالشعر، حتى إنه ليمر عشرات الصفحات دون أن يذكر فيها شاهدًا شعريًا.

والتفسير يسير من بدئه إلى منتهاه على نسق واحد لا يعدوه فيمزج المصنف بين الآيات وتفسيرها، عن طريق تقطيع الآية إلى أجزاء ثم يعقب كل جزء تفسيره، وقد يكون هذا الجزء المقتطع كلمة أو أكثر، حتى تخال الكلام واحدًا، ممزوجة فيه الآيات

بتفسيرها، وأحيانًا يفصل بين الألفاظ القرآنية وتفسيرها بقوله: «يعنى» أو «أى»، ويتخلل ذلك بيان أقوال المفسرين من الصحابة أو التابعين، ثم يتعرض للمعانى المعجمية، وما ورد من لغات للفظ المفسر، مصحوبة ببيان المفرد والجمع، أو المذكر والمؤنث.

ثم يفضّ ابن أبى زمنين إشكالا نحويًا قد يقع للبس أو غموض، فيقوم ببيان الوجه الإعرابى، وعلاقة هذا الوجه بمعناه الدلالى المتفق وتفسير الآية.

كل ذلك مصحوبًا بوجوه القراءات القرآنية المختلفة، مع توجيه كل قراءة نحويًا ودلاليًا لبيان المعنى.

وقد يجود بعض القراءات، مثال ذلك ما قاله فى قوله تعالى: ﴿**وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ**﴾ (البقرة: ٨٨) حيث قال: «تُقرأ على وجهين: «غُلْفٌ»، «غُلُفٌ»، وأجود القراءتين: «غُلْفٌ»، بتسكين اللام».

وقد تكون هذه القراءات للصحابة، والتابعين، أو تكون قراءة سبعية أو عشرية.

وهو لا يستطرد فى بيان الوجوه النحوية أو وجوه القراءات إلا فى القليل، مع عناية تامة بتوجيه القراءات.

ويُعقب المصنف ذلك ببيان الأحاديث والآثار التى وردت بشأن هذه الآية، مع الكلام على الناسخ والمنسوخ، والمدنى والمكى، وأسباب النزول، وغير ذلك من مباحث علوم القرآن.

وقد أكثر ابن أبى زمنين من الإحالة على السابق، مخافة التكرار.

موقفه من المسائل الفقهية:

السمة العامة لتفسير ابن أبى زمنين هى الإيجاز مع الإقلال من الخوض فى اختلافات الفقهاء فى بعض الأحكام، مع إحالتها إلى كتب الأحكام، مثال ذلك فى تفسير قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ...**﴾ (النساء: ١٠٢) حيث قال: «ذكر يحيى ونقل فيها

اختلاف الفقهاء، فاختصرت ذلك إذ له موضعه من كتب الفقه سُنة صلاة الخوف، ونقل فيها اختلاف الفقهاء، وقال: «فاختصرت ذلك إذ له موضعه من كتب الفقه».

وقال فى آخر تفسير سورة النساء: «ذكر يحيى فى هذه السورة مسائل من الفرائض فاختصرت كثيرًا منها؛ إذ للفرائض بأسرها مواضعها من كتب الفقه».

موقفه من الحديث النبوى الشريف:

من الملاحظ أن الأحاديث والآثار التى رواها ابن أبى زمنين هى عن يحيى بن سلام بإسناده، وإيراد هذه الأحاديث والآثار بأسانيدها، له فائدة عظيمة فى معرفه أسانيدها تلك الأحاديث والآثار والحكم عليها، وفى كثير من هذه الأحاديث والآثار غرائب مما يزيد فى قيمة الكتاب عند طلبة الحديث النبوى، ويكفى أن تعرف أن بعض أحاديث هذا التفسير لم يقف عليها جمع من كبار الحفاظ؛ أمثال: الحافظ زين الدين العراقى فى تخريجه لإحياء علوم الدين، والحافظ جمال الدين الزيلعى فى تخريجه لأحاديث الكشاف، والحافظ شهاب الدين بن حجر فى: «الكاف الشاف فى تخريج أحاديث الكشاف»، وغيرهم، كما صرحوا فى بعض هذه الأحاديث بذلك.

من كل ما ذكرنا ندرك قيمة هذا التفسير؛ فهو ليس مجرد اختصار لتفسير يحيى بن سلام فحسب، بل أضحى هذا التفسير مستقلا عن تفسير يحيى بن سلام؛ بكثرة ما أضافه إليه.



٢- التحصيل لفوائد كتاب التفصيل الجامع لعلوم التنزيل

للإمام المهدوى

التعريف بصاحب التفسير(١):

هو العباس أحمد بن عمار بن أبى العباس المهدوى، ولد بالمهدية من بلاد القيروان، أستاذ مشهور، رحل وقرأ على: محمد بن سفيان، وعلى جده لأمه: مهدى ابن إبراهيم، وأبى الحسن أحمد بن محمد القنطرى بمكة.

له من المؤلفات: الهداية فى القراءات السبع، والتفصيل فى التفسير، والتحصيل، وهو ما نحن بصدد دراسته.

توفى بعد الثلاثين وأربعمائة، رحمه الله تعالى.

التعريف بهذا التفسير:

وهذا التفسير لم يطبع بعد، ومنه عدة نسخ خطية فى مكتبات كثيرة، ومنها نسخة فى دار الكتب المصرية، وأخرى فى الدار أيضًا مصورة عن نسخة برلين بألمانيا، وقد اطلعت على أجزاء كبيرة منهما.

وقد حقق الكتاب الدكتور أحمد القرشى، المدرس بجامعة الأزهر، وذلك فى أطروحته المقدمة لنيل درجة الدكتوراة فى كلية أصول الدين، جامعة الأزهر، وقد استفدت منها كثيرًا فى بحثى هذا.

وقد مدح هذا التفسير ونقل عنه الأئمة، وضَمَّنه الإمام الديرينى منظومته المسماة بـ «التيسير فى التفسير» ومدحه مع غيره من أئمة التفسير بقوله:

والمهدوى البحر ذى الفضل الجلى
والدامغانى والقشيرى الولى

---

(١) مصادر الترجمة: إنباه الرواة (١/ ٩٩)، طبقات القراء لابن الجزرى (١/ ٩٢)، طبقات النحاة لابن قاضى شهبة (١/ ٢٢٧)، طبقات المفسرين للداوودى (رقم ٥١/ ص٤٤).

السبب الداعى لهذا التأليف:

وقد سـجل المهدوى فى مـقدمة كـتابه السبب الداعى لهـذا التأليف فقـال: «أمر المـوفق، أطال الله بقاءه للعلوم يرفـعهـا، وللمعـانى يجمـعهـا، وللمكارم يصنعـها، ولعصابة الأدب يذب عنهـا ويمنعها، باختصـار كتاب «التفصـيل الجامع لعلوم التنزيل» المؤلف لخزانته العالية، أدام الله فيها ـ بدوام أيامه ـ النعم المتوالية، بعد حصوله لديه، ووقوفه عليه، ليكون هذا الاختصار قريب المتناول، لمن أراد التذكار، كما كان الجامع خزانة جامعة لمن أراد المطالعة، فبـادرتُ إلى امتثال أمره، ولم أقصر، وأهطعت إليه، ولم أعذر».

منهج المهدوى فى تفسيره:

وقد أوضح المهـدوى منهجه الذى سار عليه فى تفـسيره، وذلك فى مقدمـة كتابه حيث قال: «وأنا مـبتدئ ـ إن شاء الله ـ فى نظم هذا المختـصر الصغير، ومجـتهد أن أجمع فيه أغراض الجامع الكبيـر، من الأحكام المجملة، والآيات المنسوخة وأحكامها المهملة، والقراءات المعهودة المستعملة، والتفسير، والغريب، والمشكل، والإعراب، والمـواعظ، والأمثـال، والآداب، وما تعلق بذلك من سـائر علوم التنزيل المـحتـملة للتأويل.

ويكـون المحـذوف من الأصـل ما أنا ذاكره فى هذا الفصل: فأحذف من الأحكام ـ التى هى أصول الحلال والحرام ـ أكثر تفريع المـسائل المنثورة، مما ليس بمنصوص فى السـورة، وأقتـصـر من ذكر الاخـتـلاف على الأقوال المـشـهورة، وأذكـر الناسخ والمنسـوخ بكمـاله، وأورده مخـتـصـرًا على أتم أحـواله، وأذكـر القراءات السـبع فى الروايات التى اقتصر عليها أهل الأمصـار، سوى من لم يبلغ مبلغهم فى الاشتهار، إلا ما لا اخـتلاف فيه بـين السبعة القـراء، فإنى أذكره منسـوبًا إلى بعض من روى عنه من القرأة، ليعرف من هذا الاخـتصار ما هو من القراءات المروية، مـما لم يقرأ به قارئ، وإن كان جائزًا فى العربية.

وأذكر من مسائل الإعراب الخـفية ما يحتاج إليه، مما اخـتلف القراء فيه، أو كان جائزًا فى المقاييس العقلية، فإذا كـملت السور، وأتيت على آخرها من هذا المختصر،

جمعت فى آخره أصول القراءات، واختصار التعليل فيها، وأصول مواقف القراءة ومبادئها، وذكر السور، وعدد آيها، ليجمع ـ بعون الله وتوفيقه ـ هذا الاختصار ما لم تجمعه الدواوين الكبار، ولتكون أغراض الجامع مضمنة فيه، ومجملة فى معانيه.

وأجعل ترتيب السور مفصلاً؛ ليكون أقرب متناولاً، فأقول: القول من أول سورة كذا إلى موضع كذا منها، فأجمع من آيها عشرين آية أو نحوها، بقدر طول الآى وقصرها، ثم أقول: الإحكام والنسخ، فأذكرهما، ثم أقول: التفسير، فأذكره، ثم أقول: القراءات، فأذكرها، ثم أقول: الإعراب، فأذكره، ثم أذكر الجزء الذى يليه، حتى آتى ـ إن شاء الله تعالى ـ إلى آخر الكتاب على ما شرطته فيه، وأذكر فى آخر كل سورة موضع نزولها، واختلاف أهل الأمصار فى عددها، وأستغنى عن تسمية رءوس آيها».

موقفه من المكى والمدنى وعد الآى:

يُولى المهدوى ـ فى تفسيره ـ المكى والمدنى وعدّ الآى عناية خاصة، مثال ذلك قوله فى آخر سورة البقرة: «هذه السورة مدنية، وعددها فى الكوفى مائتان وست وثمانون، وفى البصرى سبع وثمانون، وفى بقية العدد خمس وثمانون، اختلافها إحدى عشرة آية».

وكذلك فى سورة الأنعام حيث قال: «هذه السورة مكية، وقد روى عن ابن عباس وغيره: ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة من قوله تعالى: ﴿أَتْلُ﴾ إلى قوله: ﴿تَتَّقُونَ﴾ (الأنعام: ١٥١ - ١٥٣)، ونزلت جميعها سواهن جملة بمكة؛ عددها فى المدنيين والمكى مائة آية وسبع وستون آية، وفى البصرى والشامى ست، وفى الكوفى خمس، اختلف فيها فى أربع آيات».

موقفه من أسباب النزول:

عُنى المهدوى فى تفسيره بذكر أسباب النزول، وتوسع فى ذكرها كثيرًا، مثال ذلك ما جاء عند تفسير قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا**﴾ (البقرة: ١٥٨) حيث ذكر المهدوى سبب نزول هذه الآيات فقال: «قالت عائشة ـ رضى الله عنها ـ لعروة بن الزبير وقد سألها عن الآية، وقال: ما أرى على

أحد شيئًا ألا يطوف بهما، فـقالت له: لا، ولو كان كذلك لكانت: فلا جناح عليه ألا يطوف بهـما، إنما أُنزلت فى الأنـصار، كانوا يُهلـون لمناة، وكانت مناة حـذو قديد، وكانوا يتحرجـون أن يطوفوا بين الصفا والمروة، فلما جـاء الإسلام سألوا النبى ﷺ عن ذلك، فنزلت الآية».

وأحيانا يذكر المهدوى سبب النزول فى معـرض كلامه على الأحكام الفقهية، مثال ذلك ما قاله عنـد قوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ** ﴾ (البقرة: ٢٣٢).

وربما أورد المـهـدوى فى سبب نزول الآيـة أكثر من رواية دون أن يرجح بـينها، مثال ذلك ما ذكـره عـند تفسير قـوله تعالى: ﴿ **وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ** ﴾ (الرعـد: ١٣) حيث ذكر أنهـا نزلت فى عامر بن طفيل وأربد بن قـيس حين أرادا الغدر بالنبى ﷺ، فأرسل الله على أربد صـاعقة فمـات، وأصاب عامر الطاعـون فى عنقه فمـات، وقيل: نزلت فى يهـودى قال للنبى ﷺ: أخبـرنى من أى شىء ربك؟ أمن لؤلؤ أو من ياقوت؟ فجاءت صاعقة فأحرقته، روى ذلك عن مجاهد وأنس.

المهدوى وتفسير القرآن بالقرآن:

وقد اعتدَّ المهدوى بهذا النوع من التفسـير اعتدادًا واضحًا، فنراه يستدل على معنى كلمة مـجملة بمـا فُصِّل فى مكان آخـر، مثال ذلك مـا ذكره فى تفسـير قـوله تعالى: ﴿ **فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ** ﴾ (البـقـرة: ٣٧) حيث نقل المـهدوى عن مجاهد والضحاك وابن جبير أن الكلمات هى ما جاء فى قوله تعالى: ﴿ **رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ (الأعراف: ٢٣).

ومن ذلك أيضًا، مـا جاء عند تفسير قـوله تعالى: ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ** ﴾ (سبأ: ١) حيث ذكر المهدوى أن الحمد فى الآخرة هو ما جاء فى قوله تعالى: ﴿ **وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ** ﴾ (الزمر: ٧٤) أو ما جاء فى قوله تعالى: ﴿ **وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ (يونس: ١٠).

كما يستدل المهدوى بالقرآن على تعدد المعانى للكلمة الواحدة، مثال ذلك ما جاء فى تفسير قوله تعالى: ﴿ **اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ** ﴾ (الفاتحة: ٦) حيث قال المهدوى:

«أى: أرشدنا ووفقنا، وأصل الهداية: الدلالة... وقد تأتى «هديت» بمعنى: بينت، نحو: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ (فصلت: ١٧) أى: فبيَّنا لهم، وبمعنى ألهمت، نحو: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ (الإنسان: ٣)، وبمعنى: دعوت، نحو: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ (الرعد: ٧)».

ومن ذلك أيضًا ما جاء عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: ٣٥) حيث قال المهدوى: «أصل الظلم: وضع الشىء فى غير موضعه، وقد يسمى به الشرك، كقوله: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ (الأنعام: ٨٢)، والجحد نحو: ﴿بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ (الأعراف: ٩)، والنقص، نحو: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (البقرة: ٥٧)».

وكذلك استدل المهدوى بالقرآن فى توجيه القراءات، مثال ذلك ما ذكره للأوجه الإعرابية المحتملة فى قوله تعالى: ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ (البقرة: ٨١) حيث قال: «من جمع فمعناه الكبائر الموبقة... ومن أفرد فلأن الخطيئة أضيفت إلى ضمير مفرد، فحسن إفراد المضاف إليه، والمراد الكثرة، ومثله: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾ (النحل: ١٨)».

كما استدل المهدوى بالقرآن على وجه إعرابى، كما جاء عند ذكره للأوجه الإعرابية المحتملة فى قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ (البقرة: ١٨٥) فمن الأوجه التى ذكرها قوله: «﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ مبتدأ، و ﴿الَّذِى أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ صفة له، والخبر ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ (البقرة: ١٨٥) وأعيد ذكر الشهر تعظيمًا له، كقوله تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ ۝١ مَا الْحَاقَّةُ﴾ (الحاقة: ١، ٢)».

كما استدل أيضًا بالآيات المخصصة للآيات التى فيها معنى العموم، ومن ذلك ما ذكره عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ (البقرة: ٤٨) الآية، حيث قال المهدوى: «هذا عام فى اللفظ خاص فى المعنى، خوطب به اليهود لأنهم زعموا أن آباءهم يشفعون لهم، ويبين ذلك قوله تعالى فى موضع آخر: ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى﴾ (الأنبياء: ٢٨)، وقوله: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ (المدثر: ٤٨)».

موقفه من تفسير القرآن بالسنة:

والمهدوى يعتمد الحديث فى تفسيره إلا أن منهجه فيه يقوم على حذف الأسانيد وإهمال التخريج، إضافة إلى عدم التزامه بالصحة فى بعض ما يورده، مثال ذلك ما جاء فى تفسير الصراط فى قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الفاتحة: ٦) حيث قال: «وروى عن النبى ﷺ أنه كتاب الله».

وكذلك ما جاء عند تفسير قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾ (الفاتحة: ٧) حيث قال المهدوى: «المغضوب عليهم اليهود، والضالون: النصارى، روى ذلك عن النبى ﷺ».

وكذلك تفسيره العدل فى قوله تعالى: ﴿وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ (البقرة: ٤٨)، بالفدية.

وكذلك تفسير الويل فى قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ (البقرة: ٧٩) بأنه واد فى جهنم.

وكذلك ما ذكره عند قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ (المؤمنون: ٦٠) حيث قال المهدوى: «هو الرجل يصلى ويصوم ويتصدق ويخاف أن لا يتقبل منه، روت ذلك عائشة عن النبى ﷺ».

كما استعان المهدوى بالحديث النبوى فى توجيه القراءات القرآنية، ومن ذلك ما ذكره عند توجيه قراءة الإفراد والجمع فى (الرياح)، من قوله تعالى: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾ (البقرة: ١٦٤) حيث ساق حديث «اللهم اجعلها رياحًا ولا تجعلها ريحًا» فى معرض توجيه قراءة من قرأ بجمع «الرياح» مع الرحمة، وإفرادها مع العذاب.

ومن ذلك أيضًا ما جاء فى توجيه القراءات الواردة فى (بئيس) من قوله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ (الأعراف: ١٦٥) حيث وجه المهدوى قراءة (بئس) بكسر الباء وسكون الهمز، فقال: «من قرأ «بئس» بالهمز، مثل «فعل» فأصله فعل استعمل اسمًا فصار وصفًا، كما قال النبى ﷺ: «إن الله ينهاكم عن قيل وقال ..»».

كما أفاد المهدوى من الحديث الشريف فى تخصيص ما جاء عامًا فى القرآن الكريم، ومن أمثلة ذلك ما ذكره عند حديثه عن الأحكام الفقهية فى قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ﴾ (البقرة: ١٧٣) حيث قال: «الميتة والدم ههنا عموم فى اللفظ، ومعناه الخصوص، لأن النبى ﷺ أحل ميتة البحر والجراد، بقوله ﷺ: «أحلت لى ميتتان: الحيتان، والجراد»».

كما استعان المهدوى بالأحاديث النبوية فى عرضه القضايا الفقهية ـ وما أكثرها فى تفسيره ـ فنراه يستدل على أن الأنبذة المحرمة ليست ما يتخذ من العنب فقط، بل ما يتخذ من العنب وغيره مما يُسكر كثيره، ويستدل على ذلك بما فى الصحيح عن النبى ﷺ «إن من العنب خمرًا، ومن الزبيب خمرًا، ومن البر خمرًا، ومن الشعير خمرًا، ومن العسل خمرًا، وأنا أنهاكم عن كل مسكر» ذكر المهدوى ذلك عند حديثه على الأحكام الفقهية فى قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ (البقرة: ٢١٩).

موقفه من تفسير القرآن بأقوال السلف:

ويلاحظ عناية المهدوى بإيراد الأقوال المختلفة المنسوبة للصحابة والتابعين فى التفسير، مثال ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ (الصافات: ٤٩) حيث قال: «قال ابن عباس: يعنى اللؤلؤ المكنون، وعن الحسن وابن يزيد: شُبهن ببيض النعام يكن تحت الريش من الريح والغبار. سعيد بن جبير والسدى: شُبهن ببطن البيض قبل أن يقشر وتمسه الأيدى».

وربما تعرض المهدوى إلى نقد بعض تلك الآثار والرد عليها، مثال ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ (البقرة: ٦٥) حيث رد على قول مجاهد فى تفسيره للمسخ قائلا: «إن مجاهدًا خالف جميع من سبقه من أهل التفسير عندما ذهب إلى القول بعدم المسخ المادى، وتأول ذلك بأن المراد هو المسخ لقلوبهم، وظاهر الآية يشير إلى المسخ بدون تأويل، وهذا ما يستفاد من تفسير ابن عباس الذى روى عنه أنهم مُسخوا قردة فأقاموا ثلاثة أيام ثم ماتوا».

موقفه من آيات الصفات:

والمهدوى يميل للتأويل فى باب الصفات، حيث قال فى تفسيره قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ (البقرة: ٢٩): «قيل معناه: أقبل عليها، وقيل: صعد أمره، وقيل:

قصد إلى خلقها: الإرادة، ولا يجوز أن يحـمل شىء مما جاء فى ذلك على انتقال ولا حركـة ولا زوال، وإنما يحمل ذلك على عـلو قدرته وأمره، ومـا يجوز أن يوصف به تعالى».

وعند تفسيـر قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ (ص: ٧٥) قـال المهـدوى: «اليدان صفة مـن صفات الله عز وجل، وقـيل: عبَّر باليـدين عن القدرة، وقيل: عـبَّر بهما عن القـوة، وقيل: ذُكرتا للتـأكيد على ما تـستعمله العـرب من نحو قولهم: هذا جنته يداك، فمعنى ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ على هذا: لما خلقته».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ (الصافات: ١٢) قال فى قراءة الضم: «ويجوز أن يكون إخبار الله تعالى عن نفسـه بالعجب محمولاً على أنه ظهر من أمره وسخطه على من كفر به ما يقوم مقام العـجب من المخلوقين، كما يجمل إخباره تعالى عن نفـسه بالضحك لمن رضى عـنه - على ما جاء فى الخـبر عن النبى ﷺ - على أنه أظهـر له من رضـاه عنه ما يقـوم له مـقام الضـحك من المـخلوقـين مجـازًا واتساعًا».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ (الأنعـام: ٣)، نقل المهـدوى عن الحسن البصرى قـوله: «اجتمع أربعة أمـلاك فقال أحدهم: جئت من الأرض السفلى، قالوا: فـأين تركت ربنا؟ قال: ثَمَّ، وقال أحدهم: جـئت من المشـرق، قـالوا: فأين تركت ربنا؟ قـال: ثَمَّ، وقـال أحدهم: جـئت من المغرب، قالوا: فأين تركت ربنا؟ قال: ثَمَّ».

ثم قال: «وهذا كله إنمـا يحمل على ما يجوز أن يوصف بـه البارى سبحانـه مما قدمناه فى أول الكتاب، لا على وجـه التحيز وشغل الأمكنة وغيـر ذلك مما يوصف به المخلوقون، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ﴾ (التوبة: ٦) قال المهدوى: «إضافة الكلام إلى الله - عز وجل - إضـافة صفة إلى موصوف على الحـقيقة، لأن ذاته تعالى غير متعرية من الكلام، وليست إضافة خلق إلى خالق، ولا ملك إلى مالك، ولا إضافة تشريف».

رؤية الله تعالى:

ذهب المهدوى إلى جواز رؤية الله تعالى فى الآخرة، وقد تناول هذه المسألة عند تفسير قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾ (الأنعام: ١٠٣) الآية، حيث قال: «ويدل على صحة جواز رؤية الله تعالى فى الآخرة، قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (القيامة: ٢٢، ٢٣) فدخول «إلى» دليل على أنه نظر العين، ولا معنى لقول من قال: إنه من الانتظار، وأن المعنى: ثواب ربها منتظرة؛ لأن العرب لا تقول: نظرت إليه بمعنى انتظرته، إنما تقول: نظرته وانتظرته، ولا يقولون أيضًا: انتظرت زيدًا بمعنى انتظرت عطاءه، أو نحوه، لما فى ذلك من تغيير المعانى، فإنما يضاف النظر إلى الوجوه، والانتظار إلى القلوب، وإنما أضيف النظر إلى الوجوه، والمراد العيون، لأنه فى الوجوه.

وكذلك قول من قال: إن «إلى» واحد الآلاء وليست بحرف جر، والتقدير عنده: نعمة ربها منتظرة، محال ظاهر الفساد؛ لأنه قد أخبر عن الوجوه بأن النعيم قد حل بها فى قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ فكيف يجوز أن يخبر عنها بأنها تنتظر ما قد حلت فيه، وهل يجوز أن تقول: أنا انتظرت زيدًا، وأنت معه؟!».

موقفه من الشفاعة:

اهتم المهدوى بمسألة الشفاعة وحللها، وذكر مفهومها اللغوى، وقرر مذهب أهل السنة والجماعة فيها، وذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾ (البقرة: ١٢٣) حيث قال ما نصه: «سُميت الشفاعة شفاعة لأن طالبها جاء بآخر معه يشفع، والشفع هو: الزوج، وهذا عام فى اللفظ خاص فى المعنى خوطب به اليهود لأنهم زعموا أن آباءهم يشفعون لهم، ويبين ذلك قوله تعالى فى موضع آخر: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ (الأنبياء: ٢٨)».

وأورد رأى من أنكر الشفاعة من المعتزلة، وبيَّن أن فى هذا ردًا للكتاب والسنة.

موقفه من مرتكب الكبائر:

كما نصر المهدوى مذهب أهل السنة والجماعة فى قضية مرتكب الكبيرة عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ (النساء: ٣١)

حيث قال: «أعلم الله تعالى أنه يُكَفِّر الصغائر باجتناب الكبائر، وروى ابن مسعود عن النبى ﷺ أنه قال فى الكبائر: «أن تدعو لله ندًا وقد خلقك، وأن تقتل ولدك من أجل أن يأكل معك، وأن تزنى بحليلة جارك» وتلا: ﴿ **وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ** ﴾ (الفرقان: ٦٨)».

وأورد ما ثبت عن ابن عباس وابن عمر، ثم ذكر حكم مرتكب الكبيرة عند أهل السنة فأوضح أنها تُغفر لمن أقلع عنها وتاب قبل الموت، وأساف أنها قد تُغفر لمن مات عليها من المسلمين مستدلا بقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ** ﴾ (النساء: ٤٨).

موقفه من اللغة:

يتضح من تفسير المهدوى إحاطة مؤلفه الواسعة بفنون اللغة وأساليبها واستعمالاتها، مع امتلاكه لقواعد اشتقاقها وتصريفها، ومعرفة غريبها، وقدرته البارعة على توجيه القراءات القرآنية، وحل مشكلات الإعراب الخفية.

ويتسم منهج المهدوى فى تناوله لشرح المفردات اللغوية باعتماده لأقوال علماء اللغة والنحو السابقين، وخاصة من عرف منهم بعنايته بالتفسير اللغوى للقرآن الكريم، أمثال سيبويه، والفراء، وأبى عبيدة، والأصمعى، والمبرد، وغيرهم.

يقول المهدوى فى تفسير قوله تعالى: ﴿ **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** ﴾ (الفاتحة: ١): «والأصل فى اسم الله الذى هو «الله» عند سيبويه (لاه) دخلت عليه الألف واللام للتعظيم لا للتعريف، ولسيبويه أيضًا قول آخر: أن أصله (إله) فحذفت الهمزة.. إلخ».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿ **وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا** ﴾ (النبأ: ٩) فسَّر المهدوى السبات بالراحة فقال: «يقال: سبتت المرأة شعرها: إذا حلَّته وأرسلته، وقيل: إن أصل السبات الانقطاع عن العمل من أجل الراحة، ومنه يوم السبت».

ومن المباحث اللغوية التى أولاها المهدوى اهتمامًا كبيرًا مبحث الاشتقاق، وهذه بعض النماذج التى توضح عناية المهدوى بهذا المبحث ومنهجه فيه:

* ما جاء فى معرض تفسير قوله تعالى: ﴿ **وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ** ﴾ (البقرة: ٣٠) حيث قال المهدوى: «نسبح بحمدك: ننزهك عن السوء ونبرؤك منه، وأصله من «السبح» الذى هو الجرى، فالمسبح جارٍ فى تنزيه الله تعالى وتبرئته من السوء».

* ما ذكره فى تفسير قوله تعالى: ﴿فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ (البقرة: ٥٣) حيث قال: «أى: إلى خالقكم، برأ الله الخلق يبرؤهم، وأصله من تبرى الشىء، وهو انفصاله منه، فالخلق قد فصلوا من العدم إلى الوجود».

وإذا كان هناك أكثر من رأى فى اشتقاق الكلمة، فإن المهدوى يذكره، ومن ذلك ما قاله فى اشتقاق لفظة (ملك) عند تفسير قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ (البقرة: ٣٠).

ومن الجوانب التى طرقها المهدوى وبرزت فى تفسيره (الاشتراك) فنجده يعنى بعرض المعانى الكثيرة فى اللفظ الواحد، من ذلك ما ذكره عند تفسير قوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ (الفاتحة: ٤) حيث قال المهدوى فى تفسير الدين: «والدين ـ ههنا ـ الجزاء، وفى الخبر عن النبى ﷺ: «يوم الدين: يوم الحساب» وقد يقع الدين للدأب والعادة، ويقع للانقياد والطاعة، ويقع للعادة».

وكذلك ما جاء عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ (البقرة: ٢٣٥) حيث قال: «والسر فى اللغة يكون على ثلاثة أوجه: الإخفاء فى النفس، والغشيان ـ أى: الجماع ـ والشرف فى الحسب، يقال: فلان من سر قومه، إذا كان من صميمهم».

موقفه من النحو:

برز الجانب النحوى فى تفسير المهدوى كأحد المعالم الرئيسية فى منهجه كوسيلة أساسية لفهم آيات القرآن الكريم، وللمهدوى فى معالجة الجانب النحوى سمات معينة، أهمها:

(أ) ممارسة الإعراب منفصلاً عن التفسير.

(ب) تناوله من مسائل الإعراب المسائل المشكلة والخفية، دون الواضحة الجلية، وقد صرح المهدوى بذلك فى مقدمة تفسيره حين قال: «وأذكر من مسائل الإعراب الخفية ما يحتاج إليه، مما اختلف القراء فيه، أو كان جائزًا فى المقاييس العقلية».

(جـ) التوسع فى إعراب الآيات، وذكر الأوجه الإعرابية المحتملة فيها، وحكاية أقوال العلماء من أئمة النحو، مثال ذلك ما جاء فى إعراب قوله تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ (البقرة: ١٠٢) فقد حشد المهدوى جميع ما قيل فى

عطـف ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ﴾ من آراء واحتمالات وأقوال، وأشبع فى ذلك القول، حتى قال «السمين الحلبى» بعـد نقله لما قـاله المهـدوى فى المسـألة المـذكورة: «وقد أمـعن المهدوى فيها فأمتع».

والمهـدوى يميل كـثيـرًا إلى المذهب البـصرى فى النحـو، ويقدمه علـى مذهب الكوفيين فى كثير من المواضع، ويُفصل فى عرض المذهب البصرى، ويُجمل أو يُشير سريعًا إلى المذهب الكوفى، مع كثرة اعتماده سيبويه وغيره من اعمدة مدرسة البصرة.

ومن النماذج الدالة على ما سبق يُنظر ما قـاله فى نصب «بعوضة» من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ (البقرة: ٢٦)، وكذلك ما قاله فى إعراب قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا﴾ (البقرة: ٤٨).

الصور البلاغية فى تفسير المهدوى:

عُنى المهدوى فى تفـسيره بالبلاغة القرآنية إلى حـد ما، ولكنه لم يتوسع فى ذلك إلى الحد الذى بلغه المشارقـة، كالزمخشرى وغيره، وفيمـا يلى بعض الصور البلاغية المتنوعة التى برزت فى تفسيره:

* **المجـاز العقلى:** وقد عرض له المهدوى فى مواضـع كثيرة، ومن ذلك ما جاء عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ﴾ (البقرة: ١٦) حيث أشار إلى أن إسناد الربح إلى التجارة هو من الإسـناد المجازى، فقال: «والعـرب تقول: ربح تجره، على الاتساع، والمعنى ربح فى تجره».

* **المشـاكلة:** وقد عرض لها المهدوى فى مـواطن كثيرة، ومن ذلك ما جاء عند تفسيـر قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ (البقرة: ١٥) حيث قـال: «أى يجازيهم على استهزائهم، والعرب تستعمل ذلك كثيرًا؛ يعنى تسمية العقوبة باسم الذنب، كما سمى جزاء السيئة سيئة».

* **الالتـفات:** وقد عرض له المهدوى فى صوره المتـعددة، مثال ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ (الفاتحة: ٥) حيث قال: «خروج من لفظ الغيبة إلى الخطاب، والعرب تستعمل ذلك».

موقفه من الشعر:

والمهدوى لا يكثر من الاستدلال بالشعر فى تفسيره، ومن مواضع استدلاله بالشعر ما جاء عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ﴾ (البقرة: ١٠٢) حيث نقل المهدوى ما قاله البعض من أن معنى ﴿يُعَلِّمَانِ﴾ يُعْلِمان، وساق على ذلك شاهدًا شعريًا لكعب بن زهير، هو:

تعلم رسول الله أنك مدركى وأن وعيدًا منك كالأخذ باليد

وأكثر استعانة المهدوى بالشعر كانت فى مجال الاحتجاج للقراءات، ومن ذلك ما جاء فى احتجاجه لقراءة إسكان الياء فى (بقى) من قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾ (البقرة: ٢٧٨) حيث استشهد بقول جرير:

هو الخليفة فارضوا ما رضى لكم ماضى العزيمة ما فى حكمه جنف

ويلاحظ فى استشهاد المهدوى بالشعر أنه أحيانًا يذكر أكثر من شاهد فى الموضع الواحد، ينظر مثلاً ما جاء عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ ...﴾ (البقرة: ٥٣) الآية.

والمهدوى فى استشهاده بالشعر لا يغفل - فى الأعم الأغلب - نسبة الشعر إلى قائله، مع توضيح الشاهد فى البيت، وربما اكتفى بشطر البيت الذى فيه الشاهد.

مثال ذلك ما ذكره فى قوله تعالى: ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ (الشورى: ٤٥) حيث قال: «وقيل: إن الطرف ههنا العين، والمعنى ينظرون من عين ضعيف النظر، والعرب تستعمل هذا فى القريب، ومنه قول الشاعر:

* فغض الطرف إنك من نمير *».

موقفه من القراءات:

ورغم كثرة تآليف المهدوى فى القراءات إلا أنه خصص لها بابًا فى «التحصيل»، وقال فى مقدمة كتابه: «وأذكر القراءات السبع فى الروايات التى اقتصر عليها أهل الأمصار، سوى من لم يبلغ مبلغهم فى الاشتهار، إلا ما لا اختلاف فيه بين السبعة

القراء، فإنى أذكره منسوبًا إلى بعض من رُوى عنه من القراء، ليعرف من هذا الاختصار ما هو من القراءات المروية مما لم يقرأ بها قارئ، وإن كان جائزًا فى العربية».

ويكاد القسم الخاص بالقراءات من تفسير المهدوى أن يشكل بمفرده كتابًا فى القراءات واختلاف أوجهها مما يستحق أن يضاف إلى كتبه الأخرى التى أفردها بالتأليف فى هذا الفن.

وجاء فى آخر كتابه قوله: «قد أتيت فى جميع سور القرآن على ما شرطته فى صدر الديوان، وأنا أذكر على أثر ذلك أصول القراءات، وأجمل منها ما بسطته فى الكبير».

وقد توسع المهدوى فى ذكر القراءات، المتواتر منها والشاذ، مع نسبة القراءة لمن قرأ بها من القراء، فإذا كانت القراءة سبعية فإنه يستوعب ذكر كل من قرأ بها من القراء السبعة، وأحيانًا يذكر من قرأ بها من بقية القراء العشرة، وإذا كانت القراءة عشرية أو شاذة فإنه يعزوها لمعظم من قرأ بها، ولا يغفل المهدوى ذكر بعض القراءات المسندة إلى بعض الصحابة - ﷺ - أمثال: عمر بن الخطاب، وعلى، ومعاذ بن جبل، وأبى ابن كعب، وغيرهم، ومن ذلك ما جاء عند قوله تعالى: ﴿وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ (البقرة: ٢١٩) حيث ذكر قراءة ابن مسعود: (أكثر) بالثاء، ومن ذلك أيضًا ما جاء عند قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ (البقرة: ١٨٤) حيث ذكر قراءة أم المؤمنين عائشة وابن عباس (يُطَوَّقونه) بضم الياء وتخفيف الطاء وواو مفتوحة مشددة.

وينتقد المهدوى بعض القراءات الشاذة لمخالفتها للمصحف، ومن ذلك قراءة أبى رجاء (عوهدوا) بالبناء للمفعول، ومن ذلك أيضا قراءة الحسن: (والملائكة والناس أجمعون).

ومن أهم أصول الاحتجاج فى القراءات عند المهدوى: الآيات القرآنية، مثال ذلك ما ذكره عند قراءة «ملك» و ﴿مَالِكِ﴾ فى قوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ (الفاتحة: ٤) احتج لقراءة «ملك» بقوله تعالى: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ (غافر: ١٦)، وبقوله: ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ (الناس: ٢)؛ واحتج لقراءة ﴿مَالِكِ﴾ بقوله تعالى: ﴿مَالِكَ الْمُلْكِ﴾ (آل عمران: ٢٦).

وكذلك ما جاء فى قوله تعالى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ (البقرة: ١٣٦) قرأ حمزة والكسائى: (تماسوهن) بألف وضم التاء من باب المفاعلة، وقرأ الباقون (تمسوهن) بفتح التاء بلا ألف، وقال المهدوى فى توجيه ﴿تَمَسُّوهُنَّ﴾: على إسناد الفعل إلى الرجل خاصة، كما قال: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ (آل عمران: ٤٧).

كما يُعنى المهدوى فى تفسيره بتوجيه القراءات، فمثلاً عند قوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ (الصافات: ١٢) قال: «من فتح التاء فهو على الخطاب للنبى ﷺ، ومن ضم، جاز أن يكون على معنى أن حالهم إذا تأملتموها كانت مما يقول القائل منكم: عجبتُ، ويجوز أن يكون على إضمار القول كأنه قال: قل يا محمد: عجبت، وإضمار القول كثير».

عنايته بالوقف والابتداء:

وللمهدوى فى تفسيره عناية بموضوع الوقوف فى القرآن، مثال ذلك ما ذكره فى قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا﴾ (الزخرف: ٥١، ٥٢) حيث قال: «إن الوقف على ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ وقال: «وروى عن عيسى الثقفى ويعقوب الحضرمى أنهما وقفا على (أم)، على أن يكون التقدير: أفلا تبصرون أم تبصرون؟، فحذف تبصرون الثانى، وقيل: من وقف على (أم) جعلها زائدة، وكأنه وقف على ﴿تُبْصِرُونَ﴾ من قوله: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾، ولا يتم الوقف على ﴿تُبْصِرُونَ﴾ عند الخليل وسيبويه لأن (أم) تقتضى الاتصال بما قبلها».

موقفه من المسائل الفقهية:

الاتجاه الفقهى أحد الأسس التى أقام المهدوى عليها تفسيره، فتناوله فى مباحث منفصلة عن التفسير، وتوسع فى ذكر الأحكام الفقهية، وجمع أقوال الصحابة والتابعين، وأقوال الأئمة المجتهدين، حتى لكأن «التحصيل» كتاب فقه مقارن.

والمهدوى عند تناوله لآيات الأحكام يفيض فى ذكر المسائل الفقهية المتعددة المرتبطة بالآية، فمثلا عند قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ (البقرة: ١٩٦) تكلم عن أعمال الحج، أعمال العمرة، ما يمتنع على المُحرِم (الرجل والمرأة)، حكم

الحج، حدود الاستطاعة، حكم العمرة، حكم فسخ الحج إلى العمرة، حكم الإحصار (الإحصار بالعدو، والإحصار بالمرض) ما يجب على المحصر فعله.

وعند تناوله للأحكام فى قوله تعالى: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾ (البقرة: ٢٨٢) تكلم عن: شهادة العبيد، شهادة الصبيان، شهادة ولد الزنا، شهادة القاذف إذا تاب، شهادة من أتى حدًا من الحدود، شهادة القدرية، شهادة الولد للوالدين، والوالدين للولد، شهادة أحد الزوجين للآخر، شهادة الأعمى، شهادة شاهد الزور، شهادة امرأتين مع الرجل، شهادة النساء فى الحدود، نقل الشهادة.

والمهدوى لا يصرح باختياره لأحد الآراء الفقهية، وهو المنهج الذى سار عليه فى تناوله لأغلب المسائل الخلافية، غير أنه يمكن ملاحظة ميله إلى مذهبه المالكى إذ كثيرًا ما يورد رأى مالك فى الصدارة، ثم يعقبه برأى الشافعى، ثم يذكر رأى أبى حنيفة.

موقف المهدوى من النسخ:

أولى المهدوى فى تفسيره قضية النسخ اهتمامًا كبيرًا، فقال فى مقدمة تفسيره: «وأذكر الناسخ والمنسوخ بكماله، وأورده مختصرًا على أتم أحواله».

وقد تكلم المهدوى باختصار عن معنى النسخ وأقسامه، عند تفسير قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ (البقرة: ١٠٦) ثم أحال القارئ إلى كتابه الكبير لزيادة البيان والتفصيل.

كما تناول المهدوى دعاوى النسخ مع المسائل الفقهية تحت عنوان (الإحكام والنسخ) وجمع بينهما، لما بينهما من ارتباط وثيق، وقد توسع المهدوى فى ذكر ما ورد عن الأئمة فى دعاوى النسخ، مع عزو أقوال النسخ لقائليها، وأدلى المهدوى بدلوه فى المناقشة والترجيح فيما أورده، ومن هذا القليل ما جاء عند قوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِى أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ (البقرة: ٢٨٤) حيث ذكر ما ورد عن السلف فى إحكام الآية ونسخها، ورجح الإحكام، ووجه ما ورد عن القائلين بالنسخ، فقال: «وأحسن ما يحمل هذا المذهب عليه أن تكون الآية إنما نسخت الشدة اللاحقة بأصحاب النبى ﷺ عند نزولها، من قولهم: نسخت الريح

الآثار، أى أزالتها، فكأن اللين فى الآية الأخرى أزال الشدة التى فى الأولى وحل محلها، فإن لم يحمل على هذا ففيه بعد؛ لأن الآية خبر، وإذا لم يكن فى الخبر معنى الأمر والنهى استحال نسخه».

ولا يجيز المهدوى نسخ القرآن بالسنة حيث قال عند تفسير قوله تعالى: ﴿آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا﴾ (آل عمران: ٤١): «قال بعض من يجيز نسخ القرآن بالسنة: إن زكريا - عليه السلام - مُنع الكلام وهو قادر، وإنه منسوخ بقول النبى ﷺ: «ولا صمات يوم إلى الليل»، وأكثر العلماء على أنه ليس بمنسوخ، وعلى أن زكريا إنما منع من الكلام بآفة دخلت عليه منعته من الكلام، وتلك الآفة عدم المقدرة على الكلام مع الصحة، كذلك قال المفسرون، وذهب كثير من العلماء إلى أن قوله ﷺ: «لا صمات يوم إلى الليل» إنما معناه عن ذكر الله، وأما عن الهذر وما لا فائدة فيه، فالصمت عن ذلك واجب».

كما لا يجيز المهدوى نسخ الأخبار ويرى أنه مستحيل، ولهذا فهو يرفض أن تكون آية النساء الواردة فى وعيد القاتل ناسخة للآية فى آخر فى سورة الفرقان المتضمنة حصول التوبة له.

موقفه من السيرة والتاريخ وذكر الغزوات:

يولى المهدوى فى تفسيره أحداث السيرة والغزوات عناية خاصة، مثال ذلك ما ذكره فى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ (الفتح: ١٨) حيث قال: «يعنى بيعة الرضوان التى كانت فى الحديبية، بايع المسلمون النبى ﷺ تحت شجرة على الموت، وكانوا ألفًا وستمائة، وقيل فيما زاد على الألف: إنه خمسمائة، وقيل: ثلاثمائة، وعن ابن عباس: ألف وخمسمائة وعشرون».

موقفه من الإسرائيليات:

لم يخل تفسير المهدوى من ذكر بعض الإسرائيليات، مثال ذلك ما ذكره فى قصة هاروت وماروت، وكذلك ما أورده فى تفسير السكينة فى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (البقرة: ٢٤٨).

موقفه من أحاديث فضائل السور:

والمهدوى يتعرض فى تفسيره لفضائل السور والآيات، ويورد فى الأعم الأغلب ما صح فيها من الأحاديث، مثال ذلك ما ذكره عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ (البقرة: ٢٨٥) حيث قال: «روى أن النبى ﷺ قال: كتب الله كتابًا قبل أن يخلق السموات والأرض بألف عام فأنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة، ولا تقرآن فى دار ثلاث ليال، فيقربها الشيطان».

وقال فى سورة الأنعام: «جاء فى الخبر أن سورة الأنعام نزل معها سبعون ألف ملك مع آية واحدة منها اثنا عشر ألف ملك وهى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾ (الأنعام: ٥٩) الآية، ونزلت سورة الأنعام جملة».

وأخيرًا ندعو الله تعالى أن يُعجِّل بخروج هذا التفسير إلى عالم النور، بعد أن ظل حبيسًا فى عالم المخطوطات.



٣- تفسير السمعانى

التعريف بصاحب هذا التفسير[١]:

هو: منصور بن محمد بن عبد الجبار بن أحمد التميمى السمعانى، أبو المظفر المروزى، الحنفى ثم الشافعى، وهو جد أبى سعد السمعانى صاحب «الأنساب».

ولد سنة ست وعشرين وأربعمائة.

وسمع بمرو: أباه، وأبا بكر محمد بن عبد الصمد الترابى، وأبا غانم أحمد بن على الكراعى، وببغداد من عبد الصمد بن مأمون، وبنيسابور من أبى صالح المؤذن، وبمكة من أبى القاسم سعد بن على الزنجانى، وغيرهم.

وأخذ فقه أبى حنيفة عن أبيه أبى منصور السمعانى.

وكان قد دخل بغداد فى سنة إحدى وستين وأربعمائة، وناظر أبا نصر الصباغ، واجتمع بأبى إسحاق الشيرازى، وهو إذ ذاك حنفى، ثم خرج إلى الحجاز، فجاور بمكة، ثم عاد إلى مرو فى سنة ثمان وستين، فأظهر الانتقال إلى مذهب الشافعى، فاضطرب أهل مرو، ووقعت فتنة، فخرج عن مرو، ونزل نيسابور، فعقد له مجلس التذكير، ثم عاد إلى مرو، ودرَّس بها فى مدرسة الشافعية، وقدَّمه نظام الملك على أقرانه.

وكان أبو المظفر أحد العلماء بالحديث، مفسرًا، مفتيًا.

حدث عنه: أبو نصر محمد بن يوسف القاشانى، والقاضى أبو القاسم الجنيد بن محمد بن على، والقاضى أبو البدر حسان بن كامل بن صخر، وأبو منصور محمود بن أحمد بن عبد المنعم، وابنه أبو بكر محمد بن منصور، وطائفة.

وكان شوكًا فى أعين المخالفين، كما قال عنه الذهبى.

---

(١) **مصادر الترجمة:** الأنساب للسمعانى (٣/ ٢٩٩)، المنتظم (٩/ ١٠٢)، اللباب (٢/ ١٣٨ - ١٣٩)، وفيات الأعيان (٣/ ٢١١)، سير أعلام النبلاء (١٩/ ١١٤ - ١١٩)، طبقات السبكى (٥/ ٣٣٥ - ٣٤٦)، طبقات المفسرين للداودى (٢/ ٣٢٩، ٣٤٠)، هداية العارفين (٢/ ٤٧٣)، كشف الظنون (١/ ٤٤٩).

وصنَّف كتبًا، منها: منهاج أهل السنة، القواطع فى أصول الفقه، البرهان، ويشتمل على قريب من ألف مسألة خلافية، الأحاديث الألف الحسان، الرد على القدرية، الطبقات، الاصطلام فى الرد على أبى زيد الدبوسى، الانتصار لأصحاب الحديث، والتفسير، وهو ما نحن بصدد دراسته.

توفى فى ربيع الأول سنة تسع وثمانين وأربعمائة.

التعريف بهذا التفسير:

وهذا التفسير طبع مؤخرًا فى دار الكتب العلمية، وفى دار الوطن بالرياض، ويقع فى ست مجلدات.

موقفه من المكى والمدنى وأسماء وفضائل السور:

يُعنَى السمعانى فى تفسيره بذكر المكى والمدنى، وأسماء السور، وذكر ما ورد فى فضلها من أحاديث، ومدار معظمها صحيح، مثال ذلك قوله عند تفسير سورة الأنعام: «اعلم أن سورة الأنعام مكية، روى يوسف بن مهران عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: سورة الأنعام نزلت جملة بمكة ليلة، معها سبعون ألف ملك يحدونها بالتسبيح، وقد رُوِى هذا مرفوعًا إلى النبى صلى الله عليه وسلم، وفى تمام الخبر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من قرأها فى ليلة استغفر له السبعون ألف ملك أولئك، ليله ونهاره إلى أن يصبح» وفى بعض الروايات: «أن تلك الملائكة كان لهم زجل بالتسبيح، وكانت الأرض ترتج، والنبى صلى الله عليه وسلم يقول: سبحان ربى العظيم حتى نزلت» وفى رواية الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس أنه قال: نزلت سورة الأنعام جملة بمكة إلا آيتين: قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا ...﴾ (الأنعام: ١٥١) الآية، وقوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ...﴾ (الأنعام: ٩١) الآية، وفى بعض الروايات: «إلا ثلاث آيات، من قوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا﴾ إلى آخر الآيات الثلاث، وعن عمر رضي الله عنه أنه قال: سورة الأنعام من نجائب القرآن، وعن علىٍّ رضي الله عنه أنه قال: من قرأ سورة الأنعام فقد انتهى فى رضا ربه».

وعند تفسير سورة براءة قال السمعانى: «اعلم أن هذه السورة مدنية، وقد صح عن النبى صلى الله عليه وسلم برواية البراء بن عازب: «أنها آخر سورة أُنزلت كاملة» ولها أسماء كثيرة.

وروى عن ابن عباس أنه سئل عن هذه السورة، فقال: هى الفاضحة، ما زال ينزل

قوله تعالى: ومنهم، ومنهم، حتى ظننا أنه لا يترك منا أحدًا، وقال حذيفة بن اليمان: هى سورة العذاب.

ومن المعروف أنها تسمى سورة البحوث، ومن أسمائها: المبعثرة، ومن أسمائها: المنيرة، ومن أسمائها: الحافرة، لأنها حفرت عن قلوب المنافقين، وروى النقاش عن ابن عمر أنها تسمى المقشقشة، وعن عمران بن حدير أنه قال: قرأت هذه السورة على أعرابى، فقال: هذه السورة أظنها آخر ما أنزلت، فقلت له: ولِمَ؟ فقال: أرى عهودًا تُنبذ، وعقودًا تُنقض».

موقفه من أسباب النزول:

عُنِىَ السمعانى فى تفسيره بذكر أسباب النزول، مثال ذلك ما جاء عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾ (النساء: ٩٣) حيث قال: «نزلت الآية فى مقيس بن ضبابة الليثى، أسلم وأخوه هشام، ثم وجد أخاه مقتولاً فى بنى النجار، فجاء إلى النبى ﷺ فى ذلك، فبعث معه رجلاً فهريًا إلى بنى النجار، وأمرهم أن يدفعوا إليه قاتل أخيه، أو يسلموا الدية، فجاءا إليهم، وبلَّغا الرسالة، فقالوا: سمعًا وطاعة لرسول الله، والله ما نعرف القاتل، وساقوا الدية إليه مائة من الإبل، فلما رجعا أقبل مقيس وقتل الفهرى، واستاق الإبل، ولحق بمكة وارتد، وقال الشعر:

قتلت به فهرًا وحملتُ عقله ... سراة بنى النجار أرباب فارعِ
فأدركت ثأرى واضطجعت موسرًا ... وكنت إلى الأوثان أول راجعِ

فنزلت الآية فيه، وهو الذى أمر النبى ﷺ بقتله، فجاء الجماعة الذين عيَّنهم للقتل يوم فتح مكة، فقُتِل وهو متعلق بأستار الكعبة».

موقفه من تفسير القرآن بالسنة وأقوال السلف:

والسمعانى يعتمد الحديث وأقوال الصحابة والتابعين فى تفسيره، مع حذف الأسانيد إلا فى مروياته عن البغوى، وقد يحيل الأحاديث إلى مُخرجيها، فمثلا عند تفسير قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ (القمر: ١) قال السمعانى: «روى ابن مسعود ﷺ قال: بينما نحن مع رسول الله ﷺ بمنًى فانشق القمر فلقتين، فلقة وراء الجبل، وفلقة دونه، وأنزل الله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ وعن ابن

عباس: أن المشركين سألوا من النبى ﷺ آية، وروى أنهم قالوا له: إن كنت صادقًا فشُقَّ القمر لنا حتى نرى قطعة منه على أبى قبيس، وقطعة منه على قيقعان، فدعا الله تعالى وانشق القمر على ما أرادوا، فقال النبى ﷺ: «اشهدوا اشهدوا».

ثم يورد السمعانى بعض الشبهات ويردها، فيقول: **فإن قيل:** ابن عباس لم يكن رأى انشقاق القمر، فكيف تصح روايته؟ وأما ابن مسعود فقد تفرد بهذه الرواية، ولو كان قد انشق القمر لرواه جميع أصحاب رسول الله ﷺ، أيضًا لو كان ثابتًا لرواه جميع الناس، ولأرَّخوا له تاريخًا، لأنهم قد أرَّخوا ما دون هذا من الحوادث، وإنما معنى الآية: انشق أى: ينشق، وذلك يوم القيامة، ويقال: معنى انشق القمر: أى: انكسف، **فالجواب:** أنه قد ثبت انشقاق القمر بالرواية الصحيحة، رواه ابن مسعود وجبير بن مطعم، شهدا بالرؤية، ورواه ابن عباس وابن عمر وأنس، وروى بعضهم عن عبد الله بن عمرو، ومن المحتمل أنه روى عن رؤية، وقد كان ابن مسعود روى هذا عن رؤيته، ولم ينكر عليه أحد من الصحابة، فكان ذلك اتفاقًا منهم، ثم الدليل القاطع على ثبوته الآية.

وقوله: إن معناه سينشق القمر، **قلنا:** هذا عدول عن ظاهر الآية، ولا يجوز إلا بدليل قاطع، ولأن الله تعالى قال: ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ (القمر: ٢) وهذا دليل على أنهم قد رأوها، ولأنه سماع آية، وإنما يكون آية إذا كانت فى الدنيا، لأن الآية ههنا بمعنى الدلالة والعبرة.

وقوله: إن الناس لم يروا، **قلنا:** يحتمل أنه كان فى زمان غفلة الناس، أو تَسَتَّرَ عنهم بغيم، وقد ردَّ الله تعالى الشمس ليوشع بن نون، ولم يُنقَل أن أحدًا أرَّخ لذلك أيضًا، وقد ذكر فى بعض التفاسير أن أهل مكة قالوا: سحرنا ابن أبى كبشة، فقال بعضهم: سلوا السُّفَّار الذين يقدمون، فإنه إن كان سحرنا فلا يقدر أن يسحر جميع الناس، فقدم السفار وسألوهم وأخبروا أنهم قد رأوا».

والسمعانى فى استدلاله بالأحاديث ليس مجرد ناقل، بل هو ناقد بصير، يتعقب ما يورده ويحكم عليه بميزان المحدثين، مثال ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ (الأنعام: ١٥٨) حيث قال: «أجمع المفسرون على أنه أراد به طلوع الشمس

من مغربها، إلا فى رواية شاذة عن معاذ بن جبل أنه: خروج الدجال، وخروج يأجوج ومأجوج، وقد ثبت برواية ابن مسعود عن النبى ﷺ أنه قال فيه: «هى طلوع الشمس من مغربها» وكذلك رواه أبو سعيد الخدرى مرفوعًا بلفظه.

وقال ابن مسعود: إن الشمس والقمر يطلعان يومئذ أسودين، وروى صفوان بن عسال المرادى عن النبى ﷺ أنه قال: «إن للتوبة بابًا قِبَل المغرب، عرضه سبعون ذراعًا، فهو مفتوح إلى أن تطلع الشمس من مغربها، ثم يُغلَق فلا تقبل التوبة بعده» فهذا معنى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾.

وكذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ (النمل: ٨٩) حيث قال: «فإن أكثر المفسرين على أن المراد من الحسنة الإيمان، ومن السيئة الشرك، وقد روى صفوان بن عسال المرادى، أن النبى ﷺ قال: «يأتى الإيمان والشرك يوم القيامة فيجثوان بين يدى الرحمن، ويطلب كل واحد منهما أهله، فيقول الله تعالى للإيمان: انطلق بأهلك إلى الجنة، ويقول الله تعالى للشرك: انطلق بأهلك إلى النار، وتلا قوله تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا ...﴾ الآية، والخبر غريب، والله أعلم».

موقفه من القراءات:

لم يتوسع السمعانى فى ذكر القراءات، فهو يستشهد فى تفسيره بالقراءات المتواترة والشاذة، مع نسبة القراءة لمن قرأ بها من القراء، كما يورد السمعانى بعض القراءات المسندة للصحابة والتابعين، مثال ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ (التوبة: ١٢٨) قال السمعانى: «قرئ فى الشاذ: «من أَنْفَسِكُم» ويقال: إن هذه القراءة قراءة فاطمة - رضي الله عنها، قال يعقوب الحضرمى: طلبت هذا الحرف خمسين سنة فلم أجد له راويًا، ومعنى هذا: أشرفكم وأفضلكم، والقراءة المعروفة: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾» قال قتادة: ومعناه: إن نسبه معروف بينكم».

وقد يتعقب السمعانى بعض القراءات، مثال ذلك ما ذكره عند تفسير قوله تعالى: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ (النور: ٣٥) حيث قال: «وقرئ: «درىء» برفع الدال مهموزًا، قرأه حمزة وأبو بكر، وأهل النحو يخطئونه فى هذه القراءة، وقالوا: لا يوجد فعيل فى اللغة، والشاذ: «درى» بفتح الدال».

موقفه من الوقف والابتداء:

وللسمعانى فى تفسيره عناية بموضوع الوقوف فى القرآن، مثال ذلك ما ذكره فى قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ﴾ (آل عمران: ٧) حيث قال: «فاعلم: أن أُبى بن كعب وعائشة وابن عباس - فى رواية طاوس عنه - رأوا الوقف على قول: ﴿إِلاَّ اللَّهُ﴾ وهو قول الحسن وأكثر التابعين، وبه قال الكسائى، والفراء، والأخفش، وأبو عبيد، وأبو حاتم، قالوا: إن الواو فى قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ﴾ واو الابتداء، والدليل على صحته قراءة ابن عباس: «ويقول الراسخون فى العلم آمنا به» وروى ابن جريج، عن مجاهد، عن ابن عباس - فى رواية أخرى: الواو للنسق، ولا وقف على قوله: ﴿إِلاَّ اللَّهُ﴾ وأن الراسخين فى العلم يعلمون التأويل».

وفى تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ (الأنعام: ٣٦) قال السمعانى: «ههنا الوقف، ومعناه: إنما يستجيب الذين يسمعون سماع القبول».

وفى قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ﴾ (الفتح: ٢٩) قال السمعانى: «منهم من قال: الوقف على قوله: ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ﴾ وقوله: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ﴾ كلام مبتدأ بمعنى: صفتهم فى الإنجيل كزرع، ومنهم من قال: الوقف على قوله: ﴿فِي الإِنجِيلِ﴾».

وفى تفسير قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ (القمر: ٦) قال السمعانى: «منهم من قال: قوله: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ عليه الوقف، وبه تم الكلام، ثم ابتدأ فقال: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾ ومنهم من قال: معناه: فتول عنهم يوم يدعو الداعى».

موقفه من العقيدة:

وتفسير الإمام السمعانى من التفاسير التى عُنِيت ببيان عقيدة أهل السنة والجماعة، والرد على أهل البدع والأهواء، ودحض شبهاتهم وأباطيلهم، والمطلع على هذا التفسير يتجلى له هذا الأمر جيدًا، فما من آية من القرآن اتخذها أهل البدع والأهواء دليلاً لنصرة مذهبهم، أو صرفوها عن ظاهرها وأولوها، إلا ورأيته متصديًا لهم مبطلا لبدعهم، ومنتصرًا لمذهب أهل السنة والجماعة، ومبينًا الحق فى المسألة، وقد أكثر من ذلك على مدار تفسيره كله.

رده على القدرية:

فمثلا عند تفسير قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِى قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (الحجر: ١٢) قال السمعانى: «قال الحسن: كذلك نسلك الشرك فى قلوب المجرمين، ونسلك، أى: ندخل، وقال مجاهد: نسلك التكذيب، ومعنى كاف التشبيه، أى: كما فعلنا بالكفار من قبل هؤلاء كذلك نفعل بهؤلاء الكفار، وقد قال بعضهم: إن معنى قوله: ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ﴾ أى: نسلك القرآن، ومعناه: أنه لما أعطاهم ما يفهمون به القرآن، فكأنه سلك القرآن فى قلوبهم، والمنقول عن السلف هو القول الأول، وهو رد على القدرية صريحًا».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٣) قال السمعانى: «يعنى: لا يُسأل عما يحكم على خلقه، والخلق يُسألون عن أفعالهم وأعمالهم، وقيل: لا يُسأل عما يفعل، لأنه كله حكمة وصواب، وهم يُسألون عما يفعلون لجواز الخطأ عليهم، وقيل: معنى لا يُسأل عما يفعل: لا يقال له: لِمَ؟ ولماذا؟ بخلاف الخلق، وفى الآية رد على القدرية، وقطع شبهتهم بالكلية.

وقد روى أبو الأسود الدؤلى أن عمران بن حصين قال له: أرأيت ما يسعى فيه الناس ويكدحون، أهو أمرٌ قُضِىَ عليهم أو شىء يستأنفونه؟ فقلت: لا، بل أمر قُضِى عليهم، قال: أفلا يكون ظلمًا؟ قلت: سبحان الله ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ فقال لى: أصبت يا أبا الأسود، وقد أجزت عقلك، ثم روى عمران أن رجلا من جهينة - أو مزينة - أتى النبى ﷺ قال له: عمَّ يفعل الناس أو يكدحون فيه، أهو شىء قُضِى عليهم؟ أم شىء يستأنفونه؟ فقال النبى ﷺ: «هو شىء قُضِى عليهم» فقال ذلك الرجل: يا رسول الله، أفلا يكون ظلمًا؟ قال: «لا» ثم تلا قوله تعالى: ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ قال الشيخ: وقد ذكرنا هذا الخبر فى كتاب «مسند القدر».

رده على المرجئة:

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ (البقرة: ١٤٣) قال السمعانى: «أى: صلاتكم، فجعل الصلاة إيمانًا، وهذا دليل على المرجئة، حيث لم يجعلوا الصلاة من الإيمان، وإنما سُموا مرجئة لأنهم أخَّروا العلم عن الإيمان.

وحُكى: أن أبا يوسف شهد عند شريك بن عبد الله القاضى فرد شهادته، قيل له: أترد شهادة يعقوب؟ فقال: كيف أقبل شهادة من يقول: إن الصلاة ليست من الإيمان؟!».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ (الأعراف: ١١١) قال السمعانى: «أى: أرجئه، والإرجاء: التأخير، يقال: أرجأت أمر كذا، أى: أخرت، ومنه المرجئة، سُموا بذلك، لتأخيرهم العمل فى الإيمان، فإنهم زعموا أن العمل ليس من الإيمان».

رده على المعتزلة:

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ (البقرة: ٧) قال السمعانى: «ذكر ابن كيسان أقوالا فى معناه:

أحدها: أى: جازاهم على كفرهم بأن ختم على قلوبهم.

والثانى ـ وهو قول أهل السنة ـ أى: ختم على قلبهم بالكفر، لما سبق من علمه الأزلى فيهم.

وحكى قول ثالث: أن معناه: جعل على قلوبهم علامة تعرفهم الملائكة بها، وهذا تأويل أهل الاعتزال، نبرأ إلى الله منه.

وحكى أبو عمر غلام ثعلب، عن ثعلب، عن إبراهيم الأعرابى: أن الختم هو منع القلب من الإيمان، ذكره فى كتاب الياء».

صفة العلم:

وعن صفة العلم يقول السمعانى عند تفسير قوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾ (النساء: ١٦٦): «سبب نزول الآية: أن قومًا من علماء اليهود حضروا عند النبى ﷺ، فقال لهم: «أنتم تعلمون أنى رسول الله»؟ فقالوا: لا نعلم ذلك، فنزل قوله: ﴿لَٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ أى: مع علمه، كما يقال: جاءنى فلان بسيفه، أى: مع سيفه، وفيه دليل على أن لله علمًا، هو صفته، خلاف قول المعتزلة خذلهم الله».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ (هود: ١٤) قال السمعانى: «وقوله: ﴿بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ بمعنى: أنزله وفيه علمه، وهذا رد على المعتزلة حيث قالوا: لا علم لله».

صفة الاستواء:

وتكلم بالتفصيل عن صفة الاستواء عند تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ (الأعراف: ٥٤) فقال: «أوَّلَ المعتزلة الاستواء بالاستيلاء، وأنشدوا فيه:

قد استوى بشرٌ على العراق من غير سيفٍ ودمٍ مهراق

وأما أهل السنة فيتبرءون من هذا التأويل، ويقولون: إن الاستواء على العرش صفة لله - تعالى - بلا كيف، والإيمان به واجب، وكذلك يُحكى عن مالك بن أنس، وغيره من السلف، أنهم قالوا فى هذه الآية: الإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ (طه: ٥). قال السمعانى: «اعلم أن مخارج الاستواء فى اللغة كثيرة: وقد يكون بمعنى العلو، وقد يكون بمعنى الاستقرار، وقد يكون بمعنى الاستيلاء - على بُعد - وقد يكون بمعنى الإقبال، والمذهب عند أهل السنة أنه يؤمن به ولا يكيف، وقد رووا عن جعفر بن عبد الله، وبشر الخفاف قالا: كنا عند مالك فأتاه رجل وسأله عن قوله: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ كيف استوى؟ فأطرق مالك مليًا، وعلاه الرحضاء، ثم قال: الكيف غير معقول، والاستواء مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أظنك إلا ضالا، ثم أمر به فأُخرج.

ونقل أهل الحديث عن سفيان الثورى، والأوزاعى، والليث بن سعد، وسفيان بن عيينة، وعبد الله بن المبارك أنهم قالوا فى الآيات المتشابهة: أمِرُّوها كما جاءت.

وقال بعضهم: تأويله الإيمان به، وأما تأويل الاستواء بالاستقبال، فهو تأويل المعتزلة.

وذكر الزجاج، والنحاس، وجماعة من النحاة من أهل السنة: أنه لا يسمى الاستواء استيلاء فى اللغة إلا إذا غلب غيره عليه، وهذا لا يجوز على الله تعالى».

صفة اليدين:

وعن صفة اليدين قال السمعانى عند تفسير قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ (المائدة: ٦٤): «يعنى: يدا الله مبسوطتان، يرزق وينفق على مشيئته كيف يشاء، قال أهل العلم: ليس فى هذا رد على اليهود فى إثباتهم اليد لله - تعالى - وإنما

الرد عليهم فى نسبته إلى البخل، وأما اليد: صفة الله - تعالى - بلا كيف، وله يدان، وقد صح عن النبى ﷺ أنه قال: «كلتا يديه يمين» والله أعلم بكيفية المراد».

صفة الكلام:

وعن صفة الكلام يقول السمعانى عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ (النساء: ١٦٤) : «إنما كلمه بنفسه من غير واسطة، ولا وحى، وفيه دليل على من قال: إن الله خلق كلامًا فى الشجرة فسمعه موسى، وذلك لأنه قال: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾.

قال الفراء، وثعلب: إن العرب تسمى ما توصل إلى الإنسان: كلامًا، بأى طريق وصل إليه، ولكن لا تحققه بالمصدر، فإذا حقق الكلام بالمصدر لم تكن إلا حقيقة الكلام، وهذا كالإرادة، يقال: أراد فلان إرادة، فيكون حقيقة الإرادة، ولا يقال: أراد الجدار أن يسقط إرادة، وإنما يقال: أراد الجدار، من غير ذكر المصدر؛ لأنه مجاز، فلما حقق الله كلامه موسى بالتكليم، عرف أنه حقيقة الكلام من غير واسطة، قال ثعلب: وهذا دليل من قول الفراء أنه ما كان يقول بخلق القرآن.

فإن قال قائل: بأى شىء عرف موسى أنه كلام الله؟ **قيل:** بتعريف الله تعالى إياه، وإنزال آية عرف موسى بتلك الآية أنه كلام الله - تعالى - وهذا مذهب أهل السنة أنه سمع كلام الله حقيقة، بلا كيف، وقال وائل بن داود: معنى قوله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ أى: مرارًا، كلامًا بعد كلام».

صفة العلو:

وعن صفة الاستعلاء، قال السمعانى عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ (النحل: ٥٠) : «قال بعضهم: معناه: يخافون عذاب ربهم من فوقهم، والقول الثانى - وهو الأصح - أن هذه الصفة العلو التى تفرد الله بها، وهو كما وصف به نفسه من غير تكييف».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ (الأنعام: ١٨) قال السمعانى: «وقوله: ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ هو صفة الاستعلاء الذى لله تعالى، الذى يعرفه أهل السنة».

صفة الإتيان والمجىء:

وعن صفة الإتيان والمجىء لله تعالى، قال السمعانى عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ﴾ (البقرة: ٢١٠): «والأولى فى هذه الآية وما يشاكلها أن نؤمن بظاهرها، ونكل علمها الى الله تعالى، وننزه الله سبحانه وتعالى عن سمات الحدث والنقص».

صفة الوجه:

وعن إثباته لصفة الوجه لله تعالى، قال السمعانى عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ (البقرة: ١١٥): «وقد ذكر الله تعالى، الوجه فى كتابه فى أحد عشر موضعًا، وهو صفة لله تعالى، وتفسيره قراءته والإيمان به».

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ (الانعام: ١٠٨) قال: «قال ابن عباس: أى: يريدون إياه بالطاعة، ويريدون خالص وجهه، والوجه صفة لله تعالى بلا كيف، وجه لا كالوجوه».

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ (القصص: ٥٢) قال: «أى: إلا هو، وعن سفيان بن عيينة قال: كل ما وصف الله به نفسه فى الكتاب، فتفسيره قراءته، لا تفسير له غيره».

موقفه من خلق القرآن:

والسمعانى يقرر عقيدة أهل السنة فى أن القرآن غير مخلوق، وذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ (الزخرف: ٣) حيث قال: «قال السدى: أنزلناه، وقال مجاهد: قلناه، وعن بعضهم: بيناه، قاله سفيان الثورى، واستدل بهذا من زعم أن القرآن مخلوق، وذكر أن الجعل بمعنى الخلق بدليل قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا﴾ (طه: ٥٣) أى: خلق لكم، وعندنا هذا التعلق باطل، والقرآن كلام الله غير مخلوق، وعليه إجماع أهل السنة، وزعموا أن من قال: إنه مخلوق فهو كافر، لأن فيه نفى كلام الله تعالى، وقد بينّا وجه الآية عند السلف ومن يعتمد فى تفسيره.

وقد ورد الجعل فى القرآن بغير معنى الخلق، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ

﴿الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا﴾ (الزخرف: ١٩) ومعناه: أنهم وصفوهم بالأنوثة وليس المعنى أنهم خلقوهم».

موقفه من خلق الجنة والنار:

تعرض السمعانى لتلك القضية، عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: ٢٤) وقرر عقيدة أهل السنة، فقال: «أى: هيئت للكافرين، وهذا دليلٌ على أن النار مخلوقة، لا كما قال أهل البدعة، ودليلٌ على أنها مخلوقة للكافرين، وإنْ دخلها بعض المؤمنين تأديبًا وتعريكًا».

رؤية الله فى الآخرة:

كما قرر السمعانى فى تفسيره عقيدة أهل السنة فى رؤية البارى - جل جلاله - فى الآخرة فى مواطن كثيرة من تفسيره، فقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ (الأنعام: ١٠٣): «واستدل بهذه الآية من يعتقد نفى الرؤية، قالوا: لما تمدَّح بأنه لا تدركه الأبصار، فمدحه يكون على الأبد فى الدنيا والآخرة. واعلم أن الرؤية حق، على مذهب أهل السنة، وقد ورد بها القرآن والسنة، وروى جرير بن عبد الله البجلى وغيره بروايات صحيحة عن النبى ﷺ أنه قال: «إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر، ليس دونه سحاب، لا تضامون فى رؤيته» ويروون: «لا تضارون فى رؤيته».

فأما قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ فالإدراك غير الرؤية، لأن الإدراك: هو الوقوف على كُنه الشيء وحقيقته، والرؤية: هى المعاينة، وقد تكون الرؤية بلا إدراك، قال الله - تعالى - فى قصة موسى: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا﴾ (الشعراء: ٦١، ٦٢) فنفى الإدراك مع إثبات الرؤية، وإذا كان الإدراك غير الرؤية، فالله - تعالى - يجوز أن يُرى، ولكن لا يُدرك كنهه، إذ لا كُنْهَ له حتى يُدرك، وهذا كما أنه يعلم ويعرف ولا يحاط به، كما قال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ (طه: ١١٠) فنفى الإحاطة مع ثبوت العلم، وقال ابن عباس - حكاه مقاتل عنه، والأول قول الزجاج، معنى قوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ يعنى: فى الدنيا، هو يرى الخلق، ولا يراه الخلق فى الدنيا بدليل قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾

(القيامة: ٢٢، ٢٣) فكما أثبتت الرؤية بتلك الآية فى الآخرة، دل أن المراد بهذه الآية الإدراك فى الدنيا، ليكون جمعًا بين الآيتين».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ قال السمعانى: «هو النظر إلى الله تعالى بالأعين، وهو ثابت للمؤمنين فى الجنة بوعد الله تعالى وبخبر الرسول ﷺ.

قال: أخبرنا أبو الحسن بن النقور، أخبرنا أبو القاسم بن حبابة، أخبرنا البغوى، أخبرنا هدبة بن خالد عن حماد بن سلمة عن ثابت البنانى عن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن صهيب عن النبى ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تعالى: تريدون شيئًا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تُبيِّض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أُعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى الله تعالى».

قال رضي الله عنه: أخبرنا أبو على الشافعى بمكة، أخبرنا أبو الحسن بن فراس بإسناده عن إسرائيل عن ثوير بن أبى فاختة عن ابن عمر - رضي الله عنهما - أن النبى ﷺ قال: «إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر فى ملكه ألف سنة، يرى أقصاه كما يرى أدناه، وإن أفضلهم منزلة لمن ينظر إلى الله تعالى كل يوم مرتين».

وفى رواية: «غدوة وعشيًا، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾.

والذى ذكرناه من النظر إلى الله هو قول عامة المفسرين، وهو مروى عن الحسن البصرى أيضًا أنه حمل الآية على هذا، وذكره سائر الرواة.

وحكى بعضهم عن مجاهد: إلى ثواب ربها ناظرة، وليس يصح، لأن العرب لا تطلق هذا اللفظ فى مثل هذا الموضع إلا والمراد منه النظر بالعين، ولعل القول المحكى عن مجاهد لا يثبت، لأنه لم يورده من يوثق بروايته.

وحمل بعضهم قوله: ﴿نَاظِرَةٌ﴾ أى: منتظرة، وهذا أيضًا تأويل باطل، لأن العرب لا تصل قوله: «ناظرة» بكلمة «إلى» إلا بمعنى النظر بالعين، قال الشاعر:

نظرت إليها بالمحصب من منى ولى نظر ولولا التحرج عارم

فأما إذا أرادوا الانتظار فإنهم لا يصلونها بـ «إلى».

قال الشاعر:

فإنكما إن تنظرانى ساعة من الدهر تنفعنى لدى أم جندب

أى: تنتظرانى، وعلى المعنى لا يصح أيضًا هذا التأويل، لأن الطلاقة والهشاشة والسرور إنما يكون بالوصول إلى المطلوب، فأما مع الانتظار فلا، فإن فى الانتظار تنغصًا ومشقة».

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ (المطففين: ١٥)، قال: «وفى الآية دليل على أن المؤمنين يرون الله تعالى، وقد نقل هذا الدليل عن مالك والشافعى؛ رحمة الله عليهما».

خلق أفعال العباد:

ذهب السمعانى إلى أن أفعال العباد مخلوقة، فقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ (آل عمران: ١٥٢) قال السمعانى: «وهذا دليل لأهل السنة على: أن أفعال العباد مخلوقة، حيث نسب الله تعالى هزيمة المسلمين إلى نفسه مع وقوع الفعل منهم، فقال: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾».

زيادة الإيمان ونقصانه:

استدل السمعانى لأهل السنة بأن الإيمان يزيد وينقص، وذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ (الأنفال: ٢) حيث قال: «أى: يقينًا وتصديقًا، وذلك أنه كلما نزلت آية فآمنوا به ازدادوا إيمانًا وتصديقًا، وهذا دليل لأهل السنة على أن الإيمان يزيد وينقص».

موقفه من أهل الكبائر:

نصر السمعانى مذهب أهل السنة فى قضية مرتكب الكبيرة، وذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ (النساء: ٩٣) حيث قال بعد أن أورد أقوال الصحابة فى تلك الآية: «والأصح، والذى عليه الأكثرون، وهو مذهب أهل السنة: أن لقاتل المؤمن عمدًا توبة، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ﴾ (طه: ٨٢)، وقوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ (النساء: ٤٨)، ولأن القتل العمد ليس بأشد من الكفر، ومن الكفر توبة، فمن القتل أولى، وأما الذى روى عن ابن عباس، فعلى سبيل التشديد والمبالغة فى الزجر عن القتل، وهو مثل ما روى عن سفيان بن عيينة أنه قال: إن لم يَقْتُل يُقال له: لا توبة لك، منعًا له عن القتل، وإن قَتَل يقال له: لك توبة، حتى

يتوب، وروى أن رجلا جاء إلى ابن عباس وسأله: هل لقاتل المؤمن توبة؟ قال: لا، فجاءه آخر، وسأله عن ذلك، فقال: نعم، له توبة، فقيل له فى ذلك، فقال: إن الأول لم يكن قَتَلَ، فمنعته عن القتل، وإن الثانى قَتَلَ، فأرشدته إلى التوبة.

واعلم أن لا متعلق فى هذه الآية لمن يقول بالتخليد فى النار لأهل الكبائر من المسلمين، لأنَّا إن نظرنا إلى سبب نزول الآية، فالآية نزلت فى قاتل كافر كما بيَّنا، وقيل: إنه فيمن يقتل مستحلا، والأولى أن نقول فيه ما قاله أبو صالح: إن معنى قوله: ﴿**فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا**﴾ (النساء: ٩٣) إن جازى، وبه نقول إن الله تعالى إن جازاه ذلك خالدًا، فهو جزاؤه، ولكنه ربما لا يجازى، وقد وعد أن لا يجازى ويغفر لمن يشاء، وهو لا يخلف الميعاد، وحكى عن قريش بن أنس ـ رحمه الله ـ أنه قال: كنت فى مجلس فيه عمرو بن عبيد، فقال: لو قال الله لى يوم القيامة: لم قلت بتخليد القاتل المتعمد فى النار؟ لقلت له: أنت الذى قلت: ﴿**فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا**﴾ قال قريش ـ وكنت أصغر القوم: فقلت له: أرأيت لو قال الله تعالى لك: ألستُ قلتُ: ﴿**وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ**﴾ (النساء: ٤٨)، فمن أين علمت أنى لم أشأ مغفرة القاتل؟ فسكت ولم يستطع الجواب.

وحكى أن عمرو بن عبيد جاء إلى أبى عمرو بن العلاء ـ رحمه الله ـ وقال له: هل يخلف الله وعده؟ فقال: لا، فقال: أليس قد قال الله تعالى: ﴿**وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا**﴾ (النساء: ٩٣) فأنا على هذا، لأنه لا يخلف وعده، فقال أبو عمرو: ومن العجمة أتيت يا أبا عثمان؟! إن العرب لا تعد الإخلاف فى الوعيد خلفًا وذمًّا، وإنما ذلك فى الخلف فى الوعد، وأنشد له قول القائل فيه:

إنى إذا أوعدته أو وعدته ... لمخلف إيعادى ومنجز موعدى

فقد تمدح بالخلف فى الوعيد، وقال آخر:

وإذا وعد المرء أنجز وعده ... وإن وعد الضراء فالعفو مانعه

فالله تعالى يجوز أن يخلف فى الوعيد، وإنما لا يخلف الميعاد».

موقف السمعانى من سؤال القبر:

هذا وقد قرر السمعانى فى تفسيره عقيدة أهل السنة فى إثبات سؤال القبر، وذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿**يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ**﴾ (إبراهيم: ٢٧) حيث قال:

«أى: فى القبر، وعليه أكثر أهل التفسير، وقد ثبت ذلك عن النبى ﷺ برواية البراء بن عازب، وهو قول عبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عباس، وجماعة من الصحابة، واعلم أن سؤال القبر ثابت فى السنة، والإيمان به واجب، وقد وردت فيه الأخبار الكثيرة» ثم أورد فى ذلك عدة أحاديث.

موقفه من الشفاعة:

قرر السمعانى عقيدة أهل السنة فى مسألة الشفاعة، وذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ (الإسراء: ٧٩) حيث قال: «أجمع المفسرون أن هذا مقام الشفاعة، وقد ثبت هذا عن النبى ﷺ، وفى رواية أبى هريرة أن النبى ﷺ قرأ قوله: ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ قال: «هو المقام الذى أشفع فيه لأمتى» وروى أنه ﷺ قال: «أنا سيد الأنبياء إذا بُعثوا، وأنا وافدهم إذا تكلموا، وأنا مبشرهم إذا أبلسوا، وأنا إمامهم إذا سجدوا، أقول فأسمع، وأشفع فأشفع، وأسأل فأُعطَى».

موقفه من المجاز:

والسمعانى لا يتذرع فى تفسيره بالمجاز والتشبيه، مثال ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ (الحج: ١٨) حيث قال: «فإن من اعتقاد أهل السنة أن الحيوان والموات مطيع كله لله تعالى، وقال بعضهم: إن سجود الحجارة هو بظهور أثر الصنع فيه، على معنى أنه يحمل على السجود والخضوع لمن تأمله وتدبر فيه، وهذا قول فاسد، والصحيح ما قدمنا، والدليل عليه أن الله تعالى وصف الحجارة بالخشية، فقال: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ (البقرة: ٧٤)، ولا يستقيم حمل الخشية على ظهور أثر القدرة فيه، وأيضًا فإن الله تعالى قال: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ﴾ (سبأ: ١٠) أى: سبِّحى معه، ولو كان المراد ظهور أثر الصنع لم يكن لقوله: ﴿مَعَ دَاوُدَ﴾ (الأنبياء: ٧٩) معنًى، لأن داود وغيره فى رؤية أثر الصنع سواء، وأيضًا فإن الله تعالى يقول: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ أى: يطيع الله بتسبيحه ﴿وَلَكِن لَّا

تفقهون تسبيحهم﴾ (الإسراء: ٤٤) ولو كان المراد بالتسبيح ظهور أثر الصنع فيه لم يستقم قوله: ﴿ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ ذكر هذه الدلائل أبو إسحاق الزجاج إبراهيم بن السرى، وأثنى عليه ابن فارس فقال: ذب عن الدين ونصر السنة».

وكذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد﴾ (سورة ق: ٣٠) قال السمعانى بعد أن ذكر أقوال المفسرين المعتمدة عنده فى تفسير الآية: «وقال بعضهم: أن القول من جهنم ههنا على طريق المجاز مثل قول الشاعر:

امتلأ الحوض وقال قطنى مهلاً رويدًا قد ملأت بطنى

فقوله: قطنى أى: حسبى، ووجه المجاز فيه أنه لما امتلأ الحوض ولم يكن فيه مزيد وكأنه قال: قد امتلأت فحسبى، كذلك فى جهنم، وهو على توسع الكلام، والأصح أن هذا النطق من جهنم على طريق الحقيقة، وهذا اللائق بمذهب أهل السنة فى الإيمان بتسبيح الجمادات، وما نزل فى ذلك من آى القرآن».

ويقول السمعانى عند تفسير قوله تعالى: ﴿والنجم والشجر يسجدان﴾ (الرحمن: ٦) «وأما سجودهما، قال ابن عباس: يسجدان إذا طلعت الشمس وإذا قالت الشمس إلى أن تغرب، ويقال: سجودهما هو ما سخرهما الله تعالى على مشيئته وأمره، والأولى هو أن يقال: إن سجود الموات ثابت بنص الكتاب، وهو على ما أراد الله تعالى، والعلم بحقيقته موكول إليه، وهو مذهب أهل السنة».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وإن منها لما يهبط من خشية الله﴾ (البقرة: ٧٤) قال السمعانى: «فإن قيل: الحجر جماد لا يفهم، فكيف يخشى؟! قلنا: قد قال أهل السنة: إن لله تعالى علمًا فى الموات لا يعلمه غيره.

وقيل: إن الله تعالى يفهمهم ويلهمهم ذلك فيخشون بإلهامه، وبمثل هذا وردت الأخبار.

فإنه روى: أن النبى ﷺ كان على «ثبير» والكفار يطلبونه، فقال الجبل: انزل عنِّى فإنى أخاف أن تُؤخذ علىَّ فيعاقبنى الله بذلك، فقال له جبل حراء: «إلىَّ يا رسول الله».

وروى عن النبى ﷺ أنه قال: «كان حجرٌ يسلم علىَّ بمكة قبل أن أُبعث، وأنا أعرفه الآن» والخبر صحيح» ثم ذكر حديث حنين الجذع المتواتر.

موقفه من التفسير الصوفى:

ويكثر الإمام السمعانى فى تفسيره من إيراد أقوال الصوفية، ولكنه تصوف سنِّى لا يقول بالحلول والاتحاد ووحدة الوجود، ويسميهم أهل المعانى، مثال ذلك ما قاله فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (البقرة: ٢٠٢) حيث قال: «وقال أهل المعانى: يحاسب العباد من غير تدبير ولا رؤية، لكونه عالمًا بما للعباد وما على العباد فلا يحتاج إلى رؤية».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ (هود: ٣) قال السمعانى: «قال أهل المعانى: إنما قدم المغفرة على التوبة، لأنها هى المطلوبة بالتوبة».

وكذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَاءُو أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ (يوسف: ١٦) قال السمعانى: «قال أهل المعانى: جاءوا فى ظلمة العشاء ليكونوا أجرأ على الاعتذار بالكذب، فروى أن يعقوب سمع صياحهم وعويلهم فخرج وقال: ما لكم، هل أصاب الذئب من غنمكم شيئًا؟ قالوا: لا، وإنما الذئب أكل يوسف».

وفى تفسير قوله تعالى: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ (إبراهيم: ٥٠) قال السمعانى: «قال أهل المعانى: وإنما ذكر أن قميصهم من قطران، لأن النار إليه أسرع اشتعالا».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (الحجر: ٣٦) قال السمعانى: «وقال أهل المعانى: إن إبليس لما سأل الإمهال لم تكن إجابة الله إياه كرامة له، بل كانت زيادة له فى شقائه وبلائه».

عناية السمعانى بإيراد بعض النكات التفسيرية:

ويتعرض السمعانى فى تفسيره لبعض النكات التفسيرية، فمثلا عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (المائدة: ١١٨) يقول: «**فإن قال قائل:** كيف طلب المغفرة لهم، وهم كفار؟! وكيف قال: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وهذا لا يليق بسؤال المغفرة؟! **قيل: أما الأول** فمعنى قوله: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ يعنى: بعد الإيمان، وهذا إنما يستقيم على قول السدى، لأن الإيمان لا ينفع فى القيامة، والصحيح آخر القولين، قال بعضهم: هذا فى فريقين منهم

فقوله: ﴿إن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ يعنى: من كفر منهم ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ يعنى: من آمن منهم، وقال أهل المعانى من أرباب النحو: ليس هذا على وجه طلب المغفرة، وإنما هذا على تسليم الأمر إليه، وتفويضه إلى مراده، ألا تراه يقول: ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ولو كان على وجه طلب المغفرة لقال: «فإنك أنت الغفور الرحيم».

وأما السؤال الثانى: فاعلم أن فى مصحف ابن مسعود: «وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم» وكان ابن شنبوذ يقرأ كذلك زمانًا ببغداد، فمُنع عنه، وفيه قصة».

موقفه من المسائل الفقهية:

ويُعنى السمعانى فى تفسيره بالجانب الفقهى، ويورد فى مسائله الفقهية أقوال الفقهاء والأئمة المجتهدين، مُعْرضًا عن أقوال الحنابلة، ولا يستطرد فى ذكر الأدلة، ويرجح ما يراه صوابًا، مع عدم تعصبه لمذهبه، مثال ذلك ما قاله عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ (البقرة: ١٨٤) حيث قال: «قال داود وأهل الظاهر: يجب على المسافر صوم عدة من أيام أخر وإن صام رمضان، قولاً بظاهر الآية.

والجمهور على أن فيه إضماراً وتقديره: فأفطر، فعدة من أيام أخر.

ثم اختلفوا فى حد المرض الذى يبيح الفطر، فقال داود وأهل الظاهر: هو ما ينطلق عليه اسم المرض، وهو قول ابن سيرين من السلف، وقال الحسن: هو المرض الذى تجوز معه الصلاة قاعدا.

ومذهب الشافعى: هو المرض الذى يخاف من الصوم معه الزيادة فى المرض.

فأمَّا حد السفر الذى يبيح الفطر اختلفوا فيه، فقال داود ومن تابعه: هو ما ينطلق عليه اسم السفر.

ومذهب الشافعى: أنه مسافة القصر، ستة عشر فرسخًا.

ومذهب أبى حنيفة رضي الله عنه: أنه مسيرة ثلاثة أيام، كما قال فى القصر».

وربما أحال السمعانى فى شرحه لآيات الأحكام إلى المطولات والأصول، مثال ذلك ما قاله فى تفسير قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ (البقرة: ٢٢٦) قال السمعانى: «أى: يحلفون، قال ابن عباس: إنما ينعقد الإيلاء إذا

حلف على ترك الوطء أبدًا ومطلقًا، ومذهب أبى حنيفة أنه ينعقد الإيلاء بالحلف على أربعة أشهر، ومذهب الشافعى أنه إنما يصير موليا بالحلف على أربعة أشهر، وهى: ﴿ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ﴾ أى: انتظار أربعة أشهر.

﴿ فَإِن فَاءُو ﴾ أى: فإن رجعوا على اليمين بالوطء فى حق من يقدر على الوطء، أو بالقول فى حق من لا يقدر على الوطء ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وقرأ أُبى بن كعب «فإن فاءوا فيهن» يعنى فى المدة، وهذا يوافق قول أبى حنيفة.

﴿ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ ﴾ يعنى: بالإيقاع ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ لقول الزوج، عليهم بما يضمره، ومذهب الشافعى أنه تجوز الفيئة بعد المدة بوقف حتى يفىء أى: يطلق، وهو مروى عن عمر، وعلى، وأبى الدرداء رضي الله عنهم.

وذهب أبو حنيفة إلى أنها تطلق طلقة بائنة بانقضاء المدة، وهو مروى عن ابن عباس رضي الله عنهما، وابن مسعود، وعلى، فى رواية ضعيفة، والمسألة فى الخلافيات».

موقفه من الأصول:

حوى تفسير السمعانى بين ثناياه الكثير من مسائل الأصول، مع عرض دقيق شامل للعديد منها، فتعرض السمعانى لتعريف النسخ وأنواعه وأحكامه عند تفسير قوله تعالى: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ (البقرة: ١٠٦) حيث قال: «والنسخ فى اللغة: رفع الشىء وإقامة غيره مقامه، يقال: نسخت الشمس الظل، أى رفعته وأقامت الضياء مقامه، وقد يكون بمعنى رفع الشىء من غير إقامة غيره مقامه، يقال: نسخت الرياح الآثار إذا رفعتها من أصلها من غير شىء يقوم مقامها.

والنسخ جائز فى الجملة باتفاق الأمة، ونسخ القرآن على وجوه:

منها: نسخ يوجب رفع التلاوة والحكم جميعًا، وذلك مثل ما روى عن أبى أمامة ابن سهل بن حنيف «أن قومًا من الصحابة قاموا ليلة ليقرءوا سورة فلم يذكروا منها إلا قوله: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾، فغدوا على النبى صلى الله عليه وسلم وأخبروه بذلك فقال صلى الله عليه وسلم: «تلك سورة رفعت تلاوتها وأحكامها» وقيل: إن سورة الأحزاب كانت مثل سورة البقرة، فرفع أكثرها تلاوة وحكمًا.

ومن النسخ ما يوجب رفع التلاوة دون الحكم، وذلك مثل آية «الرجم» رُفعت تلاوتها وبقى حكمها.

ومنه ما يوجب رفع الحكم دون التلاوة، مثل آية الوصية للوالدين والأقربين، وآية عدة الوفاة بالحول، ومثلها آية التخفيف فى القتال، وآية الممتحنة، ونحو ذلك.

ومن وجوه النسخ ما يوجب رفع الحكم وإقامة غيره مقامه، وذلك مثل القِبْلَة نُسخت إلى الكعبة، والوصية نُسخت إلى الميراث، وعدة الوفاة نسخت من الحول إلى أربعة أشهر وعشرًا، ومقاومة الواحد العشرة فى القتال نسخت إلى مقاومة الواحد الاثنين، ونحو ذلك.

ومنها: رفع الحكم من غير إقامة شىء مقامه، وذلك مثل امتحان النساء، نُسخ من غير خلف، وكذلك أمثال هذا».

كما قرر السمعانى فى تفسيره جواز القياس فى الأحكام، وردَّ على شبهات الخوارج، فقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿**فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ**﴾ **(الحشر: ٢)**: «والاعتبار هو النظر فى الشىء ليعرف به جنسه ومثله، وقيل: معناه: فانظروا وتدبروا يا ذوى العقول والفهوم، كيف سلَّط الله المؤمنين عليهم، وسلَّطهم على أنفسهم، وقد استدل بهذه الآية على جواز القياس فى الأحكام، لأن القياس نوع اعتبار، إذ هو تعبير شىء بمثله بمعنًى جامع بينهما ليتفقا فى حكم الشرع».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿**الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ**﴾ **(آل عمران: ٦٠)** قال السمعانى: «**فإن قيل:** أكان شاكًا فى الحق حتى نهاه عن الشك؟ **قيل:** الخطاب مع النبى ﷺ، والمراد به: الأمة، وقيل: معناه: قل للشاك فيه: الحق من ربك فلا تكن من الشاكين.

واعلم أن فيما سبق من التمثيل على جواز القياس دليلٌ على أن القياس هو رد فرع إلى أصل بنوع شبه، وقد رد الله تعالى عيسى إلى آدم بنوع، فدل على جواز القياس، والمثل: هو ذكر سائر يستدل به على غيره فى معناه».

وفى تفسير قوله تعالى: ﴿**وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ**﴾ **(الشورى: ١٠)** قال السمعانى: «استدل من منع القياس فى الحوادث بهذه الآية، قال: الحُكم إلى الله لا إلى رأى الرجال، وكذلك كان الخوارج يقولون: لا حكم إلا الله، وأنكروا الحكمين، وهذا الاستدلال فاسد؛ لأن عندنا من قال بالقياس والاجتهاد فهو رجوع إلى الله فى حكمه، فإن أصول المقايسات هى: الكتاب، والسنة».

موقفه من السيرة:

حفل تفسير السمعانى بالكثير من أحداث السيرة، مثال ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ (الأنفال: ١١) حيث قال: «والقصة فى ذلك: أن الكفار يوم بدر نزلوا على الماء، ونزل المسلمون على غير ماء، فأجنب بعضهم وأحدثوا، فلم يجدوا ماء يتطهرون به، وكانوا فى رمل تسوخ فيه أرجلهم، فوسوس إليهم الشيطان: إنكم تزعمون أنكم على الحق وأولئك على الباطل وإذا هم على الماء، فلو كنتم على الحق لكنتم أنتم على الماء، وما بقيتم مجنبين محدثين، فوقع فيهم خوف شديد، فألقى الله تعالى عليهم النعاس حتى أمنوا، وأنشأ سحابة فتمطَّرت عليهم حتى سال الوادى، وتطهروا واغتسلوا، وتلبدت الرمال حتى ثبتت عليها الأقدام، فهذا معنى قوله: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً﴾».

موقفه من الإسرائيليات:

والسمعانى مُكْثِرٌ ومتساهل - إلى حد بعيد - فى إيراده للإسرائيليات فى تفسيره، وسوَّد بها الكثير من صفحات كتابه، ودافع عن بعضها دفاعًا شديدًا، مع أن فى بعضها ما يمس جوانب العقيدة وعصمة الأنبياء، وكان من الأجدر به، وهو حُجَّة فى السُّنَّة، أن يصون كتابه عنها، أو أن يتعقبها ويفندها.

مثال ذلك ما قاله عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ (يوسف ٢٤) قال السمعانى: وأما هَمُّ يوسف فاعلم أنه قد ثبت عن عبد الله بن عباس أنه سئل عن قوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ قال: جلس منها مجلس الخاتن وحلَّ هميانه، رواه ابن أبى مليكة، وعطاء وغيرهما.

وعن مجاهد أنه قال: حلَّ سراويله وجعل يعالج ثيابه، وهذا قول أكثر المتقدمين، منهم: سعيد بن جبير، والحسن البصرى، والضحاك وغيرهم.

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: وقد أنكر قوم هذا القول، والقول ما قاله متقدمو هذه الأمة وهم كانوا أعلم بالله أن يقولوا فى الأنبياء من غير علم، وكذلك قال ابن الأنبارى، وزعم المتأخرين أن الهم كان منها: هو العزيمة على المعصية، وأما الهم منه: فكان خاطر القلب وشدة المحبة بالشهوة.

وفى القصة: أن المرأة قالت له: ما أحسن عينيك، فقال: هى أول ما تسيل من

وجهى فى قبرى، فقالت: ما أحسن شعرك، فقال: هو أول ما يُنشر فى قبرى، فقالت: إن فراش الحرير مبسوط فقم فاقض حاجتى، فقال: إذًا يذهب نصيبى من الجنة، قالت: إن الجنينة عطشى فقم فاسقها، قال: إن المفتاح بيد غيرى، قال: فجاء الشيطان ودخل بينهما وأخذ بحنكه وحنكها حتى همَّت به وهَمَّ بها، ثم إن الله تعالى تدارك عبده ونبيه بالبرهان الذى ذكره».

ثم قال: «وروى ليث: عن ابن عباس أنه قعد منها مقعد الرجل من امرأته فرأى كفًا بلا معصم ولا عضد مكتوب عليها: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ⑩ كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ **(الانفطار: ١٠، ١١)** ففزع وهرب، ثم إنه عاد، فظهر ذلك الكف مكتوبًا عليها: ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ **(الإسراء: ٣٢)** ففزع وهرب، ثم إنه عاد فرأى ذلك الكف أيضًا مكتوبًا عليها: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ **(البقرة: ٢٨١)** ففزع وهرب، ثم إنه عاد، فقال الله لجبريل: أدرك عبدى قبل أن يواقع الخطيئة، فجاء ومسحه بجناحه حتى خرجت شهوته من أنامله».

ثم قال فى قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ **(يوسف ٢٤)**: «**فإن قيل:** هذا دليل على أنه لم يهم بالزنا ولم يقصده، **قلنا:** لا، هذا بعد الهم، **فإن قيل:** أليس قد قال فى أثناء السورة: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ **(يوسف: ٥٢)**؟ **قلنا:** قد ثبت عن النبى ﷺ: «أن يوسف لما قال هذا، قال له جبريل: ولا حين هممت؟ فقال: وما أبرئ نفسى إن النفس لأمارة بالسوء».

وكذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِى أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِى الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ **(الحج: ٥٢)** حيث أورد قصة الغرانيق، ثم قال: «**فإن قال قائل:** كيف يجوز هذا على النبى ﷺ، وقد كان معصومًا من الغلط فى أصل الدين؟ وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ **(الحجر: ٤٢)**، وقال الله تعالى: ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ﴾ **(فصلت: ٤٢)** أى: أبليس؟.

فالجواب عنه: اختلفوا فى الجواب عن هذا، قال بعضهم: إن هذا ألقاه بعض المنافقين فى قراءته، وكان المنافق هو القارئ فظنَّ المشركون أن الرسول ﷺ قرأ،

وسمى ذلك المنافق شيطانًا، لأن كل كافر متمرد بمنزلة الشيطان، وهذا جواب ضعيف.

ومنهم من قال: إن الرسول لم يقرأ، ولكن الشيطان ذكر هذا بين قراءة النبى ﷺ، وسمع المشركون ذلك، وظنوا أن الرسول ﷺ قرأ، وهذا اختيار الأزهرى وغيره.

وقال بعضهم: إن الرسول الله ﷺ أغفى إغفاءة ونعس، فجرى على لسانه هذا، ولم يكن به خبر بإلقاء الشيطان، وهذا قول قتادة.

وأما الأكثرون من السلف فقد ذهبوا إلى أن هذا شىء جرى على لسان الرسول ﷺ بإلقاء الشيطان من غير أن يعتقد، وذلك محنة وفتنة من الله لعباده، والله تعالى يمتحن عباده بما شاء، ويفتنهم بما يريد، وليس عليه اعتراض لأحد، وقالوا: إن هذا وإن كان غلطا عظيمًا، فالغلط يجوز على الأنبياء، إلا أنهم لا يُقرون عليه.

وعن بعضهم: أن شيطانًا يقال له: الأبيض عمل هذا العمل، وفى بعض الروايات: أنه تصور بصورة جبريل، وأدخل فى قراءته هذا، والله أعلم».

قلت: لا داعى لهذه التمحلات فالقصة باطلة باتفاق أهل التحقيق.

كثرة نقله عن تفسير «شفاء الصدور» للنقاش:

والسمعانى مولع بالقصص والغرائب، ويكثر فى كتابه من النقل عن تفسير أبى بكر النقاش، وهو كذَّاب وضَّاع، وتفسيره المسمى: «شفاء الصدور» هو «شقاء للصدور»، فمثلا عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ (الصافات: ١٤٣) قال السمعانى: «وذكر النقاش فى تفسيره: أن يونس صلوات الله عليه دعا ربه فى بطن الحوت، وقال: إلهى مِن البيوت أخرجتنى، وفى البحار سترتنى، وفى بطن الحوت حبستنى، فإن كنتُ عملت لك عملا صالحًا ففَرِّج عنى.

وَذكر أيضًا: أنه لقى قارون فى لجج البحار، فسمع قارون صوت يونس - عليه السلام، فكان فى عذاب شديد، فطلب أن يُمسَك عنه العذاب، حتى يسأل يونس، فأمر الله تعالى بإمساك العذاب عنه، فسأل قارون يونس عن ابن عمه موسى، فقال: قد

توفى، وسأل عن هارون، فقال: قد توفى قبله، فقال: واحزناه! فأمر الله تعالى أن يرد عنه العذاب إلى يوم القيامة لمَّا سأل عن ابن عمه.

وذكر أيضًا: أن الحوت قرَّ به فى لجج البحار مسيرة ستة آلاف سنة، وذكر أنه بلغ به نجوم الأرضين السابعة، فسمع من تسبيح الحصى وما فى قعر البحر شيئًا عظيمًا، وذكر أن البحر تكلم معه، وقال: إلى أين كنت تريد أن تهرب من مولاى أيها العبد الخاطئ؟! إلى الأرض، أما إلى السماء، أم إلى البحار، أم إلى الجبال؟! وإنا نسبح الله تعالى منذ خلقنا ونعبده، ونخاف أن يعذبنا».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ (العنكبوت: ٦٠) قال السمعانى: «وذكر النقاش فى تفسيره - أن المراد - أى محمد ﷺ، وكان لا يدخر شيئًا للغد، وقد ثبت برواية أنس: «أن النبى ﷺ كان لا يدخر شيئًا لغد».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ (الفلق: ٣) قال السمعانى: «وذكر النقاش بإسناده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾: من شر الذكر إذا دخل، قال النقاش: فذكرت ذلك لمحمد بن إسحاق بن خزيمة، وقلت: هل يجوز أن تفسر القرآن بهذا؟! قال: نعم، قال النبى ﷺ: «أعوذ بك من شر منيى» وهو خبر معروف، وهو أن النبى ﷺ قال: «أعوذ بك من شر سمعى ومن شر بصرى» فعدَّد أشياء، وقال فى آخرها: «ومن شر منيى».

وهكذا يورد السمعانى هذه الأقوال ويمر عليها دون أن يتعقبها أو ينكرها.

وأخيرًا .. فإن تفسير السمعانى واحد من أفضل التفاسير التى دافعت ونافحت عن عقيدة أهل السنة، لولا ما شابه من كثرة الإسرائيليات والغرائب الواهيا

٤- تفســـير «النكت والعيون»

للمـــاوردى

التعريف بصاحب التفسير(١):

هو على بن محمد بن حبيب، أبو الحسن، الشافعى، البصرى ثم البغدادى، الماوردى، الملقب بـ «أقضى القضاة». ولد سنة أربع وستين وثلاثمائة، وتفقه على أبى القاسم الصيمرى بالبصرة، وعلى أبى حامد الإسفرايينى ببغداد.

وحدَّث عن: الحسن بن على الجَبَلى، ومحمد بن عدى المنْقرى، ومحمد بن المعلّى الأزدى، وجعفر بن محمد بن الفضل البغدادى.

ولى القضاء ببلدان شتّى، ثم سكن بغداد.

وكان من وجوه فقهاء الشافعية، حافظًا للمذهب، ذا منزلة عند ملوك بنى بُويْه.

درَّس بالبصرة وبغداد سنين، فروى عنه الخطيب، وأبو العزّ بن كادش، وابن بدران الحلوانى.

ونقل عن الماوردى قوله ـ لمن قال له: اتّبع ولا تبتدع، فى مسألة توريث ذوى الأرحام: بل أجتهد ولا أُقلِّد.

وللماوردى مصنّفات فى الفقه والأصول والتفسير والأدب، منها: الحاوى، النكت والعيون فى تفسير القرآن، وهو ما نحن بصدد دراسته، أدب الدنيا والدين، والأحكام السلطانية، والإقناع، ومختصر فى الفقه، وأعلام النبوّة.

توفّى ببغداد سنة خمسين وأربعمائة.

التعريف بالتفسير وبيان منهجه:

وتفسير «النكت والعيون» تفسير كامل للقرآن الكريم، طبع عدة مرات، والطبعة التى بين يدى تقع فى ست مجلدات، وهى طبعة دار الكتب العلمية (١٤١٢هـ).

---

(١) مصادر الترجمة: تاريخ بغداد (١٢/ ١٠٢)، طبقات الفقهاء للشيرازى ١٣١، المنتظم (١٥/ ٥٢)، معجم الأدباء (١٥/ ٥٢)، الكامل فى التاريخ (٦/ ٦٥١)، وفيات الأعيان (٣/ ٢٨٢)، سير أعلام النبلاء (١٨/ ٦٤)، طبقات الشافعية للسبكى (٥/ ٢٦٧)، البداية والنهاية (١٢/ ٨٥).

اقتصر الإمام الماوردى فى كتابه على تفسير ما خفى من آيات القرآن الكريم، أما الجلى الواضح فتركه لفهم القارئ.

وقد جمع الماوردى فى تفسيره بين أقوال السلف والخَلَف، كما أضاف إلى ذلك ما ظهر له من معنًى محتمل، وقد رتَّب تفسيره ترتيبًا بديعًا، فهو يحصر الأقوال الكثيرة فى تأويل الآية فى عدد، ثم يفصلها الأول فالثانى فالثالث... إلخ، وينسب كل قول إلى قائله غالبًا، مع توجيه وترجيح لبعض الأقوال.

وقد عُنى فى تفسيره بالجانب اللغوى، فيذكر أصول الكلمات واشتقاقها، موضحًا ذلك بالعديد من الشواهد الشعرية - والتى غالبًا ما ينسبها لقائليها - ثم يربطها بالمعنى المراد من الآية فى عبارة موجزة ناصعة البيان.

قال الماوردى مبينًا لمنهجه، فى مقدمة تفسيره: «ولما كان الظاهر الجلىُّ مفهومًا بالتلاوة، وكان الغامض الخفى لا يُعلم إلا من وجهين: نقل واجتهاد، جعلت كتابى هذا مقصورًا على تأويل ما خفى علمه، وتفسير ما غمض تصوره، وجعلته جامعًا بين أقاويل السلف والخلف وموضحًا عن المؤتلف والمختلف، وذاكرًا ما سنح به الخاطر من معنى محتمل، عبرت عنه بأنه محتمل ليتميز ما قيل مما قلته، ويُعلم ما استُخرج مما استخرجته، وعدلت عما ظهر معناه من فحواه اكتفاء بفهم قارئه وتصور تاليه ليكون أقرب مأخذًا وأسهل مطلبًا، وقدمت لتفسيره فصولاً تكون لعلمه أصولاً، يتضح منها ما اشتبه تأويله، وخفى دليله».

مصادر الماوردى فى تفسيره:

هذا... وقد تنوعت مصادر الماوردى فى تفسيره، فنراه ينقل فى القراءات عن كتاب «القراءات الشاذة» لابن خالويه، وكتاب «الحجة فى علل القراءات السبع» لأبى على الحسن بن أحمد الفارسى، وكتاب «المحتسب» فى تبيين وجوه شواذ القراءات، والإيضاح عنها، لأبى الفتح عثمان بن جنى، ولقد استفاد أيضًا من كتب مكى بن أبى طالب القيسى، وكُتب أبى عمرو عثمان بن سعيد الدانى.

أما مصادره من كتب التفسير، فيعتبر كتاب الطبرى «جامع البيان عن تأويل آى القرآن» من أهم مصادره فى التفسير بالمأثور، كما أكثر النقل عن مقاتل بن سليمان،

وابن أبى حاتم، وتفسير يحيى بن سلام، وأبى بكر النقاش، هذا بالإضافة إلى ذكره لأقوال أئمة المعتزلة كالرمانى وأبى مسلم الأصبهانى وغيرهم.

أما مصادره فى اللغة فقد استمد الماوردى مادته اللغوية من مصادر كثيرة ومتنوعة، فنقل عن الكسائى، والفراء، والأخفش، وثعلب، والمبرد، والزجاج، وذلك من مؤلفاتهم فى معانى القرآن.

وعن أبى عبيدة من «مجاز القرآن»، كما نقل عن الخليل بن أحمد، وسيبويه، وأبى عمرو بن العلاء.

ويعد تفسير «النكت والعيون» واحدًا من أهم كتب التفسير، مما حدا بالكثيرين من بعده بالسير على طريقته فى عرض الأقوال أو النقل عنه، مثال ذلك ما نراه فى «زاد المسير» لابن الجوزى، وتفسير القرطبى، والفخر الرازى، وابن عطية، وغيرهم من المفسرين.

وبدأ الماوردى كتابه بعده فصول أفردها لأسماء القرآن، وبيان معنى السورة والآية، ونزول القرآن على سبعة أحرف، ثم عقد فصلا طويلاً فى إعجاز القرآن.

ثم أبان عن موقفه من التفسير بالرأى فقال: «وإذا كان القرآن بهذه المنزلة من الإعجاز فى نظمه ومعانيه، احتاجت ألفاظه فى استخراج معانيها إلى زيادة التأمل لها وفضل الرويَّة فيها، ولا يقتصر فيها على أوائل البديهة، ولا يقنع فيها بمبادئ الفكرة، ليصل بمبالغة الاجتهاد وإمعان النظر إلى جميع ما تضمنته ألفاظه من المعانى واحتملته من التأويل، لأن للكلام الجامع وجوهًا، قد تظهر تارة، وتغمض أخرى، وإن كان كلام الله منزهًا من الآفتين: الفكر والروية، ليعمل فيما احتملته ألفاظه من المعانى المختلفة، غير ما سَنَصِفُهُ من الأصل المعتبر فى اختلاف التأويل عند احتمال وجوه.

وقد روى سهل بن مهران الضبعى، عن أبى عمران الجونى، عن جندب بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَالَ فِى الْقُرْآنِ برأيه فأصاب فقد أخطأ» فتمسك فيه بعض المتورعة ممن قلَّت فى العلم طبقته، وضعفت فيه خبرته، واستعمل هذا الحديث على ظاهره، وامتنع أن يستنبط معانى القرآن باجتهاده، عند وضوح شواهده، إلا أن يرد بها نقل صحيح، ويدلَّ عليها نص صريح، وهذا عدول عما تعبّد الله تعالى به خلقه فى خطابهم بلسان عربى مبين، قد نبه على معانيه ما صرح من اللغز

والتعمية، التى لا يوقف عليها إلا بالموضعة إلى كلام حكيم، أَبَان عن مراده، وقطع أعذار عباده، وجعل لهم سبلاً إلى استنباط أحكامه، كما قال تعالى: ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ (النساء: ٨٣) ولو كان ما قالوه صحيحًا لكان كلام الله غير مفهوم، ومراده بخطابه غير معلوم، ولصار كاللغز المعمَّى، فبطل الاحتجاج به، وكان ورود النص على تأويله، مغنيًا عن الاحتجاج بتنزيله، وأعوذ بالله من قولٍ فى القرآن يؤدى إلى التوقف عنه، ويؤول إلى ترك الاحتجاج به.

ولهذا الحديث - إن صح - تأويل، معناه: أنّ مَنْ حمل القرآن على رأيه، ولم يعمل على شواهد ألفاظه، فأصاب الحق، فقد أخطأ الدليل».

ثم تكلم الماوردى عن أوجه التفسير وضوابطه، وذكر كلامًا نفيسًا نورده بنصه.

قال الماوردى: «فإذا صح جواز الاجتهاد فى استخراج معانى القرآن من فحوى ألفاظه، وشواهد خطابه، فقد قسم عبد الله بن عباس رضي الله عنهما وجوه التفسير على أربعة أقسام: فروى سفيان، عن أبى الزناد قال ابن عباس: «التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب بكلامها، وتفسير لا يُعذَر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله عز وجل» وهذا صحيح.

أما الذى تعرفه العرب بكلامها، فهو حقائق اللغة وموضوع كلامهم.

وأما الذى لا يعذر أحد بجهالته، فهو ما يلزم الكافّة فى القرآن من الشرائع وجملة دلائل التوحيد.

وأما الذى يعلمه العلماء، فهو وجوه تأويل المتشابه وفروع الأحكام.

وأما الذى لا يعلمه إلا الله عز وجل، فهو ما يجرى مجرى الغيوب وقيام الساعة.

وهذا التقسيم الذى ذكره ابن عباس صحيح، غير أن ما لا يعذر أحد بجهالته داخل فى جملة ما يعلمه العلماء من الرجوع إليهم فى تأويله، وإنما يختلف القسمان فى فرض العلم به على الأعيان، وما يختص بالعلماء يكون فرض العلم به على الكفاية، فصار التفسير منقسمًا على ثلاثة أقسام:

أحدها: ما اختص الله تعالى بعلمه، كالغيوب، فلا مساغ للاجتهاد فى تفسيره ولا يجوز أن يؤخذ إلا عن توقيف، من أحد ثلاثة أوجه:

إما من نص فى سياق التنزيل، **وإما** عن بيان من جهة الرسول، **وإما** عن إجماع الأمة على ما اتفقوا عليه من تأويل.

فإن لم يرد فـيه توقيف، علمنا أن الله تعالـى أراد لمصلحةٍ استـأثر بها، ألاَّ يُطْلِع عباده على غيبه.

والقسم الثانى: ما يرجع فيه إلى لسان العرب، وذلك شيئان: اللغة والإعراب:

فأمـا اللغة، فيكون العلم بها فى حق المفسر دون القارئ، فإن كان مما لا يوجب العمل، جاز أن يعمل فيه على خبر الواحد والاثنين، وأن يستشهد فيه من الشعر بالبيت والبيتـين، وإن كان مما يوجب العـمل، لم يعمل فيه على خـبر الواحد والاثنين، ولا يستشهد فيه بالبيت والبيتين، حتى يكون نقلُهُ مستفيضًا، وشواهد الشعر فيه متناصرة.

وقد روى أبو حاضـر عن ابن عباس: أن رجلاً سـأل النبى ﷺ: أىُّ علم القرآن أفضل؟ قال: «غَـرِيبُهُ، فالتَمِـسُوهُ فى الشّعْرِ» وإنما خص الغـريب لاختصاصـه بإعجاز القرآن، وأحال على الشعر لأنه ديوان كلامهم، وشواهدُ معانيهم، وقد قال ابن عباس: «إذا أشكَلَ عَلَيْكُم الشىءُ من كتاب الله فالتمسوه فى الشعر، فإن الشعر ديوان العرب».

وأما الإعـراب، فإن كان اختلافه موجبًا لاختلاف حُكمِهِ وتغيير تأويله، لزم العلم به فى حق المفسر وحق القارئ، ليتوصل المفسر إلى معرفة حكمه، ويَسْلَمَ القارئ من لَحْنِهِ، ورُوى عن النبى ﷺ، أنه قال: «أعربُوا القرآنَ والتمسُوا غرائبَه».

وإن كان اختلاف إعرابه لا يوجب اختلاف حكمـه، ولا يقتضى تغيير تأويله، كان العلم بإعـرابه لازمًـا فى حق القارئ لِيَسْلَمَ مِنَ اللَّحْنِ فـى تلاوته، ولم يلزم فى حق المفسر لوصـوله مع الجهل بإعرابه إلى معرفة حكمه، وإن كـان الجهل بإعراب القرآن نقصًا عامًا.

والقسم الـثالث: ما يرجع فيه إلى اجتهاد العلماء، وهو تأويل المتشابه، واستنباط الأحكام، وبيان المجـمل، وتخصيص العمـوم، والمجتهدون من عـلماء الشرع أخص بتفسيره من غيرهم حملاً لمـعانى الألفاظ على الأصول الشرعية، حتى لا يتنافى الجمع بين معانيها وأصول الشرع، فيعتـبر فيه حال اللفظ، فإنه ينقسم إلى قسمين: **أحدهـما:** أن يكون مشتـملاً على معنًى واحد لا يتعـداه، ومقصورًا عليه، ولا يحتـمل ما سواه،

فيكون من المعانى الجلية والنصوص الظاهرة، التى يُعلَمُ مُراد الله تعالى بها قطعًا من صريح كلامه، وهذا قسم لا يختلف حكمه ولا يلتبس تأويله. **والقسم الثانى:** أن يكون اللفظ محتملاً لمعنيين أو أكثر، وهذا على ضربين: **أحدهما:** أن يكون أحد المعنيين ظاهرًا جليًا، والآخر باطنًا خفيًا، فيكون محمولاً على الظاهر الجلى دون الباطن الخفى، إلا أن يقوم الدليل على أن الجلىَّ غيرُ مُرَادٍ، فيحمل على الخفى. **والضرب الثانى:** أن يكون المعنيان جليَّين، واللفظ مستعملاً فيهما حقيقةً، وهذا على ضربين: **أحدهما:** أن يختلف أصل الحقيقة فيهما، فهذا ينقسم على ثلاثة أقسام: **أحدها:** أن يكون أحد المعنيين مستعملاً فى اللغة، والآخر مستعملاً فى الشرع، فيكون حملُه على المعنى الشرعىِّ أولى من حملِهِ على المعنى اللُّغَوىِّ، لأن الشرع ناقل. **والقسم الثانى:** أن يكون أحد المعنيين مستعملاً فى اللغة، والآخر مستعملاً فى العُرْفِ، فيكون حمله على المعنى العُرفى أولى من حملة على معنى اللُّغةِ، لأنه أقرب معهود. **والقسم الثالث:** أن يكون أحد المعنيين مستعملاً فى الشرع، والآخر مستعملاً فى العرف، فيكون حمله على معنى الشرع أولى من حملة على معنى العرف لأن الشرع ألزم.

والضرب الثانى: أن يتفق أصل الحقيقة فيهما فيكونا مستعملَيْن فى اللغة على سواء، أو فى الشرع، أو فى العُرف، فهذا على ضربين: **أحدهما:** أن يتنافى اجتماعُهما ولا يُمْكِن استعمالهما كالأحكام الشرعية، مثل القُرْء الذى هو حقيقة فى الطهر، وحقيقة فى الحيض، ولا يجوز للمجتهد أن يجمع بينهما لتنافيهما، وعليه أن يجتهد رأيَهُ فى المراد فيهما بالأمارات الدالَّةِ عليه، فإذا وصل إليه، وكان هو الذى أراده الله تعالى منه، وإذا أدى اجتهاد غيره إلى الحكم الآخر، وكان هو المراد منه فيكون مُرادُ الله تعالى من كل واحدٍ منهما ما أداه اجتهاده إليه.

ولو لم يترجَّحْ للمجتهد أحدُ الحكمين، ولا غَلَبَ فى نفسه أحد المعنيين لتكافؤِ الأماراتِ عنده، ففيه للعلماء مذهبان: **أحدهما:** أن يكون مخيرًا للعمل على أيهما شاء. **والمذهب الثانى:** أن يأخذ بأغلظ المذهبين حكمًا.

والضرب الثانى فى اختلاف المعنيين: ألا يتنافيا ويُمْكِن الجمعُ بينهما فهذا على ضربين:

أحدهما: أن يتساويا، ولا يترجَّحَ أحدهما على الآخرِ بدليلٍ، فيكون المعنيان معًا مرادين، لأن الله تعالى لو أراد أحدهما لنصب على مرادِهِ منهما دليلاً، وإن جاز أن يريد كل واحدٍ من المعنيين بلفظين متغايرين لعدم التنافى بينهما، جاز أن يريدهما بلفظ واحدٍ، يشتمل عليهما، ويكون ذلك أبلَغَ فى الإِعجاز والفصاحة.

والضرب الثانى: أن يترجَّحَ أحدهما على الآخر بدليلٍ، وهو على ضربين: **أحدهما:** أن يكون دليلاً على بطلان أحد المعنيين، فيسقط حكمه، ويصير المعنى الآخر هو المراد، وحكمه هو الثابت. **والضرب الثانى:** أن يكون دليلاً على صحة أحد المعنيين فيثبت حكمه ويكون مرادًا، ولا يقتضى سقوط المعنى الآخر، ويجوز أن يكون مرادًا، وإن لم يكن عليه دليل، لأن موجب لفظه دليل، فاستويا فى حكم اللفظ، وإن ترجَّحَ أحدهما بدليل، فصارا مرادين معًا.

وذهب بعض أهل العلم إلى أن المعنى الذى يرجح بدليل أَثْبَتُ حكمًا من المعنى الذى تجرد عنه، ولقوته بالدليل الذى ترجح به، فهذا أصلٌ يعتبر من وجوه التفسير، ليكون ما احتملته ألفاظ القرآن من اختلاف المعانى محمولاً عليه، فيعلم ما يؤخذ به ويعدل عنه».

موقفه من المكى والمدنى وأسماء السور:

والماوردى يعنى فى تفسيره بذكر المكى والمدنى وأسماء السور، مثال ذلك ما قاله فى فاتحة الكتاب: «قال قتادة: هى مكية، وقال مجاهد: هى مدنية.

ولها ثلاثة أسماء: فاتحة الكتاب، وأم القرآن، والسبع المثانى».

موقفه من تفسير القرآن بالقرآن:

اعتمد الماوردى هذا النوع من التفسير فى كتابه، فمثلا عند تفسير قوله تعالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ (البقرة: ٣٧) قال: «واختُلِفَ فى الكلمات التى تلقَّاها آدم من ربِّه على ثلاثة أقاويل:

أحدها: قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الأعراف: ٢٣) وهذا قول الحسن، وقتادة، وابن زيد».

موقفه من تفسير القرآن بالسنة:

ومن السمات الواضحة فى «النكت والعيون» اعتماد الماوردى على السنة الصحيحة فى تفسيره للقرآن، فمثلا عند تفسير قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (الفاتحة: ٧) قال: روى «عن عدىِّ بن حاتم قال: سألت رسول الله ﷺ، عن المغضوب عليهم، فقال: هُمُ اليَهُود، وعن الضالين، فقال: هُمُ النَّصارَى».

موقفه من القراءات:

حفل تفسير «النكت والعيون» بالقراءات القرآنية، المتواتر منها والشاذ، والماوردى عندما يذكرها فهو ينسبها إلى من قرأ بها، ويعنى بتوجيهها.

مثال ذلك عند تفسيره قوله عز وجل: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ (الكهف: ٩٣) حيث قال: «بالفتح قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم فى رواية حفص، وقرأ الباقون: «بين السُّدين» بالضم، واختُلف فيهما على قولين:

أحدهما: أنهما لغتان معناهما واحد.

الثانى: أن معناهما مختلف.

وفى الفرق بينهما ثلاثة أوجه [ولم يذكر الوجه الثالث]:

أحدها: أن السُّد - بالضم - من فعل الله، عز وجل، وبالفتح من فعل الآدميين.

الثانى: أنه بالضم الاسم، وبالفتح المصدر، قاله ابن عباس وقتادة والضحاك».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ (الكهف: ٩٤) قال: «قرأ حمزة والكسائى: «خَرَاجًا» وقرأ الباقون «خَرْجًا» وفى اختلاف القراءتين ثلاثة أوجه:

أحدها: أن الخراج الغلة الأجرة.

الثانى: أن الخراج اسم لما يخرج من الأرض، والخرج ما يؤخذ عن الرقاب، قاله أبو عمرو بن العلاء.

الثــالث: أن الخراج ما يؤخـذ دفعة، والخراج ثابت مأخـوذ فى كل سنة، قاله ثعلب».

وفى قوله تعالى: ﴿وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ (البقرة: ٢٥٩) قال: «قراءتان:

إحـداهـمـا: «ننشرُها» بالراء المهـمـلة، قرأ بذلك ابن كثيـر ونافع وأبو عمرو، ومعناه نحـييهـا، والنشور: الحيـاة بعد الموت، مـأخوذ من نشر الثـوب، لأن الميت كالمطوى، لأنه مقبـوض عن التصرف بالموت، فإذا حَيِىَ وانبسط بالتـصرف قيل: نُشِرَ وأُنشِر.

والقراءة الثانية: قرأ بها الباقون: «ننشزُها» بالزاى المعجمة، يعنى نرفع بعضها إلى بعض، وأصل النشـوز الارتفاع، ومنه النشـز اسم للموضع المـرتفع من الأرض، ومنه نشوز المرأة لارتفاعها عن طاعة الزوج».

موقفه من أسباب النزول:

ويُعنى المـاوردى فى تفـسيـره عناية تامـة بأسبـاب النزول، وربمـا أورد فى الآية الواحدة عدة أسباب، دون أن يرجح بينهـا، مما يشعر بتصويبه لها جـميعًا. والموارد ينسب جمـيع هذه الأقوال إلى أصحابهـا، مثال ذلك ما قـاله عند تفسير قـوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ (البـقـرة: ١١٥) قال: «اخـتلف أهل التأويل فى تأويلها، وسبب نزولها، على سبعة أقاويل:

أحـــدها: أن سبب ذلك أن النبى ﷺ كان يـستقبل بصلاته بيت المـقدس بعد هجرته ستة عشر شهرًا، أو سبعة عشـر شهرًا، حتى قالت اليهود: إن محمدًا وأصحابه ما دروا أين قبلتهم حتى هديناهم، فأمرهم الله تعالى باستقبال الكعبة، فتكلمت اليهود، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وهذا قول ابن عباس.

والثـانى: أن هذه الآية نزلت قبل أن يفرض استقبال القبلة، فأباح لهم أن يتوجهوا بصلاتهم حيث شاءوا من نواحى المشرق والمغرب، وهذا قول قتادة وابن زيد.

والثـالث: أنها نزلت فى صلاة التطوع للسائر حـيث توجه، وللخائف حيث تمكن من مشرق أو مغرب، وهذا قول ابن عمر، روى سعيد بن جبير عنه أنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ أن تصلى أينما توجهت بك راحلتك فى السفر

تطوعًا، وكان رسول الله ﷺ إذا رجع من مكة يصلى على راحلته تطوعًا، يومئ برأسه نحو المدينة.

والرابع: أنها نزلت، فيمن خفيت عليهم القبلة، ولم يعرفوا جهتها، فَصَلُّوا إلى جهات مختلفة.

روى عاصم بن عبد الله، عن عبد الله بن عامر بن ربيعة، عن أبيه قال: كنا مع رسول الله ﷺ فى ليلة مظلمة، فنزلنا منزلاً، فجعل الرجل يأخذ الأحجار، فيعمل مسجدًا يصلى فيه، فلما أصبحنا إذا نحن قد صلينا إلى غير القبلة، فقلنا: يا رسول الله لقد صلينا ليلتنا هذه إلى غير القبلة، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

والخامس: أنها نزلت فى النجاشى، ورَوَى أبو قتادة أن النبى ﷺ قال: «إِنَّ أَخَاكُم النَّجَاشِيَ قَدْ مَاتَ فَصَلُّوا عَلَيْه» قالوا: نصلى على رجل ليس بمسلم؟! قال: فنزلت: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾ (آل عمران: ١٩٩) قالوا: فإنه كان لا يصلى إلى القبلة، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾.

والسادس: أن سبب نزولها أن الله تعالى لما أنزل قوله: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (غافر: ٦٠) قالوا: إلى أين؟ فنزلت: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ (البقرة: ١١٥).

والسابع: أن معناه: وحيثما كنتم من مشرق أو مغرب فلكم قبلة تستقبلونها، يعنى جهة إلى الكعبة، وهذا قول مجاهد».

هل فى تفسير الماوردى نزعة اعتزالية؟

وقد وجد من القدامى والمعاصرين من اتهم الماوردى بالاعتزال، وسنورد أولا نماذج من تفسيره يُشَمُّ منها رائحة الاعتزال، ثم نذكر حجج من رماه بالاعتزال مع مناقشة تلك الحجج وبيان الرأى الراجح فى تلك المسألة، فنقول:

قال الماوردى عند تفسير قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (البقرة: ٧): «الختم: الطبع، ومنه ختم الكتاب، وفيه أربعة تأويلات:

أحدها: وهو قول مجاهد: أن القلب مثل الكف، فإذا أذنب العَبْدُ ذنبًا ضُمَّ منه كالإصبع، فإذا أذنب ذنبًا ثانيًا ضم منه كالإصبع الثانية، حتى يضمَّ جميعه ثم يطبع عليه بطابع.

والثانى: أنها سمة تكون علامة فيهم، تعرفهم الملائكة بها من بين المؤمنين.

والثالث: أنه إخبار من الله تعالى عن كفرهم وإعراضهم عن سماع ما دعوا إليه من الحق، تشبيهًا بما قد انسدَّ وخُتم عليه، فلا يدخله خير.

والرابع: أنها شهادة من الله تعالى على قلوبهم، بأنها لا تعى الذكر ولا تقبل الحقَّ، وعلى أسماعهم بأنها لا تصغى إليه، والغشاوة: تعاميهم عن الحق، وسُمِّى القلب قلبًا لتقلُّبِهِ بالخواطر، وقد قيل:

مَا سُمِّىَ الْقَلْبُ إِلاَّ مِنْ تَقَلُّبِهِ ... وَالرَّأىُ يَصْرِفُ، وَالإِنْسَانُ أَطْوَارُ

والغشاوة: الغطاء الشامل».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ (البقرة: ٢٥٣) قال: «فيه وجهان:

أحدهما: ولو شاء الله ما أمر بالقتال بعد وضوح الحجة.

والثانى: ولو شاء الله لاضطرهم إلى الإيمان، ولما حصل فيهم خيار».

وعند تفسير قوله عز وجل: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (الكهف: ٢٩) قال الماوردى: «هذا وإن كان خارجًا مخرج التخيير فهو على وجه التهديد والوعيد، وفيه ثلاثة أوجه:

أحدها: أنهم لا ينفعون الله بإيمانهم ولا يضرونه بكفرهم.

الثانى: فمن شاء الجنة فليؤمن، ومن شاء النار فليكفر، قاله ابن عباس.

الثالث: فمن شاء فليعرِّض نفسه للجنة بالإيمان، ومن شاء فليعرض نفسه للنار بالكفر».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ﴾ (التغابن: ٢) قال: «بأنه خلقه ﴿وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ بأنه خلقه، قاله الزجاج.

الثانى: فمنكم كافر به وإن أقرّ به، ومنكم مؤمن به.

قال الحسن: وفى الكلام محذوف وتقديره: فمنكم كافر ومنكم مؤمن ومنكم فاسق، فحذفه لما فى الكلام من الدليل عليه.

وقال غيره: لا حذف فيه لأن المقصود به ذكر الطرفين».

رأى ابن الصلاح ـ من القدامى ـ فى تفسير الماوردى ومناقشته فى ذلك:

وأول من اتَّهم الماوردى بالاعتزال ـ حسب علمى ـ هو: تقى الدين ابن الصلاح ـ مع أن بينهما نحو مائتى سنة ـ حيث قال: «هذا الماوردىُّ ـ عفا الله عنه ـ يُتَّهمُ بالاعتزال، وقد كنت لا أتحققُ ذلك عليه، وأتأولُ له، وأعتذرُ عنه فى كونه يوردُ فى الآيات التى يَختلفُ فيها أهلُ التفسير ـ تفسيرَ أهلِ السنة، وتفسيرَ المعتزلة ـ غير متعرضٍ لبيانِ ما هو الحقُّ منها، وأقولُ: لعلَّ قصدهُ إيراد كل ما قيل من حقٍّ أو باطل، ولهذا يورد من أقوال المشبِّهة أشياء من هذا الإيراد، حتى وجدته يختارُ فى بعض المواضع قولَ المعتزلةِ، وما بَنَوه على أصولهم الفاسدة، ومن ذلك مصيرهُ فى الأعراف إلى أنَّ الله لا يشاءُ عبادة الأوثان... وقال فى قوله تعالى: ﴿**وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ**﴾ (الأنعام: ١١٢) وجهان فى ﴿**جَعَلْنَا**﴾:

أحدهما: معناه حكمنا بأنَّهم أعداء.

والثانى: تركناهم على العداوةِ فلم نَمنعهم منها.

وتفسيره عظيمُ الضَّررِ، لكونه مشحونًا بتأويلات أهل الباطل، تلبيسًا وتدسيسًا على وجه لا يفطن له غيرُ أهل العلم والتحقيق، مع أنَّهُ تأليفُ رجل لا يتظاهر بالانتساب إلى المعتزلة، بل يَجتهدُ فى كتمان موافقتهم فيما هو لهم فيه موافق، ثُمَّ هو ليس معتزليًا مطلقًا فإنه لا يوافقهم فى جميع أصولهم، مثل خلق القرآن كما دلَّ عليه تفسيره فى قوله تعالى: ﴿**مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ**﴾ (الأنبياء: ٢) وغير ذلك، ويوافقهم فى القَدَرِ، وهى البليَّةُ التى غلبت على البصريين وعُيبوا بِها قديمًا».

ثمَّ جاء جمع من العلماء بعد ابن الصلاح فنَقلوا عنه كلامه ونسبوه إليه، تَخلصًا مِن تبعته لعدمِ تيقنهم منه، فهذا ياقوت الحمويُّ، يقول من غير جَزم: «... وكان

عالمًا بـارعًا متـفننًا شافعـيًّا فى الفـروع، ومعتـزليًّا فى الأصول على مـا بلغنى، والله أعلم».

وقال الداودى فى «طبـقات المـفسرين»: «... وذكـره ابن الصلاح فى طبـقاته، واتهمه بالاعتزال فى بعض المسائل بِحَسَبِ ما فهـمه عنه فى تفسيره فى موافقة المعتزلة فيـها، ولا يوافقـهم فى جميـع أصولهم، وممـا خالفهم فـيه أَنَّ الجنَّة مَـخلوقةٌ، نعم يوافقهم فى القول بالقَدَرِ، وهى بلية غلبت على البصريين».

وكذلك ذكر الذهبى ذلك فى ترجمتـه للماوردى فى «تاريخ الإسلام» دون أن يشير إلى ابن الصلاح.

وقد أوضح ابن الصـلاح منشأ اتهـامه للماوردى بالاعـتزال ألا وهو ذِكْـرُهُ لبعض أقوالهم دونَ اعتراضٍ عليها وقد أَخَـذَ مِن هـذا أَنَّهُ يَختـارها، والمعتزلةُ لا يطلقون صفةَ الاعتـزال إلا على من وافـقـهم فى أصولهم الخـمسـة - التوحـيد، والعـدل، والوعد والوعيد، والمنـزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعـروف، والنهى عن المنكر - وأَمَّا من لا يقول بهـا جميعًـا فليس معتـزليًّا بالقول الصـحيح، وقد نص على ذلك أبو الحـسين الخياط، من أئمة المعتزلة فى القرن الثالث - فى كتابه «الانتصار».

أما قول ابن الصـلاح: إنَّه كان «يورد فى تفسيره فى الآيات التى يختلف فـيها أهل التفسـير - تفسير أهل السنة، وتفسـير المعتزلة - غـير متعرض لبيـان ما هو الحق منها» فالماوردى يُعنى بـعرض الأقوال فى المسألة، ويجـتهد فى نسبة كـل قول إلى قائله من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، فى الكثير الغالب، وربـما فاته نسبة بعضها، ومن غير المعقول أن نُحمِّلَه تَبِعةَ كلِّ قولٍ قـيل فى المسألة، وبخاصة حين يسنده إلى قائله، وقد أوضح فى مـقدمـته أنه أراد مـن تفسـيره أن يكون «... جـامـعًا بين أقـاويل السلف والخلف، وموضحًا عن المؤتلف والمختلف...».

وقد أقـر ابن الصلاح بذلك حـين قال: «لعل قـصده إيراد كل ما قـيل من حق أو باطل»، غير أنه لم يعذره، ولم يرض بما ذهب إليه.

نعم، كان الأفضل أن يتعقب الأقوال بالتوجيه لها، والترجيح بينها، وقد فعل ذلك حينًا، وتركه حينًا آخر.

أما قول ابن الصلاح: «حتى وجدته يختـار فى بعض المواضع قول المعتزلة، وما بنوه على أصولهم الفـاسدة، ومن ذلك مصـيره فى الأعراف إلى أن الله لا يشاء عـبادة الأوثان. . . وقال فى قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ ﴾ (الأنعام: ١١٢) وجهان فى ﴿ جَعَلْنَا ﴾:

أحدهما: معناه حكمنا بأنهم أعداء.

والثانى: تركناهم على العداوة فلم نمنعهم منها».

فصحيحٌ أَنَّه ذَكَرَ أقوال المعتزلة، لكنَّ دلالةَ ذلك على اعتقادِه بِها غيرُ قطعيةٍ، فهو لم يزد على أَنْ عَرَضَ القولَ وتَركه ولَم يُرجحه بشىء.

أما قول ابن الصلاح: «وتفسيره عظيمُ الضَّرَرِ لكونهِ مشحونًا بتأويلات أهل الباطل، تلبيسًا وتدسيسًا على وجـه لا يفطن له غير أهل العلم والتحقيق، مع أنه تأليف رجل لا يتظاهر بالانتساب إلى المعتزلة، بل يجتهد فى كتمان موافقتهم فيما هو لهم فيه موافق» فهو قول مردودٌ وغيرُ مُسلَّمٍ، وفيه تَحاملٌ ظاهرٌ على الماوردى، وعدمُ إنصافٍ لَهُ، ذلك أنَّ تفسيْرَهُ مليءٌ بتـأويلات السَّلَفِ من الصحابة والتابعين، ومشاهيـر علماء المسلمين، منسوبةٌ لَهم بأسمائهم، مع مـا نقله بجانبِ ذلك من تأويلات الخَلَفِ، ومن بينها بعض تأويلات المعـتزلة، والتى أراد من ذكـرها بيان ما قـيل فى الآية من حق وباطل، ومن راجح ومرجوح، وهو فى الغالب حين يذكر أقوال المـعتزلة ينسبها إلى من قال بها من علمائهم كأبى على الجُبَّائى، والأصمِّ، وعلى بن عيسى الرمانىِّ، وأبى مسلم محمد بن بَحر الأصفهـانىِّ، والذى كثيرًا ما ينقلُ آرائه ويتـعقبها بالنَّقدِ والردِّ، فـلا لوم عليه بعد ذلك، إذا حكى أقوال المعتزلة ما دام قد نَسبها.

فكيف يصحُّ من ابن الصلاح بعـدَ هذا أن يصرف النظرَ عن كل ذلك، ويتصـيَّد ما قد يكون ذكـره الماوردى من أقـوالهم التى أغفل نسـبتـها ليجـعل منها دليـلاً على أنه معتزلى أراد الإضرار بعقائد السَّوادِ من الناس فقصد بذلك التدليس والتلبيس! فرحم الله ابن الصلاح فلقد فاته الإنصاف.

رأى الدكتور عدنان زرزور ـ من المعاصرين ـ فى «النكت والعيون» ومناقشته فى ذلك:

أما الدكتور عدنان زرزور فقد عدَّ تفسير الماوردى من تفاسير المعتزلة، وأَنَّهُ وُضِعَ على أصولهم ومنهجهم فى التفسير ونقل منه نصًا رآهُ دليلاً على ما ذهب إليه، فقال فى كتابه «الحاكم الجشمى ومنهجه فى تفسير القرآن»: «والناظر فى هذا التفسير قد لا يقف فيه سريعًا على أثرٍ واضح لمذهب المصنِّفِ الذى كان لا يُجاهرُ بالاعتزال فيما يبدو، ولكنه كان ينتصر فيه لمذهب المعتزلة على التحقيق، مرة بالإشارة العابرة، وأخرى بوضع القارئ أمام وجوه كثيرة فى تفسير الآية الواحدة، يوردها موجزةً ملخصةً وليس من بينها ما يناقض مذهب المعتزلة بحال.

قال فى قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ٢): «وفى المتقين ثلاثة تأويلات:

أحدها: الذين اتقوا ما حرم الله عليهم، وأدوا ما افترض عليهم، وهذا قول الحسن البصرى.

والثانى: أنهم الذين يحذرون من الله العقوبة، ويرجون رحمته، وهذا قول ابن عباس.

والثالث: أنهم اتقوا الشرك وبرئوا من النفاق، وهذا فاسد لأنه قد يكون كذلك وهو فاسق، وإنما خص به المتقين وإن كان هُدًى لجميع الناس لأنهم آمنوا به، وصدقوا بما فيه».

ثم قال الدكتور عدنان: «وأيا ما كان الأمر فإن الماوردى وضع تفسيره على أصول المعتزلة ومنهجهم فى التفسير، سواءً أخالفهم فى بعض المسائل أم لا، وسواء أجاهر بالاعتزال أم لا، وإن كنا لا ندرى ما هو حد الجهر عند ابن الصلاح».

وقد عَقَّبَ الدكتور عبد الله الوهيبى ـ فى مقدمة تحقيقه لتفسير العز بن عبد السلام ـ على ما ذكره الدكتور عدنان زرزور تلك فقال: «وهذا حُكمٌ يعوزهُ التحقيق، فلو أنَّ الباحث تصفح هذا التفسير وقرأ فيه لتبين له أنه تسرع فى الحكم عليه، ورجع عن قوله «فإن الماوردى وضع تفسيره على أصول المعتزلة ومنهجهم فى التفسير» لأن قوله هذا يعنى أن الماوردى يقول بجميع أصول المعتزلة، وهذا قول لا دليل عليه،

ومخالف لما فى تفسير الماوردى، ولو صح ما قال، لم يقل ابن الصلاح: «هو ليس معتزليًا مطلقًا فإنه لا يوافقهم فى جميع أصولهم، مثل خلق القرآن كما دل عليه تفسيره فى قوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ (الأنبياء: ٢) وغير ذلك، ويوافقهم فى القدر...» فكان الأولى بالباحث أن يكون منصفًا فى حكمه، متحققًا من قوله بقراءة قسم من هذا التفسير يكفى للحكم عليه، أما إصدار الحكم بناء على قراءة المقدمة وتفسير آيتين من سورة البقرة فلا يكفى، وليس فى هاتين الآيتين ما يدل على حكمه».

والسبكى الذى نقل قول ابن الصلاح فى الماوردى عقَّب عليه فقال: «والصحيحُ أنَّه ليس معتزليًا، ولكنه يقول بالقَدَرِ فقط».

وابن حجر تعقب عبارة الذهبى عن الماوردى بأنه «صدوق فى نفسه، لكنه معتزلى» فيقول: «ولا ينبغى أن يطلق عليه اسم الاعتزال» ثم قال: «والمسائل التى وافق فيها المعتزلة معروفة، منها مسألة وجوب الأحكام والعمل بها هل هى مستفادة من الشرع أو العقل؟ كان يذهب إلى أنها مستفادة من العقل، ومسائل أخرى توجد فى تفسيره وغيره منها أنه قال فى تفسير سورة الأعراف: إن الله لا يشاء عبادة الأوثان، وافق اجتهاده فيها مقالات المعتزلة».

وهذا تلميذه الخطيب البغدادى يقول عنه: «كتبت عنه، وكان ثقة».

ويقول ابن الجوزى: «وكان ثقة صالحًا».

فلو كان معتزليًا لنبهوا على ذلك، فالخطيب تلميذه فهو أقرب إليه، وأعرف به.

ولعل من أدلة عدم اعتزاله علاقته بالخليفة القادر بالله، ووجه ذلك أن القادر كان من علماء الشافعية، وقد ألف كتابًا فى الأصول ذكر فيه فضائل الصحابة على ترتيب مذهب أصحاب الحديث، وأورد فى كتابه فضائل عمر بن عبد العزيز وإكفار المعتزلة والقائلين بخلق القرآن، وكان ذلك الكتابُ يُقرأُ فى كُلِّ جُمعةٍ فى حلقة أصحاب الحديث بجامع المهدى وبحضرة الناس، فإذا كان هذا هو رأى الخليفة القادر بالله فى المعتزلة وموقفه منهم، فبعيد أن يُقرب الماوردى منه وهو كذلك، وبعيد أن يجهل عقيدته، ثم هو معلوم عنه من سيرته شجاعته، وجرأته فى الحق، يشهد لذلك موقفه

من تلقيب جلال الدولة بملك الملوك، ومعارضته لذلك، فما الذى يجعله إذا كان معتزليًا لا يتظاهر بالانتساب إليهم، ويخفى أمره بل يجتهد فى كتمان ذلك؟! ثم ما الذى يجعل القول باعتزاله يتأخر نحو مائتى سنة إلى أن جاء ابن الصلاح فأعلن ذلك؟».

ثم ذكر الدكتور عبد الله الوهيبى ما رآه صوابًا، وأوافقه عليه، فقال: ولعل أقرب ما يقال عن الماوردى فى هذه المسألة ما قاله ابن حجر من أن: «له مسائل وافق اجتهاده فيها مقالات المعتزلة، ولا ينبغى أن يطلق عليه اسم الاعتزال».

موقفه من المسائل الفقهية:

حفل تفسير الماوردى بذكر العديد من المسائل الفقهية، مع إيراده آراء الأئمة المجتهدين والصحابة والتابعين، دون الإشارة إلى مذهب الإمام أحمد.

والماوردى لا يستطرد فى ذكر الأدلة ومناقشتها، وغالبًا ما يرجح قول الشافعى، مثال ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ١٥٨) حيث قال: «فذهب أبو حنيفة إلى أنّ السعى بين الصفا والمروة غير واجب فى الحج والعمرة بأمرين:

أحدهما: قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ ورفع الجنح من أحكام المباحات دون الواجبات.

والثانى: أن ابن عباس وابن مسعود قرآ: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾.

وذهب الشافعى، ومالك، وفقهاء الحرمين، إلى وجوب السعى فى النسكين تمسكًا بفحوى الخطاب ونص السنة، وليس فى قوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ دليل على إباحته دون وجوبه، لخروجه على سبب، وهو أن الصفا كان عليه فى الجاهلية صنم اسمه إساف، وعلى المروة صنم اسمه نائلة، فكانت الجاهلية إذا سعت بين الصفا والمروة طافوا حول الصفا والمروة تعظيمًا لإساف ونائلة، فلما جاء الإسلام وأُلغيت الأصنام تَكَرَّهَ المسلمون أن يُوَافِقُوا الجاهلية فى الطواف حول الصفا والمروة، مجانبةً لما كانوا

عليه من تعظيم إساف ونـائلة، فأباح الله تعالى ذلك لهم فى الإسلام لاختـلاف القصد فقال: ﴿فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾.

وأما قراءة ابن مسعود، وابن عباس: ﴿فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ فلا حـجة فيها على سقـوط فرض السعى بينهما لأن لا صلة فى الكلام إذا تقدمهـا جَحْد، كقوله تعـالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ (الأعـراف: ١٢) بمعنى أن تسجـد، وكما قال الشاعر:

ما كـان يرضى رسول الله فـعلهم   والطيـبـان أبو بكر ولا عُـمَـرُ»

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ (البقرة: ١٩٦) قال: «فيه قولان:

أحدهما: أنه كل حابس من عدوّ، أو مرض، أو عذر، وهو قول مجاهد، وقتادة، وعطاء، وأبى حنيفة.

والثـانى: أنه الإحصار بالعدوّ، دون المرض، وهو قـول ابن عباس، وابن عمر، وأنس بن مالك، والشافعى.

وفى ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ قولان:

أحدهما: شاة، وهو قول ابن عباس، والحسن، والسدى، وعلقمة، وعطاء، وأكثر الفقهاء.

والثـانى: بدنة، وهو قول عمر، وعائشـة، ومجاهد، وطاوس، وعروة، وجعلوه فيما استيسر من صغار البُدْن وكبارها».

نقله لبعض أقوال الصوفية:

ذكر الماوردى فى مقدمة تفسيره أقوال العلماء فى حديث: «ما نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ مِنْ آيَةٍ إِلاَّ لَهَا ظَهْرٌ وبَطْنٌ» وقال بعد أن عدَّه من أخبار الآحاد: «ففيه أربعة تأويلات:

أحدها: معناه أنك إذا فتشت عن باطنها وقسته على ظاهرها، وقفت على معناها، وهو قول الحسن.

والثانى: يعنى أن القِصَصَ ظاهِرُها الإخبار بهلاك الأولين، وباطنها عظة للآخرين، وهذا قول أبى عبيد.

والثــالث: معناه ما من آية إلا وقد عمل بها قــوم، ولها قوم سيعملون بها، وهذا قول ابن مسعود.

والرابع: يعنى أن ظاهرها لفظها، وباطنها تأويلها، وهذا قول الجاحظ».

هذا وقـد أكثـر الماوردى عند تفـسيـره لبعض الآيات من ذكـر أقوال الصـوفيـة، ويصدرها بقوله: قال أصحاب الخواطر، أو المعارف، أو الإشارة، أو المتعمقة، ويذكر هذه الأقوال غالبًا دون تعقيب، وتارة يتعقبـها إن كانت بعيدة عن المراد، ومن أمثلة ما أورده وارتضاه مـا قاله عند تفـسير قـوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ (البقرة:٢٥٧) قال الماوردى:

«أحدهما: يخرجونهم من نور الهدى إلى ظلمات الضلالة.

والثانى: يخرجونهم من نور الثواب إلى ظلمة العذاب فى النار.

وعلى وجـه ثالث لأصحاب الخواطر: أنهم يخرجونهم من نور الحق إلى ظلمات الهوى».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (الأحزاب: ٣٣) قال الماوردى: «وفى تأويل هذه الآية لأصحاب الخواطر ثلاثة أوجه:

«أحـدها: يذهب عنكم رجس الأهواء والتبرج، ويطهـركم من دنس الدنيا والميل إليها.

الثانى: يذهب عنكم رجس الغل والحسد، ويطهركم بالتوفيق والهداية.

الثالث: يذهب عنكم رجس البخل والطمع ويطهركم بالسخاء والإيثار».

ومن أمثلة ما حكاه من أقـوال الصوفية ولم يقـره ما قاله عند تفسيـر قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ (المـؤمنون: ١٧) حيـث قال: «وتأويل بعض المتعمـقة فى غوامض المعانى سبع طرائق: أنها سـبعة حجب بينه وبين ربه، الحجاب الأول: قلبه، الثانى: جسمه، الثالث: نفسه، الرابع: عقله، الخامس: علمه، السادس: إرادته، السابع: مشيئته توصله إن صلحت وتحجبه إن فسدت، وهذا تكلف بعيد».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِى مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ (الفـرقان: ٥٣) قال: «وتأويل

بعض المتعمقين فى غوامض المعانى أن مرج البحرين قلوب الأبرار مضيئة بالبر، وهو العذب، وقلوب الفجار مظلمة بالفجور وهو الملح الأجاج، وهو بعيد».

موقفه من الإسرائيليات:

والماوردى يكثر فى تفسيره من ذكر الإسرائيليات، ولا يعقب عليها أو يفندها، مثال ذلك ما قاله عند تفسير قوله عز وجل: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ﴾ (هود: ٣٨) قال: «قال زيد بن أسلم: مكث نوح، عليه السلام، مائة سنة يغرس الشجر ويقطعها وييبسها، ومائة سنة يعملها.

واختلف فى طولها على ثلاثة أقاويل:

أحدها: ما قاله الحسن: كان طولها ألف ذراع ومائتى ذراع، وعرضها ستمائة ذراع، وكانت مطبقة.

الثانى: ما قاله ابن عباس: كان طولها أربعمائة ذراع، وعلوها ثلاثون ذراعًا.

[الثالث]: وقال خصيف: كان طولها ثلاثمائة ذراع، وعرضها خمسون ذراعًا.

وكان فى أعلاها الطير، وفى وسطها الناس، وفى أسفلها السباع، وأقلعت من عين وردة فى يوم الجمعة لعشر مضين من رجب، ورست بباقردى على الجودى يوم عاشوراء».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ (ص: ٣٤) قال: «وقال سعيد بن المسيب: كان سليمان قد وضع خاتمه تحت فراشه فأخذه الشيطان من تحته، وقال مجاهد: بل أخذه الشيطان من يده لأن سليمان سأل الشيطان كيف تضل الناس؟ فقال الشيطان: أعطنى خاتمك حتى أخبرك فأعطاه خاتمه، فلما أخذ الشيطان الخاتم جلس على كرسى سليمان متشبهًا بصورته داخلاً على نسائه، يقضى بغير الحق ويأمر بغير صواب، واختلف فى إصابته النساء، فحكى عن ابن عباس: أنه كان يأتيهن فى حيضهن، وقال مجاهد: مُنع من إتيانهن، وزال عن سليمان ملكه فخرج هاربًا إلى ساحل البحر يتضيف الناس ويحمل سموك الصيادين بالأجرة، وإذا أخبر الناس أنه سليمان كذبوه، فجلس الشيطان على سريره، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا﴾».

واختلف فى اسم هذا الشيطان على أربعة أقاويل:

أحدها: أن اسمه صخر، قاله ابن عباس.

الثانى: آصف، قاله مجاهد.

الثالث: حقيق، قاله السدى.

الرابع: سيد، قاله قتادة.

ثم إن سليمــان بعد أن استنكر بنو إسرائــيل حكم الشيطان أخذ حوته من صــياد، قيل: إنه استطعمــها، وقال ابن عباس: أخذها أجرًا فى حــمل حوت حمله، فلما شق بطنه وجد خــاتمه فيهــا، وذلك بعد أربعين يومًــا من زوال ملكه عنه، وهى عدة الأيام التى عُبد الصنم فى داره.

قال مقاتل: وملك أربعــين سنة، عشرين سنة قبل الفتنة وعــشرين بعدها، وكانت الأربعون يومًا التى خرج فيها عن ملكه: ذا القعدة وعشرًا من ذى الحجة، فسجد الناس له حين عاد الخاتم إليه وصار إلى ملكه.

وحكى يحيى بن أبى عمرو الشيبانى أن سليمان وجــد خاتمه بعسقلان فمشى منها إلى بيت المقدس تواضعًا لله.

قال ابن عــباس: ثم إن سليمــان ظفر بالشيطــان فجعله فى تخت من رخــام وشده بالنحاس وألقاه فى البحر، فهذا تفسير قوله تعالى: ﴿**وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا**﴾».

وهكذا يمر الماوردى على هذه الأقوال، ولا يفندها مع ما فــيها من مساس بجانب العقيدة، وعصمة الأنبياء.

٥- زاد المسير فى علم التفسير

لابن الجوزى

التعريف بصاحب هذا التفسير[(١)]:

هو: عبد الرحمن بن على بن محمد بن على القرشى التيمى، أبو الفرج البغدادى، الحنبلى، يُعرف بابن الجوزى، ويلقب بجمال الدين.

وُلد ببغداد فى حدود سنة عشر وخمسمائة، وتوفى أبوه وله من العمر ثلاث سنين.

ولما بلغ سن التمييز مضت به عمته إلى أبى الفضل محمد بن ناصر، فتولى تعليمه، وسمَّعه من الشيوخ.

قرأ ابن الجوزى القرآن على سبط الخياط، وعلى أبى حكيم إبراهيم بن دينار النهروانى، وقرأ عليه المذهب والفرائض.

وتفقه على: أبى بكر الدينورى، وابن الفراء.

وسمع من أحمد بن أحمد التوكلى، وزاهر الشحامى، وشهدة الكاتبة، وأحمد بن على بن الحسن بن البناء البغدادى، وأحمد بن محمد بن الحسن البغدادى الأصبهانى، وأبى العز بن كادش، وطائفة، مجموعهم نيف وثمانون شيخًا.

حدَّث عنه: ابنه يوسف، وابن الدبيثى، وابن النجار، والحافظ عبد الغنى المقدسى، وآخرون.

وكان من كبار الوعَّاظ ببغداد، فقيهًا عالمًا بالتاريخ والحديث، واسع الاطلاع، كثير التصانيف.

قال عنه ابن الدبيثى: إليه انتهت معرفة الحديث وعلومه.

وقال ابن خلكان: علاَّمة عصره، وإمام وقته فى الحديث وصناعة الوعظ.

---

(١) مصادر الترجمة: المنتظم (١/ ١٣ - ٤٤) المقدمة، الكامل فى التاريخ (١٢/ ١٧١)، وفيات الأعيان (٣/ ١٤٠ برقم ١٧٠)، سير أعلام النبلاء (٢١/ ٣٦٥)، المستفاد من ذيل تاريخ بغداد ١٥٥ برقم ١١٠، ذيل طبقات الحنابلة (٣/ ٣٩٩ برقم ٢٠٥)، البداية والنهاية (١٣/ ٣١)، طبقات المفسرين للداودى (١/ ٢٧٥/ برقم ٢٦٠).

ومع إحاطة ابن الجوزى بكثير من فنون العلم، وشهرته، وإكبار العلماء لعلمه، فقد تعرَّض لنقد بعضهم، واتُّهم بكثرة الأوهام.

قال الحافظ سيف الدين ابن المجد: هو كثير الوهم جدًا، فإن فى مشيخته مع صغرها أوهامًا.

وعن ابن نقطة، قال: قيل لابن الأخضر: ألا تجيب عن بعض أوهام ابن الجوزى؟ قال: إنما يُتتبَّع على مَن قَلَّ غلطه، فأما هذا فأوهامه كثيرة.

صنَّف ابن الجوزى كتبًا كثيرة فى أنواع العلم من التفسير والحديث والفقه والأخبار والتاريخ، وغير ذلك، بلغت فى قول بعضهم نحو ثلاثمائة كتاب.

فمن كتبه فى الفقه: الإنصاف فى مسائل الخلاف، عمدة الدلائل فى مشهور المسائل، مسبوك الذهب، وغيرها.

ومن كتبه فى الحديث: جامع المسانيد، الحدائق، غريب الحديث، والموضوعات.

وصنَّف فى الوعظ: التبصرة، المدهش، بحر الدموع، والياقوتة.

وله أيضًا: زاد المسير فى علم التفسير، وهو ما نحن بصدد دراسته، فنون الأفنان فى عيون علوم القرآن، الوفا فى فضائل المصطفى، تلبيس إبليس، دفع شبهة التشبيه، والمنتظم فى تاريخ الأمم والملوك.

وله شعر، منه:

يا ساكن الدنيا تأهَّب ... وانتظر يوم الفراقِ
وأعِدَّ زادك للرحيل فـ ... ـسوف تُحدى بالرفاقِ
وابك الذنوبَ بأدمع تنهلُّ ... من سحب المآقى
يا من أضاع زمانه أرضيـ ... ـتَ ما يفنى بباقى؟

توفى ببغداد فى رمضان سنة سبع وتسعين وخمسمائة.

منهج ابن الجوزى فى تفسيره

والسبب الداعى لتأليفه هذا الكتاب:

أوضح ابن الجوزى فى مقدمة كتابه السبب الداعى لهذا التأليف، ومنهجه الذى ارتضاه فقال: «لما كان القرآن العزيز أشرف العلوم، كان الفهم لمعانيه أوفى الفهوم؛

لأن شرف العلم بشرف المعلوم، وإنى نظرت فى جملة من كتب التفسير، فوجدتها بين كبير قد يئس الحافظ منه، وصغير لا يستفاد كل المقصود منه، والمتوسط منها قليل الفوائد عديم الترتيب، وربما أُهمل فيه المشكل، وشُرح غير الغريب، فأتيتك بهذا المختصر اليسير، منطويًا على العلم الغزير».

ثم قال: «ولما رأيت جمهور كتب المفسرين لا يكاد الكتاب منها يفى بالمقصود كشفه حتى ينظر للآية الواحدة فى كتب، فرُبَّ تفسير أخل فيه بعلم الناسخ والمنسوخ، أو ببعضه، فإن وجد فيه لم يوجد أسباب النزول، أو أكثرها، فإن وجد لم يوجد بيان المكى من المدنى، وإن وجد ذلك لم توجد الإشارة إلى حُكْم الآية، فإن وجد لم يوجد جواب إشكال يقع فى الآية، إلى غير ذلك من الفنون المطلوبة، وقد حذرت من إعادة تفسير كلمة متقدمة إلا على وجه الإشارة، ولم أغادر من الأقوال ـ التى أحطت بها ـ إلا ما تبعد صحته، مع الاختصار البالغ، فإذا رأيت فى فرش الآيات ما لم يذكر تفسيره، فهو لا يخلو من أمرين: إما أن يكون قد سبق، وإما أن يكون ظاهرًا لا يحتاج إلى تفسير، وقد انتقى كتابنا هذا أنقى التفاسير، فأخذ منها الأصح والأحسن والأصون، فنظمه فى عبارة الاختصار».

وقد جمع ابن الجوزى فى تفسيره بين أقوال السلف والخلف، ورتب تفسيره ترتيبًا بديعًا، فهو يحصر الأقوال الكثيرة فى تأويل الآية، فى عدد، ثم يفصلها، وينسب كل قول إلى قائله، مع عناية تامة بالجانب اللغوى والقراءات، وعدم الاستطراد فى المسائل الكلامية.

موقفه من أحاديث فضائل السور:

كما عُنى ابن الجوزى فى تفسيره بأحاديث فضائل السور، ويفرد لها فصلاً فى مطلع تفسيره لكل سورة، مثال ذلك فى سورة البقرة حيث قال: «فصل فى فضيلتها: روى أبو هريرة عن النبى ﷺ أنه قال: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر، فإن البيت الذى تُقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان» وروى أبو أمامة عن النبى ﷺ أنه قال: «اقرأوا الزهراوين: البقرة وآل عمران، فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صواف، فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا يستطيعها البطلة».

وابن الجوزى لا يلتزم الصحة فيما يورده من تلك الأحاديث، مثال ذلك ما ذكره فى فضل سورة النور، عند تفسيره لها، حيث ذكر حديثًا عزاه للحاكم فى مستدركه: «لا تنزلوهن الغرف، ولا تعلموهن الكتابة، وعلموهن المغزل وسورة النور».

موقفه من المكى والمدنى:

وابن الجوزى فى تفسيره من المعنيين بذكر المكى والمدنى، معتمدًا فى ذلك على أقوال الصحابة ﷺ أو التابعين، وإن كان ثمة اختلاف بين الصحابة والتابعين فى تلك المسألة فإنه يذكرها دون أن يرجح بين الأقوال، مثال ذلك اختلافهم فى سورة الفاتحة حيث قال: «واختلف العلماء فى نزولها على قولين:

أحدهما: أنها مكية، وهو مروى عن علىٍّ بن أبى طالب والحسن وأبى العالية وقتادة وأبى عبيدة.

والثانى: أنها مدنية وهو مروى عن أبى هريرة ومجاهد وعبيد بن عُمير وعطاء الخراسانى، وعن ابن عباس كالقولين».

وأيضًا فى سورة البقرة حيث قال: «قال ابن عباس: هى أول ما نزل بالمدينة، وهذا قول الحسن ومجاهد وعكرمة وجابر بن زيد وقتادة، وذكر قوم أنها مدنية سوى آية وهى قوله عز وجل: ﴿**وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ**﴾ (البقرة: ٢٨١) أُنزلت يوم النحر بمنى فى حجة الوداع».

موقفه من أسباب النزول:

هذا ولم يغفل ابن الجوزى فى تفسيره أسباب النزول، بل هو من المكثرين فيها، وربما أورد فى بعض السور والآيات أكثر من سبب دون أن يُصوب أو يرجح بين الأقوال، مثال ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ**﴾ (الأحزاب: ٢٣) حيث قال: «اختلفوا فيمن نزلت على قولين:

أحدهما: أنها نزلت فى أنس بن النضر، قاله أنس بن مالك، وقد أخرج البخارى ومسلم من حديث أنس بن مالك قال: غاب عمِّى أنس بن النضر عن قتال بدر، فلما قدم قال: غبت عن أول قتال قاتله رسول الله ﷺ المشركين، لئن أشهدنى الله - عز وجل - قتالاً ليرين الله ما أصنع، فلما كان يوم أحد انكشف الناس، فقال: اللهم

إنى أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء - يعنى: المشركين - وأعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعنى: المسلمين - ثم مشى بسيفه، فلقيه سعد بن معاذ فقال: أى سعد، والذى نفسى بيده إنى لأجد ريح الجنة دون أحد، واهًا لريح الجنة، قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع، قال أنس: فوجدناه بين القتلى، به بضع وثمانون جراحة من ضربة بسيف وطعنة برمح ورمية بسهم، قد مَثَّلوا به، قال: فما عرفناه، حتى عرفته أخته ببنانه، قال أنس: فكنا نقول: أنزلت هذه الآية: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ فيه وفى أصحابه.

والثانى: أنها نزلت فى طلحة بن عبيد الله، روى النزال بن سبرة عن على - عليه السلام - أنهما له، حدثنا عن طلحة، قال: ذاك امرؤ نزلت فيه آية من كتاب الله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾ (الأحزاب: ٢٣) لا حساب عليه فيما يستقبل، وقد جعل بعض المفسرين هذا القدر من الآية فى طلحة، وأولها فى أنس».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ ...﴾ (الأحزاب: ٥٣) الآية، أورد ابن الجوزى فى سبب نزولها ستة أقوال:

«**القول الأول:** أخرجاه فى الصحيحين من حديث أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ لما تزوج زينب بنت جحش، دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون، فأخذ كأنه يتهيأ للقيام فلم يقوموا، فلما رأى ذلك قام وقام من القوم من قام وقعد ثلاثة، فجاء رسول الله ﷺ فدخل، فإذا القوم جلوس، فرجع، وإنهم قاموا فانطلقوا، وجئت فأخبرت النبى ﷺ أنهم قد انطلقوا، فجاء حتى دخل، وذهبت أدخل فألقى الحجاب بينى وبينه، وأنزل الله تعالى هذه الآية.

والثانى: أن ناسًا من المؤمنين كانوا يتحينون طعام النبى ﷺ، فيدخلون عليه قبل الطعام إلى أن يدرك، ثم يأكلون ولا يخرجون، فكان رسول الله ﷺ يتأذى لهم، فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس.

والثالث: أن عمر بن الخطاب قال: قلت: يا رسول الله، إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر، فلو أمرتهن أن يحتجبن، فنزلت آية الحجاب، أخرجه البخارى من حديث أنس، وأخرجه مسلم من حديث ابن عمر، كلاهما عن عمر.

والرابع: أن عمر أمر نساء رسول الله ﷺ بالحجاب، فقالت زينب: يا بن الخطاب، إنك لتغار علينا والوحى ينزل فى بيوتنا؛ فنزلت الآية، قاله ابن مسعود.

والخامس: أن عمر كان يقول لرسول الله ﷺ: احجب نساءك، فلا يفعل، فخرجت سودة ليلة فقال عمر: قد عرفناك يا سودة؛ حرصًا على أن ينزل الحجاب، فنزل الحجاب، رواه عكرمة عن عائشة.

والسادس: أن رسول الله ﷺ كان يطعم معه بعض أصحابه، فأصابت يد رجل منهم يد عائشة، وكانت معهم، فكره النبى ﷺ ذلك، فنزلت آية الحجاب، قاله مجاهد».

موقفه من القراءات القرآنية:

والقارئ لزاد المسير يجد أن ابن الجوزى قد حشد تفسيره بذكر القراءات القرآنية المتواتر منها والشاذ، مع عزوها إلى من قرأ بها، ويورد - أيضًا - فى تفسيره قراءات الصحابة والتابعين، مع العناية التامة بتوجيه تلك القراءات، ولهذا حوى تفسيره ثروة من القراءات القرآنية، شغلت حيزًا كبيرًا من تفسيره، مثال ذلك ما أورده عند قوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ (الفاتحة: ٤) حيث قال: «قرأ عاصم، والكسائى، وخلف، ويعقوب: «مالك» بألف، وقرأ ابن السميفع، وابن أبى عبلة كذلك، إلا أنهما نصبا الكاف، وقرأ أبو هريرة، وعاصم الجحدرى: «ملك» بإسكان اللام منه غير الألف مع كسر الكاف.

وقرأ أبو عثمان النهدى، والشعبى «ملك» بكسر اللام ونصب الكاف من غير ألف، وقرأ سعد بن أبى وقاص، وعائشة، ومورق العجلى: «ملك» مثل ذلك إلا أنهم رفعوا الكاف.

وقرأ أبى بن كعب، وأبو رجاء العطاردى «مليك» بياء بعد اللام مكسورة الكاف من غير ألف، وقرأ عمرو بن العاص كذلك، إلا أنه ضم الكاف، وقرأ أبو حنيفة، وأبو حيوة «ملك» على الفعل الماضى، «ويوم» بالنصب.

وروى عبد الوارث عن أبى عمرو: إسكان اللام، والمشهور عن أبى عمرو وجمهور القراء «ملك» بفتح الميم مع كسر اللام، وهو أظهر فى المدح، لأن كل ملك مالك، وليس كل مالك ملكا».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ﴾ (سبأ: ٥٢) قال ابن الجوزى: «قرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم: (التَّنَاوُشُ) غير مهموز، وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائى، والمفضل عن عاصم: بالهمز. قال الفراء: من همز جعله من «نأشت» ومن لم يهمز جعله من «نشت» وهما متقاربان، والمعنى: تناولت الشىء بمنزلة ذمت الشىء، وذأمته: إذا عبته، وقد تناوش القوم فى القتال: إذا تناول بعضهم بعضًا بالرماح، ولم يتدانوا كل التدانى، وقد يجوز همز «التناؤش» وهى من نُشْتُ لانضمام الواو، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾ (المرسلات: ١١). وقال الزجاج: من همز «التناوش» فلأن واو التناوش مضمومة، وكل واو مضمومة ضمتها لازمة، إن شئت أبدلت منها همزة، وإن شئت لم تبدل نحو: أدؤر».

الشواهد الشعرية فى زاد المسير:

يزخر زاد المسير بالعديد من الشواهد الشعرية والتى أوردها ابن الجوزى عند تعرضه للاشتقاق أو الإعراب أو التفسير، وقد يأتى بأكثر من شاهد شعرى فى الآية الواحدة، وغالبًا ما ينسب الشواهد إلى قائليها، ومن أمثلة ذلك ما قاله فى «آمين» حيث قال: «وقال ابن قتيبة: معناها: يا أمين أجب دعاءنا، فسقطت يا، كما سقطت فى قوله: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ (يوسف: ٢٩) تأويله: يا يوسف، ومن طول الألف قال: آمين، أدخل ألف النداء على ألف «آمين» كما يقال: آزيد أقبل، ومعناه: يا زيد. قال ابن الأنبارى: وهذا القول خطأ عند جميع النحويين؛ لأنه إذا أدخل «يا» على «آمين» كان منادى مفردًا، فحكم آخره الرفع، فلما أجمعت العرب على فتح نونه، دل على أنه غير منادى، وإنما فُتحت نون «آمين» لسكونها وسكون الياء التى قبلها، كما تقول العرب: ليت، ولعل، قال: وفى «آمين» لغتان: «أمين» بالقصر، «وآمين» بالمد، والنون فيهما مفتوحة.

أنشدنا أبو العباس عن ابن الأعرابى:

سقى الله حيا بين صارة والحمى ... حمى فيد صوب المدجنات المواطرِ

أمين وأدى الله ركبًا إليهم ... بخير ووقاهم حمام المقادرِ

وأنشدنا أبو العباس أيضًا:

تباعد منى فطحل وابن أمه ... أمين فزاد الله ما بيننا بعدا

وأنشدنا أبو العباس أيضًا:

يا رب لا تسلبنى حبها أبدًا ... ويرحم الله عبدًا قال آمينا

وأنشدنى أبى:

أمين ومن أعطاك منى هوداة ... رمى الله فى أطرافه فاقفعلّت

وأنشدنى أبى:

فقلت له قد هجت لى بارح الهوى ... أصاب حمام الموت أهوننا وجدا

أمين وأضناه الهوى فوق ما به ... أمين ولاقى من تباريحه جهدا»

كما أكثر ابن الجوزى فى تفسيره من الشواهد الشعرية لبيان المعنى اللغوى، مثال ذلك عند قوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ﴾ (الإسراء: ٧٩) حيث قال: «قال ابن عباس: فَصَلِّ بالقرآن، قال مجاهد، وعلقمة، والأسود: التهجُّد بعد النوم، قال ابن قتيبة: تهجَّدت: سَهِرت، وهَجَدت: نِمْت، وقال ابن الأنبارى: التهجُّد ههنا بمعنى: التيقُّظ والسَّهَر، واللغويون يقولون: هو من حروف الأضداد؛ يقال للنائم: هاجِد ومتهجِّد، وكذلك للساهر، قال النابغة:

وَلو أنهَا عَرِضتْ لأشْمَطَ رَاهِبٍ ... عَبَدَ الإله صَرُورَةٍ مُتَهَجِّدِ

لرنا لِبَهْجَتِهَا وَحُسْنِ حَدِيْثِهَا ... وَلَخَالَهُ رَشَدًا وَإِنْ لَمْ يَرْشُدِ

يعنى بالمتهجد: الساهر.

وقال لبيد:

قَالَ: هَجِّدْنَا فَقَدْ طَالَ السُّرى ... وقَدَرْنا إن خَنَا الدَّهْرِ غَفَلْ

أى: نَوِّمْنا.

وقال الأزهرى: المتهجِّد: القائم إلى الصلاة من النَّوم، وقيل له: متهجد، لإلقائه الهُجُود عن نفسه، كما يقال: تَحَرَّج وتأثَّم».

وأحيانا كان يذكر الشاهد الشعرى مستشهدًا به على مسألة بلاغية، وذلك مثل قوله فى تفسير قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ (الفاتحة: ٥) حيث قال: «وقرأ الحسن، وأبو

المتوكل، وأبو مجلد «يعبد» بضم الياء وفتح الباء، قال ابن الأنبارى: المعنى: قل: يا محمد: إياك نعبد، والعرب ترجع من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ (يونس: ٢٢)، وقوله: ﴿جَزَاءً﴾ وفى قوله: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً﴾ (الإنسان: ٢١، ٢٢).

وقال لبيد:

باتت تشكى إلىَّ النفس مجهشة　　　وقد حملتك سبعًا بعد سبعينا»

موقفه من التفسير بالمأثور:

حظيت السنة النبوية وأقوال الصحابة والتابعين بعناية فائقة فى تفسير ابن الجوزى، ومن أمثلة ذلك ما ذكره عند تفسير قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ (الفاتحة: ٧) حيث قال: «فأما المغضوب عليهم» فهم اليهود؛ و «الضالون»: النصارى، رواه عدى ابن حاتم عن النبى ﷺ».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ﴾ (ق: ١٨) قال ابن الجوزى: «وروى أبو أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: كاتب الحسنات على يمين الرجل، وكاتب السيئات على يساره، فكاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات، فإذا عمل حسنة كتبها له صاحب اليمين عشرًا، وإذا عمل سيئة، وأراد صاحب الشمال أن يكتبها، قال صاحب اليمين: أمسك، فيمسك عنه سبع ساعات، فإن استغفر منها لم يكتب عليه شيء، وإن لم يستغفر كتب عليه سيئة واحدة».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ (سبأ: ٢٣) قال: «وفى سبب فزعهم قولان:

أحدهما: أنهم يفزعون لسماع كلام الله تعالى، روى عبد الله بن مسعود عن رسول الله ﷺ قال: «إذا تكلم الله بالوحى سمع أهل السماء صلصلة كجر السلسلة على الصفا، فيصعقون، فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل، فإذا جاءهم جبريل فُزِّع عن قلوبهم، فيقولون: يا جبريل، ماذا قال ربك؟ قال: فيقول: الحق، فينادون الحق» وروى أبو هريرة عن النبى ﷺ أنه قال: «إذا قضى الله ـ عز وجل ـ الأمر فى السماء، ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانًا لقوله كأنه سلسلة على صفوان، فإذا فُزِّع

عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذى قال: الحق ﴿الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ (سبأ: ٢٣)».

وابن الجوزى فى تفسيره يسهب فى ذكر الأقوال، مع عزوها إلى أصحابها، وربما يذكر للقائل الواحد أكثر من قول، إلا أنه غالبًا ما يورد تلك الأقوال دون أن يُفاضل بينها، بما يُشعر بصوابها عنده وارتضائه لها. مثال ذلك فى تفسيره للشفع والوتر، حيث قال: «وللمفسرين فى «الشفع والوتر» عشرون قولا:

أحدها: أن الشفع: يوم عرفة ويوم الأضحى، والوتر: ليلة النحر، رواه أبو أيوب الأنصارى عن رسول الله ﷺ.

والثانى: أن الشفع يوم النحر، والوتر: يوم عرفة، رواه جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ، وبه قال ابن عباس، وعكرمة، والضحاك.

والثالث: أن الشفع والوتر: الصلاة، منها الشفع ومنها الوتر، رواه عمران بن حصين عن رسول الله ﷺ، وبه قال قتادة.

والرابع: أن الشفع: الخلق كله، والوتر: الله تعالى، رواه العوفى عن ابن عباس، وبه قال مجاهد فى رواية مسروق وأبى صالح.

والخامس: أن الوتر: آدم شفع بزوجته، رواه مجاهد عن ابن عباس.

والسادس: أن الشفع يومان بعد يوم النحر، وهو النفر الأول، والوتر: اليوم الثالث، وهو النفر الأخير، قاله عبد الله بن الزبير، واستدل بقوله تعالى: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ (البقرة: ٢٠٣).

والسابع: أن الشفع: صلاة الغداة، والوتر: صلاة المغرب، حكاه عطية.

والثامن: أن الشفع: الركعتان من صلاة المغرب، والوتر: الركعة الثالثة، قاله أبو العالية، والربيع بن أنس.

والتاسع: أن الشفع والوتر: الخلق كله، منه شفع، ومنه وتر، قاله ابن زيد، ومجاهد فى رواية.

والعاشر: أنه العدد منه الشفع، ومنه وتر، وهذا والذى قبله مرويان عن الحسن.

والحادى عشر: أن الشفع: عشر ذى الحجة، والوتر: أيام منى الثلاثة، قاله الضحاك.

والثانى عشر: أن الشفع: هو الله؛ لقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ (المجادلة: ٧)، والوتر هو الله لقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (الإخلاص: ١)، قاله سفيان بن عيينة.

والثالث عشر: أن الشفع: هو آدم وحواء، والوتر الله تعالى، قاله مقاتل بن سليمان.

والرابع عشر: أن الشفع: الأيام والليالى، والوتر: اليوم الذى لا ليلة بعده، وهو يوم القيامة، قاله مقاتل بن حيان.

والخامس عشر: الشفع: درجات الجنان، لأنها ثمان، والوتر: دركات النار، لأنها سبع، فكأن الله أقسم بالجنة والنار، قاله الحسين بن الفضل.

والسادس عشر: الشفع: تضاد أوصاف المخلوقين بين عز وذل، وقدرة وعجز، وقوة وضعف، وعلم وجهل، وموت وحياة، والوتر: انفراد صفات الله عز وجل، عز بلا ذل، وقدرة بلا عجز، وقوة بلا ضعف، وعلم بلا جهل، وحياة بلا موت، قاله أبو بكر الوراق.

والسابع عشر: أن الشفع: الصفا والمروة، والوتر: البيت.

والثامن عشر: أن الشفع: مسجد مكة والمدينة، والوتر: بيت المقدس.

والتاسع عشر: أن الشفع: القران بين الحج والتمتع، والوتر: الإفراد.

والعشرون: الشفع: العبادات المتكررة كالصلاة، والصوم، والزكاة. والوتر: العبادة التى لا تتكرر وهو الحج، حكى هذه الأقوال الأربعة الثعلبى».

موقفه من العقيدة:

والإمام ابن الجوزى من أئمة أهل السنة، ولذلك نراه يقرر مذهب أهل السنة فى تفسيره ويردُّ على الفرق الأخرى، مفندًا لأقوالهم مستشهدًا فى ذلك بالأحاديث الصحيحة والفهم السليم لآيات القرآن، ومن ذلك تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ...﴾ إلى قوله: ﴿يَظْلِمُونَ﴾ (الأعراف: ٨، ٩) حيث أثبت الميزان فقال: «والقول بالميزان مشهور فى الحديث، وظاهر القرآن ينطق به، وأنكرت المعتزلة ذلك، وقالوا: الأعمال أعراض، فكيف توزن؟» ثم أجاب عن ذلك حسب عقيدة أهل السنة والجماعة

بقوله: «إن الوزن يرجع إلى الصحائف، بدليل حديث عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبى ﷺ أنه قال: «إن الله ـ عز وجل ـ يستخلص رجلاً من أمتى على رءوس الناس يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سِجِلا، كُلُّ سِجِلٍّ مدُّ البصر، ثم يقول له: أتنكر من هذا شيئًا؟ أظلمتك كتبتى الحافظون؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: ألك عذر أو حسنة؟ فيبهت الرجل، فيقول: لا يا رب؛ فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنة واحدة، لا ظُلم عليك اليوم، فيُخرج له بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، فتوضع السجلاَّت فى كفة، والبطاقة فى كفة، قال: فطاشت السجلات وثقلت البطاقة» أخرجه أحمد فى مسنده، والترمذى».

وكذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ**﴾ **(البقرة: ٢٠٥)** حيث قال: وقد احتجت المعتزلة بهذه الآية، فأجاب أصحابنا بأجوبة، **منها:** أنه لا يحبه دينًا، ولا يريده شرعًا، فأما أنه لم يرده وجودًا؛ فلا، **والثانى:** أنه لا يحبه للمؤمنين دون الكافرين، **والثالث:** أن للإرادة معنًى غير المحبة، فإن الإنسان قد يتناول المرَّ، ويريد ربط الجرح، ولا يحب شيئًا من ذلك، وإذا بان فى المعقول الفرق بين الإرادة والمحبة؛ بطل ادعاؤهم التساوى بينهما، وهذا جواب معتمد، وفى معنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿**وَلا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ**﴾ **(الزمر: ٧)**».

موقفه من آيات الصفات:

وابن الجوزى لم يثبت على قدم فى آيات الصفات، فتارة يثبتها، وتارة يمرها كما جاءت، مثال ذلك ما ذكره فى تفسير قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً**﴾ **(البقرة: ٢٦)** حيث قال: «الحياء ـ بالمد: الانقباض والاحتشام، غير أن صفات الحق عز وجل لا يطلع لها على ماهية، وإنما تمر كما جاءت».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿**إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾ **(الأعراف: ٥٤)** قال: «وإجماع السلف منعقد على أن لا يزيدوا على قراءة الآية، وقد شذ قوم فقالوا: العرش بمعنى الملك، وهذا عدول عن الحقيقة إلى التجوز، مع مخالفة الأثر، ألم يسمعوا قوله تعالى: ﴿**وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى**

الْمَاءِ﴾ (هود: ٧) أتراه كان الملك على الماء؟ وبعضهم يقول: استوى بمعنى استولى، ويحتج بقول الشاعر:

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهراق

وبقول الشاعر أيضًا:

هما استويا بفضلهما جميعًا على عرش الملوك بغير شك

وهذا منكر عند اللغويين، قال ابن الأعرابى: العرب لا تعرف استوى بمعنى استولى، ومن قال ذلك فقد أعظم.. فقالوا: وإنما يقال: استولى فلان على كذا، إذا كان بعيدًا عنه غير متمكن منه، ثم تمكن منه، والله عز وجل لم يزل مستوليًا على الأشياء، والبيتان لا يعرف قائلهما، كذا قال ابن فارس اللغوى.

ولو صحا فلا حجة فيهما لما بينا من استيلاء من لم يكن مستوليا، نعوذ بالله من تعطيل الملحدة وتشبيه المجسمة».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ (الفتح: ١٠) قال: «فيه أربعة أقوال:

أحدها: يد الله فى الوفاء فوق أيديهم.

والثانى: يد الله فى الثواب فوق أيديهم.

والثالث: يد الله عليهم فى المنة بالهداية فوق أيديهم بالطاعة.

ذكر هذه الأقوال الزجاج.

والرابع: قوة الله ونصرته فوق أيديهم ونصرتهم، ذكره ابن جرير وابن كيسان».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ (المائدة: ٦٤) قال ابن الجوزى: «قال الزجاج: وقد ذهب قوم إلى أن معنى «يد الله» نعمته، وهذا خطأ ينقضه قوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ فيكون المعنى على قولهم: نعمتاه، ونعم الله أكثر من أن تحصى، والمراد بقوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ أنه جواد ينفق كيف يشاء، وإلى نحو هذا ذهب ابن الأنبارى».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ (الزمر: ٦٨) قال: «وقد أخرج البخارى ومسلم فى الصحيحين من حديث أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: «يقبض الله

الأرض يوم القيامة ويطوى السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟» وأخرجا من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «يطوى الله ـ عز وجل ـ السموات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون، ابن المتكبرون؟» قال ابن عباس: الأرض والسموات كلها بيمينه، وقال سعيد بن جبير: السموات قبضة، والأرضون قبضة..».

موقفه من المسائل الفقهية:

يولى ابن الجوزى المسائل الفقهية عناية خاصة فى تفسيره، ويعقد لها فصلا خاصًا، ويورد أقوال الأئمة المجتهدين وغيرهم من الصحابة والتابعين، مصدرًا كلامه بقول الإمام أحمد، مع عدم استطراده فى ذكر الأدلة أو الترجيح بين الأقوال أو التعصب لمذهبه، مثال ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ (البقرة: ١٧٣) حيث قال:

«**فصل:** معنى الضرورة فى إباحة الميتة: أن يخاف على نفسه أو بعض أعضائه، سئل أحمد رضي الله عنه عن المضطر إذا لم يأكل الميتة، فذكر عن مسروق أنه قال: من اضطر فلم يأكل فمات دخل النار، فأما مقدار ما يأكل؛ فنقل حنبل: يأكل مقدار ما يقيمه عن الموت، ونقل عن ابن منصور: يأكل بقدر ما يستغنى، فظاهر الأولى: أنه لا يجوز له الشبع، وهو قول أبى حنيفة والشافعى، وظاهر الثانية: جواز الشبع، وهو قول مالك».

وعند تفسير قوله تعالى ﴿**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ (البقرة: ١٧٩) قال ابن الجوزى:

«**فصل:** نقل ابن منصور عن أحمد: إذا قتل رجل رجلاً بعصًا أو خنقه، أو شدخ رأسه بحجر يُقتل بمثل الذى قتل به، فظاهر هذا: أن القصاص يكون بغير السيف، ويكون بمثل الآلة التى قَتَلَ بها، وهو قول مالك، والشافعى، ونقل عنه حرب: إذا قتله بخشبة قُتِلَ بالسيف، ونقل أبو طالب: إذا خنقه قتل بالسيف، فظاهر هذا: أنه لا يكون القصاص إلا بالسيف، وهو قول أبى حنيفة رحمه الله».

موقفه من الإسرائيليات:

هذا ولم يخل «زاد المسير» من الكثير من الإسرائيليات، وإن كان فى تلك الروايات ما يخالف العقيدة فإن ابن الجوزى يتصدى لها ويفندها، مثال ذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ (سورة ص: ٢١، ٢٢) حيث قال: «الإشارة إلى قصة ابتلائه: قد ذكرنا عن وهب أنه قال: كانت الحمامة من طيور الجنة، وقال السدى: تصور له الشيطان فى صورة حمامة، قال المفسرون: إنه لما تبع الحمامة رأى امرأة فى بستان على شط بركة لها تغتسل، وقيل: بل على سطح لها، فعجب من حسنها، فحانت منها التفاتة، فرأت ظله فنقضت شعرها فغطى بدنها، فزاده ذلك إعجابًا، فسأل عنها فقيل: هذه امرأة أوريا وزوجها فى غزاة، فكتب داود إلى أمير ذلك الجيش أن ابعث أوريا إلى موضع كذا وكذا وقدِّمه قبل التابوت، وكان مَن قُدِّم على التابوت لا يحل له أن يرجع حتى يُفتح عليه أو يُستشهد، ففعل ذلك ففُتح عليه، فكتب إلى داود يخبره، فكتب إليه أن ابعثه إلى عدو كذا وكذا، ففُتح عليه، فكتب إلى داود يخبره، فكتب إليه أن ابعثه إلى عدو كذا وكذا، فقُتل فى المرة الثالثة، فلما انقضت عدة المرأة تزوجها داود، فهى أم سليمان، فلما دخل بها لم يلبث إلا يسيرًا حتى بعث الله، عز وجل، ملكيْن فى صورة إنسيين، وقيل: لم يأته الملكان حتى جاء منها سليمان وشب ثم أتياه فوجداه فى محراب عبادته، فمنعهما الحرس من الدخول إليه، فتسوروا المحراب عليه.

وعلى هذا الذى ذكرناه من القصة أكثر المفسرين، وقد روى نحوه العوفى عن ابن عباس، وروى عن الحسن، وقتادة، والسدى، ومقاتل فى آخرين.

وذكر جماعة من المفسرين أن داود لما نظر إلى المرأة، سأل عنها، وبعث زوجها إلى الغزاة مرة بعد مرة إلى أن قُتل فتزوجها، وروى مثل هذا عن ابن عباس، ووهب، والحسن فى جماعة.

قال المصنف: وهذا لا يصح من طريق النقل، ولا يجوز من حيث المعنى، لأن الأنبياء منزهون عنه».

ومن أمثلة ما ذكره ابن الجوزى فى تفسيره من الإسرائيليات ولم يعقب عليه ما قاله عند تفسيره لأول سورة ق، حيث أورد ابن الجوزى خمسة أقوال فى تفسيرها، ثم قال: «**والثانى منها:** أنه جبل من زبرجدة خضراء، قاله أبو صالح عن ابن عباس، وروى عكرمة، عن ابن عباس قال: خلق الله جبلا يقال له «ق» محيط بالعالم وعروقه إلى الصخرة التى عليها الأرض، فإذا أراد الله عز وجل أن يزلزل قرية، أمر ذلك الجبل فحرك العرق الذى يلى تلك القرية، وقال مجاهد: هو جبل محيط بالأرض، وروى عن الضحاك أنه من زمردة خضراء، وعليه كنفا السماء، وخضرة السماء منه».

وكذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾ (النمل: ٣٥) حيث قال ابن الجوزى: «إنما أرسلت الهدية لتعلم أنه إن كان نبيًا لم يرد الدنيا، وإن كان ملكا فسيرضى بالحَمْل، وأنها بعثت ثلاث لبنات من ذهب فى كل لبنة مائة رطلٍ، وياقوتة حمراء طولها شبر مثقوبة، وثلاثين وصيفًا وثلاثين وصيفة، وألبستهم لباسًا واحدًا حتى لا يعرف الذكر من الأنثى، ثم كتبت إليه: إنى قد بعثت إليك بهدية فاقبلها، وبعثت إليك بياقوتة طولها شبر، فأدخل فيها خيطا واختم على طرفى الخيط بخاتمك، وقد بعثت إليك ثلاثين وصيفًا وثلاثين وصيفة، فميز بين الجوارى والغلمان، فجاء أمير الشياطين فأخبره بما بعثت إليه، فقال له: انطلق فافرش على طريق القوم من باب مجلسى ثمانية أميال فى ثمانية أميال لبِنًا من الذهب، فانطلق فبعث الشياطين فقطعوا اللَّبِن من الجبال، وطلوه بالذهب وفرشوه، ونصبوا فى الطريق أساطين الياقوت الأحمر، فلما جاء الرسل قال بعضهم لبعض: كيف تدخلون على هذا الرجل بثلاث لبنات وعنده ما رأيتم؟ فقال رئيسهم: إنما نحن رسل، فدخلوا عليه، فوضعوا اللبن بين يديه، فقال: أتمدوننى بمال؟ ثم دعا ذرة فربط فيها خيطا وأدخلها فى ثقب الياقوتة حتى خرجت من طرفها الآخر، ثم جمع بين طرفى الخيط فختم عليه ودفعها إليهم، ثم ميَّزَ بين الغلمان والجوارى، هذا كله مروى عن ابن عباس.

وقال مجاهد: جعلت لباس الغلمان للجوارى ولباس الجوارى للغلمان، فميزهم، ولم يقبل هديتها.

وفى عدد الوصائف والوصفاء خمسة أقوال:

أحدهــــا: ثلاثون وصيفًا وثلاثون وصيفة، وقد ذكرناه عن ابن عباس.

والثانـــى: خمسمائة غلام وخمسمائة جارية، قاله وهب.

والثالـــث: مائتا غلام ومائتا جارية، قاله مجاهد.

والرابـــع: عشرة غلمان وعشر جوار، قاله ابن السائب.

والخامس: مائة وصيف ومائة وصيفة، قاله مقاتل».

وأخيرًا .. فـإن «زاد المسير» واحدٌ من أحسن مـؤلفات ابن الجوزى، إن لم يكن أحـسنها علـى الإطلاق، رغم ما أورده فـيـه - وهو من علماء الـحديث ونقـاده - من أحاديث موضوعة وضعيفة، مع قلة ترجيحاته فى كثير من المسائل والأقوال.

والكتاب طُبِع عدة مرات، والطبعة التى رجعنا هى طبعة المكتب الإسلامى.

* * *

٦- تفســـير ابن عرفـــة

التعريف بصاحب التفسير[١]:

هو محمـد بن محمد بن محـمد بن عرفة، أبو عـبد الله الوَرْغمى التونسى، فـقيه المالكية بتونس، وخطيبها بجامع الزيتونة، يعرف بابن عرفة.

ولد سنة ست عشرة وسبعمائة بتونس.

وتفقـه على: القاضى ابن عبد السلام الهوارى وأخذ عنه الأصول، وأخذ القراءات عن محمد بن محمد بن حسن بن سلامة الأنصارى.

وأخـذ عن: والده، ومحمد الوادى آشى، ومـحمد بن هارون الكنانى، والشريف التلمسانى، ومحمد بن الجباب، وغيرهم.

ومهر فى الأُصول والفروع والعربية والقراءات وغير ذلك، وصار المرجوع إليه فى الفتوى ببلاد المغرب، وتصدّى للتدريس وإسماع الحديث مع علو الرتبة عند السلطان.

وقدم القاهرة حاجّا سنة (٧٩٣هـ) فأخذ عنه المصريون والمدنيون.

وممن أخذ عنه: يحيى العجـيسى، والأُبى، وابن ناجى، وعيسى الغبرينى، وابن عقاب، وابن الشماع، وأبو الطيّب بن علوان، وآخرون.

له من الكتب: المختصر الكبير فى الفقه (مطبوع)، المختصر الشامل فى التوحيد، المبسوط فى الفقه، الحدود فى التعاريف الفقهية (مطبوع)، والطرق الواضحة فى عمل المناصحة، التفسير، وهو ما نحن بصدد دراسته.

توفى بتونس سنة ثلاث وثمانمائة.

التعريف بهذا التفسير ومنهج مؤلفه:

تفسير ابن عرفة عبارة عن مجالس أملاها فى التفسير من منتصف القرن الثامن إلى نهايته، ونهاية حياته هو، كلما أنهى ختمـة منه أعاد ختمة جديدة، وقيَّد تلك المجالس بعض تلاميذه، واشتهر منها:

١- رواية البسـيلى، وهو أحمد بن محمد أبو العـباس التونسى، وله تقييدان عن

---

(١) **مصـادر الترجـمة:** نيل الابتهاج ٢٧٤، الضوء اللامع (٩/ ٢٤٠ - ٢٤٢)، طبـقات المفسرين للداوودى (٢/ ٢٣٦)، الديباج المذهب ٣٣٧، إنباء الغمر (٢/ ١٩٢).

شيخه، تقييد كبير وآخر صغير، وكلاهما مخطوط، والكبير فقدت بعض أجزائه، والصغير ناقص، وليس كل ما فيه من كلام ابن عرفة.

٢- رواية الأبى، وهو محمد بن خلفة الوشتاتى، وهى أكمل الروايات لتفسير ابن عرفة، ومنها نسخ خطية كثيرة من أكملها نسخة المكتبة الوطنية بتونس، وقد طبع جزء من هذه الرواية فى مجلدين إلى نهاية سورة البقرة بتحقيق الدكتور حسن المناعى نشرها مركز البحوث بكلية الزيتونة سنة ١٩٨٦م، وهى التى رجعنا إليها فى هذه الدراسة.

٣- رواية أبى القاسم الشريف الإدريسى السلاوى من أهل القرن التاسع، وله تقييد فى مجلدين وهو مفقود.

والذى نراه أن يُطلق على هذا التفسير اسم: «مجالس التفسير لابن عرفة».

وقد بيَّن ابن عاشور فى كتابه: «التفسير ورجاله» (ص ١٢١) منهج ابن عرفة فى تفسيره فقال: «ويهتم بالتخريج والتأويل حتى تتضح دلالة الآية مستقيمة على المعنى الذى تتعلق به، ويرد ما عسى أن يكون قد وقع من تخريج بعيد أو تأويل غير مقبول، بتطبيق القواعد اللغوية، والنكت البلاغية، أو بإثارة ما يتعلق بالمفاد من مباحث أصلية ترجع إلى أصول الدين أو أصول الفقه، جاعلاً عمدته فى هذه المباحث تفسير ابن عطية غير معرض عن تفسير الكشاف، فيعتبر كلام ابن عطية حاصلاً بين أيدى مستمعيه، ليسايره أو يرده، ويورد كلام الزمخشرى، ويكثر إيراد الآراء والمذاهب عن العلماء فى كل مسألة».

وقال الدكتور حسن المناعى ملخصًا منهج ابن عرفة فى تفسيره:

«سارت دروس التفسير فى منهجها على نسق متشابه حيث كانت تُتلى الآية أو الآيات ثم يبدأ فى التفسير، فيورد كلام أئمة القراءات أو اللغة والنحو، ويعتنى ببيان ما احتمل التأويل أو الاختلاف بين المفسرين، فيذكر أقوال العلماء من أصوليين وفقهاء ومحدثين، وقد يعرج فى ذكر نكتة بلاغية أو علمية أو شواهد شعرية أو قضايا اجتماعية ظرفية أو مباحث فى أصول الدين أو أصول الفقه ليقوّم بهما ما لم يستقم من تفسير أو تأويل، ويرجح به آراء على أخرى، وتلتقى جميعها أحيانا فى الآية الواحدة، وتُعرَض على التلاميذ لتناقش، فيصير الدرس محكمة تفسيرية تتداول فيها الآراء سجالا بين

الحاضرين، فتجمع الاحتمالات العديدة والأوجه المختلفة وتتدارس برؤى سنية أشعرية ومنهجية حرة، وربما كانت الكلمة الأخيرة لأحد الطلبة، ويقره عليها شيخه فى تواضع علمى. ولقد اختار ابن عرفة لنفسه هذا المنهج التربوى وآثره على غيره من المناهج، وسار بالتفسير وجهة جديدة؛ وجهة السؤال والجواب قبل تقرير المسألة».

وقال الدكتور المناعى أيضًا: «فجاء هذا التفسير يزخر بالنقل عن عشرات الكتب الثمينة النادرة وعشرات العلماء فى كل فن، دون تمييز أحدهم عن سواهم، وإن كان قد خص بعضهم باهتمام أكثر من غيرهم كالزمخشرى وابن عطية، وهو ما حمل المرحوم الشيخ محمد الطاهر بن عاشور على القول بكون هذا التقييد تعليقًا على ابن عطية أشبه منه بالتفسير، والحقيقة أن هذا غير صحيح ذلك لأننا نلاحظ مثلاً فى سورة البقرة أن النقل عن ابن عطية يكاد يتساوى مع النقل عن الزمخشرى عدديًا، فعن الأول نقل ابن عرفة مائتين وخمسًا وأربعين مرة، وعن الثانى مائتين وإحدى عشرة مرة».

هذا . . . وقد قدم ابن عرفة لتفسيره بمقدمة تكلم فيها عن علم التفسير وشروط المفسر، ثم شرع فى تفسير الاستعاذة.

موقفه من تناسب الآى والسور:

عُنى ابن عرفة بفن المناسبات فى تفسيره، وذكر آراء العلماء فى مسألة التناسب بين السور والآيات، وذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ (البقرة: ١٥٩)، حيث قال: «من الناس من ينظر وجه المناسبة بين الآية وما قبلها كابن الخطيب، ومنهم من لا يلتزم فى كل آية كالزمخشرى وابن عطية، ومنهم من يمنع النظر فى ذلك ويحرِّم لئلا يعتقد أن المناسبة من إعجاز القرآن، فإذا لم تظهر المناسبة فقد يدرك الناظر وهنًا فى دينه وخلل فى معتقده» ويبدو من صنيع ابن عرفة فى تفسيره ميله للرأى الثانى، مثال ذلك ما ذكره فى تفسير قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ (آل عمران: ١٤) حيث قال: «مناسبتها لما قبلها أن الآية المتقدمة اقتضت الحض على الجهاد، ومدح المتصف به، ومن خالف نفسه فى سبيل الراحة، أتت هذه الآية فى معرض الذم لمن لم يتصف بذلك وطاوع نفسه وشهوته البهيمية».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (البقرة: ٧) أورد ما قرره بعضهم بأن: «وجه المناسبة بين هذه الآية وما قبلها بأنها سبب فيه، كأنه قيل: لِمَ لا ينفع الإنذار فيهم؟ فقيل: بسبب الختم على قلوبهم» ثم رد هذا القول.

موقفه من المكى والمدنى وأسماء السور:

ويتعرض ابن عرفة فى تفسيره لأسماء السورة وبيان المكى والمدنى ولا يتعرض لعد الآى، مثال ذلك ما قاله فى سورة الفاتحة حيث قال: «اختلفوا فيها؛ فقال ابن عباس رضي الله عنهما، وجماعة: إنها مكية، واحتج له ابن عطية بقوله تعالى فى الحجر: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ (الحجر: ٨٦)، وهى مكية بإجماع، وفى حديث أُبى بن كعب أنها السبع المثانى، قال الإمام: وذهب عطاء والزهرى وجماعة إلى أنها مدنية، وقيل: إنها نزلت بمكة والمدينة، وأبطله القاضى العماد بأنه يجب عليه تحصيل الحاصل وهو محال، وأجاب ابن عرفة بأن التأكيد شائع فى كلام العرب وليس فيه تحصيل الحاصل.

فإن قلت: يلزم عليه أن تكون الفاتحة فى القرآن مرتين لنزولها مرتين، وكانت تكرر كما تكرر ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؟ **قلنا:** إنما ذلك إذا نزلت على أنه غير الأولى، فقد ذكر الأصوليون على أن الغيرين يصدقان على المثلين، أما إذا نزلت على أنه غير الأولى بعينها فلا يلزم ذلك فيها.

زاد القاضى العماد فى إبطال النزول بمكة والمدينة: أنه يلزم منه أن يكون كل ما نزل بمكة نزل بالمدينة مرة أخرى؛ لأن جبريل ـ عليه السلام ـ كان يعارضه القرآن فى كل سنة مرة وفى الأخيرة مرتين فيكون ذلك إنزالا آخر وهذا لا يقوله أحد.

وقال: ولعلهم يعنون بنزولها مرتين، أن جبريل نزل حين حولت القبلة فأخبره عليه الصلاة والسلام أن الفاتحة ركن فى الصلاة كما كانت بمكة وأقرأه فيها قراءة لم يكن أقرأه بها فى مكة فظنوا ذلك إنزالا جديدًا، وهو ضعيف».

موقفه من العقيدة:

وابن عرفة يفسر آيات العقيـدة حسب مذهبه الأشعرى، لذا نراه يكثر من الرد على المخالفين كالمعتزلة وغيرهم، فمثلاً عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ قال: «ولما قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أوهم أن للإنسان فى العبادة ضربًا من المشاركة والاختيار، فعقبه بطلب الهداية تنبيهًا على كمال الافتقار وأن كل العبادة والطاعة من الله تعالى وليس للعبد عليها قدرة، فهو دليل لأهل السنة».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿لَن تَرَانِي﴾ (الأعراف: ١٤٣) قال: استدل بها الزمخشرى على عدم الرؤية مطلقًا، لأن «لن» عنده لنفى دائم، وهى المسماة بـ «لن الزمخشرى» ونحن نقول: إنها لنفى غير دائم». ثم يُثبت بعد ذلك الرؤية مستدلا عليها بقوله تعالى: ﴿فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ (الأعراف: ١٤٣) حيث قال: «دليل على أن الرؤيا ممكنة لأن استقرار الجبل فى مكان ممكن عقلا، وقد علق عليه بسوف ترانى فدل على إمكان الرؤية إذ لا يصح تعليق المستحيل على الممكن».

كما ردَّ على الزمخشرى فى تفسير قوله تعالى: ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ (إبراهيم: ١) الذى يرى أن ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ تعنى بتسهيله، وأجاب ابن عرفة بأن هذا التفسير متماش مع مذهبه - أى الزمخشرى - فى نسبة أفعال العباد إليهم، وأنها ليست مقدورة لله، وإنما ييسرها ويسهلها الله عليهم.

كما ناقش ابن عرفة ابن عطية فى نفس الموضوع حين فسر ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾: بعلم الله واقتضائه وتوفيقه، فرد عليه ابن عرفة بأن هذه نزعة اعتزالية، ولولا قوله: واقتضائه لكان صريحًا فى اتباع المعتزلة، لأنهم يقولون: إن العبد يستقل بأفعاله، ويخلقها، وإن الله لم يخلق الشر، ولا أراده.

ثم يفسر ابن عرفة الآية بما يراه صوابًا وهو أن معنى قوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أى بقدرته وخلقه واختراعه وأنه خلق الهداية والضلال، وأراد تعالى أن يكون فى ملكه ما لا يريد.

وعند تفسيره قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ (البقرة: ١٧٩) قال ابن عرفة: «فيه دليل لأهل السنة القائلين بأن لا حسن ولا قبح، لأن الآية خرجت مخرج الامتنان

بتعداد هذه النعم فدل على أنها تفضل من الله تعالى، ولو كان القصاص واجبًا فى العقل لما حسن كونه نعمة، ولما صح الإتيان به لأن ذلك تحصيل الحاصل».

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ﴾ (البقرة: ٢١٧) قال ابن عرفة: «فى لفظها رحمة وتفضل من الله ـ عز وجل ـ لأن قبلها: ﴿حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ﴾ (البقرة: ٢١٧) فكان المناسب أن يقال: «ومن «يُرَدّ» منكم عن دينه» لكنه لو قيل هكذا لدخل فى عمومه من أكره على الردة، فقال: «ومن «يرتدد» ليختص الوعيد بمن ارتد مختارًا متعمدًا» ثم تساءل ابن عرفة: «هلا قيل: فيمت وهو مرتد، ليناسب أول الآية آخرها، ويسمونه رد العجز على الصدر؟ قال: فقلت: إن من عادتهم أنهم يجيبون بأنه لو قيل كذلك لتناول مرتكب الكبيرة من المسلمين، لأنه يصدق عليه أنه مرتد عن دينه لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ (آل عمران: ١٩)».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (الفاتحة: ١) قال: «الوصف بالرحيم دليل لنا على المعتزلة فى إبطال قاعدة التحسين والتقبيح، وأن الله تعالى لا يجب عليه شىء لاقتضائها أن توبته على العصاة محض رحمة منه وتفضل، لأن الدليل اقتضى وجوب ذلك عليها».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ (البقرة: ١٦٧) قال: «قال الزمخشرى: الضمير لمطلق الربط لأن مذهبه خلود مرتكب الكبيرة فى النار، فلو جعله للحصر لكان مفهومه أن مرتكب الكبيرة يخرج من النار بالشفاعة» ثم ردَّ عليه وقرر عقيدة أهل السنة.

وعند تفسيره لآية الكرسى قال: «وقد تقدم الخلاف فى الصفات، فنحن نثبتها ونقول: الله عالم بعلم، قادر بقدرة، حىٌّ بحياة، والمعتزلة ينفونها».

موقفه من تفسير القرآن بالقرآن:

وابن عرفة يولى هذا الجانب من التفسير عناية خاصة، مثال ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٠) قال: «معناه: لا يفترون من العبادة، وفى آية أخرى: ﴿وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ﴾ (الشورى: ٥)».

موقفه من تفسير القرآن بالسنة:

ويتعرض ابن عرفة لتفسير القرآن بالحديث الشريف، كما فى قوله تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (البقرة: ٢٥٦) حيث قال: «فالدين هنا عام، خصص بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ (آل عمران: ١٩) ووقع تفصيله وزيادة بيانه بقوله ﷺ: «أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا».

موقفه من تفسير القرآن بأقوال السلف:

ومن اعتماد ابن عرفة على ما أُثر عن الصحابة فى تفسير القرآن ما ذكره عند قوله تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ (البقرة: ٢٢٨) حيث قال: «والمعنى درجة فى التفضيل، إلا أن تفسير لفظة درجة وقع حوله خلاف، فعند الجمهور هى حسن المعاشرة، وهو رأى ابن عباس، وهو الظاهر، فيقولون: وله عليها من القيام بحقه المبادرة إلى غرضه ورفقه، مثل الذى عليه وزيادة درجة التقديم».

موقفه من أسباب النزول:

أما أسباب النزول فهو يذكرها، مثال ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ (البقرة: ١٨٩) حيث قال: «كانوا إذا حجوا واعتمروا يلتزمون أن لا يحول بينهم وبين السماء شيء فيدخلون بيوتهم من خلفها ينقبون الحائط، أو من سقفها، أو يطلعون سلم على السطح فينزلون فى وسط الدار، وهذا عند بدء الدخول، فإذا تكرر ذلك تركوه».

وقد يورد ابن عرفة أقوال المفسرين فى سبب النزول ويردُّ أو يرجح بينها بما يراه صوابًا، كما ذكر فى قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة: ٩٧).

موقفه من أحاديث فضائل السور والآيات:

وابن عرفة يتعرض فى تفسيره لفضائل السور والآيات، ويورد ما صح فيها من الأحاديث، مثال ذلك ما قاله فى فاتحة الكتاب: «قال ابن عطية: ويروى أنها تعدل

ثلثى القرآن. والعدل إما فى المعانى باشتمالها على التوحيد وغيره، و ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**﴾ على التوحيد فقط، وإما أن يكون فضلا من الله لا يعلل».

موقفه من السيرة:

ولا يغفل ابن عرفة فى تفسيره ذكر أحداث السيرة ضمن حديثه عن أسباب النزول، مثال ذلك ما ذكره فى قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ...**﴾ (البقرة: ٦) حيث قال: «قال ابن عطية: وقال الربيع بن أنس: إن الآية نزلت فى قادة الأحزاب، وهم أهل القليب ببدر، وفى بعض النسخ: وأهل القليب ببدر - قال ابن عرفة: وهو الصحيح، فإن غزوة الأحزاب متأخرة عن بدر، وأهل القليب ببدر قُتلوا فلم يبق منهم أحد للأحزاب.

قال ابن عرفة: إلا أن يريد بالأحزاب الجماعة ولا يريد بهم الغزوة».

موقفه من الإسرائيليات:

وابن عرفة مُقِلٌّ فى تفسيره من ذكر الإسرائيليات، ويقف منها موقف الناقد البصير، فمثلاً عند تفسير قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ**﴾ (البقرة: ٢٩) قال ما نصه: «قيل لابن عرفة: أويُجاب بعكس ما قال الزمخشرى؛ وهو أنه خلقت السموات والأرض ملتصقة ثم خلقت الأرض ودحيت ثم فصلت السموات وصيرت سبعًا، والله أعلم؟ فقال: هذا يمكن، لكن الأثر الذى أورده هنا أن الأرض خلقت كالفهر وعلاها الدخان فخلقت منه السموات، يرده ما ذكره الشيخ الزمخشرى ونقله عن الحسن، وللفخر فى «الأربعين» كلام طويل وليس فيه خبر صحيح».

وكذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿**وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ**﴾ (البقرة: ١٠٢) قال ابن عرفة: «قال ابن عطية: روى أنهما ملكان اختصمت إليهما امرأة... ، وحكى القصة، وضعفه ابن عطية من جهة السند.

قال ابن عرفة: بل هو ضعيف من جهة الاستدلال، فإنه قد قام الدليل على عصمة الملائكة، ولا يقال: إنهما كانا معصومين ثم انتفت العصمة عنهما حينئذ، فإن ذلك إنما هو فيمن يتصف بالحفظ لا بالعصمة، فيصح أن يحفظ تارة دون تارة، أما العصمة

فلا تزول عمـن ثبتت له أبدًا، وقد كـان الشيـوخ يخطئـون ابن عطية فى هذا الموضوع لأجل ذكره هذه الحكاية ونقل بعضهم عن القرافى: أن مالكًا أنكر ذلك فى حق هاروت وماروت».

عناية ابن عرفة بإيراد بعض النكات التفسيرية:

وابن عرفة يُعنى بالنـكـات التفسيرية فـى كتـابـه، مثال ذلك ما ذكره عند تفـسير قوله تعالـى: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ حيـث قـال: «وقُدِّم على ﴿الرَّحِيمِ﴾ إما لأن الرحمن تفرد به البـارئ تعالى، أو لإفـادته عمـوم الرحمـة فكان أصلا، والرحـيم كان كـالزيادة فى التشريف للمـؤمنين، قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ (يونـس: ٢٦) وإمـا لأجـل رأس الآى فى الفـاتـحة. وقـيل: الرحيم أبلـغ، بدليـل ذكـره بعد الرحـمن، ولأن الرحمن يفيد نوعًا من القـهر والكبرياء، قال تعالى: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ (الفـرقان: ٢٦) ولولا ذلك لما ناسب ذكر الوعيد معه، ولأن ختم الكلام بمـا هو أقوى دلالة على أن الرحمة أرجى وأقـرب لحسن الظن بالله تعالى».

ثم قال: « فإن قلت: لِمَ؟ قال: ﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ بلفظ الفعل، و ﴿غَيْرِ الْمَـغْـضُـوبِ عَلَيْـهِمْ﴾ بلفظ الاسم؟ وهلا قـال: صـراط المنعم عليـهم كـما قـال: ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾؟ قلت: فالجواب أنه قصد التنبيه على التأدب مع الله تعالى بنسبة الإنعام عليه وعدم نسبة الشر إليه بل أتى به بلفظ المفعول الذى لم يتم فاعله فلم ينسب الغضب إليـه على معنى الفاعـلية وإن كان هو الفـاعل المختـار لكل شىء لكن جرت العادة فى مقام التأدب أن ينسب للفاعل الخير دون الشر.

وأجاب القاضى العماد بوجوه:

الأول: من ألطاف الله أنه إذا ذكر نعمة أسندها إليه فقال: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ (الروم: ٣٦) ولذلك قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ (الشعراء: ٨٠).

الثـانى: إنمـا قال: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ ليدخل غضبـه وغضب الملائكة والأنبياء والمؤمنين، فهو أعم فائدة.

الثالث: إنما لم يقل صراط المنعم عليهم لأن إبراز ضمير فاعل النعمة ذكر وشكر له باللسان وبالقلب فيكون دعاءً مقرونًا بالشكر والذكر.

الرابع: فيه فائدة بيانية، وهو أنه من التفنن فى الكلام، لأنه لو أجرى على أسلوب واحد لم يكن فيه تلك اللذاذة وإذا اختلف أسلوبه ألقى السامع إليه سمعه وهو تنبيه وطلب إحضار ذهنه من قريب ومن بعيد».

موقفه من القراءات:

وابن عرفة يتعرض فى تفسيره للقراءات، مثال ذلك ما ذكره عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَأَنذَرْتَهُمْ﴾ (البقرة: ٦) قال ابن عرفة: «ذكر الزمخشرى هنا رواية ورش وجعلها لحنًا، وكَفَّره الطيبى، وظاهر كلام الطيبى هذا أن السبع قراءات أخبار آحاد وليس بمتواتر.

قال ابن عرفة: وحاصل كلام الناس فيها أنها على وجهين: فأما ما يرجع إلى آحاد الكلام كملك ومالك، ويخدعون ويخادعون، فهو متواتر اتفاقًا من غير خلاف منصوص، إلا أن ظاهر كلام الداوودى - على ما نقل عنه الأنبارى - أنها غير متواترة، وأما ما يرجع إلى كيفية النطق بها من إعراب وإمالة وكيفية وقف ففيه ثلاثة أقوال:

الأول: نقل الأنبارى - شارح البرهان - عن أبى المعالى أنها متواترة وأنكره عليه، وهو اختيار الشيخ أبى عبد الله محمد بن سلامة من أشياخنا.

الثانى: أنها متواترة عند القراء فقط، نقله المازرى فى شرح البرهان، واختاره شيخنا ابن عرفة.

الثالث: أنها غير متواترة، قاله ابن العربى فى العواصم والقواصم، والأنبارى، وابن رشد فى كتاب الصلاة الأول وفى كتاب الجامع الرابع من البيان والتحصيل. قال ابن عرفة: وهو اختيار الشيخ أبى إسحاق إبراهيم الجزرى وشيخنا القاضى أبى عبد الله محمد بن عبد السلام، وصاحبنا الفقيه أبى العباس أحمد بن إدريس البجائى».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ (البقرة: ٢٨٤) قال: «قال الزمخشرى: وقد قُرِئ: «فيغفرْ» - بالجزم - فى جواب الشرط» ثم أورد رد أبى حيان عليه، ثم قال: «وتحامل الزمخشرى هنا وأساء الأدب على السوسى من طريق

أبى عمرو، وخطأه كما خطأ الصيمرى فى تبصرته، والزجاج، وكذلك خطأ ابن عامر فى قراءته: ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ﴾ (الأنعام: ١٣٧) ولكن تخطئته هنا لأبى عمرو من طريق السوسى أشنع» ثم قال: «ومذهب أهل السنة أنه يجوز أن يغفر له، وإن لم يتب منها ـ إلا الكفر».

كما يتعرض ابن عرفة للقراءات الشاذة، مثال ذلك قوله عند تفسير قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ حيث قال: «قال ابن عطية: وقرأ سفيان بن عينية ورؤبة بن العجاج «الحمدَ لله» بفتح الدال على إضمار فعل، قال ابن عرفة: وقالوا: الضم أدل على الثبوت، قال الزمخشرى: ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ﴾ (هود: ٦٩) بالرفع فى الثانى ليدل على أن إبراهيم حيَّاهم بتحية أحسن من تحيتهم لأن الرفع دال على الثبوت. وكذا قال السكاكى فى علم البيان».

موقفه من المسائل الفقهية والأصول:

ومن يطالع تفسير ابن عرفة يلمس مبلغ عناية مؤلفه بالفقه وأصوله، فهو يتوقف عند آيات الأحكام ويستخرج منها الأدلة الأصولية، ويُعنى بالتفريعات الفقهية، وقد أشار إلى هذا الطاهر بن عاشور بقوله: «وشديد الاهتمام بأن ينتزع من الآيات ما هو من سياقها أو ليس منه بما يرجع إلى الأحكام التكليفية من مسائل الأصول ومسائل الفقه، وإيراد ما يتعلق بذلك من الأنظار ومناقشتها».

وهو فى تناوله لمسائل الفقه فى تفسيره لا يعرض رأيًا إلا وينسبه لقائله، ولا يتعرض إلى المسائل الخلافية إلا نادرًا.

فمثلاً عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة: ٣٩) قال: «وقال الزمخشرى: وعند الإمام أبى حنيفة: لا يصلون حال المشى، وعند الإمام الشافعى ﷺ: يصلون فى كل حال، والراكب يومئ ويسقط عنه التوجه إلى القبلة.

قال ابن عرفة: مذهب الإمام مالك والشافعى ﷺ فى ذلك سواء، وينوى التوجه إلى القبلة، وهذا إذا خاف العدو وفوات الوقت المختار، فإن رجا حصول الأمن فيه آخرَ الصلاة، وكذا الخائف من لصوص أو سباع، لأن الفرع فى هذا أقوى من أصله».

ومن أمثلة ذلك أيضًا رده لاجتهاد الإمام المازرى فى تجويزه إعطاء الرشوة للحصول على القضاء عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ **وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ** ﴾ (البقرة: ١٨٨).

وقال ابن عرفة عند تفسير قوله تعالى: ﴿ **وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** ﴾ (البقرة: ٢١٦): «الآية تدل على أن جميع الأحكام الشرعية تعلل، وذلك أنهم اختلفوا فى التعبدات، فذهب جماعة منهم الشيخ عز الدين بن عبد السلام إلى أنها الأحكام التى لا علة لها، والآية تقتضى أن الأحكام كلها لا تكون إلا لمصلحة، لأنها خرجت مخرج التبيين على كمال المبادرة إلى امتثال الأحكام الشرعية فدل على أن المراد ـ والله أعلم ـ ما فى ذلك من المصلحة، وأنتم لا تعلمون هذا فعليكم أن تأخذوها بالقبول».

أما فيما يتعلق بقضية النسخ فابن عرفة له فيها باع وافر، وإحاطة بالكثير من دقائقها وفروعها، ويظهر ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿ **مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا** ﴾ (البقرة: ١٠٦) فقد تعرض ابن عرفة إلى مسألة نسخ القرآن بخبر الواحد، وهى مسألة خلافية، حيث إن الجمهور على جواز هذا النوع من النسخ عقلا، وأما وقوعه شرعًا ففيه خلاف بين العلماء.

كما تعرض ابن عرفة إلى نسخ الحكم الأثقل بالأخف، وأشار إلى ما أورده ابن عطية من جواز هذا النسخ، ومثاله: نسخ الثبوت للعشرة بالثبوت لشخصين فقط، وبيَّن ابن عرفة أن العبرة فى الثقل والخفة بالمصلحة، فقد يكون متعلق هذه المصلحة أرجح من متعلق المصلحة الأخرى أو مساويًا لها، ولا شك أن وقوف الواحد للعشرة ثوابه يكون أعظم من ثواب ما هو أخف منه، وأقل ثوابًا لكونه أكثر الوقوع، فيتعدد ثوابه ويكثر بتعدد وقوعه.

كما تعرض ابن عرفة لموضوع نسخ القرآن بالقياس، فمنع وقوعه، كما منع النسخ بالإجماع وأشار إلى هذا بقوله: «ولا يصح نسخ النص بالقياس؛ لأن النص المقيس عليه إما أن يكون موافقًا لذلك النص المنسوخ أو مخالفًا، فإن كان موافقًا فلا نسخ، وإن كان مخالفًا فهو الناسخ لا القياس» ثم قال: «ولا ينسخ بالإجماع لأنه إنما يكون فى حياة النبى ﷺ، والإجماع إنما هو بعد وفاته».

وعند قولـه تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾ (البقرة: ٧٨)) قال ابن عرفة: «ويؤخذ منه ذم التقليد كلية فى الباطل»

وعند قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ من شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ (البـقـرة: ١٥٨) ذكر اخـتلاف الأصوليين فى «الواو» وهل تفـيد الترتيب، ورجَّح أنها لا تقتضيه ولا تنافيه، ولكن يحتج بها على ترجيح ما قدَّم الشارع فى لفظه.

وعند قولـه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ﴾ (البقرة: ١٧٤) قال: «وفى الآية عندهم حجة للعمل بالإجماع السكوتى».

ابن عرفة والمسائل الكونية:

تعرض ابن عـرفة فى تفسيـره لبعض القضايا العلمـية فاسـتدل على كروية الأرض بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ (البـقرة: ١١٥) وبقوله تعالى: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ (المعارج: ٤٠) حيث بيَّن أن تعدد المشرق والمغرب دليل على أن الأرض كروية لأن كل موضع مغرب لقوم مشرق لآخرين.

كما استدل أيضًا على ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ (البقرة: ٢٢).

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الفاتحة: ٦) قال: «وصفه على هذا بالمستقيم لأن طريق الخير قسمان: قـريبة، وبعيدة. فالخط المستقيم نص إقليدس على أنه أقرب مسافـة بين نقطتين، فالخط المستقيم أقرب من المـعوج، فلذلك وصفه على هذا بالمستقيم».

وأخيرًا . . . ندعو الله أن يُعجِّل بالعثور على هذا التفسير كاملا، ليعُمَّ النفع به . . إنه سميع مجيب.

الباب الثالث

تفاسير الشيعة

١ـ تفسير فرات الكوفى.

٢ـ تفسير القمى.

٣ـ تفسير العياشى.

٤ـ تفسير الحويزى.

٥ـ تفسير البحرانى.

٦ـ تفسير الطوسى.



أشهر مؤلفى الشيعة الإمامية الاثنا عشرية
فى تفسير القرآن، وأسماء كتبهم[(١)]

حوت المكتبة الإسلامية العشرات من مصنفات الإمامية الاثنا عشرية فى تفسير القرآن، ما بين مخطوط ومطبوع ومفقود، وكلها يدور حول تركيز عقيدتهم، مع اختلاف بينها فى الغلو والاعتدال، وهذه نبذة وجيزة عن أشهر مؤلفاتهم فى التفسير:

١ - محمد بن العباس بن عيسى، له كتاب التفسير.

٢ - على بن الحسن بن فضال، له كتاب التفسير، توفى عام ٢٢٤هـ.

٣ - أحمد بن محمد بن خالد البرقى، صاحب «المحاسن» وهو مشتمل على عدة كتب، منها كتاب التفسير والتأويل، توفى عام ٢٧٤هـ، وقيل: ٢٨٠هـ.

٤ - محمد بن أورمة القمى، له كتاب تفسير القرآن.

٥ - على بن إبراهيم بن هاشم القمى له كتاب التفسير، وسنتكلم عليه بالتفصيل.

٦ - على بن الحسين بن بابويه القمى، له كتاب التفسير، توفى عام ٣٢٩هـ.

٧ - محمد بن مسعود السمرقندى، العياشى، له كتاب التفسير، وسنتكلم عليه بالتفصيل.

٨ - محمد بن إبراهيم الكاتب النعمانى، ينسب له تفسير للقرآن.

٩ - محمد بن الحسن بن أحمد بن الوليد، شيخ القميين، له كتاب تفسير القرآن.

١٠- أبو منصور الصرام، له كتاب تفسير القرآن.

١١- محمد بن على بن الحسين بن بابويه القمى، له كتاب التفسير، توفى عام ٣٨١هـ.

١٢- الشريف الرضى محمد بن الحسين بن موسى، وله معانى القرآن، توفى عام ٤٠٦هـ.

١٣- الشيخ الطوسى محمد بن الحسن، شيخ الطائفة، له «التبيان» فى تفسير القرآن، توفى عام ٤٦٠هـ، وسنتكلم عليه بالتفصيل.

---

(١) لم نذكر فى هذه العجالة أسماء الكتب المؤلفة فى أحكام القرآن.

١٤- إسماعيل بن على بن الحسين السمان، له «البستان فى تفسير القرآن» فى عشر مجلدات.

١٥- محمد بن الحسن الفتال النيسابورى، له «التنوير فى معانى التفسير».

١٦- الفضل بن الحسن بن الفضل الطبرسى، له «مجمع البيان»، توفى عام ٥٤٨هـ.

١٧- فضل الله بن على الراوندى الحسنى، له «الكافى فى التفسير».

١٨- أبو الفتوح الحسين بن على بن محمد الخزاعى الرازى، له «روض الجنان فى تفسير القرآن» فى عشرين مجلدًا.

١٩- قطب الدين سعيد بن هبة الراوندى، له «خلاصة التفاسير» فى عشر مجلدات، و «تفسير القرآن» فى مجلدين، و «فقه القرآن فى بيان آيات الأحكام» أيضًا فى مجلدين، توفى عام ٥٧٣هـ.

٢٠- محمد بن هارون المعروف والده بالكال، له «مختصر التبيان فى تفسير القرآن»، توفى عام ٥٩٧هـ

٢١- محمد بن منصور بن إدريس العجلى الحلى، له «مختصر التبيان»، توفى عام ٥٩٨هـ.

٢٢- محمد بن أبى الخير الحمدانى، له «مفتاح التفسير».

٢٣- على بن موسى بن طاووس الحسنى الحلى، له «سعد السعود» فى تفسير آيات الذكر، توفى عام ٦٦٤هـ.

٢٤- العلامة الحلى الحسن بن يوسف مطهر، وله «نهج الإيمان فى تفسير القرآن» وهو ملخص «الكشاف» و «التبيان» وغيرهما، و «القول الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز»، توفى عام ٧٢٦هـ.

٢٥- عبد الرزاق أحمد الكاشانى، له «السراج الوهاج فى تفسير القرآن» و «تأويلات القرآن»، توفى عام ٧٣٠هـ، وقيل: ٧٣٥هـ، ويطبع منسوبًا لابن عربى، وهو خطأ، ويترجم له على أنه من أهل السنة.

٢٦- محمد بن محمد الرازى البويهى، له تفسيران: «تحفة الأشراف» وهو تفسير كبير، و «بحر الأصداف»، توفى عام ٧٦٦هـ.

٢٧- حيدر بن على بن حيدر الحسينى الآملى، صاحب تفسير «المحيط الأعظم والبحر الخضم فى تأويل كتاب الله العزيز المحكم»، وله ثلاثة تفاسير أخر: «التأويلات»، و «جامع الأسرار»، و «منتخب التأويل».

٢٨- أبو الفضل بن يوسف الديملى الجيلانى، له «تفسير القرآن» فى مجلدين ضخمين.

٢٩- الشيخ عفيف الدين طيفور بن سراج الدين جنيد، له تفسير اقتصر على الأحاديث المروية عن الأئمة، قد فرغ منه عام ٨٧٦هـ.

٣٠- المولى حسين بن على الواعظ الكاشفى، صاحب «جواهر التفسير لتحفة الأمير» ويقال له: «العروس» أيضًا، و «المواهب العلية»، توفى عام ٩١٠هـ.

٣١- المولى حسين بن الخواجة شرف الدين الأردبيلى المعروف بالإلهى، له تفسير كبير لتمام القرآن الكريم فى مجلدين، يسمى بـ «تفسير الإلهى» وقد يسمى: «تفسير الأردبيلى»، توفى عام ٩٥٠هـ.

٣٢- أبو المحاسن الحسين بن الحسن الجرجانى، من مشاهير الإمامية فى القرن العاشر، صاحب «جلاء الأذهان فى تفسير القرآن».

٣٣- بهاء الدين محمد بن الحسين العاملى، له «العروة الوثقى فى تفسير القرآن» و «عين الحياة»، توفى عام ١٠٣٠هـ، وقيل: ١٠٣٥هـ.

٣٤- صدر المتألهين محمد بن إبراهيم الشيرازى، توفى عام ١٠٥٠هـ، وتفسيره غير كامل، وهو مطبوع متداول، فى سبعة مجلدات، وهو تفسير فلسفى صوفى.

٣٥- المولى محمد رضا بن عبد الحسين النصيرى الطوسى، صاحب «تفسير الأئمة لهداية الأمة» فى ثلاثين مجلدًا، و «كشف الآيات».

٣٦- المولى عبد الوحيد بن نعمة الله الواعظ الاسترآبادى، صاحب «أسرار القرآن فى تفسير الفرقان».

٣٧- المولى تاج الدين الحسن بن محمد الأصفهانى، له «البحر المواج فى تفسير القرآن»، توفى عام ١٠٨٥هـ.

٣٨- المولى محمد بن مرتضى المشهور بالفيض الكاشانى، صاحب التفاسير الثلاثة المشهورة: «الصافى» و «المصفى» و «الأصفى»، توفى عام ١٠٩١هـ.

٣٩- الشيخ عبد على الحويزى، له تفسير «نور الثقلين»، وستتكلم عليه بالتفصيل.

٤٠- السيد هاشم بن سلميان الحسينى البحرانى، صاحب «البرهان فى تفسير القرآن»، وستتكلم عليه بالتفصيل، و «كتاب الهادى ومصباح النادى فى تفسير القرآن» وهو كبير أيضًا، توفى عام ١١٠٧هـ أو ١١٠٩هـ.

٤١- السيد نعمة الله بن عبد الله الحسينى الموسوى الجزائرى، له «العقود والمرجان فى تفسير القرآن» فى ثلاثة مجلدات، وله أيضًا تفسير للقرآن كتبه على هامش القرآن يقرب من سبعين ألف بيت، توفى عام ١١١٢هـ.

٤٢- محمد إسماعيل بن محمد باقر الأصفهانى الخاتون آبادى، له كتاب تفسير كبير فى أربعة عشر مجلدًا، توفى عام ١١١٦هـ.

٤٣- محمد بن محمد رضا بن إسماعيل المشهدى، له «كنز الدقائق» فى تفسير القرآن، توفى عام ١١٢٥هـ.

٤٤- على بن الحسين العاملى، له «الوجيز فى تفسير القرآن العزيز».

٤٥- أحمد بن الحسن بن على الحر العاملى، أخو الشيخ الحر العاملى المعروف، له كتاب تفسير القرآن.

٤٦- المولى أبو الحسن بن الشيخ محمد طاهر الفتونى النباطى العاملى، له «مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار فى تفسير القرآن» وقد يقال: «مشكاة الأنوار».

٤٧- عبد الله الأفندى بن عيسى التبريزى، صاحب «الأمان من النيران فى تفسير القرآن».

٤٨- المولى محمد بن على النجار التسترى، صاحب التفسير الكبير المسمى بـ «تفسير ابن النجار» أو بـ «مجمع التفاسير»، توفى عام ١١٤٠هـ.

٤٩- الشيخ عبد النبى الطسوجى، له تفسير كبير، توفى عام ١١٦٠هـ.

٥٠- السيد عبد الله بن محمد رضا الحسينى الكاظمى، الشهير بشبر، له تفاسير ثلاثة للقرآن المجيد: كبير، ووسيط، وصغير، توفى عام ١٢٤٢هـ.

٥١- المولى محمد جعفر الاسترآبادى المعروف بشريعتمدار، له «تفسير محمد جعفر الاسترآبادى» والظاهر أنه غير تفسيره الموسوم بـ «مظاهر الأسرار»، توفى عام ١٢٦٣هـ.

٥٢- السيد محمد مهدى بن محمد جعفر الموسوى التنكابنى، له «خلاصة التفاسير».

٥٣- الشيخ صالح بن محمد البرقانى القزوينى، صاحب التفاسير: الكبير المسمى بـ «بحر العرفان» فى سبعة عشر مجلدًا، والوسيط فى تسعة مجلدات، والصغير فى مجلد واحد، توفى عام ١٢٧٥هـ.

٥٤- السيد حسين بن رضا الحسينى البروجردى، له كتاب تفسير، توفى عام ١٢٧٧هـ.

٥٥- الشيخ محمد حسين بن باقر البروجردى، له تفسير كبير، وآخر يسمى بـ «أسرار التنزيل» اختاره من تفسيره، توفى فى نيف وثلاثمائة بعد الألف.

٥٦- الشيخ محمد جواد البلاغى، له «آلاء الرحمن فى تفسير القرآن» - غير كامل - توفى عام ١٣٥٢هـ.

٥٧- السيد على بن الحسين الحائرى، له «مقتنيات الدرر وملتقطات الثمر» فى اثنى عشر مجلدًا، توفى عام ١٣٥٣هـ.

٥٨- السيد محمد مولانا، له «التفسير الوجيز»، توفى عام ١٣٦٣هـ.

٥٩- السيد محمد حسين الطباطبائى، له «الميزان فى تفسير القرآن» فى عشرين مجلدا، توفى عام ١٤٠٢هـ، وسنتكلم عليه بالتفصيل.

٦٠- الشيخ محمد جواد مغنية، له «الكاشف فى تفسير القرآن»، توفى عام ١٤٠٠هـ.

٦١- السيد آية الله أبو القاسم الخوئى، له «البيان فى تفسير القرآن»، توفى عام ١٤١٣هـ.

وسيقتصر كلامنا على ستة كتب: خمسة من الغلاة، وهم: فرات الكوفى، القمى، العياشى، الحويزى، والبحرانى، ثم نختم الكلام بالحديث عن «التبيان» لشيخ الطائفة الطوسى، حيث أنه خير من يمثل الجانب المعتدل فى تفاسير الإمامية الاثنا عشرية.

١- تفسير فرات الكوفى

التعريف بصاحب التفسير[(١)]:

هو الشيخ أبو القاسم فرات بن إبراهيم بن فرات الكوفى، من معاصرى الكلينى والحافظ ابن عقدة وابن ماتى وغيرهم.

غير أن صفحات التاريخ لم تنقل إلينا من حياته شيئًا، ولم تفرد له كتب الرجال ترجمة لا بقليل ولا كثير، ولم تذكره حتى فى خلال التراجم.

ومشايخه يناهزون المائة، أما الرواة عنه فلا يتجاوز عددهم المذكورين فى هذا التفسير أو غيره.

ونسبته «الكوفى» لأنه كان من القاطنين بها، كما يظهر من طبقة شيوخه والرواة عنه.

وربما كان فرات الكوفى من الناحية الفكرية والعقائدية زيديًا أو كان متعاطفًا معهم ومخالطًا إياهم ومتمايلاً إليهم ـ على الأقل ـ كما يبدو واضحًا من خلال مشايخه وأسانيده وأحاديثه فى الكتاب فهو أشبه ما يكون بكتب الزيدية، وليس فى تفسيره نصٌّ على الأئمة الاثنى عشر.

التعريف بالتفسير:

وتفسير فرات الكوفى من أقدم المصادر التراثية عند الشيعة، التى وصلت إلينا، وهو يضم بين دفتيه (٧٧٧) حديثًا، تدور فى الأعم الأغلب حول ما يرونه ويعدونه نازلا فى أهل البيت ـ عليهم السلام ـ من آى الذكر الحكيم، كما يتخلله بعض الروايات التى لا ترتبط بما نزل فيهم، بل لها جانب تفسيرى محض، وربما لا يكون لها جانب تفسيرى بل ذكرت فيها الآية استطرادًا.

وتفسير فرات الكوفى ـ كمؤلفه ـ لا يمثل الاتجاه الإمامى، ففيه تصريحات للإمام زيد ـ رحمه الله ـ فى نفى العصمة عن الإمام السجاد والباقر والصادق، وأن المعصومين من أهل البيت خمسة لا سادس لهم، كما أن الكتاب لا يرتبط بأهل السنة بشكل من

---

(١) مصادر الترجمة: أعيان الشيعة (٨/ ٣٩٦)، مقدمة محقق تفسير فرات، معجم رجال الحديث (١٧٠/ ١٢٦ - ١٢٨)، الكافى (٢/ ٣٤٩).

الأشكال، فالكتاب فيه تعريض وطعن على كثير من الصحابة، وفيه أيضًا التوجه الخاص الموجود عند الشيعة فى أخذ معارفهم من أهل البيت حيث ترى الكتاب زاخرًا بأحاديث الباقر والصادق.

والأحاديث المذكورة فى هذا الكتاب فى جملتها تبدو عليها علامات الوضع ظاهرة، ولا حاجة للحكم عليها بميزان نقد الأحاديث.

والكتاب يقع فى جزء صغير، وله أكثر من طبعة.

وأرى أن أسوق لك بعض النماذج من هذا التفسير لتقف بنفسك على مسلكه.

نزول القرآن فى آل البيت وفى أعدائهم:

يقول فرات الكوفى فى مقدمة كتابه: «عن الأصبغ بن نباتة، عن أمير المؤمنين على ـ عليه السلام ـ قال: القرآن أربعة أرباع: ربع فينا، وربع فى عدونا، وربع فرائض وأحكام، وربع حلال وحرام، ولنا كرائم القرآن».

«وعن ابن عباس قال: أخذ النبى يد علىٍّ ـ صلوات الله عليهما ـ فقال: «إن القرآن أربعة أرباع: ربع فينا أهل البيت خاصة، وربع فى أعدائنا، وربع حلال وحرام، وربع فرائض وأحكام»».

تحريف القرآن:

ولما كان فرات الكوفى يقول بتحريف القرآن، نراه عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران: ٣٣) يقول: «عن حمران قال: سمعت أبا جعفر ـ عليه السلام ـ يقرأ هذه الآية: «إن الله اصطفى آدم ونوحًا وآل إبراهيم وآل محمد على العالمين» قلت: ليس نقرأ هكذا!، فقال: أدخل حرف مكان حرف».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ (المائدة: ٦٧) قال: «وعن ابن عباس رضي الله عنه فى قوله تعالى: «يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك فى على» أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبلغ فيه الخبر».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ (الأعراف: ١٧٢) قال: «عن أبى جعفر ـ عليه السلام ـ

قال: لو أن الجهال من هذه الأمة يعرفون متى سُمِّيَ أمير المؤمنين - عليه السلام - لم ينكروا، إن الله تبارك وتعالى حين أخذ ميثاق ذرية آدم، وذلك فيما أنزل الله على محمد ﷺ فى كتابه فنزل بها جبرائيل كما قرأنا يا جابر، تسمع الله يقول: «وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى وأن محمدًا رسولى وأن عليا أمير المؤمنين» فوالله فسماه أمير المؤمنين فى الأظلة حيث أخذ ميثاق ذرية بنى آدم».

وكذلك عند قوله تعالى: ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ (الحجر: ٤١) قال فرات الكوفى: «عن سلام بن المستنير الجعفى قال: دخلت على أبى جعفر - عليه السلام - فقلت: جعلنى الله فداك، إنى أكره أن أشق عليك، فإن أذنت لى أن أسألك سألتك، فقال عليه السلام: سلنى عما شئت، قال: قلت: أسألك عن القرآن؟ قال: نعم، قال: قلت: ما قول الله عز وجل: ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾؟ قال: صراط على بن أبى طالب، فقلت: صراط عليٍّ؟؟! فقال: صراط على بن أبى طالب، عليه السلام».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (النحل: ٢٤) قال: «عن أبى حمزة اليمانى قال: قرأ جبرائيل - عليه السلام - على محمد ﷺ هكذا قوله: «وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم فى على قالوا أساطير الأولين».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ (سورة ق: ٢٤) قال فرات الكوفى: «عن الحسن بن راشد قال: قال لى شريك القاضى أيام المهدى: أتريد أن أحدثك بحديث أتبرك به على أن تجعل لله عليك أن لا تحدث به حتى أموت؟ قال: قلت: أنت آمن، فحدث بما شئت، قال: كنت على باب الأعمش وعليه جماعة من أصحاب الحديث، قال: ففتح الأعمش الباب فنظر إليهم ثم رجع وأغلق الباب فانصرفوا وبقيت أنا، فخرج فرآنى، فقال: أنت هنا؟! لو علمت لأدخلتك أو لخرجت إليك، قال: ثم قال: أتدرى ما كان ترددى فى الدهليز هذا اليوم؟ قلت: لا، قال: إنى ذكرت آية فى كتاب الله، قلت: ما هى؟ قال: قول الله تعالى: «يا محمد، يا على، ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد» قال: قلت: وهكذا نزلت؟ قال: إى والذى بعث محمدًا بالنبوة لهكذا نزلت».

موقفه من التفسير الباطن:

وفرات الكوفى كغيره من الشيعة يقول بأن للقرآن ظهرًا وبطنًا، ويفسر آيات القرآن على هذا النحو، فمثلا عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ (الأنفال: ١١) قال: «عن أبى جعفر - عليه السلام - قال: أما قوله: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ فإن السماء فى البطن رسول الله ﷺ، والماء أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام، جعل عليا من رسول الله ﷺ؛ فذلك قوله: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ وأما قوله: ﴿لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ﴾ فذلك على بن أبى طالب - عليه السلام - يطهر الله به قلب من والاه، فذلك قوله: ﴿لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ﴾».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (المائدة: ٥) قال: «عن أبى جعفر الباقر - عليه السلام - قال: فالإيمان فى بطن القرآن على بن أبى طالب - عليه السلام - فمن يكفر بولايته فقد حبط عمله وهو فى الآخرة من الخاسرين».

ولايـــة على:

وفرات الكوفى يقرر فى تفسيره إمامة على رضي الله عنه، وخلافته للنبى ﷺ بدون فصل، فمثلا عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ (المائدة: ٥٥): يقول: «عن عبد الله بن عطاء قال: كنت جالسًا مع أبى جعفر - عليه السلام - فى مسجد الرسول - ﷺ - وابن عبد الله ابن سلام جالسٌ فى صحن المسجد، قال: فقلت: جُعلت فداك، هذا ابن الذى عنده علم الكتاب؟ قال: لا، ولكنه صاحبكم على بن أبى طالب - عليه السلام - نزل فيه: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا...﴾ إلى آخر الآية، ونزل فيه ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ...﴾ (المائدة: ٦٧) إلى آخر الآية، فأخذ رسول الله ﷺ بيد على بن أبى طالب - عليه السلام - يوم غدير خم وقال: «من كنت مولاه فعلى مولاه».

وروى - أيضًا «عن أبى هاشم عبد الله بن محمد ابن الحنفية قال: أقبل سائل فسأل

رسـول الله ﷺ فقـال: «هل سألت أحـدًا من أصـحابى؟» قـال: لا، قال: «فـأت المسجد فاسألهم ثم عُدْ إلىَّ فأخبرنى»، فأتـى المسجد فلم يعطه أحدٌ شيئًا، قال: فمر بعلىٍّ وهو راكع فناوله يده فأخذ خاتمه، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: «هل تعرف هذا الرجل؟» قال: لا، فأرسل مـعه سلمان، فإذا هو على بن أبى طالب ـ عليه السلام ـ قال: ونزلت هذه الآية: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾.

نزول جبريل على على رضي الله عنه بالقرآن:

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا...﴾ (المائدة: ٥٥) قال فرات الكوفى: «عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب ـ عليه السلام ـ قال: دخلت على رسول الله ﷺ وهو يقرأ سورة المائدة فقـال: «اكتب» فكتبت حتى انتهيت إلى هذه الآيـة: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ ثم أتى رسول الله ﷺ يـخفق برأسه كأنه نائم وهو يملى بلسانه حتى فرغ من آخر السورة، ثم انتبه فقال لى: «اكتب» فأملى علىَّ من الموضع الذى خـفق عنده، فقلت: ألم تُمْلِ علىَّ حتى ختمـتها؟ قال: «الله أكبر، ذلك الذى أملى عليك جبرئيل ـ عليه السلام» ثم قال علىٌّ ـ عليه السـلام: فأملى علىَّ رسول الله ﷺ ستين آية، وأملى علىَّ جبرئيل أربعًا وستين آية».

عرض ولاية على على نبى الله يونس وأهل السموات والأرض:

قال فـرات الكـوفى عند تفسير قـوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ (الصـافـات: ١٤٣): «عن جعفر بن محمد عن أبيـه عن جده ـ عليهم السلام ـ قال: قال رسـول الله ﷺ: «إن الله تبـارك وتعـالى عـرض ولاية على بن أبى طـالـب ـ عليـه السلام ـ على أهل السماوات وأهل الأرض فقبلوها مـا خلا يونس بن متى، فعاقبه الله وحبسه فى بطن الحوت لإنكاره ولاية أمير المؤمنين على بن أبى طالب ـ عليه السلام ـ حتى قبلها، قال أبو يعقـوب: فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين لإنكارى ولاية على بن أبى طالب ـ عليه السلام.

قال أبو عبد الله: فأنكرت الحديث فعرضتـه على عبد الله بن سليمان المدنى فقال لى: لا تجزع منه، فـإن أمير المـؤمنين على بن أبى طالب ـ عليـه السلام ـ خطب هنا

بالكوفة حمد الله تعالى وأثنى عليه فـقال فى خطبته: «فلولا أنه كان من المقرين للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون» فقام إليه فلان ابن فلان وقال: يا أمير المؤمنين، إنا سمعنا الله يقول: ﴿فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾! فقال: اقعد يا بكار «فلولا أنه كان من المقرين للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون».

إقرار الملائكة وحملة العرش بولاية على:

وعند قوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ (النجم: ٩) قال فرات الكوفى: «عن فاطمة بنت محـمـد ـ عليها السلام ـ قالت: قـال رسول الله ﷺ: «لما عُرج بى إلى السماء فصرت إلى سدرة المنتهى ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ فرأيته بقلبى ولم أره بعينى، سمعت الأذان مثنى مثنى، والإقامة وترًا وترًا، وسـمعت مناديًا ينادى: يا ملائكتى وسكان سماواتى وأرضى وحملة عرشى اشهدوا أنى أنا الله لا إله أنا وحدى لا شريـك لى، قالوا: شـهدنا وأقـررنا، قال: اشـهدوا يا مـلائكتى وسكان سمـاواتى وأرضى وحمـلة عرشى بأن مـحمدًا عـبدى ورسـولى، قالوا: شـهدنا وأقـررنا، قال: واشـهدوا يا مـلائكتى وسكان سمـاواتى وأرضى وحـملة عرشى بأن عليّـا وليى وولى رسولى وولى المؤمنين، قالوا: شهدنا وأقررنا».

استحباب صوم يوم ولاية على:

وعند تفسيـر قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣) قال: «عن فرات بن أحنف: عن عبد الله ـ عليه السلام ـ قال: قلت: جُعـلت فداك، للمسلمين عـيد أفضل من الفطر والأضحى ويوم الجـمعة ويوم عرفة؟ قال: فقال لى: نعم، أفضلهـا وأعظمها وأشرفها عند الله منزلة، وهو اليوم الذى أكمل الله فيـه الدين وأنزل على نبيه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ قال: قلت: وأى يوم هو؟ قال: فـقال لى: إن أنبياء بنى إسرائيل كانوا إذا أراد أحدهم أن يعقد الوصية والإمامة للوصى من بعده جعلوا ذلك اليوم عيدا، وإنه اليوم الذى نصب فيه رسـول الله ﷺ عليّا للناس علمًا وأنزل فيه ما أنزل، وكمل فيه الدين وتمت فيـه النعمة على المؤمنين، قال: قلت: وأى يوم هو فى السنة؟ قال: فـقال لى: إن الأيام تتقدم وتتأخـر فربما كان يوم السـبت والأحد والاثنين

إلى آخر الأيام السبعة، قال: قلت: فما ينبغى لنا أن نعمل فى ذلك اليوم؟ قال: هو يوم عبادة وصلاة وشكر لله وحمد له وسرور لما مَنَّ الله به عليكم من ولايتنا، وإنى أحب لكم أن تصوموه».

وفادة على رضي الله عنه على الله وإعطاؤه مفاتيح الغيب:

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ﴾ (البقرة: ٢١٠) قال: «عن عبد الواحد بن على قال: قال أمير المؤمنين - على ابن أبى طالب - عليه السلام: أنا أؤدى من النبيين إلى الوصيين ومن الوصيين إلى النبيين، وما بعث الله نبيًا إلا وأنا أقضى دينه وأنجز عداته، ولقد اصطفانى ربى بالعلم والظفر، ولقد وفدت إلى ربى اثنتى عشرة وفادة، فعرَّفنى نفسه، وأعطانى مفاتيح الغيب».

موقفه من التقية:

وفرات الكوفى يقول بالتقية ويدين بها، فنراه عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ﴾ (فصلت: ٣٤) يقول: «عن معاوية بن عمار: عن أبى عبد الله - عليه السلام - قال: قلت: جُعلت فداك ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ﴾ قال: الحسنة التقية، والسيئة الإذاعة».

القائم:

وعند تفسيره للآيات الثلاث من أول سورة الشمس قال: «عن أبى جعفر - عليه السلام - قال: قال الحارث الأعور للحسين - عليه السلام: يا بن رسول الله جُعلت فداك، أخبرنى عن قول الله فى كتابه: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ قال: ويحك يا حارث، ذلك محمد رسول الله ﷺ، قال: قلت: جُعلت فداك، قوله: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا﴾ قال: ذلك أمير المؤمنين على بن أبى طالب - عليه السلام - يتلو محمدًا ﷺ، قال: قلت: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا﴾ قال: ذلك القائم من آل محمد ﷺ يملأ الأرض عدلا وقسطا».

الأوصــــياء:

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا﴾ (الفرقان: ٦٣) قال: «عن أبى عبد الله ـ عليه السلام ـ قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا﴾ إلى قوله: ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ (الفرقان: ٧٦) ثلاث عشرة آية، قال: هم الأوصياء يمشون على الأرض هونًا، فإذا قام القائم عرفوا كل ناصب، فإن أقر بالإسلام ـ وهو الولاية ـ وإلا ضُربت عنقه، أو أقر بالجزية فأداها كما تؤدى».

الطعن فى معاوية:

وفرات الكوفى يطعن فى تفسيره على معاوية، فعند تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ (المائدة: ٦٧) قال: «عن حذيفة بن اليمان ﷺ قال: كنت والله جالسًا بين يدى رسول الله ﷺ وقد نزل بنا «غدير خم» وقد غص المجلس بالمهاجرين والأنصار، فقام رسول الله ﷺ على قدميه فقال: «أيها الناس إن الله أمرنى بأمر فقال: «يا أيها الرسول بلِّغ ما أنزل إليك من ربك فى علىٍّ» فقلت لصاحبى جبرئيل ـ عليه السلام: يا خليلى إن قريشا قالوا لى كذا وكذا، فأتى الخبر من ربى فقال: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ ثم نادى على بن أبى طالب ـ عليه السلام ـ فأقامه عن يمينه ثم قال: «أيها الناس ألستم تعلمون أنى أولى منكم بأنفسكم؟» قالوا: اللهم بلى، قال: «من كنت مولاه فعلى مولاه».

فقال رجل من عرض المسجد: يا رسول الله ما تأويل هذا؟ قال: «من كنت نبيه فعلى أميره، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله».

فقال حذيفة: فوالله لقد رأيت معاوية حتى قام يتمطى وخرج مغضبًا واضعًا يمينه على عبد الله بن قيس الأشعرى ويساره على المغيرة بن شعبة ثم قام يمشى متمطيًا وهو يقول: لا نصدق محمداً فى مقالته ولا نقر لعلى بولايته؛ فأنزل الله ـ تعالى ـ على إثر كلامه: ﴿فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّىٰ (٣١) وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ (٣٣) أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ (٣٤) ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ (القيامة: ٣١ - ٣٥) فهمَّ به رسول الله ﷺ أن يرده فيقتله، فقال جبرئيل: ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (القيامة: ١٦) فسكت النبى».

قصة أهل وادى اليابس والطعن فى أبى بكر وعمر:

وعند تفسير سورة العاديات ذكر فرات الكوفى فى سبب نزولها حديثًا مكذوبًا، يطعن فيه فى أبى بكر، وعمر رضي الله عنهما، فقال: «هذه السورة نزلت فى أهل وادى اليابس، إن أهل وادى اليابس اجتمعوا اثنى عشر ألفا فارس وتعاهدوا وتعاقدوا أن لا يتخلف رجل عن رجل، ولا يخذل أحد أحدًا، ولا يفر رجل عن صاحبه حتى يموتوا كلهم على خلق رجل واحد، ويقتلون محمدًا وعليّا، فنزل جبرئيل - عليه السلام - على محمد صلى الله عليه وسلم فأخبره بقصتهم وما تعاهدوا عليه وتواثقوا، وأمره أن يبعث أبا بكر إليهم فى أربعة آلاف فارس من المهاجرين والأنصار، فصعد رسول الله صلى الله عليه وسلم المنبر فحمد الله - تعالى، وأثنى عليه، ثم قال: «يا معشر المهاجرين والأنصار إن جبرئيل - عليه السلام - أخبرنى أن أهل وادى اليابس فى اثنى عشر ألف فارس قد استعدوا وتعاهدوا وتواثقوا أن لا يغدر رجل بصاحبه ولا يفر عنه ولا يخذله حتى يقتلونى أو يقتلوا أخى على بن أبى طالب، وأمرنى أن أُسير إليهم أبا بكر فى أربعة آلاف فارس، فجِدُّوا فى أمركم واستعدوا لعدوكم وانهضوا إليهم على اسم الله وبركته يوم الاثنين إن شاء الله، فأخذ المسلمون عدتهم وتهيأوا، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر بأمر، وكان فيما أمره به: أن إذا رآهم أن يعرض عليهم الإسلام فإن تابعوه وإلا واقعهم فقتل مقاتليهم وسبى ذراريهم واستباح أموالهم وأخرب ديارهم.

فمضى أبو بكر ومن معه من المهاجرين والأنصار فى أحسن عدة وأحسن هيئة، يسير بهم سيرًا رفيقًا حتى انتهوا إلى أهل الوادى اليابس، فلما بلغ القوم نزول القوم عليهم ونزول أبى بكر وأصحابه قريبًا منهم خرج إليهم من وادى اليابس مائتا رجل مدججين فى السلاح، فلما صادفوهم قالوا لهم: من أين أقبلتم؟ وأين تريدون؟ ليخرج إلينا صاحبكم حتى نكلمه، فخرج إليهم أبو بكر ونفر من المسلمين، فقال لهم أبو بكر: أنا صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: ما أقدمك علينا؟ قال: أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أعرض عليكم الإسلام: أن تدخلوا فيما دخل فيه المسلمون، ولكم ما لهم وعليكم ما عليهم، وإلا فالحرب بيننا وبينكم، قالوا له: أما واللات والعزى لولا رحم بيننا وبينك وقرابة قريبة لقتلناك وجميع أصحابك حتى تكون حديثًا

لمن يأتى بعدكم، ارجع أنت وأصحابك وارغبوا فى العافية، فإنا نريد صاحبكم بعينه، وأخاه على بن أبى طالب.

فقال أبو بكر لأصحابه: يا قوم، إن القوم أكثر منا أضعافًا وأعد منكم عدة، وقد نأت داركم عن إخوانكم من المسلمين فارجعوا نُعلم رسول الله ﷺ بحال القوم، فقالوا له جميعًا: خالفت يا أبا بكر رسول الله ﷺ وما أُمرت به. فاتق الله وواقع القوم ولا تخالف قول رسول الله ﷺ، قال: إنى أعلم ما لا تعلمون، والشاهد يرى ما لا يراه الغائب، فانصرف الناس وانصرفوا أجمعين.

فأخبر جبرئيل - عليه السلام - النبى ﷺ بما قال القوم وما رد عليهم أبو بكر، فقال النبى ﷺ: «يا أبا بكر خالفت أمرى، ولم تفعل ما أمرتك به، وكنت لى عاصيًا فيما أمرتك» فقام النبى ﷺ - وصعد المنبر - فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «يا معاشر المسلمين إنى أمرت أبا بكر أن يسير إلى أهل وادى اليابس وأن يعرض عليهم الإسلام ويدعوهم إلى الله وإلىّ، فإن أجابوا وإلا واقعهم، وإنه سار إليهم فخرج إليه منهم مائتا رجل، فلما سمع كلامهم وما استقبلوه به انتقع صدره - ودخله الرعب منهم، وترك قولى ولم يطع أمرى، وإن جبرئيل - عليه السلام - أمرنى عن الله - تبارك وتعالى - أن أبعث عمر مكانه فى أصحابه فى أربعة آلاف فارس، فسر يا عمر باسم الله ولا تعمل ما عمل أبو بكر أخوك، فإنه قد عصى الله وعصانى» وأمره بما أمر به أبا بكر.

فخرج عمر والمهاجرون والأنصار الذين كانوا مع أبى بكر يقصد بهم فى مسيره حتى شارف القوم، فكان قريبًا حيث يراهم ويرونه، حتى خرج إليهم مائتا رجل من أهل وادى اليابس فقالوا له ولأصحابه مثل مقالتهم لأبى بكر، فانصرف عنهم وانصرف الناس معه، وكاد أن يطير قلبه لما رأى من نجدة القوم وجمعهم، ورجع، فنزل جبرئيل - عليه السلام - على النبى ﷺ وأخبره بما صنع عمر وأنه قد انصرف وانصرف المسلمون معه، فصعد ﷺ المنبر فحمد الله تعالى، وأثنى عليه وأخبرهم بما صنع عمر وما كان منه، وأنه قد انصرف بالمسلمين معه مخالفًا لأمرى عاصيًا لقولى، فقدم إليه عمر، وأخبره بمثل ما أخبره به صاحبه، فقال له النبى ﷺ: «يا عمر قد عصيت

الله فى عـرشه، وعـصيتنى وخالفت أمـرى وعملت برأيك، ألا قـبح الله رأيك، وإن جبرئيل - عليه السـلام - أمرنى عن الله أن أبعث على بن أبى طالب - عليه السلام - فى هؤلاء المسلمين، وأخـبرنى أن الله تعالى يفتح عليه وعلى أصحـابه» ثم نزل فدعا على ابن أبى طالب - عليه السلام - فـأوصاه بما أوصى به أبا بكر وعمر وأصـحابه فى أربعة آلاف فارس، وأخبره أن الله سيفتح عليه وعلى أصحابه.

فخرج علىٌّ - عليه السلام - ومعه المهاجرون والأنصار فسار بهم سيرًا غير سير أبى بكر وعمر، وذلك أنه أعنف[١] بهم فى السير حتى خافوا أن يتقطعوا من التعب وتحفى دوابهم فقـال لهم: لا تخافـوا، فإن رسول الله ﷺ أمـرنى بأمر وأنا منتـه إلى أمره، وأخبرنى أن الله تبـارك وتعالى سيفـتح علىَّ وعليكم، أبشروا فإنكم غـادونٍ إلى خير، فطابت أنفسهم وسكنت قلوبهم، فساروا كل ذلك فى السـير والتعب الشديد حتى باتوا قريبًـا منهم حيث يراهم ويرونه، وأمر أصـحابه أن ينزلوا، وسـمع أهل الوادى اليابس بقدوم على بن أبى طالـب - عليه السلام - فـخرج منهم إليهم مـائتا فارس شـاكين فى السلاح، فلما رآهم علىٌّ - عليـه السلام - خرج إليهم فى نفر من أصحـابه فقالوا لهم: من أنتم؟ ومن أين أقبلتم؟ وأين تريدون؟ قال: أنا أمـير المؤمنين! على بن أبى طالب، ابن عم رسول الله ﷺ وأخوه ورسوله إليكم أن ندعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ولكم ما للمسلمين وعليكم ما عليهم من الخير والشر، فقالوا: إياك أردنا وأنت طلبتنا، قـد سمعنا مـقالتك وما أردت، وهذا الأمر لا يوافـقنا وتبًّا لك ولأصحابك، وخذ حـذرك واستعد للحرب، ولكنا قاتلوك وقاتلو أصـحابك، والموعد فيما بيننا وبينكم غدًا سحرًا ضحوة، وقد أعذرنا فيما بيننا وبينكم.

فقال لهم علىٌّ - عليه السلام: ويلكم تهددونى بكثـرتكم وجمعكم؟!! وأنا أستعين بالله وملائكته وبالمسلمين عليكم، ولا حـول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، فانصرفوا إلى مراكزهم وانصرف علىٌّ إلى مركزه.

فلما جنه الليل أمر علىٌّ أصحـابه أن يحسوا دوابهم ويقضمونها ويسـرجونها، فلما أسفـر الصبح صلى بالناس بغلس ثم أغـار عليهم بأصـحابه فلم يعلموا حـتى توطأتهم

---

(١) أى: أسرع.

الخيل فما أدرك آخر أصحابه حتى قتل مقاتليهم وسبى ذراريهم واستباح أموالهم وأخرب ديارهم وأقبل بالأسارى والأموال معه.

ونزل جبرئيل - عليه السلام - فأخبر النبى ﷺ بما فتح الله على يدى أمير المؤمنين على بن أبى طالب - عليه السلام - وجماعة المسلمين، فصعد المنبر وحمد الله تعالى وأثنى عليه وأخبر الناس بما فتح الله تعالى على المسلمين، وأعلمهم أنه لم يصب منهم إلا رجلان.

فخرج النبى ﷺ يستقبل عليًا وجميع أهل المدينة من المسلمين حتى لقيه على ثلاثة أميال من المدينة، فلما رآه علىٌّ مقبلا نزل عن دابته، ونزل النبى ﷺ حتى التزمه، وقبَّل النبى ﷺ بين عينيه، ونزل جماعة المسلمين إلى على حيث نزل النبى ﷺ، وأقبل بالغنيمة والأسارى وما رزقهم الله تعالى من أهل الوادى اليابس.

ثم قال جعفر بن محمد - عليهما السلام: فما غنم المسلمون مثلها قط، إلا أن يكون خيبر، فإنها مثل خيبر، وأنزل الله تعالى فى ذلك اليوم: ﴿**وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا**﴾ (العاديات: ١).

ثم قال: ﴿**إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ**﴾ قال: لكفور ﴿**وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ**﴾ قال: يعنيهما جميعًا، قد شهدا جمع وادى اليابس وتمنيا الحياة ﴿**وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ**﴾ يعنى أمير المؤمنين عليه السلام ﴿**أَفَلا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (٩) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (١٠) إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ**﴾ قال: نزلت هاتان الآيتان فيهما خاصة كانا يضمران ضمير السوء ويعملان به فأخبر الله تعالى خبرهما، فهذه قصة أهل وادى اليابس وتفسير السورة».

موقفه من سحر النبى ﷺ:

وفرات الكوفى يخالف الغالبية من الشيعة الإمامية، ويقول بوقوع السحر للنبى ﷺ، فقال عند تفسير سورة الفلق: «عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب - عليه السلام - قال: سحر لبيد بن أعصم اليهودى وأم عبد الله اليهودية رسول الله ﷺ فى عقد من قز أحمر وأخضر وأصفر، فعقدوه له فى إحدى عشرة عقدة ثم جعلوه فى جف من طلع - قال: يعنى قشور اللوز - ثم أدخلوه فى بئر بواد فى مراقى البئر تحت راعوفة

- يعنى الحجر الخارج - فأقام النبى ﷺ ثلاثًا لا يأكل ولا يشرب ولا يسمع ولا يبصر ولا يأتى النساء!! فنزل عليه جبرئيل - عليه السلام - ونزل معه بالمعوذتين فقال له: يا محمد ما شأنك؟ قال: «ما أدرى، أنا بالحال الذى ترى» فقال: إن أم عبد الله ولبيد ابن أعصم سحراك، وأخبره بالسحر حيث هو، ثم قرأ جبرئيل - عليه السلام: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ فقال رسول الله ﷺ ذلك فانحلت عقدة، ولم يزل يقرأ آية ويقرأ النبى ﷺ وتنحل عقدة، حتى قرأها عليه إحدى عشرة آية، وانحلت إحدى عشرة عقدة، وجلس النبى ﷺ ودخل أمير المؤمنين - عليه السلام - فأخبره بما جاء به جبرئيل وقال: «انطلق فأتنى بالسحر» فخرج علىٌّ فجاء به، فأمر به رسول الله ﷺ فنقض، ثم تفل عليه، وأرسل إلى لبيد بن أعصم وأم عبد الله اليهودية فقال: «ما دعاكم إلى ما صنعتم؟!»، ثم دعا رسول الله ﷺ على لبيد وقال: «لا أخرجك الله من الدنيا سالمًا» قال: وكان موسرًا كثير المال، فمر به غلام يسعى، فى أذنه قرط قيمته دينار، فجاذبه فخرم أذن الصبى، فأُخذ وقُطعت يده فمات من وقته».

خلق على وفاطمة والحسن والحسين من نور الله وعرضهم على آدم والملائكة فى الجنة:

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِى بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾ (البقرة: ٢٦) قال فرات الكوفى: «عن أبى عبد الله - عليه السلام - قال: إن الله - تبارك وتعالى - كان ولا شىء، فخلق خمسة: النبى - محمد ﷺ، وهو الأعلى، وسمى أمير المؤمنين عليا، وله الأسماء الحسنى، فاشتق منها حسنًا وحُسينا، وهو فاطر فاشتق لفاطمة من أسمائه اسمًا، فلما خلقهم جعلهم فى الميثاق فإنهم عن يمين العرش، وخلق الملائكة من نور، فلما أن نظروا إليهم عظموا أمرهم وشأنهم ولُقنوا التسبيح، فذلك قوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ (الصافات: ١٦٥، ١٦٦)، فلما خلق الله تعالى آدم - صلوات الله وسلامه عليه - نظر إليهم عن يمين العرش فقال: يا رب من هؤلاء؟ قال: يا آدم هؤلاء صفوتى وخاصتى، خلقتهم من نور جلالى وشققت لهم اسمًا من أسمائى، قال: يا رب فبحقك عليهم علمنى أسماءهم، قال:

يا آدم فهم عندك أمانة، سر من سرى، لا يطلع عليه غيرك إلا بإذنى، قال: نعم، يا رب، قال: يا آدم أعطنى على ذلك العهد، فأخذ عليه العهد، ثم علمه أسماءهم ثم عرضهم على الملائكة ولم يكن علمهم بأسمائهم ﴿ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ ﴾ (البقرة: ٣١ - ٣٣) فعلمت الملائكة أنه مستودع وأنه مُفضل بالعلم، وأُمروا بالسجود، إذ كانت سجدتهم لآدم تفضيلاً له وعبادةً لله إذ كان ذلك يحق له، وأبى إبليس الفاسق عن أمر ربه فقال: ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾ (الأعراف: ١٢) قال: فقد فضلته عليك حيث أمر بالفضل للخمسة الذين لم أجعل لك عليهم سلطانًا ولا من شيعتهم، فذلك استثناء اللعين ﴿ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ (الحجر: ٤٠) قال: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ (الحجر: ٤٢) وهم الشيعة».

الكلمات التى دعا بها آدم ربه:

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ (البقرة: ٣٧) قال فرات الكوفى: «عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لما نزلت الخطيئة بآدم وأُخرج من الجنة أتاه جبرئيل ـ عليه السلام ـ فقال: يا آدم ادع ربك، قال: حبيبى جبرئيل، ما أدعو؟ قال: قل: رب أسألك بحق الخمسة الذين تخرجهم من صلبى آخر الزمان إلا تبت علىَّ ورحمتنى، فقال له آدم ـ عليه السلام: يا جبرئيل سمهم لى، قال: قل: رب أسألك بحق محمد نبيك، وبحق علىٍّ وصى نبيك، وبحق فاطمة بنت نبيك، وبحق الحسن والحسين سبطى نبيك إلا تبت علىَّ ورحمتنى، فدعا بهن آدم فتاب الله عليه، وذلك قول الله تعالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾».

عرض ولاية أهل البيت والأئمة على السموات والأرض ومن فيهن:

وعند قوله تعالى: ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ ﴾ (البقرة: ٢٨٥) قال فرات الكوفى: «عن أبى جعفر محمد بن على ـ عليهما السلام ـ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لما أُسرى بى إلى السماء قال لى العزيز: ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ ﴾

قلت: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ قال: صدقت يا محمد، عليك السلام، من خلّفت لأمتك من بعدك؟ قلت: خيرها لأهلها، قال: على بن أبى طالب؟ قلت: نعم يا رب، قال: يا محمد إنى اطلعت إلى الأرض إطلاعة فاخترتك منها واشتققت لك اسمًا من أسمائى لا أُذكر فى مكان إلا ذُكرت معى، فأنا محمود وأنت محمد، ثم اطلعت الثانية فاخترت عليّا واشتققت له اسمًا من أسمائى، فأنا الأعلى وهو على، يا محمد إنى خلقتك وخلقت عليّا وفاطمة والحسن والحسين والأئمة من ولده أشباح نور من نورى وعرضت ولايتكم على السموات وأهلها وعلى الأرضين ومن فيهن، فمن قبل ولايتكم كان عندى من المقربين، ومن جحدها كان عندى من الكفار الضالين، يا محمد لو أن عبدًا عبدنى حتى ينقطع أو يصير كالشن البالى ثم أتانى جاحدًا لولايتكم ما غفرت له حتى يقر بولايتكم، يا محمد تحب أن تراهم؟ قلت: نعم يا رب، قال: التفت عن يمين العرش، فالتفت فإذا أنا بأشباح علىٍّ وفاطمة والحسن والحسين والأئمة كلهم، حتى بلغ المهدى - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - فى ضحضاح من نور قيام يصلون، والمهدى فى وسطهم كأنه كوكب درى، فقال لى: يا محمد هؤلاء الحجج وهو الثائر من عترتك، فوعزتى وجلالى إنه لحجة واجبة لأوليائى منتقم من أعدائى».

خلق فاطمة وفضلها:

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ (الروم: ٤، ٥) قال: «عن أبى عبد الله جعفر بن محمد - عليهما السلام - عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «معاشر الناس تدرون مم خُلقت فاطمة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «خُلقت فاطمة حوراء إنسية لا إنسية، قال: خُلقت من عرق جبرئيل ومن زغبه»، قالوا: يا رسول الله أشكل ذلك علينا، تقول: حوراء إنسية لا إنسية، ثم تقول: من عرق جبرئيل ومن زغبه؟! قال: «إذًا أنبئكم، أهدى إلىَّ ربى تفاحة من الجنة أتانى بها جبرئيل فضمها إلى صدره فعرق جبرئيل - عليه السلام - وعرقت التفاحة فصار عرقهما شيئًا واحدًا، ثم قال: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، قلت: وعليك السلام يا جبرئيل، فقال: إن الله أهدى إليك تفاحة من الجنة، فأخذتها فقبّلتها ووضعتها على عينى وضممتها إلى صدرى، ثم قال: يا محمد كُلْها، قلت: يا حبيبى

جبـرئيل هدية ربى تؤكل؟! قال: نعم، قـد أُمرت بأكلهـا، فأفلقتـها فرأيـت منها نورًا ساطعًا فرعـت من ذلك النـور، قـال: كُلْ فـإن ذلك نـور المنصـورة فـاطـمة، قلت: يا جبرئيل ومن المنصـورة؟ قال: جارية تخرج من صلبك اسمها فـى السماء المنصورة وفى الأرض فاطمـة، فقلت: يا جبرئيل ولِـمَ سُميت فى السمـاء منصورة وفى الأرض فاطمة؟ قال: سميت فاطمة فى الأرض لأنها فطمت شيعتها عن النار، وفطمت أعداءها عن حبها، وذلك قـول الله فى كتابه: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ بنصـر فاطمة عليها السلام».

المعصومون من آل البيت:

وفرات الكوفى لا يقول بعصمة الأئمة، خلافًا للإمامية الاثنا عشرية، ولكنه يقصرها على أربعة من أهل البيت هم: على، والحسن، والحسين، وفاطمة، فيقول عند تفسير قـوله تعـالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ (الأحزاب: ٣٠): «عن أبى خالد قال: كنا عند زيـد بن على ـ عليهما السلام ـ فجاءه أبو الخطاب يكلمه، فـقال له زيد: اتق الله، فإنى قـدمت عليكم وشيعـتكم يتهافـتون فى المباهاة، فإن رسـول الله ﷺ جدنا، والمؤمن المهاجر معه أبونا، وزوجـته خديجة بنت خويلد جـدتنا، وبنته فاطمة الزهراء أمنا، فـمَنْ أهله إلا مَنْ نزل بمثل الذى نزلنا، فالله بيننا وبين من غلا فينا، ووضعنا على غيـر حدنا، وقال فينا ما لا نقول فى أنفسنا، المعصـومون منا خمسـة: رسول الله ﷺ، وعلى، والحسن، والحسـين، وفاطمة، عليهم الصلاة والسلام، وأما سائرنا أهل البيت فـيذنب كما يذنب الناس، ويحسن كما يحسن الناس، للمحـسن منا ضعفا الأجر، وللمسىء منا ضـعفان من العذاب، لأن الله تعالى قال: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾».

ولم أر فى هذا التفـسير ما يشـير إلى قول مؤلفـه بالرجعة أو البداء، كـما وأنه لا يتعرض للمسائل الكلامية والمباحث الفقهية مطلقًا، ولكن رأيناه يسير مع الهوى الشيعى سيرًا فيه كثير من الغلو والتطرف والخروج عن دائرة المعقول والمقبول.

٢- تفسير القمى

التعريف بصاحب التفسير[(١)]

هو: على بن إبراهيم بن هاشم، أبو الحسن القمى - نسبة إلى مدينة «قم» الإيرانية - سمع فأكثر، وصنف كتبًا، أخذ العلم عن أبيه، وروى عنه كثير، وروى أيضًا عن: أحمد بن محمد بن خالد البرقى، ومحمد بن عيسى بن عبيد، وصالح السندى، وآخرين.

روى عنه: محمد بن يعقوب الكلينى، ومحمد بن موسى ابن المتوكل، وأحمد بن زياد بن جعفر الهمدانى، وغيرهم.

وكان من أعلام الفقهاء والمحدثين الشيعة، مفسرًا، مؤرخًا، كثير الحديث.

صنف كتبًا منها: التفسير، وهو ما نحن بصدد دراسته، الناسخ والمنسوخ، أخبار القرآن ورواياته، قرب الإسناد، المغازى، الأنبياء، فضائل أمير المؤمنين، الشرائع، التوحيد.

ولم نظفر له بتاريخ وفاة، إلا أنه كان حيًا فى سنة سبع وثلاثمائة.

التعريف بهذا التفسير:

وهذا التفسير المنسوب إلى على بن إبراهيم القمىّ هو من صنع تلميذه أبى الفضل العباس بن محمد بن القاسم بن حمزة ابن الإمام موسى بن جعفر، وأبو الفضل هذا مجهول الحال، لا يُعرف، إلا أنه علوى، وربما كان من تلاميذ على بن إبراهيم، إذ لم يثبت ذلك يقينًا، من غير روايته فى التفسير عن شيخه القمىّ.

كما أن الإسناد إليه أيضًا مجهول، لم يُعرف من الراوى لهذا التفسير عن أبى الفضل هذا؟!.

وهذا التفسير تلفيق من إملاءات القمِّى، وقسط وافر من تفسير أبى الجارود زياد بن المنذر السرحوب المتوفى سنة (١٥٠هـ)، وكان من أصحاب الإمام أبى جعفر الباقر، وهو رأس الجارودية من الزيدية.

---

(١) مصادر الترجمة: إيضاح المكنون (١/ ٣٠٩)، طبقات المفسرين للداودى (/ ٣٩٢)، لسان الميزان (٤/ ١٩١)، الذريعة (٤/ ١٩١)، مقدمة المحقق.

فكان ما أورده أبو الفضل فى هذا التفسير من أحاديث الإمام الباقر، فهو من طريق أبى الجارود، وما أورده من أحاديث الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ فمن طريق على بن إبراهيم، وأضاف إليهما بأسانيد عن غير طريقهما، فهو مؤلف ثلاثى المأخذ، وعلى أى حال فهو من صنع أبى الفضل، ونسب إلى شيخه، لأن أكثر رواياته عنه، ولعله كان الأصل فأضاف إليه أحاديث أبى الجارود وغيره، لغرض التكميل.

ومن ثَمَّ فانتساب هذا التفسير إلى على بن إبراهيم أمر مشهور لا مستند له.

وهذا التفسير واحد من أقدم ما وصل إلينا من تفاسير الإمامية الاثنا عشرية، ونقل عنه من جاء بعده من أئمة الشيعة ومؤلفيهم أمثال: الكاشانى، والحويزى، والبحرانى، وغيرهم.

والطبعة التى بين يدينا والتى رجعنا إليها فى بحثنا هذا هى طبعة مؤسسة الأعلى (بيروت ١٤١٢هـ) وتقع فى مجلدين.

منهج هذا التفسير:

وقد رُتب هذا التفسير حسب ترتيب السور والآيات آية آية، فيذكر الآية ويعقبها بما رواه على بن إبراهيم، ويستمر على هذا النمط حتى نهاية سورة البقرة، ومن بدايات سورة آل عمران نراه يمزجه بما رواه عن أبى الجارود، وكذا عن غيره من سائر الرواة، ويستمر حتى نهاية القرآن.

وهذه الروايات التى يوردها لا يُوثق بصحتها ولا يُعول على صدق نسبتها إلى من تنسب إليه من أئمة أهل البيت ﵈، وهى أحاديث مكذوبة لا أصل لها، ناطقة على نفسها بالوضع، وليست فى حاجة إلى بيان وضعها بميزان النقد الصحيح، إذ نحن فى غنًى عن هذا، فكل من يقرأها يتبين له كذبها من خلال ألفاظها ومعانيها ومتونها المضطربة.

علم القرآن جميعه عند الأئمة:

يعتقد القمى أن علم القرآن جميعه عند الأئمة، فيقول فى مقدمته: «ونحن ذاكرون ومخبرون بما ينتهى إلينا ورواه مشايخنا وثقاتنا عن الذين فرض الله طاعتهم وأوجب ولايتهم ولا يقبل عملا إلا بهم، وهم الذين وصفهم الله تبارك وتعالى وفرض سؤالهم

والأخذ منهم فقال: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل: ٤٣) فعلمهم عن رسول الله، وهم الذين قال فى كتابه وخاطبهم فى قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِى اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا﴾ أنتم يا معشر الأئمة ﴿شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ (الحج: ٧٨) فرسول الله ﷺ شهيد عليهم وهم شهداء على الناس، فالعلم عندهم، والقرآن معهم، ودين الله عز وجل الذى ارتضاه لأنبيائه وملائكته ورسله منهم يُقتبس، وهو قول أمير المؤمنين ـ عليه السلام: ألا أن العلم الذى هبط به آدم عليه السلام من السماء إلى الأرض وجميع ما فضلت به النبيون إلى خاتم النبيين عندى وعند غيرى عترة خاتم النبيين، فأين يتاه بكم؟! بل أين تذهبون؟!.

وقال أيضًا أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ فى خطبته: ولقد علم المستحفظون من أصحاب محمد ﷺ أنه قال: «إنى وأهل بيتى مطهرون فلا تسبقوهم فتضلوا، ولا تتخلفوا عنهم فتزلوا، ولا تخالفوهم فتجهلوا، ولا تُعلموهم فإنهم أعلم منكم، هم أعلم الناس كبارًا، وأحلم الناس صغارًا، فاتبعوا الحق وأهله حيث كان».

مقدمات التفسير:

ثم استطرد القمى إلى ذكر مقدمات تتعلق ببعض علوم القرآن فقال: «فالقرآن منه ناسخ، ومنه منسوخ، ومنه محكم، ومنه متشابه، ومنه عام، ومنه خاص، ومنه تقديم، ومنه تأخير، ومنه منقطع، ومنه معطوف، ومنه حرف مكان حرف، ومنه على خلاف ما أنزل الله، ومنه ما لفظه عام ومعناه خاص، ومنه ما لفظه خاص ومعناه عام، ومنه آيات بعضها فى سورة وتمامها فى سورة أخرى، ومنه ما تأويله فى تنزيله، ومنه ما تأويله مع تنزيله، ومنه ما تأويله قبل تنزيله، ومنه ما تأويله بعد تنزيله، ومنه رخصة إطلاق بعد الحظر، ومنه رخصة صاحبها فيها بالخيار، إن شاء فعل وإن شاء ترك، ومنه رخصة ظاهرها خلاف باطنها يعمل بظاهرها ولا يدان بباطنها، ومنه ما على لفظ الخبر ومعناه حكاية عن قوم، ومنه آيات نصفها منسوخة ونصفها متروكة على حالها، ومنه مخاطبة لقوم ومعناه لقوم آخرين، ومنه مخاطبة للنبى ﷺ والمعنيُّ أمته، ومنه ما لفظه مفرد ومعناه جمع، ومنه ما لا يعرف تحريمه إلا بتحليله، ومنه ردٌّ على الملحدين، ومنه رد

على الزنادقة، ومنه رد على المانوية، ومنه رد على الجهمية، ومنه رد على الدهرية، ومنه رد على عبدة النيران، ومنه رد على عبدة الأوثان، ومنه رد على المعتزلة، ومنه رد على القدرية، ومنه رد على المجبرة، ومنه رد على من أنكر من المسلمين الثواب والعقاب بعد الموت يوم القيامة، ومنه رد على من أنكر المعراج والإسراء، ومنه رد على من أنكر الميثاق كالآيات التى نزلت فى أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ ومنه رد على من أنكر الجنة والنار، ومنه رد على من أنكر المتعة والرجعة، ومنه رد على من وصف الله عز وجل، ومنه مخاطبة الله عز وجل لأمير المؤمنين والأئمة، عليهم السلام، وما ذكره الله من فضائلهم، وفيه خروج القائم وأخبار الرجعة ، وما وعد الله تبارك وتعالى الأئمة ـ عليهم السلام ـ من النصرة والانتقام من أعدائهم».

هذه هى أهم الآراء التى يقول بها القمى فى مقدمة تفسيره، وكتابه مذهبى إلى حد التطرف والغلو، ولا يكاد مؤلفه يمر بآية إلا ويحاول أن يأخذ منها شاهداً لمذهبه مع تحيز مزرٍ، وتعصب ممقوت، وإليك هذه الأمثلة:

الجفر ومصحف فاطمة:

والقمى يقول بوجود الجفر ومصحف فاطمة، فعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿**ائْتُونِى بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ (الأحقاف: ٤) قال: «أبو عبد الله ـ عليه السلام: إن فى الجفر الذى يذكرونه لما يسوءهم لأنهم لا يقولون الحق، والحق فيه، فليخرجوا قضايا علىّ وفرائضه إن كانوا صادقين، وسلوهم عن الخالات والعمات، وليخرجوا مصحف فاطمة عليها السلام، فإن فيه وصية فاطمة، ومعه سلاح رسول الله ﷺ ، أن الله عز وجل يقول: ﴿**ائْتُونِى بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾».

وقد أثبتنا هذا الشاهد رغم عدم وجوده فى النسخة المطبوعة التى تحت يدى، حيث أنه موجود ومثبت فى العديد من تفاسير الشيعة المتأخرة، والتى عزته للقمى فى معرض تفسير هذه الآية.

تحريف القرآن:

كذلك نجد القمى يعتقد بأن القرآن بُدِّل وحُرِّف، فمثلا عند تفسير قوله تعالى: ﴿**لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ**﴾ (النساء: ١٦٦) قال: «فإنه حدثنى أبى عن

ابن أبى عمير عن أبى بصير عن أبى عبد الله ـ عليه السلام ـ قال: إنما أنزلت «لكن الله يشهد بما أنزل إليك فى علىٍّ أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا» وقرأ أبو عبد الله ـ عليه السلام: «إن الذين كفروا وظلموا آل محمد حقهم لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقًا إلا طريق جهنم خالدين فيها أبدًا وكان ذلك على الله يسيرًا».

وكذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾ (آل عمران: ٣٣) قال: «وقال العالم ـ عليه السلام: نزل: «وآل عمران وآل محمد على العالمين» فأسقطوا آل محمد من الكتاب».

وكذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾ (آل عمران: ١١٠) قال ما نصه: «عن ابن سنان قال: قرئت عند أبى عبد الله ـ عليه السلام: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾ فقال أبو عبد الله ـ عليه السلام: «خير أمة» يقتلون أمير المؤمنين والحسن والحسين ـ عليهم السلام؟ فقال القارئ: جُعلت فداك، كيف نزلت؟ فقال: نزلت: «كنتم خير أئمة أخرجت للناس» ألا ترى مدح الله لهم ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**﴾؟».

الإيمان بالأوصياء:

ويدين القمى بأن الإيمان بالأوصياء جزء من العقيدة، فنراه عند تفسير قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ**﴾ (الأنعام: ٣٩) يقول: «نزلت فى الذين كذبوا بأوصيائهم، صم بكم، كما قال الله فى الظلمات، من كان من ولد إبليس فإنه لا يصدق بالأوصياء ولا يؤمن بهم أبدا، وهم الذين أضلهم الله، ومن كان من ولد آدم آمن بالأوصياء فهم على صراط مستقيم، قال: وسمعته يقول: كذبوا بآياتنا كلها فى بطن القرآن أن كذبوا بالأوصياء كلهم».

ولاية على:

لما كان القمى يدين بإمامة على رضي الله عنه، ويرى أنه خليفة النبى صلى الله عليه وسلم بلا فصل، فإنا نراه يحاول بكل ما أوتى من قوة أن يثبت إمامته وولايته من القرآن، فنراه عند تفسير قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾ (المائدة: ٦٧) يقول: «نزلت هذه

الآية فى علىٍّ: «بلغ مـا أنزل إليك من ربك فى علىٍّ وإن لم تفعل فـما بلغت رسـالته والله يعصمك من الناس» قال: نزلت هذه الآية فى منصرف رسول الله ﷺ من حجة الوداع، وحج رسول الله ﷺ حجة الوداع لتمام عشر حجج من مقدمه المدينة، فكان من قوله بمنى أن حمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أيها الناس اسمعوا قولى واعقلوه عنى، فإنى لا أدرى لـعلّى لا ألقاكم بعـد عامى هذا» ثم قـال: «أى يوم أعظم حرمـة؟» قال الناس: هذا اليوم، قال: «فأى شهر؟» قال الناس: هذا، قال: «وأى بلد أعظم حرمة؟» قالوا: بلدنا هذا، قال: «فإن دماءكم وأموالكم وأعـراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا إلى يوم تلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، ألا هل بلغت أيها الناس؟» قـالوا: نعم، قال: «اللهم اشهد» ثم قـال: «ألا وكل مأثرة أو بدعة كانت فى الجاهليـة أو دم أو مال فهى تحت قدمىَّ هاتين، ليس أحـد أكرم من أحد إلا بالتقـوى، ألا هلا بلغت؟» قالوا : نعم؟ قـال: «اللهم اشهـد. . .» فى حديث طويل، إلى أن قال:

«أيها الناس، إنـى تارك فيكم الثقلـين» قالوا: يا رسول الله، ومـا الثقـلان؟ قال: «كتاب الله وعترتى أهل بيـتى، فإنه قد نبأنى اللطيف الخبير أنهمـا لن يفترقا حتى يردا علىَّ الحوض كأصـبعىَّ هاتين - وجمع بين سبابتـيه - ولا أقول كهاتين - وجمع سـبابته والوسطى - فتفـضل هذه على هذه» فاجتمع قـوم من أصحابه وقالوا: يريد مـحمد أن يجعل الإمامـة فى أهل بيته، فخـرج أربعة نفر منهم إلى مكة ودخلوا الكعـبة وتعاهدوا وتعاقدوا وكتبـوا فيما بينهم كتابًا إن مات محـمد أو قُتل أن لا يردوا هذا الأمر فى أهل بيته أبدًا، فأنزل الله على نبيه فى ذلك: ﴿**أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (٧٩) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ**﴾ (الزخـرف: ٧٩، ٨٠) فخـرج رسول الله ﷺ من مكة يريد المدينة ونزل منزلاً يقال له: «غدير خم» وقد علَّم الناس مناسكهم وأوعز إليهم وصيته إذ نزلت عليه هذه الآية: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ**﴾ فقام رسول الله ﷺ فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «أيها الناس هل تعلمون من وليكم؟» فقالوا: نعم، الله ورسوله، ثم قال: «ألستم تعلمون أنى أولى بكم من أنفسكم؟» قالوا: بلى، قال: «اللهم اشهد»

فأعاد ذلك عليهم ثلاثًا، كل ذلك يقول مثل قوله الأول، ويقول الناس كذلك، ويقول: «اللهم اشهد» ثم أخذ بيد أمير المؤمنين على - عليـه السلام - فرفعهما حتى بان للناس بياض إبطيهـما، ثم قال: «ألا من كنت مولاه فهـذا علىٌّ مولاه، اللهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه، وانصـر من نصره، واخذل من خذله، وأحب من أحـبه» ثم رفع رأسه إلى السماء فقال: «اللهم اشـهد عليهم وأنا من الشاهدين» فاستفهمـه عمر فقام من بين أصحابه فقال: يا رسول الله، هذا من الله ومن رسوله؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم، من الله ورسوله إنه أميـر المؤمنين، وإمام المتقـين، وقائد الغر المحـجلين، يقعده الله يوم القيامة على الصراط فيدخل أوليـاءه الجنة وأعداءه النار» فقال أصحابه الذين ارتدوا بعده: قـد قال محـمد فى مسـجد الخيف مـا قال، وقال ههنا مـا قال، وإن رجع إلى المدينة يأخـذنا بالبيـعة له، فاجـتمعـوا أربعة عشـر نفرًا وتآمروا على قـتل رسول الله ﷺ، وقعدوا فى العقبة، وهى عقبة «هرشى» بين الجحفة والأبواء، فقعدوا سبعة عن يمين العـقبة وسبـعة عن يسارها لينفـروا ناقة رسول الله ﷺ، فلمـا جنَّ الليل تقدم رسول الله ﷺ فى تلك الليلة العـسكر فأقبل ينعس على ناقـته، فلما دنا من العـقبة ناداه جبرئيل: يـا محمد إن فلانًا وفـلانًا قد قعدوا لك، فنظر رسـول الله ﷺ فقال: «من هذا خلفى؟» فقـال حذيفة اليـمانى: أنا يا رسول الله، حـذيفة بن اليمـان، قال: «سمعت ما سمعت؟» قـال: نعم، قال: «فاكتم» ثم دنا رسول الله ﷺ منهم فناداهم بأسمائهم، فلما سمعوا نداء رسول الله ﷺ فروا ودخلوا فى غمار الناس، وقد كانوا عقلوا رواحلهم فتركوها، ولحق الناس برسول الله ﷺ وطالبوهم، وانتهى رسول الله ﷺ إلى رواحلهم فعرفهم، فلما نزل قال: «مـا بال أقوام تحالفوا فى الكعبة إن مات محـمد أو قُتـل ألا يردوا هذا الأمر فى أهل بيتـه أبدًا؟» فجـاءوا إلى رسول الله ﷺ فحلفوا أنهم لم يقولوا من ذلك شيـئًا ولم يريدوه ولم يكتموا رسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا ﴾ (التوبة: ٧٤) أن لا يردوا هذا الأمر فى أهل بيت رسول الله ﷺ ﴿ وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ﴾ من قـتل رسول الله ﷺ».

تأثر القمى بفقه الشيعة فى تفسيره:

والقمى متأثر بفقه الإمامية الاثنا عشرية وآرائهم الاجتهادية، ويستشهد بكثير من الآيات على صحة مذهبه.

نكاح المتعة:

ولما كان الإمامية الاثنا عشرية يقولون بجواز نكاح المتعة، ولا يعترفون بنسخه كغيرهم من المسلمين، فلهذا حاول القمى - وهو واحد منهم - أن يأخذ هذا المذهب بدليله من كتاب الله تعالى، فعندما فسر قوله تعالى: ﴿**فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ**﴾ (النساء: ٢٤) قال: «قال الصادق - عليه السلام: فهذه الآية دليل على المتعة».

نكاح الكتابيات:

وقال القمى عند تفسيره قوله تعالى: ﴿**وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ...**﴾ (المائدة: ٥) الآية: «فقد أحل الله نكاح أهل الكتاب بعد تحريمه فى قوله فى سورة البقرة ﴿**وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ**﴾ (البقرة: ٢٢١) وإنما يحل نكاح أهل الكتاب الذين يؤدون الجزية على ما يجب، فأما إذا كانوا فى دار الشرك ولم يؤدوا الجزية لم يحل مناكحتهم».

طعن القمى فى الصحابة:

كذلك نجد القمى فى تفسيره يطعن على أبى بكر، وعمر، وعثمان، وطلحة، وأم المؤمنين عائشة، وحفصة وغيرهم من صحابة رسول الله ﷺ، ويلعنهم، ويرميهم بما لا يليق بمؤمن فضلاً عن صحابى جاهد مع رسول الله ﷺ وبذل فى سبيل نصرته ونصرة دين الله دمه وماله، كما يطعن فى بنى أمية ويرميهم بكل نقيصة، وهو فى حملته هذه مدفوع بدافع الخصومة المذهبية والنزعة الشيعية.

طعنه على أبى بكر وعمر رضى الله عنهما:

فمثلاً عند تفسيره للآيات (٧ - ٣٠) من سورة المطففين قال: «﴿**كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ**﴾ هو فلان وفلان، قوله: ﴿**الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ**﴾ زريق وحبتر ﴿**وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ**﴾ وهما زريق

وحبتر كانا يكذبان رسول الله ﷺ، إلى قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾ هما ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ يعنى هما ومن تبعهما ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ۝١٨ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ إلى قوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ وهم رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين والأئمة عليهم السلام ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ زريق وحبتر ومن تبعهما ﴿كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ۝٢٩ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ برسول الله ﷺ .. إلى آخر السورة فيهما».

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ (الأنعام: ١١٢) قال: «وحدثنى أبى عن الحسين بن سعيد عن بعض رجاله عن أبى عبد الله ـ عليه السلام ـ قال: ما بعث الله نبيًّا إلا وفى أمته شيطانان يؤذيانه ويضلان الناس بعده، فأما صاحبا نوح: فقنطيفوص وخرام، وأما صاحبا إبراهيم: فمكثل ورزام، وأما صاحبا موسى: فالسامرى ومرعقيبا، وأما صاحبا عيسى: فبولس ومريتوس، وأما صاحبا محمد ﷺ: فحبتر وزريق».

وعند تفسيره لأول سورة الفلق قال ما نصه: «الفلق جُبٌّ فى جهنم يتعوذ أهل النار من شدة حره، فسأل الله أن يأذن له أن يتنفس، فأذن له فتنفس فأحرق جهنم، قال: وفى ذلك الجب صندوق من نار يتعوذ أهل الجب من حر ذلك الصندوق، وهو التابوت، وفى ذلك التابوت ستة من الأولين وستة من الآخرين، فأما الستة التى من الأولين: فابن آدم الذى قتل أخاه، ونمرود إبراهيم الذى ألقى إبراهيم فى النار، وفرعون موسى، والسامرى الذى اتخذ العجل، والذى هوَّد اليهود، والذى نصَّر النصارى، وأما الستة التى من الآخرين فهم الأول والثانى والثالث والرابع، وصاحب الخوارج، وابن ملجم، لعنهم الله».

الطعن فى أبى بكر وعمر وعثمان:

ويقول القمى عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ..﴾ (آل عمران: ١٠٦): «عن مالك بن ضمرة عن أبى ذر ـ رحمة الله عليه ـ قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ قال رسول الله ﷺ: «يرد علىَّ أمتى يوم القيامة على خمس رايات، فراية مع عجل هذه الأمة، فأسألهم ما فعلتم بالثقلين

من بعدى؟ فيقولون: أما الأكبر فحرَّفناه ونبذناه وراء ظهورنا، وأما الأصغر فعاديناه وأبغضناه وظلمناه، فأقول: ردوا النار ظمآء مظمئين مسودة وجوهكم، ثم يرد علىَّ راية مع فرعون هذه الأمة، فأقول لهم: ما فعلتم بالثقلين من بعدى؟ فيقولون: أما الأكبر فحرَّفناه ومزقناه وخالفناه، وأما الأصغر فعاديناه وقاتلناه، فأقول: ردوا النار ظمآء مظمئين مسودة وجوهكم، ثم ترد علىَّ راية مع سامرى هذه الأمة، فأقول لهم: ما فعلتم بالثقلين من بعدى؟ فيقول: أما الأكبر فعصيناه وتركناه، وأما الأصغر فخذلناه وضيعناه وصنعنا به كل قبيح، فأقول: ردوا النار ظمآء مظمئين مسودة وجوهكم، ثم ترد علىَّ راية ذى الثدية مع أول الخوارج وآخرهم فأسألهم: ما فعلتم بالثقلين من بعدى؟ فيقولون: أما الأكبر ففرقناه وبرئنا منه، وأما الأصغر فقاتلناه وقتلناه، فأقول: ردوا النار ظمآء مظمئين مسودة وجوهكم، ثم ترد علىَّ راية مع إمام المتقين وسيد الوصيين وقائد الغر المحجلين ووصى رسول رب العالمين، فأقول لهم: ما فعلتم بالثقلين من بعدى؟ فيقولون: أما الأكبر فاتبعناه وأطعناه، وأما الأصغر فأحببناه وواليناه وآزرناه ونصرناه حتى أهرقت فيهم دماؤنا، فأقول: ردوا الجنة رواءً مرويين مبيضة وجوهكم، ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿**يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ (آل عمران:١٠٦، ١٠٧)».

الطعن فى عثمان:

قال القمى عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ**﴾ (البقرة: ٨٤): «ذكر أنها نزلت فى أبى ذر وعثمان بن عفان، وكان سبب ذلك لما أمر عثمان بنفى أبى ذر إلى الربذة، دخل عليه أبو ذر رضي الله عنه - وكان عليلاً - متوكئًا على عصاه، وبين يدى عثمان مائة ألف درهم قد حُملت إليه من بعض النواحى، وأصحابه حوله ينظرون إليه ويطمعون أن يقسمها فيهم، فقال أبو ذر لعثمان: ما هذا المال؟ فقال عثمان: مائة ألف درهم حُملت إلىَّ من بعض النواحى، أريد أن أضم إليها مثلها، ثم أرى فيها رأيى، فقال أبو ذر: أيا عثمان، أيما أكثر مائة ألف درهم أو أربعة دنانير؟ فقال عثمان: بل مائة ألف درهم،

فقال أبو ذر: أما تذكر إذ أنا وأنت قد دخلنا على رسول الله ﷺ عشاء فرأيناه كئيبًا حزينًا فسلمنا عليه، فلم يرد علينا بسلام، فلما أصبحنا أتيناه فرأيناه ضاحكا مستبشرًا، فقلنا له: بآبائنا وأمهاتنا، دخلنا عليك البارحة فرأيناك كئيبًا حزينًا، ثم عدنا إليك اليوم فرأيناك ضاحكا مستبشرًا؟! فقال: «نعم، كان قد بقى عندى من فىء المسلمين أربعة دنانير، لم أكن قسمتها وخفت أن يدركنى الموت وهى عندى وقد قسمتها اليوم فاسترحت منها» فنظر عثمان إلى كعب الأحبار وقال له: يا أبا إسحاق، ما تقول فى رجل أدى زكاة ماله المفروضة، هل يجب عليه فيما بعد ذلك شىء؟ فقال: لو اتخذ لبنة من ذهب ولبنة من فضة ما وجب عليه شىء، فرفع أبو ذر عصاه فضرب بها رأس كعب ثم قال له: يا بن اليهودية الكافرة ما أنت والنظر فى أحكام المسلمين، قول الله أصدق من قولك حيث قال: ﴿**وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ**﴾ (التوبة: ٣٤، ٣٥).

فقال عثمان: يا أبا ذر، إنك شيخ قد خرفت وذهب عقلك، ولولا صحبتك لرسول الله ﷺ لقتلتك، فقال: كذبت يا عثمان، ويلك، أخبرنى حبيبى رسول الله ﷺ، فقال: «يا أبا ذر لا يفتنونك ولا يقتلونك، وأما عقلى فقد بقى منه ما أحفظه، حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ فيك وفى قومك، قال: وما سمعت من رسول الله ﷺ فىَّ وفى قومى؟ قال: سمعته ﷺ يقول: «إذا بلغ آل أبى العاص ثلاثين رجلاً صيروا مال الله دولا، وكتاب الله دغلا، وعباده خولا، والفاسقين حزبًا، والصالحين حربًا» فقال عثمان: يا معشر أصحاب محمد ﷺ هل سمع أحد منكم هذا من رسول الله؟ فقالوا: سمعنا هذا من رسول الله، فقال عثمان: ادع عليّا، فجاء أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ فقال له عثمان: يا أبا الحسن انظر ما يقول هذا الشيخ الكذاب، فقال أمير المؤمنين ـ عليه السلام: يا عثمان، لا تقل كذاب، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء على ذى لهجة أصدق من أبى ذر» فقال أصحاب رسول الله ﷺ: صدق أبو ذر فقد سمعنا هذا من رسول الله ﷺ، فبكى أبو ذر عند ذلك، فقال: ويلكم، كلكم قد مدَّ عنقه إلى هذا المال!

ظننتم أنى أكذب على رسول الله ﷺ، ثم نظر إليهم فقال: من خيركم؟ فقالوا: أنت تقول إنك خيرنا، قال: نعم، خلفت حبيبى رسول الله ﷺ فى هذه الجبة، وهى علىّ بعد، وأنتم قد أحدثتم أحداثًا كثيرة، واللهُ سائلكم عن ذلك ولا يسألنى، فقال عثمان: يا أبا ذر، أسألك بحق رسول الله ﷺ إلا ما أخبرتنى عن شىء أسألك عنه، فقال أبو ذر: والله لو لم تسألنى بحق رسول الله ﷺ لما أخبرتك، فقال: أى البلاد أحب إليك أن تكون فيها؟ فقال: مكة، حرم الله وحرم رسوله، أعبد الله فيها حتى يأتينى الموت، فقال: لا، ولا كرامة لك، قال: المدينة، حرم رسول الله ﷺ، قال: لا، ولا كرامة لك، قال: فسكت أبو ذر، فقال عثمان: أى البلاد أبغض إليك أن تكون فيها؟ قال: الربذة التى كنت فيها على غير دين الإسلام، فقال عثمان: سر إليها، فقال أبو ذر: قد سألتنى فصدقتك، وأنا أسألك فاصدقنى، قال: نعم، قال أبو ذر: أخبرنى لو بعثتنى فى بعث أصحابك إلى المشركين فأسرونى، فقالوا: لا نفديه إلا بثلث ما تملك؟ قال: كنت أفديك، قال: فإن قالوا: لا نفديه إلا بنصف ما تملك؟ قال: كنت أفديك، قال: فإن قالوا: لا نفديه إلا بكل ما تملك؟ قال: كنت أفديك، قال: أبو ذر: الله أكبر، قال حبيبى رسول الله ﷺ يومًا: «يا أبا ذر، كيف إذا قيل لك أى البلاد أحب إليك أن تكون فيها؟ فتقول: مكة حرم الله ورسوله، أعبد الله فيها حتى يأتينى الموت، فيقال لك: لا، ولا كرامة لك، فتقول: فالمدينة، حرم رسول الله ﷺ، فيقال لك: لا، ولا كرامة لك، ثم يقال لك: فأى البلاد أبغض إليك أن تكون فيها؟ فتقول: الربذة، التى كنت فيها على غير دين الإسلام، فيقال لك: سر إليها» فقلت: إن هذا لكائن يا رسول الله؟ فقال: «إى والذى نفسى بيده لكائن» فقلت: يا رسول الله، أفلا أضع سيفى هذا على عاتقى فأضرب به قدمًا قدمًا؟ قال: «لا، اسمع واسكت، ولو لعبد حبشى، وقد أنزل الله فيك وفى عثمان آية» فقلت: وما هى يا رسول الله؟ قال: قوله تبارك وتعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤) ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ**

منكُمْ إلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (البقرة: ٨٤، ٨٥)».

الطعن في طلحة والزبير رضي الله عنهما:

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ (الأعراف: ٤٠) قال القمى ما نصه: «عن أبى جعفر ـ عليه السلام ـ قال: نزلت هذه الآية فى طلحة والزبير، والجمل جملهم».

الطعن في بني أمية:

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأنعام: ٢٧) قال القمى: «نزلت فى بنى أمية، ثم قال: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ (الأنعام: ٢٨) قال: من عداوة أمير المؤمنين ـ عليه السلام».

وكذلك عند تفسيره للآيات (٤ - ١٠) من سورة الإسراء: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ﴾ قال ما نصه: «أى أعلمناهم، ثم انقطعت مخاطبة بنى إسرائيل وخاطب أمة محمد ﷺ فقال: ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ يعنى فلانًا وفلانًا وأصحابهما ونقضهم العهد ﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ يعنى ما ادعوه من الخلافة ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا﴾ يعنى يوم الجمل ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ يعنى أمير المؤمنين وأصحابه ﴿فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ﴾ أى طلبوكم وقتلوكم ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً﴾ يعنى يتم ويكون ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ يعنى بنى أمية على آل محمد ﴿وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ من الحسن والحسين أبناء على وأصحابهما فقتلوا الحسين ابن على وسبوا نساء آل محمد ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ﴾ يعنى القائم وأصحابه ﴿لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ﴾ يعنى: يسودون وجوههم ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ يعنى رسول الله ﷺ وأصحابه وأمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ وأصحابه ﴿وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ أى يعلو عليكم فيقتلوكم،

ثم عطف على آل محمد عليه السلام فقال: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ أى ينصركم على عدوكم، ثم خاطب بنى أمية فقال: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ يعنى عدتم بالسفيانى عدنا بالقائم من آل محمد ﷺ ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ أى حبسًا يحصرون فيها، ثم قال عز وجل: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِى﴾ أى يبين ﴿لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعنى آل محمد ﷺ ﴿الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ ثم عطف على بنى أمية فقال: ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾».

الطعن فى أبى بكر وعمر وعائشة وحفصة رضي الله عنهم:

وعند تفسيره لقوله تعالى فى أول سورة التحريم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (التحريم: ١).

قال فى سبب نزول هذه السورة: «إن رسول الله ﷺ كان فى بعض بيوت نسائه وكانت مارية القبطية تكون معه تخدمه، وكان ذات يوم فى بيت حفصة، فذهبت حفصة فى حاجة لها فتناول رسول الله ﷺ مارية، فعلمت بذلك حفصة فغضبت، وأقبلت على رسول الله ﷺ وقالت: يا رسول الله، هذا فى يومى وفى دارى وعلى فراشى؟ فاستحيا رسول الله ﷺ منها، فقال: «كفى فقد حرَّمت مارية على نفسى ولا أطأها بعد هذا أبدًا، وأنا أفضى إليك سرّا، فإن أنت أخبرت به فعليك لعنة الله والملائكة والناس أجمعين» فقالت: نعم، ما هو؟ فقال: «إن أبا بكر يلى الخلافة بعدى ثم من بعده أبوك» فقالت: من أخبرك بهذا؟ قال: «الله أخبرنى» فأخبرت حفصة عائشة من يومها ذلك، وأخبرت عائشة أبا بكر، فجاء أبو بكر إلى عمر فقال له: إن عائشة أخبرتنى عن حفصة بشىء، ولا أثق بقولها فاسأل أنت حفصة، فجاء عمر إلى حفصة، فقال لها: ما هذا الذى أخبرت عنك عائشة؟ فأنكرت ذلك، قالت: ما قلت لها من ذلك شيئًا، فقال لها عمر: إن كان هذا حقّا فأخبرينا حتى نتقدم فيه، فقالت: نعم، قد قال رسول الله ذلك، فاجتمعوا أربعة على أن يسموا رسول الله، فنزل جبرئيل على رسول الله ﷺ بهذه السورة»!!.

الطعن فى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها:

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ (الحجرات: ٦) قال القمى فى سبب نزولها: «نزلت فى مارية القبطية أم إبراهيم ـ عليه السلام ـ وكان سبب ذلك أن عائشة قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إن إبراهيم ليس هو منك، وإنما هو من جريج القبطى، فإنه يدخل إليها فى كل يوم، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لأمير المؤمنين ـ عليه السلام: «خذ السيف وأتنى برأس جريج» فأخذ أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ السيف ثم قال: بأبى أنت وأمى يا رسول الله، إنك إذا بعثتنى فى أمر أكون فيه كالسفود المحماة فى الوبر، فكيف تأمرنى؟ أتثبت فيه أو أمضى على ذلك؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بل تثبت» فجاء أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ إلى مشربة أم إبراهيم فتسلق عليها، فلما نظر إليه جريج هرب منه وصعد النخلة، فدنا منه أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ وقال له: انزل، فقال له: يا على! اتق الله ما ههنا أناس، إنى مجبوب، ثم كشف عن عورته، فإذا هو مجبوب، فأتى به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما شأنك يا جريج؟» فقال: يا رسول الله، إن القبط يجبون حشمهم ومن يدخل إلى أهليهم، والقبطيون لا يأنسون إلا بالقبطيين، فبعثنى أبوها لأدخل إليها وأخدمها وأونسها، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ ...﴾ (الحجرات: ٦) الآية».

الطعن فى معاوية:

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنفال: ٥٥) قال القمى: «قال أبو جعفر: نزلت فى بنى أمية، فهم شر خلق الله هم الذين كفروا فى باطن القرآن فهم لا يؤمنون، قوله: ﴿الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾ فهم أصحابه الذين فروا يوم أحد، قوله: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ نزلت فى معاوية لما خان أمير المؤمنين ـ عليه السلام.

صرفه لآيات العتاب عن ظاهرها:

وعند تفسيره لقوله تعالى فى أول سورة عبس: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ﴾ الآيات إلى آخر القصة، نجد القمى يصرف الآيات عن ظاهرها المتعارف عليه بين المفسرين جميعًا، ونراه يجعل العتاب موجهًا إلى عثمان ﷺ، والذى حمله على ذلك هو ما يراه أن مثل هذا العتاب لا يليق أن يكون موجهًا إلى النبى ﷺ، كما أن سبب العتاب لا يليق أن يصدر منه، أما توجه العتاب إلى عثمان ﷺ وصدور سبب منه فهذا أمر جائز وواقع فى نظره، لأن عثمان ليس له من العصمة ما للأئمة، ولهذا نراه يقول: «نزلت فى عثمان وابن أم مكتوم، وكان ابن أم مكتوم مؤذنًا لرسول الله ﷺ، وكان أعمى وجاء إلى رسول الله ﷺ وعنده أصحابه وعثمان عنده فقدمه رسول الله ﷺ فعبس وجهه وتولى عنه فأنزل الله ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ﴾ يعنى عثمان ﴿أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ﴾».

روايته الأحاديث الموضوعة فى فضائل أهل البيت:

قال القمى عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ (الأنعام: ٧٥): «فإنه حدثنى أبى عن إسماعيل بن ضرار عن يونس بن عبد الرحمن عن هشام عن أبى عبد الله ـ عليه السلام ـ قال: كشط له عن الأرض ومن عليها، وعن السماء ومن فيها، والملك الذى يحملها، والعرش ومن عليه، وفعل ذلك برسول الله ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام».

وكذلك عن تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ (النبأ: ٣٨) قال: «الروح ملك أعظم من جبرئيل وميكائيل وكان مع رسول الله ﷺ، وهو مع الأئمة ـ عليهم السلام».

وأيضًا عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾ (النبأ: ٤٠) قال: «ترابيًا أى علويًا، وقال: إن رسول الله ﷺ قال: المكنى أمير المؤمنين أبو تراب».

أحاديث مكذوبة فى فضل الأئمة والشيعة:

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ...﴾ الآيات: (٤٦ - ٤٩) من سورة الأعراف قال القمى: «فإنه حدثنى أبى

عن الحسن بن محبوب عن أبى أيوب عن يزيد عن أبى عبد الله ـ عليه السلام ـ قال: الأعراف كثبان بين الجنة والنار، والرجال الأئمة صلوات الله عليهم، يقفون على الأعراف مع شيعتهم، وقد سيق المؤمنون إلى الجنة بلا حساب، فيقول الأئمة لشيعتهم من أصحاب الذنوب: انظروا إلى إخوانكم فى الجنة قد سبقوا إليها بلا حساب، وهو قوله تبارك وتعالى: ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ ثم يقال لهم: انظروا إلى أعدائكم فى النار وهو قوله: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٧) وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ فى النار ﴿قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ فى الدنيا ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ ثم يقولون لمن فى النار من أعدائهم: أهولاء شيعتى وإخوانى الذين كنتم أنتم تحلفون فى الدنيا أن لا ينالهم الله برحمة، ثم يقول الأئمة لشيعتهم: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾».

وكذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ قال القمى: «السماء فى هذا الموضع: أمير المؤمنين ـ عليه السلام، والطارق الذى يطرق: الأئمة ـ عليهم السلام ـ من عند ربهم مما يحدث بالليل والنهار، وهو الروح الذى مع الأئمة يسددهم».

أخذ الميثاق على الأنبياء بنصرة أمير المؤمنين وولايته:

قال القمى عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ (الأعراف: ١٧٢): «حدثنى أبى عن النضر ابن سويد عن يحيى الحلبى عن ابن سنان قال: قال أبو عبد الله: أول من سبق من الرسل إلى «بلى»: محمد رسول الله ﷺ، وذلك أنه كان أقرب الخلق إلى الله تبارك وتعالى، وكان بالمكان الذى قال له جبرئيل لما أسرى به إلى السماء: «تقدم يا محمد فقد وطأت موطئًا لم يطأه ملك مقرب ولا نبى مرسل» ولولا أن روحه ونفسه كانت من ذلك المكان لما قدر أن يبلغه، فكان من الله عز وجل كما قال الله: ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ (النجم: ٩) أى بل أدنى، فلما خرج الأمر من الله وقع إلى أوليائه عليهم السلام، فقال الصادق: كان الميثاق مأخوذًا عليهم له بالربوبية ولرسوله بالنبوة، ولأمير المؤمنين

والأئمة بالإمامة، فقال: ألست بربكم، ومحمد نبيكم، وعلىٌّ إمامكم، والأئمة الهادون أئمتكم؟ فقالوا: بلى شهدنا، فقال الله تعالى: ﴿أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أى: لئلا تقولوا يوم القيامة: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٧٢) فأول ما أخذ الله عز وجل الميثاق على الأنبياء له بالربوبية، وهو قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ ...﴾ (الأحزاب: ٧) فذكر جملة الأنبياء، ثم أبرز أفضلهم بالأسامى فقال: ﴿وَمِنكَ﴾ يا محمد، فقدم رسول الله ﷺ لأنه أفضلهم ﴿وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ فهؤلاء الخمسة أفضل الأنبياء، ورسول الله ﷺ أفضلهم، ثم أخذ بعد ذلك ميثاق رسول الله ﷺ على الأنبياء بالإيمان به وعلى أن ينصروا أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ يعنى رسول الله ﷺ ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ﴾ (آل عمران: ٨١) يعنى أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ وأخبروا أممكم بخبره وخبر وليه من الأئمة».

خلق الأئمـــة:

قال القمى عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً ...﴾ (الأنعـام: ١١٥) الآية: «إذا خلق الله الإمام فى بطن أمه يكتب على عضده الأيمن ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ وحدثنى أبى عن حميد بن شعيب عن الحسن بن راشد قال: قال أبو عبد الله ـ عليه السلام: إن الله إذا أحب أن يخلق الإمام أخذ شربة من تحت العرش من ماء المزن وأعطاها ملكا فسقاها إياه، فمن ذلك يُخلَق الإمام، فإذا وُلِدَ بعث الله ذلك الملك إلى الإمام أن يكتب بين عينيه: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ فإذا مضى ذلك الإمام الذى قبله رفع له منارا يبصر به أعمال العباد، فلذلك يحتج به على خلقه».

علم الأوليـــاء:

يقول القمى فى تفسير قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (النور: ٣٥): «حدثنى أبى عن عبد الله بن جندب قال: كتبت إلى أبى الحسن الرضا ـ صلوات الله عليه ـ أسأله عن تفسير هذه الآية؟ فكتب إلىَّ

الجواب: أما بعد، فإن محمداً ﷺ كان أمين الله فى خلقه، فلما قُبض النبى كنا أهل البيت ورثته، فنحن أمناء الله فى أرضه، عندنا علم المنايا والبلايا وأنساب العرب ومولد الإسلام، وما من فئة تضل مائة وتهدى مائة إلا ونحن نعرف سائقها وقائدها وناعقها، وإنا لنعرف الرجل إذا رأيناه بحقيقة الإيمان وحقيقة النفاق، وإن شيعتنا لمكتوبون بأسمائهم وأسماء آبائهم، أخذ الله عز وجل علينا وعليهم الميثاق، يردون موردنا ويدخلون مدخلنا، ليس على ملة الإسلام غيرنا وغيرهم إلى يوم القيامة، نحن الآخذون بحجزة نبينا ونبينا الآخذ بحجزة ربنا، والحجزة النور، وشيعتنا آخذون بحجزتنا، من فارقنا هلك، ومن تبعنا نجا، والمفارق لنا والجاحد لولايتنا كافر، ومتبعنا وتابع أوليائنا مؤمن، لا يحبنا كافر، ولا يبغضنا مؤمن، فمن مات وهو يحبنا كان حقّا على الله أن يبعثه معنا، نحن نور لمن تبعنا، وهدًى لمن اهتدى بنا، ومن لم يكن منا فليس من الإسلام فى شىء، بنا فتح الله الدين وبنا يختمه، وبنا أطعمكم الله عشب الأرض، وبنا أنزل الله قطر السماء، وبنا آمنكم الله عز وجل من الغرق فى بحركم، ومن الخسف فى بركم، وبنا نفعكم الله فى حياتكم وفى قبوركم وفى محشركم وعند الصراط وعند الميزان وعند دخولكم الجنان، مثلنا فى كتاب الله عز وجل كمثل مشكاة، المشكاة فى القنديل، فنحن المشكاة ﴿**فِيهَا مِصْبَاحٌ**﴾ المصباح محمد ﷺ ﴿**الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ**﴾ لا دعية ولا منكرة ﴿**يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ**﴾ القرآن ﴿**نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ**﴾ إمام بعد إمام ﴿**يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ فالنور علىٌّ صلوات الله عليه، يهدى لولايتنا من أحب، وحقٌّ على الله أن يبعث ولينا مشرقًا وجهه، منيراً برهانه، ظاهرة عند الله حجته».

الإمام الغائب:

والقمى كغيره من الإمامية يؤمن بالإمام الغائب، وأنه سيخرج فى آخر الزمان، وفند تفسير قوله تعالى: ﴿**وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ**﴾ **(الحج: ٤٥)** قال: «هو مثل لآل محمد ﷺ: ﴿**وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ**﴾ هى التى لا يستسقى منها وهو الإمام الذى قد غاب فلا يقتبس منه العلم «والقصر المشيد» هو المرتفع، وهو مثل لأمير المؤمنين - عليه السلام -

والأئمة وفضائلهم لشرفة على الدنيا، وهو قوله: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ (التوبة: ٣٣) وقال الشاعر فى ذلك:

بئر مـعطلة وقـصر مـشرف　　مثل لآل مـحـمد مسـتطرف

فـالقصر مجدهم الذى لا يرتقى　　والبئـر علمـهم الذى لا ينزف»

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (المائدة: ٤٥) قال: «هو مخاطبة لأصحاب رسول الله ﷺ الذين غصبوا آل محمد حقهم وارتدوا عن دين الله ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ نزلت فى القائم ـ عليه السلام ـ وأصحابه».

وكذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ٤٤) قال: «أما قوله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ يعنى فلانًا وفلانًا تركوا ولاية على أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ وقد أُمروا به ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يعنى دولتهم فى الدنيا وما بسط لهم فيها، وأما قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ يعنى بذلك قيام القائم، حتى كأنهم لم يكن لهم سلطان قط، فذلك قوله ﴿بَغْتَةً﴾ فنزلت بخبره هذه الآية على محمد ﷺ».

وأيضًا عند تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (التوبة: ٣٣) قال القمى: «فإنها نزلت فى القائم من آل محمد، وهو الذى ذكرناه مما تأويله بعد تنزيله».

التقيـــة:

ولتأثر القمى بعقيدة الإمامية الاثنا عشرية فى التقية نجده عند تفسير قوله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ (آل عمران: ٢٨) يقول: «فإن هذه الآية رخصة، ظاهرها خلاف باطنها، يدان بظاهرها ولا يدان بباطنها إلا عند التقية، إن التقية رخصة للمؤمن أن يراه الكافر فيصلى بصلاته ويصوم بصيامه إذا اتقاه فى الظاهر، وفى الباطن يدين الله بخلاف ذلك».

الرجعــــة:

والقمـى يؤمـن بعقيدة الرجعة، فلهـذا نـراه عـندما فسـر قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ (البـقرة: ٥٥) قال: «فـهم السبـعون الذين اختارهم موسى ليـسمعوا كلام الله، فلما سمعـوا الكلام قالوا: لن نؤمن لك يا موسى حتى نرى الله جـهرة، فبـعث الله عليهم صاعـقة فاحتـرقوا، ثم أحيـاهم الله بعد ذلك وبعثهم أنبياء، فهذا دليل على الرجـعة فى أمة محمد ﷺ فإنه النبى ﷺ قال: «لم يكن فى بنى إسرائيل شيء إلا وفى أمتى مثله».

وواضح تأثير العقـيدة على القمى فى هذا الاتجاه المنحرف فى تفـسير الآية، ولا أرى فى الآية دليلا ولا شـبه دليل على الرجـعة، ودعوى أنه لم يكن فـى بنى إسرائيل شيء إلا وفى أمة محـمد، ﷺ مثله، دعوى لا تقـوم على أساس من الحق، وليس لها أصل معروف فى الشريعة.

وكذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ (النمل: ٨٢) قال: «حدثنى أبى عن ابن أبى عمير عن أبى بصير عن أبى عـبد الله ـ عليه السلام ـ قال: انتهى رسـول الله ﷺ إلى أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ وهو نائم فى المسجد قد جمع رملاً ووضع رأسه عليه فحركه برجله ثم قال له: «قم يا دابة الله» فقال رجل من أصحابه: يا رسول الله، أيسمى بعضنا بعضًـا بهذا الاسم؟ فقـال: «لا والله ما هو إلا له خاصـة، وهو الدابة التى ذكر الله فى كتـابه ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾» ثم قال: «يا على إذا كان آخر الزمـان أخرجك الله فى أحسن صورة ومعك ميسم تسم به أعـداءك» فقال رجل لأبى عبد الله ـ عليـه السلام: إن الناس يقولون هذه الدابة إنما تُكلمهم؟ فقال أبو عبد الله ـ عليه السلام: كلمهم الله فى نار جهنم، إنما هو يكلمهم من الكلام، والدليل على أن هذا فى الرجـعة قوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (٨٣) حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (النـمل: ٨٣، ٨٤) قال: الآيات: أمير المؤمنين والأئمة ـ عليهم السلام، فقال الرجل لأبى عبد الله عليه السلام: إن العامة تزعم أن قوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ

مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ عنى يوم القيامة، فقال أبو عبد الله ـ عليه السلام: أفيحشر الله من كل أمة فوجا ويدع الباقين؟ لا، ولكنه فى الرجعة، وأما آية القيامة فهى ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ (الكهف: ٤٧) حدثنى أبى عن ابن أبى عمير عن المفضل عن أبى عبد الله ـ عليه السلام ـ فى قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ قال: ليس أحد من المؤمنين قتل إلا يرجع حتى يموت ولا يرجع إلا من محض الإيمان محضًا، ومحض الكفر محضًا».

وكذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ (القصص: ٨٥) قال: «قال: يرجع إليكم نبيكم ﷺ وأمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ والأئمة عليهم السلام».

البـــداء:

والقمى كغيره من الإمامية الاثنا عشرية يقول بعقيدة البداء، ويدلل عليها بآيات كثيرة من كتاب الله، فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ (الأنعام: ٢) يقول: «حدثنى أبى عن النضر بن سويد عن الحلبى عن عبد الله عن مسكان عن أبى عبد الله ـ عليه السلام ـ قال: الأجل المقضى هو المحتوم الذى قضاه الله وحتمه، والمُسَمَّى هو الذى فيه البداء يقدم ما يشاء ويؤخر ما يشاء، والمحتوم ليس فيه تقديم ولا تأخير، وحدثنى ياسر عن الرضا ـ عليه السلام ـ قال: ما بعث الله نبيًا إلا بتحريم الخمر، وأن يقر له بالبداء، أن يفعل الله ما يشاء، وأن يكون فى تراثه الكندر».

وقد رد الشيخ الزرقانى فى كتابه: «مناهل العرفان» على القائلين بالبداء فقال:

«البداء فى لغة العرب يطلق على معنيين: **أحدهما:** الظهور بعد الخفاء، **والآخر:** نشأة رأى جديد لم يك موجودًا، ولعل هذا المعنى الثانى هو الأليق والأوفق والأزوق بمذهب القائلين به ـ قبحهم الله ـ لأن عباراتهم المأثورة عنهم جرت هذا المجرى فى الاستعمال دون الاستعمال الأول، كتلك الكلمة التى نسبوها إلى جعفر الصادق ـ رضي الله عنه: «ما بدا الله تعالى فى شىء كما بدا له فى إسماعيل» هذان معنيان متقاربان للبداء، وكلاهما مستحيل على الله تعالى لما يلزمهما من سبق الجهل وحدوث العلم، والجهل

والحدوث عليه محالان، لأن النظر الصحـيح فى هذا العالم دلنا على أن خالقه ومدبره متصف أزلاً بالعلم الواسع، المطلق، المحيط بكل ما كان وما سيكون وما هو كائن.

فأغمضوا أعينهم عن النظر فى كتاب الكون الناطق، وصموا آذانهم عن سماع كلام الله وكلام نبـيه الصادق، وزعـموا أن النسخ ضرب من البـداء ومستلزم للبـداء، ونسوا وتناسوا أن الله حين ينسخ بعض أحكامـه ببعض، ما ظهر له أمر كان خافـيا عليه، وما نشأ له رأى جديد كان يفـقده من قبل، إنما كان سبـحانه يعلم الناسخ والمنسوخ أزلا، من قبل أن يشرعهما لعباده، بل من قبل أن يخلق الخلق، ويبرأ السماء والأرض.

اجتمعت اليهود والرافضة على هذه الضلالة، ضلالة استلزام النسخ للبداء، فاليهود أنكروا النسخ، أما الرافضة فأثبتـوا النسخ، ثم أسرفوا فى إثبات هذا البداء اللازم له فى زعمهم، ونسبوه إلى الله فى صراحة ووقاحة ـ سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا ـ وشتان بين النسخ القـائم على الحكمة ورعاية المصلحة، وبين البداء المـستلزم للجهل وطرو العلم».

الإمام الصامت والإمام الناطق:

والقمى يؤمن بأن الأرض لا تـخلو من إمام حجـة، صامت أو ناطق، فيـقول عند تفسير قوله تعالى: ﴿ **وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَـادٍ** ﴾ (الرعـد: ٧) قال: «حدثنى أبى عن حماد عن أبى بصـير عن أبى عبد الله قال: المنذر: رسول الله ﷺ، والهادى: أمـير المؤمنين، وبعده الأئمـة ـ عليهم السلام ـ وهو قوله: ﴿ **وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ** ﴾ أى: فى كل زمان إمام هاد مبين، وهو ردٌّ على من ينكر أن فى كل عصـر وزمان إمامًا وأنه لا تخلـو الأرض من حـجـة كمـا قـال أمير المؤمنين ـ عليه السلام: لا تخلو الأرض من إمام قائم بحجة الله، إما ظاهر مشهور، وإما خائف مقهور، لئلا يبطل حجج الله وبيناته».

رؤيـــة الله:

اضطربت روايات القمى فى مسألة رؤية الله تعالى فى الآخرة فنراه يثبتها عند تفسير قوله تعالى: ﴿ **لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ** ﴾ (يونس: ٢٦) حيث قال: «النظر إلى وجه الله عز وجل».

ثم جرى على مذهب الشيـعة والمعتزلة والخوارج فنفاها عند تفسـير قوله تعالى:

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ (القيامة: ٢٢، ٢٣) حيث قال: «ينظرون إلى وجه الله أى: إلى رحمة الله ونعمته».

التفسير الرمزى:

والقمى فى تفسيره يكثر من ذكر المعانى الباطنية والتفسيرات الرمزية، فمثلاً عند تفسير قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (إبراهيم: ٢٤، ٢٥) حيث قال: «عن أبى جعفر الأحول عن سلام بن المستنير عن أبى جعفر - عليه السلام - قال: سألته عن قول الله: ﴿ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً .. ﴾ الآية قال: الشجرة رسول الله ﷺ أصلها نسبه ثابت فى بنى هاشم، وفرع الشجرة على بن أبى طالب - عليه السلام - وغصن الشجرة فاطمة - عليها السلام - وثمرتها الأئمة من ولد على وفاطمة - عليهم السلام - وشيعتهم ورقها، وإن المؤمن من شيعتنا ليموت فتسقط من الشجرة ورقة، وإن المؤمن ليولد فتورق الشجرة ورقة، قلت: أرأيت قوله: ﴿ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾؟ قال: يعنى بذلك ما يفتون به الأئمة شيعتهم فى كل حج وعمرة من الحلال والحرام».

وكذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ (النور: ٣٥) نجده يذكر أقوالاً لا تعدو أن تكون إلا من وضع الشيعة، فقال: «قول الله: ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ ﴾ المشكاة فاطمة عليها السلام ﴿ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ ﴾ الحسن والحسين ﴿ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ﴾ كأن فاطمة عليها السلام كوكب درى بين نساء أهل الأرض ﴿ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ ﴾ يوقد من إبراهيم عليه وعلى نبينا وآله السلام ﴿ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ ﴾ يعنى لا يهودية ولا نصرانية ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ ﴾ يكاد العلم يتفجر منها ﴿ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ إمام منها بعد إمام ﴿ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ يهدى الله للأئمة من يشاء أن يدخله فى نور ولايتهم مخلصًا ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾».

الإسرائيليات فى تفسير القمى:

هذا وقد مـلأ القمى تفسـيره بعجـائب وغرائب الإسرائيلـيات، دون أن يعلق على شىء منها، فمـثلاً عند تفسيـر قوله تعالى: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ (الحجر: ٢٧) أورد قصة هام بن هام فقال: «هو أبو إبليس، وقال: الجن من ولد الجان منهم مؤمنون ومنهم كـافرون، ويهود ونصارى، وتختلف أديانهـم، والشياطين من ولد إبليس، وليس فيهم مؤمن إلا واحد اسـمه «هام بن هيم بن لاقيس بن إبليس» جاء إلى رسول الله ﷺ فرآه جسيمًا عظيمًا وامرءًا مهولا، فقال له: من أنت؟ قال: أنا هام بن هيم بن لاقـيس بن إبلـيس، قال: كـنت يوم قُـتل هابيل غـلامًـا ابن أعـوام أنهى عن الاعتصام، وآمر بإفساد الطعام، فـقال رسول الله ﷺ: «بئس لعمرى الشاب المؤمل والكهل المؤمر» فـقال: دع عنك هذا يا محمد! فقـد جرت توبتى على يد نوح، ولقد كنت معه فى السفـينة فعاتبته على دعائه على قومـه، ولقد كنت مع إبراهيم حيث أُلقى فى النار فجـعلها الله عليه بردًا وسلامًـا، ولقد كنت مع موسى حين أغـرق الله فرعون ونَجَّى بنى إسـرائيل، ولقد كنـت مع هود حـين دعا على قومـه فعاتبـتـه، ولقد كنـت مع صالح فـعاتبـته على دعـائه على قومـه، ولقد قرأت الكتـب فكلها تبـشرنى بك، والأنبياء يقرئونك السلام ويقولون: أنت أفضل الأنبـياء وأكرمهم، فعلمنى مما أنزل الله عليك شيئًا، فقال رسول الله ﷺ لأميـر المؤمنين ـ عليه السلام: «علمه» فقال هام: يا محمد، إنا لا نطيع إلا نبيا أو وصى نبى، فمن هذا؟ قال: هذا أخى ووصيى ووزيرى ووارثى على بن أبى طالب، قـال: نعم، نجـد اسمـه فى الكتب «إليـا» فعلمـه أميـر المؤمنين ـ عليه السلام ـ فلما كانت ليلة «الهرير» بصـفين جاء إلى أمير المؤمنين ـ عليه السلام».

وعند تفسيـره لقوله تعـالـى: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ (مريم: ٥٧) قـال: «عـن أبى عبد الله ـ عليـه السلام ـ قال: إن الله ـ تبارك وتعالى ـ غـضب على ملك مِنَ الملائكة فقطع جناحه وألقـاه فى جـزيرة من جـزر البحـر، فبقى مـا شاء الله عز وجل فى ذلك البحر، فلما بعث الله ـ عز وجل ـ إدريس ـ عليـه السلام ـ جاء ذلك الملَك إليه فقال: يا نبى الله، ادع الله أن يرضى عنى ويردَّ جناحى، قال: نعم، فدعا إدريس، فرد الله عز

وجل عليه جناحه ورضى عنه، قال الملك لإدريس: ألك حاجة؟ قال: نعم، أحب أن ترفعنى إلى السماء حتى أنظر إلى ملَك الموت فإنه لا عيش لى مع ذكره، فأخذه الملك على جناحه حتى انتهى به إلى السماء الرابعة وإذا ملك الموت يحرك رأسه تعجبًا، فسلم إدريس ـ عليه السلام ـ على ملك الموت، فقال له: ما لك تحرك رأسك؟ قال: إن رب العزة أمرنى أن أقبض روحك بين السماء الرابعة والخامسة، فقلت: يا رب وكيف هذا وغلظ السماء الرابعة مسيرة خمسمائة عام؟ ومن السماء الرابعة إلى السماء الثالثة مسيرة خمسمائة عام، ومن السماء الثالثة إلى السماء الثانية مسيرة خمسمائة عام، وغلظ السماء الثالثة مسيرة خمسمائة عام، وكل سمائين وما بينهما كذلك، فكيف يكون هذا؟! ثم قبض روحه بين السماء الرابعة والخامسة، وهو قوله عز وجل: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾».

وبالجملة ... فهذا التفسير يكشف لنا عن مقدار تعصب صاحبه لمذهبه، وتأثره بعقيدة الشيعة، وغلوه وتطرفه فى أفكاره.



٣- تفسير العياشى

التعريف بصاحب هذا التفسير[(١)]:

هو: محمد بن مسعود بن محمد بن عياش السلمى، أبو النضر السمرقندى، المعروف بالعياشى، من كبار فقهاء الشيعة الإمامية.

كان أوحد دهره فى غزارة العلم، وأكثر أهل الشرق علمًا وفضلاً وأدبًا وفهمًا.

روى عن: جعفر بن أحمد، وحمدويه، ومحمد بن نصير، وعبد الله بن محمد بن خالد الطيالسى، وجماعة من شيوخ الكوفيين والبغداديين والقميين.

وتخرَّج عليه فطاحل العلماء كالكشى وغيره.

وروى له الشيخ الطوسى فى كتابيه «التهذيب» و «الاستبصار».

ورُوى أنه أنفق على العلم والحديث تركة أبيه كلها، وكانت ثلاثمائة ألف دينار.

وقد صنف العياشى كتبًا كثيرة تزيد على مائتى كتاب، فى شتى العلوم، كالفقه والحديث والتفسير والكلام والسير، وغير ذلك، منها: الطهارات الكبير، الصلاة، الصوم، الزكاة، المناسك، النكاح، الطلاق، التجارة والكسب، الذبائح، القضاء وآداب الحكم، المواريث، المسح على القدمين، التفسير، وهو ما نحن بصدد دراسته، سيرة أبى بكر، سيرة عمر، سيرة عثمان، البشارات، التوحيد والصفة، الإيمان، فرض طاعة العلماء، البداء، ودلائل الأئمة، وغيرها.

توفى العياشى فى حدود سنة عشرين وثلاثمائة.

التعريف بالتفسير:

جمع العياشى فى تفسيره ما أُثر ـ عنده ـ عن أئمة أهل البيت فى تفسير القرآن، غير أن هذا التفسير لم يصل إلينا إلا مبتورًا فقد بتره أولاً ناسخه، حيث أسقط الأسانيد، واقتصر على متون الأحاديث، معتذرًا بأنه لم يجد فى دياره من يكون عنده سماع أو إجازة من المؤلف، فلذلك حذف الأسانيد واكتفى بالمتون، ومِن ثَمَّ قال المجلسى بشأنه: «إن اعتذاره هذا أشنع من فعلته بحذف الأسانيد».

---

(١) **مصادر الترجمة:** أعيان الشيعة (١٠/ ٥٦)، الذريعة (٤/ ٣٩٥)، الفهرست لابن النديم ١٩٤، الأعلام للزركلى (٧/ ٩٥).

والجهة الأخرى فى بتر الكتاب: عدم العثور على الجزء الثانى من جزئى التفسير، حيث انتهى ما وصل إلينا إلى آخرة سورة الكهف.

وقد نقل الحافظ عـبيد الله بن عبد الله الحاكم الحسكانى الـنيسابورى - من أعلام القرن الخامس، ومن شيوخ مشايخ العلامة الطبـرسى، صاحب تفسير «مجمع البيان» - الكثير عن تفسير العياشى، فى كتابه: «شواهد التنزيل» ويوردها بالأسانيد التامة، وربما كانت عنده من هذا التفسير نسخة كاملة.

والكتاب طُبع عدة مرات، وقدم العياشى لتفسيره بعدة أبواب ذكر فيها فضل القرآن وأن له ظهرًا وبطنًا، وأورد عدة أحاديث منها ما رواه جـعفر بن محمد عن أبيه عن آبائه «قال: قال رسول الله ﷺ: «أيها الناس إنكم فى زمـان هدنة وأنتم على ظهر السفر، والسيـر بكم سريع، فقـد رأيتم الليل والنهـار والشـمس والقمـر يبليان كل جـديد، ويقربان كل بعيد، ويأتيان بكل موعود، فأعدوا الجهاز لبعد المفاز» فقام المقداد فقال: يا رسول الله ما دار الهـدنة؟ قال: «دار بلاء وانقطاع، فإذا التبست علـيكم الفتن كقطع الليل المظلم، فعليكم بالقرآن فإنه شافع مشفـع، وماحل مصدق، من جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعلـه خلفه ساقه إلى الـنار، وهو الدليل يدل على خير سـبيل، وهو كتاب فيه تفصيل وبيـان وتحصيل، وهو الفصل، ليس بالهزل، له ظهر وبطن، فظاهره حكمة وباطنه علم، ظاهره أنيق وباطنه عميق، له تخوم وعلى تخومه تخوم، لا تحصى عجائبه ولا تبلى غرائبه، فيه مـصابيح الهدى ومنازل الحكمة ودليل على المعروف لمن عرفه».

ثم أورد عدة أحاديث تحت باب: «ترك رواية التى بخلاف القرآن».

ثم ذكر بابًا فى أن القرآن نزل فى آل البيت، وفى عـدوهم فقال: «عن أبى الجارود قال: سمـعت أبا جعفر عليه السلام يقول: نزل القرآن عـلى أربعة أرباع: ربع فينا، وربع فى عدونا، وربع فرائض وأحكام، وربع سنن وأمثال، ولنا كرائم القرآن».

وقال: «وعن الأصبغ بن نباتة قال: سمـعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول: نزل القرآن أثلاثًا: ثلث فينا وفى عدونا، وثلث سنن وأمثال، وثلث فرائض وأحكام».

وقال: «عن عـبد الله بن بكيـر، عن أبى عبد الله عليه السلام، قـال: نـزل القـرآن بإياك أعـنى واسـمعى يا جارة».

وقال: «عن محمد بن خالد بن الحجاج الكرخى عن بعض أصحابه رفعه إلى خيثمة قال: قال أبو جعفر: يا خيثمة القرآن نزل أثلاثًا: ثلث فينا وفى أحبائنا، وثلث فى أعدائنا وعدو من كان قبلنا، وثلث سُنة ومثل، ولو أن الآية إذا نزلت فى قوم ثم مات أولئك القوم ماتت الآية لما بقى من القرآن شيء، ولكن القرآن يجرى أوله على آخره ما دامت السماوات والأرض، ولكل قوم آية يتلونها وهم منها من خير أو شر».

ثم ذكر بابًا فى: «تفسير الناسخ والمنسوخ والظاهر والباطن والمحكم والمتشابه» فقال:

«عن إبراهيم بن عمر قال: قال أبو عبد الله: إن فى القرآن ما مضى وما يحدث وما هو كائن، كانت فيه أسماء الرجال فأُلقيت، وإنما الاسم الواحد منه فى وجوه لا يحصى، يعرف ذلك الوصاة».

«عن حماد بن عثمان قال: قلت لأبى عبد الله ﷺ: إن الأحاديث تختلف عنكم؟! قال: فقال: إن القرآن نزل على سبعة أحرف، أدنى ما للإمام أن يفتى على سبعة وجوه، ثم قال: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (سورة ص: ٣٩)».

ثم ذكر ما عنى به الأئمة من القرآن فقال:

«عن محمد بن مسلم قال: أبو جعفر - عليه السلام: يا محمد، إذا سمعت الله ذكر أحدًا من هذه الأمة بخير فنحن هم، وإذا سمعت الله ذكر قومًا بسوء ممن مضى فهم عدونا».

«وعن داود بن فرقد عمن أخبره عن أبى عبد الله ﷺ قال: لو قد قرئ القرآن كما أُنزل لألفيتنا فيه مسمين».

«وعن ميسر عن أبى جعفر ﷺ قال: لولا أنه زيد فى كتاب الله ونقص منه ما خفى حقنا على ذى حجى، ولو قد قام قائمنا فنطق صدق القرآن».

ثم ذكر بابًا فى: علم الأئمة بالتأويل فقال:

«عن سليم بن قيس الهلالى قال: سمعت أمير المؤمنين ﷺ يقول: ما نزلت آية على رسول الله ﷺ إلا أقرأنيها وأملاها علىَّ فأكتبها بخطى، وعلمنى تأويلها وتفسيرها وناسخها ومنسوخها ومحكمها ومتشابهها، ودعا الله لى أن يعلمنى فهمها

وحفظها، فما نسيت آية من كتاب الله ولا علم إملائه على فكتبته منذ دعا لى بما دعا، وما ترك شيئًا علمه الله من حلال ولا حرام ولا أمر ولا نهى كان أو لا يكون من طاعة أو معصية إلا علمنيه وحفظته، فلم أنس منه حرفًا واحدًا، ثم وضع يده على صدرى ودعا الله أن يملأ قلبى علمًا وفهمًا وحكمة ونورًا، لم أنس شيئًا، ولم يفتنى شىء لم أكتبه، فقلت: يا رسول الله، أوتخوفت علىَّ النسيان فيما بعد؟ فقال: «لست أتخوف».

«عن بشير الدهان قال: سمعت أبا عبد الله ﷺ يقول: إن الله فرض طاعتنا فى كتابه فلا يسع الناس جهلا، لنا صفو المال، ولنا الأنفال، ولنا كرائم القرآن، ولا أقول لكم: إنَّا أصحاب الغيب، ونعلم كتاب الله، وكتاب الله يحتمل كل شىء، إن الله أعلمنا علمًا لا يعلمه أحد غيره، وعلما قد أعلمه ملائكته ورسله، فما علمته ملائكته ورسله فنحن نعلمه».

التحريف فى القرآن:

ولما كان العياشى من غلاة الشيعة الذين يقولون بالتحريف فى القرآن فنراه يقول عند تفسير قوله تعالى: ﴿**فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ**﴾ (البقرة: ٧٩) يقول: «عن محمد بن سالم مسلم عن أبى بصير قال: قال جعفر بن محمد: خرج عبد الله بن عمرو بن العاص من عند عثمان فلقى أمير المؤمنين، فقال له: يا على، بيتنا الليلة فى أمر نرجو أن يثبت الله هذه الأمة، فقال أمير المؤمنين: لن يخفى علىَّ ما بيتم فيه، حرَّفتم وغيَّرتم وبدَّلتم تسع مائة حرف، ثلاثمائة حرَّفتم، وثلاثمائة غيَّرتم، وثلاثمائة بدَّلتم».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿**مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ...**﴾ (البقرة: ١٠٦) يقول: «عن عمر بن يزيد قال: سألت أبا عبد الله ﷺ عن قول الله: ﴿**مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ...**﴾ فقال: كذبوا ما هكذا هى إذا كان ينسى وينسخها أو يأت بمثلها لم ينسخها، قلت: هكذا قال الله؟ قال: ليس هكذا قال تبارك وتعالى، قلت: فكيف قال؟ قال: ليس فيها ألف ولا واو، قال: «ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها مثلها» يقول: ما نميت من إمام أو ننسه ذكره نأت بخير منه من صلبه مثله».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (آل عمران: ٨١) الآية، قال العياشى ما نصه: «عن حبيب السجستانى قال: سألت أبا جعفر ﷺ عن قول الله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ ...﴾ فكيف يؤمن موسى بعيسى وينصره ولم يدركه؟ وكيف يؤمن عيسى بمحمد ﷺ وينصره ولم يدركه؟ فقال: يا حبيب إن القرآن قد طُرح منه آى كثيرة ولم يزد فيه إلا حروف أخطأت بها الكتبة وتوهمها الرجال، وهذا وَهْمٌ، فاقرأها «وإذا أخذ ميثاق أمم النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه» هكذا أنزلها الله يا حبيب، فوالله ما وفَّت أمة من الأمم التى كانت قبل موسى بما أخذ الله عليها من الميثاق لكل نبى بعثه الله بعد نبيها، ولقد كذبت الأمة التى جاءها موسى لما جاءها موسى ولم يؤمنوا به ولا نصروه إلا القليل منهم، ولقد كذبت أمة عيسى بمحمد ﷺ ولم يؤمنوا به ولا نصروه لما جاءها إلا القليل منهم، لقد جحدت هذه الأمة بما أخذ عليها رسول الله ﷺ من الميثاق لعلى بن أبى طالب ﷺ يوم أقامه للناس ونصبه لهم ودعاهم إلى ولايته وطاعته فى حياته، وأشهدهم بذلك على أنفسهم، فأى ميثاق آكد من قول رسول الله ﷺ فى على بن أبى طالب ﷺ، فوالله ما وفوا به بل جحدوا وكذبوا».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران: ١١٠) قال العياشى ما نصه: «عن حماد بن عيسى عن بعض أصحابه عن أبى عبد الله ﷺ قال فى قراءة على ﷺ: «كنتم خير أئمة أخرجت للناس» قال: هم آل محمد ﷺ».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ (آل عمران: ١٢٣) قال ما نصه: «عن أبى بصير قال: قرأت عند أبى عبد الله ﷺ ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ فقال: ليس هكذا أنزلها الله إنما أنزلت «وأنتم قليل»».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ...﴾ (الأعراف: ١٧٢) قال: «عن جابر قال: قال لى أبو جعفر ﷺ: يا جابر لو يعلم الجهال

متى سُمى أمير المؤمنين عليٌّ لم ينكروا حـقه، قال: قلت: جُعلت فداك، متى سُمى؟ فقال لى قوله: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ... ﴾ إلى: «ألست بربكم وأن محمدًا نبيكم وأن عليا أميـر المؤمنين» قال: ثم قال لى: يا جابر، هكذا والله جاء بها محمد ﷺ».

الجفـــر:

والعياشى كغيره من الإمامية يؤمن بالجفر، ويقول عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِى الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ (الأعراف: ١٤٥) «عن أبى حمزة عن أبى عبد الله رضي الله عنه قال فى الجفـر: إن الله تبارك وتعالى لما أنزل الألواح على موسى - عليه السلام - أنزلهـا عليه وفيها تـبيان كل شىء كان أو هو كائن إلى أن تقـوم الساعة، فلما انقـضت أيام موسى أوحى الله إليه أن استـودع الألواح - وهى زبرجدة من الجنة - جبلا يقال له: زينة، فـأتى موسى الجبل فانشق له الجبل، فجعل فـيه الألواح ملفوفة، فلما جـعلها فيـه انطبق الجبل عليهـا، فلم تزل فى الجبل حتى بعـث الله نبيه محـمدًا ﷺ، فأقـبل ركب من اليمن يريدون الرسول ﷺ، فلمـا انتهوا إلى الجـبل انفرج الجبل وخرجت الألواح ملفـوفة كما وضعـها موسى، فأخذها القـوم، فلما وقعت فى أيديهـم ألقى الله فى قلوبهم الرعب أن لا ينظروا إليها وهابوها حتى يأتوا بها رسول الله ﷺ، وأنزل الله جبرئيل عـلى نبيه فأخبـره بأمر القوم، وبالذى أصابوه، فلمـا قدموا على النبى ﷺ ابتدأهم فـسألهم عما وجـدوا، فقالوا: وما علمك بمـا وجدنا؟ قال: «أخبرنى بـه ربى، وهو الألواح» قالوا: نشهد إنك لرسـول الله، فأخرجوها فـوضعوها إليه، فنظر إليها وقـرأها، وكانت بالعبرانى، ثم دعا أميـر المؤمنين رضي الله عنه فقال: «دونك هذه، ففيها علم الأولين وعلم الآخرين، وهى ألواح موسى، وقد أمرنى ربى أن أدفعها إليك» فقال: يا رسول الله، لست أُحسن قراءتهـا، قال: «إن جبرئيل أمرنى أن آمرك أن تضعهـا تحت رأسك هذه الليلة فإنك تصبح وقـد عُلِّمتَ قراءتها» قال: فجـعلها تحت رأسه فأصبح وقد علَّمه الله كل شىء فيها، فأمره رسول الله ﷺ بنسخها فنسخها فى جلد شاة، وهـو الجفر، وفـيه علم الأولين والآخـرين، وهو عندنا، والألواح عندنا، وعصا موسى عندنا، ونحن ورثنا النبيين صلى الله عليهم أجمعين، قال: قال أبو جعفر

ـ عليه السلام: تلك الصخرة التى حفظت ألواح موسى تحت شجرة فى واد يعرف بكذا».

علم الحروف التى فى أوائل السور:

يقول العياشى عند تفسيره لأول سورة الأعراف: «عن أبى جمعة رحمة بن صدقة قال: أتى رجل من بنى أمية ـ وكان زنديقًا ـ إلى جعفر بن محمد رضي الله عنه فقال له: قول الله فى كتابه: ﴿الٓمٓصٓ﴾ أى شىء أراد بهذا، وأى شىء فيه من الحلال والحرام، وأى شىء فى ذا مما ينتفع به الناس؟! قال: فأغاظ ذلك جعفر بن محمد رضي الله عنه فقال: أمسك ويحك، الألف واحد، واللام ثلاثون، والميم أربعون، والصاد تسعون، كم معك؟ فقال الرجل: مائة وإحدى وستون، فقال له جعفر بن محمد رضي الله عنه: إذا انقضت سنة إحدى وستين ومائة ينقضى ملك أصحابك، قال: فنظرنا فلما انقضت إحدى وستون ومائة يوم عاشوراء دخل المسودة الكوفة وذهب ملكهم».

ويقول: «عن خيثمة الجعفى عن أبى لبيد المخزومى قال: قال أبو جعفر رضي الله عنه: يا أبا لبيد إنه يملك من ولد العباس اثنا عشر، يقتل بعد الثامن منهم أربعة، فتصيب أحدهم الذبحة فتذبحه، هم فئة قصيرة أعمارهم، قليلة مدتهم، خبيثة سيرتهم، منهم الفويسق الملقب بالهادى، والناطق والغاوى، يا أبا لبيد إن حروف القرآن المقطعة لعلمًا جمًّا، إن الله تبارك وتعالى أنزل: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ ...﴾ (البقرة: ١، ٢) فقام محمد ﷺ حتى ظهر نوره وثبتت كلمته، وولد يوم ولد، وقد مضى من الألف السابع مائة سنة وثلاث سنين، ثم قال: وتبيانه فى كتاب الله فى الحروف المقطعة إذا عددتها من غير تكرار، وليس من حروف مقطعة حرف ينقضى أيام الأيام إلا وقائم من بنى هاشم عند انقضائه، ثم قال: الألف واحد، واللام ثلاثون، والميم أربعون، والصاد تسعون، فذلك مائة وإحدى وستون، ثم كان بدو خروج الحسين بن على رضي الله عنه ﴿الٓمٓ ۝١ اللَّهُ﴾ فلما بلغت مدته قام قائم ولد العباس عند ﴿الٓمٓصٓ﴾، ويقوم قائمنا عند انقضائها بـ ﴿الٓر﴾ فافهم ذلك وعه واكتمه».

قال المؤلف: ومن ذا الذى قال: إن القرآن يخضع فى تفسيره وفهم معانيه إلى حساب الجُمل؟! اللهم إن هذا لا يصدر إلا عن مخرف متلاعب بكتاب الله.

ولايـــة على:

والقمى يدين بولاية على عليه السلام، فعند تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ الآية، قال: «عن زياد بن المنذر أبى الجارود صاحب الدمدمة الجارودية قال: كنت عند أبى جعفر محمد بن على عليه السلام بالأبطح وهو يحدث الناس، فقام إليه رجل من أهل البصرة يقال له: عثمان الأعشى، كان يروى عن الحسن البصـرى، فقال: يا بن رسول الله، جُـعلت فداك، إن الحسن البـصرى يحدثنا حـديثًا يزعم أن هذه الآية نزلت فى رجل، ولا يخبرنا مَن الرجلُ ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ تفسيرها: أتخشى الناس؟ فالله يعـصمك من الناس، فقال أبو جعفر عليه السلام: ما له؟ لا قضى الله دينه - يعنى صلاته، أما أن لو شـاء أن يخبر به أخبر به، إن جبرئيل هبط على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: إن ربك تبارك وتعالى يأمرك أن تدل أمتك على صلاتهم، فـدله على الصلاة واحتج بها عليـه، فدل رسول الله صلى الله عليه وسلم أمتـه عليها واحتج بها عليهم، ثم أتاه فقال: إن الله تبـارك وتعالى يأمرك أن تدل أمتك من زكاتهم على مثل ما دللتـهم عليه من صلاتهم، فدله على الزكاة واحتج بـها عليه، فدل رسول الله صلى الله عليه وسلم أمتـه على الزكاة، واحتج بـهـا عليهم، ثم أتاه جـبرئيل فقـال: إن الله تبارك وتعالى يـأمرك أن تدل أمتك من صـيامـهم، على مثل مـا دللتهم عليه مـن صلاتهم، وزكاتهم، شهـر رمضان، بين شعبان وشـوال، يؤتى فيه كذا، ويجتنب فيـه كذا، فدله على الصـيام واحتج بهـا عليه، فـدل رسول الله صلى الله عليه وسلم أمـته على الصـيام واحتـج بها عليهم، ثم أتاه فقال: إن الله تبارك وتعالى يأمرك أن تدل أمتك من وليهم، على مثل ما دللتهم عليه فى صـلاتهم وزكاتهم وصيامهم وحجهم، قـال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ربِّ، أمتى حديثو عهد بجاهلـية» فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ تفسيرها: أتخشى الناس؟ فالله يعصمك من الناس، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ بيد عـلى بن أبى طالب فرفـعها فـقال: «مَن كنت مـولاه فعلىٌّ مـولاه، اللهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأحب من أحبه، وأبغض من أبغضه».

و «عن جابر بن أرقم قال: بينا نحن فى مـجلس لنا وأخو زيد بن أرقم يحدثنا إذا

أقبل رجل على فـرسه، عليه هيئة السـفر، فسلم علينا ثم وقف، فقـال: أفيكم زيد بن أرقم؟ فقال زيد: أنا زيد بن أرقم، فما تريد؟ فقال الرجل: أتدرى من أين جئت؟ قال: لا، قـال: من فسطاط مـصر لأسـألك عن حديـث بلغنى عنك تذكره عن رسـول الله ﷺ، فقال له زيد: وما هو؟ قـال: حديث «غدير خم» فى ولاية على بن أبى طالب رضي الله عنه، فقال: يا بن أخى إن قـبل غدير خم ما أحدثك به، أن جـبرئيل - الروح الأمين عليـه السلام - نزل على رسـول الله ﷺ بولايـة علـى بن أبى طالب رضي الله عنه، فدعـا قومًـا - أنا فيهم - فـاستشـارهم فى ذلك ليـقوم به فى الموسم، فلم نَدْر مـا نقول له، وبكى ﷺ، فقال له جبرئـيل: ما لك يا مـحـمد، أجزعت من أمر الله؟ فقال: «كلا يا جبرئيل، ولكن قد علم ربى ما لقيت من قريش، إذ لم يقروا لى بالرسالة حتى أمرنى بجهـادى، وأهبط إلىَّ جنودًا من السمـاء فنصرونى، فكيف يقروا لـى لعلىٍّ من بعدى؟ فانصرف عنه جبرئيل ثم نزل عليه: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾ (هـود: ١٢) فلما نزلنا الجحفة راجعين وضربنا أخـبيتنا نزل جبرئيل، عليه السلام، بهذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ فبينا نحن كذلك إذ سمعنا رسول الله ﷺ وهو ينادى: «يا أيها الناس أجيبوا داعى الله، أنا رسـول الله» فأتيناه مسرعين فى شدة الحر، فإذا هو واضع بعض ثوبه على رأسه وبعضه على قدميه من الحر، وأمر بِقَمِّ ما تحت الدُّوح، فقُمَّ مـا كان ثمة من الشوك والحجارة، فقـال رجل: ما دعاه إلى قَمِّ هذا المكان وهو يريد أن يرحل من ساعته، ليأتينكم اليـوم بداهية، فلما فرغوا من القَمِّ أمر رسول الله ﷺ أن يؤتى بأحلاس دوابنا وأثاث إبلنا وحقائبها فوضعنا بعضها على بعض، ثم ألقينا عليهـا ثوبًا، ثم صعد عليها رسول الله ﷺ، فـحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أيها الناس، إنه نزل علىَّ عـشية عرفة أمرٌ ضقت به ذرعًـا مخافة تكذيب أهل الإفك، حتى جاءنى فـى هذا الموضع وعيد من ربى إن لم أفعـل، ألا وإنى غير هائب لقـوم، ولا مـحـابٍ لقرابتـى، أيها الـناس، من أولى بكم من أنفـسكم؟» قـالوا: الله ورسوله، قال: «اللهم اشهـد، وأنت يا جبرئيل فاشهد» حتى قـالها ثلاثًا، ثم أخذ بيد على بن أبى طالب رضي الله عنه فرفعه إليه، ثم قال: «اللهم مَن كنت مولاه فعلىٌّ مولاه، اللهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه، وانـصر من نصره، واخذل من خذله» قـالها ثلاثًا، ثم

قال: «هل سمعتم؟» فقالوا: اللهم بلى، قال: «فأقررتم؟» قالوا: اللهم نعم، ثم قال: «اللهم اشهد، وأنت يا جبرئيل فاشهد» ثم نزل فانصرفنا إلى رحالنا، وكان إلى جانب خبائى خباء نفر من قريش، وهم ثلاثة، ومعى حذيفة بن اليمان، فسمعنا أحد الثلاثة وهو يقول: والله إن محمداً لأحمق إن كان يرى أن الأمر يستقيم لعلى من بعده، وقال آخرون: أتجعله أحمق، ألم تعلم أنه مجنون، قد كاد أن يصرع عند امرأة ابن أبى كبشة، وقال الثالث: دعوه، إن شاء أن يكون أحمق، وإن شاء أن يكون مجنوناً، والله ما يكون ما يقول أبداً، فغضب حذيفة من مقالتهم فرفع جانب الخباء فأدخل رأسه إليهم وقال: فعلتموها ورسول الله ﷺ بين أظهركم، ووحى الله ينزل عليكم، والله لأخبرنه بكرة بمقالتكم، فقالوا له: يا أبا عبد الله وإنك لههنا، وقد سمعت ما قلنا؟ اكتم علينا، فإن لكل جوار أمانة، فقال لهم: ما هذا من جوار الأمانة ولا من مجالسها، ما نصحتُ الله ورسوله إن أنا طويت عنه هذا الحديث، فقالوا له: يا أبا عبد الله فاصنع ما شئت، فوالله لنحلفن أنَّا لم نقل، وإنك قد كذبت علينا، أفتراه يصدقك ويكذبنا ونحن ثلاثا؟ فقال لهم: أما أنا فلا أبالى إذا أديت النصيحة إلى الله وإلى رسوله فقولوا ما شئتم أن تقولوا، ثم مضىٰ حتى أتى رسول الله ﷺ وعلى رضي الله عنه إلى جانبه، محتبٍ بحمائل سيفه فأخبره بمقالة القوم، فبعث إليهم رسول الله ﷺ فأتوه، فقال لهم: «ماذا قلتم؟» فقالوا: والله ما قلنا شيئًا، فإن كنت بُلِّغتَ عنا شيئًا فمكذوب علينا، فهبط جبرئيل بهذه الآية: ﴿**يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ**﴾ (التوبة: ٧٤) وقال لعلى رضي الله عنه عند ذلك: «ليقولوا ما شاءوا، والله إن قلبى بين أضلاعى، وإن سيفى لفى عنقى، ولئن هموا لأهمن» فقال جبرئيل للنبى ﷺ: اصبر للأمر الذى هو كائن، فأخبر النبى ﷺ عليا رضي الله عنه بما أخبره به جبرئيل، فقال: إذاً أصبر للمقادير».

عرض ولاية على رضي الله عنه على آدم عليه السلام:

يقول العياشى عند تفسير قوله تعالى: ﴿**فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ**﴾ ما نصه: «عن عبد الرحمن بن كثير عن أبى عبد الله رضي الله عنه قال: إن الله ـ تبارك وتعالى ـ عرض على آدم فى الميثاق ذريته، فمر به النبى ﷺ وهو متكئ على علىٍّ رضي الله عنه، وفاطمة

تتلوهما، والحسن والحسين ﷺ يتلون على فاطمة، فقال الله: يا آدم، إياك أن تنظر إليهم بحسد أهبطك من جوارى، فلما أسكنه الله الجنة مثل له النبى وعلىٌّ وفاطمة والحسن والحسين، فنظر إليهم بحسد، ثم عُرضت عليه الولاية فأنكرها، فرمته الجنة بأوراقها، فلما تاب إلى الله من حسده وأقر بالولاية ودعا بحق الخمسة: محمد وعلى وفاطمة والحسن والحسين، غفر الله له، وذلك قوله: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ ...﴾ (البقرة: ٣٧) الآية».

روايته للأحاديث المكذوبة فى فضائل أهل البيت:

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ (الرعد: ٣٩) قال: «عن إبراهيم بن أبى يحيى عن جعفر بن محمد ﷺ قال: ما من مولود يولد إلا وإبليس من الأبالسة بحضرته، فإن علم الله أنه من شيعتنا حجبه عن ذلك الشيطان، وإن لم يكن من شيعتنا أثبت الشيطان إصبعه السبابة فى دبره فكان مأبونًا، وذلك أن الذكر يخرج للوجه، فإن كانت امرأة أثبتت فى فرجها فكانت فاجرة، فعند ذلك يبكى الصبى بكاء شديدًا إذا هو خرج من بطن أمه، والله بعد ذلك يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب».

والذى يقرأ الرواية لا يسعه أمام ما فيها إلا أن يحكم بأنها موضوعة، كما لا يسعه إلا أن يحكم على هؤلاء الإمامية بأنهم قوم لا يحسنون الوضع، وينقصهم الذوق وتعوزهم المهارة، وإلا فأى ذوق وأى مهارة فى تلك الرواية التى أوردها العياشى واختلقها على العبد الصالح جعفر الصادق ﷺ؟!.

القائم:

والعياشى يدين بالقائم، ومتأثر بهذه العقيدة، فنجده عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ (البقرة: ١٤٨) قال ما نصه: «عن المفضل بن عمر قال: قال أبو عبد الله ﷺ: إذا أوذن الإمام دعا الله باسمه العبرانى الأكبر فانتحيت له أصحابه الثلاثمائة والثلاثة عشر قزعًا كقزع الخريف وهم أصحاب الولاية، ومنهم من يُفتقد من فراشه ليلا فيصبح بمكة، ومنهم من يُرى يسير فى السحاب نهارًا، يُعرف باسمه واسم أبيه وحسبه ونسبه، قلت: جُعلت فداك، أيهم أعظم إيمانًا؟ قال: الذى يسير فى السحاب نهارًا، وهم المفقودون، وفيهم نزلت هذه الآية: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾ (البقرة: ٢٦١) قال: «وعن المفضل بن محمد الجعفى قال: سألت أبا عبد الله رضي الله عنه عن قول الله: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾ قال: «الحبة فاطمة، والسبع السنابل سبعة من ولدها سابعهم قائم، قلت: الحسن؟ قال: إن الحسن إمام من الله مفترض طاعته ولكن ليس من السنابل السبعة، أولهم الحسين وآخرهم القائم، فقلت قوله: ﴿فِى كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ﴾ قال: يولد الرجل منهم فى الكوفة مائة من صلبه وليس ذاك إلا هؤلاء السبعة».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِى وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ (الحجر: ٨٧) قال: «عن يونس بن عبد الرحمن عمن ذكره، رفعه قال: سألت أبا عبد الله رضي الله عنه عن قول الله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِى وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ قال: إن ظاهرها الحمد وباطنها ولد الولد، والسابع منها القائم».

جفنة القائم:

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ (آل عمران: ٣٧) قال العياشى ما نصه: «عن سيف عن نجم عن أبى جعفر رضي الله عنه قال: إن فاطمة رضي الله عنها ضمنت لعلى رضي الله عنه عمل البيت والعجين والخبز وقم البيت، وضمن لها على رضي الله عنه ما كان خلف الباب من نقل الحطب وأن يجىء بالطعام، فقال لها يومًا: يا فاطمة هل عندك شىء؟ قالت: لا والذى عظَّم حقك، ما كان عندنا منذ ثلاثة أيام شىء نقريك به، قال: أفلا أخبرتنى؟ قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهائى أن أسألك شيئًا، فقال: «لا تسألى ابن عمك شيئًا، إن جاءك بشىء عفو وإلا فلا تسأليه» قال: فخرج الإمام على رضي الله عنه فلقى رجلا فاستقرض منه دينارًا، ثم أقبل به وقد أمسى، فلقى المقداد بن الأسود، فقال للمقداد: ما أخرجك فى هذه الساعة؟ قال: الجوع والذى عظم حقك يا أمير المؤمنين، قال: قلت لأبى جعفر: ورسول الله صلى الله عليه وسلم حىٌّ؟ قال: ورسول الله صلى الله عليه وسلم حىٌّ، قال: فهو أخرجنى، وقد استقرضت دينارًا وسأوثرك به، فدفعه إليه، فأقبل فوجد رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسًا وفاطمة تصلى وبينهما شىء مغطى، فلما فرغت أحضرت ذلك الشىء، فإذا جفنة من خبز ولحم، قال: يا فاطمة أنَّى لك هذا؟ قالت: هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب، فقال رسول الله

ﷺ: «ألا أحدثك بمثلك ومثلها» قال: بلى، قال: «مثل زكريا إذا دخل على مريم في المحراب فوجد عندها رزقًا، قال: يا مريم أنى لك هذا؟ قالت: هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب» فأكلوا منها شهرًا، وهي الجفنة التي يأكل منها القائم، وهي عندنا».

الأوصياء:

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (النحل: ١٦) يقول: «عن معلى بن خنيس عن أبي عبد الله رضي الله عنه في قوله: ﴿وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ قال: النجم: رسول الله ﷺ، والعلامات: الأوصياء بهم يهتدون».

علم الأئمة:

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ (إبراهيم: ٢٤) قال العياشي: «عن محمد بن يزيد قال: سألت أبا عبد الله رضي الله عنه عن قول الله: ﴿وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ فقال: رسول الله ﷺ أصلها، وأمير المؤمنين رضي الله عنه فرعها، والأئمة من ذريتهما أغصانها، وعلم الأئمة ثمرها، وشيعتهم ورقها، فهل ترى فيها فضلا؟ قلت: لا والله، قال: والله إن المؤمن ليموت فتسقط ورقة من تلك الشجرة، وإنه ليولد فتورق ورقة فيها، قال: قلت: ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ (إبراهيم: ٢٥) قال: يعني ما يخرج إلى الناس من علم الإمام في كل حين يسأل عنه».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ (النحل: ٦٧) قال: «عن مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله رضي الله عنه في قوله: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ إلى ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (النحل: ٧٩) فالنحل الأئمة، والجبال العرب، والشجر الموالي عتاقه ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ يعني الأولاد والعبيد ممن لم يعتق، وهو يتولى الله ورسوله والأئمة، والثمرات المختلف ألوانه فنون العلم الذي قد يعلم الأئمة شيعتهم، ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾ يقول في العلم شفاء للناس، والشيعة هم الناس، وغيرهم الله أعلم بهم ما هو، ولو كان كما يزعم أنه العسل الذي يأكله الناس إذًا ما أكل منه ولا شرب ذو عاهة إلا برئ لقول الله: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾ ولا خلف لقول الله، وإنما

الشفاء فى علم القرآن لقوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الإسراء: ٨٣) فهو شفاء ورحمة لأهله لا شك فيه ولا مرية. وأهله الأئمة الهدى الذين قال الله: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ (البقرة: ١٢٩)».

نزول السكينة على الأوصياء:

يقول العياشى عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ ...﴾ (التوبة: ٤٠) الآية، يقول ما نصه: «عن العباس بن هلال عن أبى الحسن الرضا ؏ قال: سمعته وهو يقول للحسن: أى شىء السكينة عندكم؟ وقرأ: ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ فقال له الحسن: جُعلت فداك لا أدرى، فأى شىء؟ قال: ريح تخرج من الجنة طيبة لها صورة كصورة وجه الإنسان، قال: فتكون مع الأنبياء، فقال له على بن أسباط: تنزل على الأنبياء والأوصياء؟! فقال: تنزل على الأنبياء والأوصياء».

طعنه على الصحابة:

وإنا لنلاحظ على المؤلف أنه يطعن على الصحابة ويرميهم بالكفر أو ما يقرب منه، ويجردهم من كل فضل نُسِب إليهم فى القرآن، تنقيصًا لهم، وحطا من قدرهم.

الطعن فى أبى بكر وعمر وعثمان:

فمثلاً عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ (البقرة: ١٢٤) يقول العياشى: «عن صفوان الجمال قال: كنا بمكة فجرى الحديث فى قول الله: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ قال: أتمهن بمحمد وعلىٍّ والأئمة من ولد علىٍّ ؏، فى قول الله: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ﴾ (آل عمران: ٣٤) ثم قال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ قال: يا رب، ويكون من ذريتى ظالم؟ قال: نعم، فلان وفلان وفلان ومن اتبعهم، قال: يا رب فعجِّل لمحمد وعلىٍّ ما وعدتنى فيهما، وعجِّل نصرك لهما، وإليها أشار بقوله: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ فالملة: الإمامة فلما أسكن ذريته بمكة قال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ إلى قوله: ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ﴾ فاستثنى من آمن خوفًا أن يقول له لا، كما قال له فى الدعوة الأولى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ

عَهْدِى الظَّالِمِينَ﴾ فلما قال الله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ قال: يا رب ومن الذين متعتهم؟ قال: الذين كفروا بآياتى فلان وفلان وفلان».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ....﴾ (البقرة: ٢٠٤) الآية، قال ما نصه: «عن الحسين بن بشار قال: سألت أبا الحسن عليه السلام عن قول الله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قال: فلان وفلان».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِى السِّلْمِ كَافَّةً ..﴾ (البقرة: ٢٠٨) الآية، قال ما نصه: «عن أبى بصير قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِى السِّلْمِ كَافَّةً﴾ قال: أتدرى ما السِّلم؟ قال: قلت: أنت أعلم، قال: ولاية علىٍّ والأئمة الأوصياء من بعده، قال: وخطوات الشيطان والله: ولاية فلان وفلان».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ ..﴾ (آل عمران: ٧) الآية قال ما نصه: «عن عبد الرحمن بن كثير الهاشمى عن أبى عبد الله عليه السلام فى قول الله: ﴿هُوَ الَّذِى أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ﴾ قال: أمير المؤمنين والأئمة ﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ فلان وفلان وفلان».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ إلى قوله: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ﴾ (التوبة: ٦٥) قال العياشى فى سبب نزولها: نزلت فى التيمى والعدوى والعشرة معهما أنهم اجتمعوا اثنا عشر، فكمنوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى العقبة وائتمروا بينهم ليقتلوه، فقال بعضهم لبعض: إن فطن نقول: إنما كنا نخوض ونلعب، وإن لم يفطن لنقتلنه، فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ فقال الله لنبيه ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ﴾ يعنى محمدًا صلى الله عليه وسلم ﴿كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ يعنى عليًا أن يعفو عنهما فى أن يلعنهما على المنابر ويلعن غيرهما، فذلك قوله تعالى: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً﴾».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ ...﴾ (الحجر: ٤٤) الآية، قال: «عن

أبى بصير عن جعفر بن محمد ﷺ قال: يؤتى بجهنم لها سبعة أبواب، بابها الأول للظالم وهو زريق، وبابها الثانى لحبتر، والباب الثالث لـلثالث، والرابع لمعاوية، والباب الخامس لعبد الملك، والباب السادس لعسكر بن هوسر، والباب السابع لأبى سلامة، فهم أبواب لمن اتبعهم».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾ (النساء: ١٣٧) قال العياشى: «هما والثالث والرابع وعبد الرحمن وطلحة، وكانوا سبعة عشر رجلا، قال: لما وجه النبى ﷺ على بن أبى طالب ﷺ وعمار بن ياسر، رحمه الله، إلى أهل مكة، قالوا: بعث هذا الصبى، ولو بعث غيره يا حذيفة إلى أهل مكة وفى مكة صناديها، كانوا يسمون عليًا الصبى لأنه كان اسمه فى كتاب الله الصبى لقول الله: «ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحًا، وهو صبى، وقال إننى من المسلمين»! فقالوا: والله الكفر بنا أولى مما نحن فيه، فساروا فقالوا لهما وخوفوهما بأهل مكة، فعرضوا لهما وغلظوا عليهما الأمر، فقال على ﷺ: حسبنا الله ونعم الوكيل، ومضى، فلما دخلا مكة أخبر الله نبيه بقولهم لعلى، وبقول علىٍّ لهم، فأنزل الله بأسمائهم فى كتابه، وذلك قول الله: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (آل عمران: ١٧٣) إلى قوله: ﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ (آل عمران: ١٧٤) وإنما نزلت: «ألم تر إلى فلان وفلان لقوا عليًا وعمارًا فقالا: إن أبا سفيان وعبد الله بن عامر وأهل مكة قد جمعوا لكم فاخشوهم فقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل» وهما اللذان قال الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا...﴾ (النساء: ١٣٧) إلى آخر الآية، فهذا أول كفرهم، والكفر الثانى قول النبى ﷺ: «يطلع عليكم من هذا الشِّعْب رجل فيطلع عليكم بوجهه، فمثله عند الله كمثل عيسى، لم يبق منهم أحد إلا تمنى أن يكون بعض أهله» فإذا بعلىٍّ قد خرج وطلع بوجهه، وقال: «هو هذا» فخرجوا غضابًا وقالوا: ما بقى إلا أن يجعله نبيًا، والله الرجوع إلى آلهتنا خير مما نسمع منه فى ابن عمه، وليصدنا على أن دام هذا، فأنزل الله: ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً﴾ (الإسراء: ٥) إلى آخر الآية، فهذا الكفر الثانى، وزاد الكفر بالكفر حين قال الله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ

نَفِيرًا﴾ (الإسراء: ٦) فقال النبى ﷺ: «يا على، أصبحت وأمسيت خير البرية» فقال له الناس: هو خير من آدم ونوح ومن إبراهيم ومن الأنبـياء؟ فأنزل الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ﴾ إلى ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (آل عمران: ٣٣، ٣٤) قالوا: فهو خير منك يا محمد؟ قال: «قال الله: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ (الأعـراف: ١٥٨) ولكنه خير منكم وذريته خير من ذريتكم ومن اتبعه خير ممن اتبعكم» فقاموا غضابًا، وقالوا: زيادة الرجوع إلى الكفر أهون علينا ممـا يقول فى ابن عمه، وذلك قول الله: ﴿ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا﴾ (النساء: ١٣٧)».

الطعن على أبى بكر:

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ (التوبة: ٤٠) يقول: «عن عبد الله بن محمد الحجال قال: كنت عند أبى الحسن الثانى ومعى الحسن بن الجهم، قال له الحسن: إنهم يحتجون علينا بقول الله تبارك وتعالى: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ قال: وما لهم فى ذلك، فوالله لقد قال الله: «فـأنزل الله سكينته على رسوله» وما ذكره فيها بخـير، قال: قلت له: إنا جعلت فداك وهكذا تقرءونها؟ قـال: هكذا قرأتها، قال زرارة: قال أبو جعفر ﷺ: «فأنزل سكينته على رسوله» ألا ترى أن السكينة إنما نزلت على رسوله؟»».

الطعن على طلحة والزبير:

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ (الأعراف: ٤٠) قال: «نزلت فى طلحة والزبير، والجمل جملهم».

الطعن فى عائشة وحفصة وأبى بكر وعمر:

يقول العياشى عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٤)، يقول ما نصه: «عن عبد الصمد بن بشير عن أبى عبد الله ﷺ قال: تدرون مات النبى ﷺ أو قتل؟ إن الله يقول: ﴿أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ﴾ فَسُمَّ قبل الموت، إنهما سقتاه قبل الموت، فقلنا: إنهما وأبوهما شر من خلق الله».

الطعن فى بنى أمية:

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ (البقرة: ٨٩) «عن جابر قال: سألت أبا جعفر ﷺ عن هذه الآية عن قول الله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ قال: تفسيرها فى الباطن: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا﴾ فى على ﴿كَفَرُوا بِهِ﴾ فقال الله فيهم: ﴿فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ فى باطن القرآن، قال أبو جعفر فيه: يعنى بنى أمية هم الكافرون فى باطن القرآن».

الرجعـة وقيام القائـم:

ولما كان العياشى يدين بالرجعة وقيام القائم فإنا نجده عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم﴾ (التوبة: ١١١) يقول: «عن زرارة قال: كرهت أن أسأل أبا جعفر ﷺ فى الرجعة، فأقبلت مسألة لطيفة أبلغ فيها حاجتى، فقلت: جُعلت فداك، أخبرنى عمن قتل مات؟ قال: لا، الموت موت والقتل قتل، قال: فقلت له: ما أحد يقتل إلا مات؟ قال: فقال: يا زرارة، قول الله أصدق من قولك، قد فرق بينهما فى القرآن قال: ﴿أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ﴾ وقال: ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ (آل عمران: ١٥٨) وليس كما قلت يا زرارة، الموت موت، والقتل قتل، وقد قال الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ الآية، قال: فقلت له: إن الله يقول: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ (آل عمران: ١٨٥) أفرأيت من قتل لم يذق الموت؟ قال: فقال: ليس من قتل بالسيف كمن مات على فراشه، إن من قتل لا بد من أن يرجع إلى الدنيا حتى يذوق الموت».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ﴾ (الإسراء: ٤) قال: «عن صالح بن سهل عن أبى عبد الله ﷺ فى قوله: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ﴾ قتل على، وطعن الحسن ﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ وقتل الحسين ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا﴾ إذا جاء نصر دم الحسين ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ﴾ قوم يبعثهم الله قبل خروج القائم لا يدعون وترًا لآل محمد إلا حرقوه ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ قبل قيام القائم ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ خروج الحسين فى الكرَّة سبعين رجلاً من أصحابه الذين قتلوا

معه، عليهم البيض المذهب، لكل بيضة وجهان المؤدى إلى الناس إن الحسن قد خرج فى أصحابه حتى لا يشك فيه المؤمنون وأنه ليس بدجال ولا شيطان، الإمام الذي بين أظهر الناس يومئذ، فإذا استقر عند المؤمن أنه الحسين لا يشكون فيه، وبلغ عن الحسين الحجة القائم بين أظهر الناس وصدقه المؤمنون بذلك، جاء الحجة الموت فيكون الذى يلى غسله وكفنه وحنوطه وإيلاجه فى حفرته الحسين، ولا يلى الوصى إلا الوصى».

التقيـــة:

يدين العياشى كغيره من الإمامية بالتقية، ويستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿إلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ (آل عمران: ٢٨) حيث قال: «عن الحسين بن زيد بن على عن جعفر بن محمد عن أبيه ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يقول: لا إيمان لمن لا تقية له، ويقول: قال الله: ﴿إلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾».

رؤية الله فى الآخرة:

والعياشى يوافق المعتزلة وينكر جواز رؤية الله تعالى فى الآخرة، فعند تفسير قوله تعالى: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ (الأنعام: ١٠٣) قال: «عن الأشعث بن الحاتم قال: قال ذو الرئاستين: قلت لأبى الحسن الرضا ﷺ: جُعلت فداك، أخبرنى عما اختلف فيه الناس من الرؤية، فقال بعضهم: لا يرى! فقال: يا أبا العباس من وصف الله بخلاف ما وصف به نفسه قد أعظم الفرية على الله، قال الله: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ هذه الأبصار ليست هى الأعين، إنما هى الأبصار التى فى القلب لا يقع عليه الأوهام ولا يدرك كيف هو».

تأثر العياشى فى تفسيره بالفروع الفقهية للإمامية

فرض الرجلين فى الوضوء:

ويرى العياشى أن فرض الرجلين فى الوضوء مسحهما لا غسلهما، ولهذا نراه عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ (المائدة: ٦) يقول: «عن زرارة قال: قلت لأبى جعفر ﷺ: أخبرنى عن حد الوجه الذى ينبغى له أن يوضأ، الذى قال

الله؟ فقال: الوجه الذى أمر الله بغسله الذى لا ينبغى لأحد أن يزيد عليه ولا ينقص منه، إن زاد عليه لم يؤجر، وإن نقص منه أثم: ما دارت السبابة والوسطى والإبهام من قصاص الشعر إلى الذقن، وما جرت عليه الإصبعان من الوجه مستديرًا فهو من الوجه، وما سوى ذلك فليس من الوجه، قلت: الصدغ ليس من الوجه؟ قال: لا، قال زرارة: فقلت لأبى جعفر رضي الله عنه: ألا تخبرنى من أين علمت وقلت إن المسح ببعض الرأس وبعض الرجلين؟ فضحك، فقال: يا زرارة، قال رسول الله ﷺ وقد نزل به الكتاب من الله، لأن الله قال: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ فعرفنا أن الوجه كله ينبغى له أن يغسل، ثم قال: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ فوصل اليدين إلى المرفقين بالوجه فعرفنا أنهما ينبغى أن يغسلا إلى المرفقين، ثم فصل بين الكلام فقال: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ فعلمنا حين قال: «برءوسكم» أن المسح ببعض الرأس لمكان الباء، ثم وصل الرجلين بالرأس كما وصل اليدين بالوجه، فقال: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ فعرفنا حين وصلهما بالرأس أن المسح على بعضهما، ثم فسر ذلك رسول الله للناس فضيعوه».

خمس الغنائم:

وهو يرى فى الغنائم ما يراه غيره من علماء مذهبه فيقول عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ...﴾ (الأنفال: ٤٠) قال: «عن زرارة ومحمد بن مسلم وأبى بصير أنهم قالوا له: ما حق الإمام فى أموال الناس؟ قال: الفىء والأنفال والخُمس، وكل ما دخل منه فىء أو أنفال أو خمس أو غنيمة فإن لهم خمسه، فإن الله يقول: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ...﴾ وكل شىء فى الدنيا فإن لهم فيه نصيبًا فمن وصلهم بشىء مما يدعون له أكثر مما يأخذون منه».

و «عن محمد بن مسلم عن أبى جعفر رضي الله عنه فى قول الله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ...﴾ قال: هم أهل قرابة نبى الله ﷺ».

و «عن إسحاق عن رجل عن أبى عبد الله رضي الله عنه قال: سألته عن سهم الصفوة،

فقال: كان لرسول الله ﷺ، وأربعة أخماس للمجاهدين والقوام، وخمس يقسم بين مقسم رسول الله ﷺ، ونحن نقول: هو لنا، والناس يقولون: ليس لكم، وسهم لذى القربى، وهو لنا، وثلاثة أسهام لليتامى والمساكين وأبناء السبيل، يقسمه الإمام بينهم، فإن أصابهم درهم درهم لكل فرقة منهم نظر الإمام بعد، فجعلها فى ذى القربى، قال: يردونها إلينا».

هذا والكتاب ـ إضافة لما سبق ـ فهو مملوء بالإسرائيليات والأحاديث المكذوبة فى فضائل السور.



٤- تفســير «نور الثقليــن»

للحـويــزى

التعريف بصاحب التفسير(١):

هو عبد على بن جمعة العروسى الحويزى، من محدثى القرن الحادى عشر، المتوفى سنة (١١١٢هـ)، كان على مشرب الإخبارية، وكان محدثًا فقيهًا، وشاعرًا أديبًا، جامعًا، سكن «شيراز» وحدَّث بها، وتتلمذ على يديه جماعة، منهم: السيد نعمة الله الجزائرى، وغيره.

التعريف بهذا التفسير:

هذا التفسير يجرى على مذهب الإمامية الاثنا عشرية، من حمل ألفاظ القرآن الكريم على معانٍ تتفق وأصول المذهب وتعاليمه، مع كثير من التعصب والغلو فى التنويه بشأن أهل البيت والحطِّ من قدر الصحابة الذين يعتبرهم غير موالين لعلىٍّ وذريته.

وقد جمع الحويزى فى تفسيره ما عثر عليه من الروايات المنسوبة ـ عنده ـ إلى أئمة أهل البيت مما لها ارتباط بآى الذكر الحكيم، تفسيرًا أو تأويلاً، أو استشهادًا أو تأييدًا، دون أن يعلق عليها جرحًا أو تعديلاً.

ويقول فى مقدمة كتابه: «وأما ما نقلت مما ظاهره يخالف لإجماع الطائفة فلم أقصد به بيان اعتقاد ولا عمل، وإنما أوردته ليعلم الناظر المطلع كيف نقل وعمن نقل، ليطلب له من التوجيه ما يخرجه من ذلك، مع أنه لم أخل موضعًا من تلك المواضع عن نقل ما يضاده، ويكون عليه المعول فى الكشف والإبداء».

وتلك محاولة منه ليتخلص من مأزق تبعات ما أورده فى كتابه من مناقضات ومخالفات صريحة حتى مع أسس قواعد مذهب الإمامية، ويوكل النظر والتحقيق فى ذلك إلى عاتق القارئ!.

والحويزى فى تفسيره لا يستوعب جميع آى القرآن، كما أنه لا يورد النص القرآنى، وإنما يسرد الروايات تباعًا، حسب ترتيب الآيات والسور، ويبدأ تفسير كل سورة بما ورد فى فضلها من الأحاديث الموضوعة باتفاق أهل العلم.

---

(١) لم تسعفنا المصادر التى بين أيدينا بترجمة وافية له.

كما أنه يورد أخبارًا مشتملة على الغلو فى شأن أهل البيت، ويحشد كتابه بالإسرائيليات كما فى قصة هاروت وماروت، وأن الزهرة كانت امرأة فمسخت، وأن الملكين زنيا بها ونحو ذلك من الإسرائيليات والأحاديث المكذوبة الفاضحة التى سوَّد بها كتابه، والتى نُجلُّ أهل البيت - رضي الله عنهم - عنها، فضلاً عن منافاتها مع رفعة شأن القرآن الكريم.

هذا والكتاب مطبوع فى خمسة مجلدات، بمؤسسة إسماعيليان، إيران.

مصادر الحويزى فى تفسيره:

جمع الحويزى مرويات كتابه من كتب التفسير والحديث والمناقب، مثل تفسير: القمى، والعياشى، والطبرسى، وكتاب الكافى، وعلل الشرائع، ومعانى الأخبار، والاحتجاج، والغيبة، وثواب الأعمال، وكمال الدين وتمام النعمة، وكتاب الخصال.

وحيث أنه قد تقدم الكلام على القيمة العلمية للكتب الثلاث الأولى، مع بيان مناهجها، فقد اكتفيت فى ذكر الشواهد والأمثلة عند الكلام على هذا التفسير بالإحالة إلى مصادر الأخيرة فقط، حتى لا نثقل الكتاب.

وإليك بعض الأمثلة من هذا التفسير لترى بنفسك ما فى هذا التفسير من غلو صاحبه وتعصبه المذهبى.

موقفه من تحريف القرآن:

والحويزى من غلاة الشيعة الذين يقولون بتحريف القرآن، فمثلاً عند تفسير سورة البينة يقول الحويزى، نقلاً عن الكافى:

«عن أحمد بن محمد بن أبى نصر قال: دفع إلىَّ أبو الحسن - عليه السلام - مصحفًا وقال: لا تنظر فيه، ففتحته وقرأت فيه: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فوجدت فيها اسم سبعين رجلاً من قريش بأسمائهم وأسماء آبائهم، قال: فبعث إلىَّ: ابعث إلىَّ بالمصحف».

وفى تفسير قوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ (الواقعة: ٧٩) قال: «لما استُخلف عمر سأل عليًا - عليه السلام - أن يدفع إليهم القرآن فيحرفوه فيما بينهم، فقال: يا أبا الحسن، إن جئت بالقرآن الذى كنت جئت به إلى أبى بكر لتقوم الحجة عليكم،

ولا تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين، أو تقولوا لما جئتنا به، فإن القرآن الذى عندى لا يمسه إلا المطهرون، والأوصياء من ولدى، فقال عمر: فهل وقت إظهاره معلوم؟ قال على - عليه السلام -: نعم، إذا قام القائم من ولدى يظهره، ويحمل الناس عليه، فتجرى السنة به».

موقفه من التقية:

والحويزى كغيره من علماء الشيعة الإمامية يقول بالتقية ويدين بها، فنراه عند تفسير قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ (القصص: ٥٤) يقول: «عن هشام ابن سالم وغيره عن أبى عبد الله عليه السلام فى قول الله عز وجل: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ على التقية ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ قال: الحسنة التقية، والسيئة الإذاعة».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ (الشعراء: ٤) قال الحويزى: «قال على بن موسى الرضا - عليه السلام: لا دين لمن لا ورع له، ولا أمان لمن لا تقية له، وإن أكرمكم عند الله أعملكم بالتقية، فقيل له: يا ابن رسول الله إلى متى؟ قال: إلى يوم الوقت المعلوم، وهو يوم خروج قائمنا، فمن ترك التقية قبل خروج قائمنا فليس منا».

مولد القائم:

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ...﴾ (القصص: ٥) قال الحويزى بإسناده إلى حكيمة فى حديث طويل تذكر فيه مولد القائم - عليه السلام - تقول فيه: «وقد ذكرت أم القائم - عليه السلام - وجلست منها حيث تقعد المرأة من المرأة للولادة، فقبضت على كفى وغمزته غمزة شديدة ثم أنت أنة وتشهدت ونظرت تحتها فإذا أنا بولى الله - صلى الله عليه - متلقيًا الأرض بمساجده، فأخذت بكتفيه فأجلسته فى حجرى، وإذا هو نظيف مفروغ منه، فنادانى أبو محمد، عليهما السلام: يا عمة هلمى فأتينى بابنى، فأتيته به، فتناوله وأخرج لسانه فمسحه على عينيه، ففتحها، ثم أدخله فى فيه فحنكه، ثم أدخله فى أذنيه وأجلسه فى راحته اليسرى، فاستوى ولى الله جالسًا، فمسح يده على رأسه وقال له: يا بنى انطق،

فقدَّره الله، فاستعاذ ولى الله من الشيطان الرجيم واستفتح بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ (القصص: ٥، ٦) وصلى على رسول الله وأمير المؤمنين والأئمة ـ عليهم السلام ـ واحدًا واحدًا حتى انتهى إلى أبيه، فناولنيه أبو محمد ـ عليه السلام ـ وقال: يا عمه رديه إلى أمه حتى تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثر الناس لا يعلمون».

الأئمة الاثنا عشر:

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا...﴾ (التوبة: ٣٦) قال الحويزى: «عن جابر الجعفى قال: سألت أبا جعفر ـ عليه السلام ـ عن تأويل قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا...﴾ قال: فتنفس سيدى الصعداء فقال: يا جابر، أما السنة فهى جدى رسول الله ﷺ، وشهورها اثنا عشر شهرًا، فهو أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ إلى وإلى ابنى جعفر وابنه موسى، وابنه على، وابنه محمد، وابنه على، وإلى ابنه الحسن، وإلى ابنه محمد الهادى المهدى اثنا عشر إمامًا حُجج الله فى خلقه وأمناؤه على وحيه وعلمه، والأربعة الحرم الذين هم الدين القيم أربعة منهم يخرجون باسم واحد، علىّ أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ وأبى على بن الحسين، وعلى بن موسى، وعلى بن محمد، فالإقرار بهؤلاء هو الدين القيم ﴿فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ أى: قولوا بهم جميعًا تهتدوا».

الإمام الصامت والإمام الناطق:

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ (الحج: ٤٥) قال الحويزى: «البئر المعطلة: الإمام الصامت، والقصر المشيد: الإمام الناطق».

أول من يبايع القائم:

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ (النحل: ١) يقول الحويزى: «قال أبو عبد الله ـ عليه السلام: أول من يبايع القائم: جبرئيل، ينزل فى صورة طير أبيض، فيبايعه، ثم يضع رجلاً على بيت الله الحرام، ورجلا على بيت المقدس، ثم ينادى بصوت ذلق تسمعه الخلائق: أتى أمر الله فلا تستعجلوه».

ولادة الأوصياء:

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ...﴾ (مريم: ١٢) قال الحويزى: «عن عبد الله بن إبراهيم الجعفرى قال: سمعت إسحاق بن جعفر يقول: الأوصياء إذا حملت بهم أمهاتهم...» إلى قوله: «فإذا كان الليلة التى تلد فيها ظهر لها فى البيت نور تراه ولا يراه غيرها - إلا أبوه - فإذا ولدته ولدته قاعدًا وتفسَّحت له حتى يخرج متربعًا، ثم يستدير بعد وقوعه إلى الأرض فلا يُخطئ القبلة حيث كانت بوجهه، ثم يعطس ثلاثًا يشير بأصبعه بالتحميد، ويقع مسرورًا مختونًا ورباعيتاه من فوق وأسفل ونابه وضاحكاه، ومن بين يديه مثل سبيكة الذهب نور، ويقيم يومه وليلته تسيل يداه ذهبا، وكذلك الأنبياء إذا وُلدوا، وإنما الأوصياء أعلاق من الأنبياء».

عرض أرواح أهل البيت والأئمة على السموات والأرض والجبال:

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ (الأحزاب: ٧٢) قال الحويزى: «عن المفضل بن عمر قال: قال أبو عبد الله - عليه السلام: إن الله تبارك وتعالى خلق الأرواح قبل الأجساد بألفى عام، فجعل أعلاها وأشرفها محمد وعلى والحسن والحسين - عليهم السلام - والأئمة صلوات الله عليهم، فعرضها على السموات والأرض والجبال فغشيها نورهم، فقال الله تبارك وتعالى للسموات والأرض والجبال: هؤلاء أحبائى وأوليائى وحججى على خلقى وأئمة بريتى، ما خلقت خلقًا هو أحب إلىَّ منهم، ولهم ولمن تولاهم خلقت جنتى، ولمن خالفهم وعاداهم خلقت نارى، فمن ادعى منزلتهم منِّى ومحلهم من عظمتى عذبته عذابًا لا أعذبه أحدًا من العالمين وجعلته مع المشركين فى أسفل درك من نارى، ومن أقر بولايتهم ولم يدع منزلتهم منِّى ومكانهم من عظمتى جعلته معهم فى روضات جناتى وكان لهم فيها ما يشاءون عندى، وأبحتهم كرامتى، فأيكم يحملها بأثقالها ويدعيها لنفسه؟ فأبت السموات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها من ادعاء منزلتها وتمنى محلها من عظمة ربهم، فلما أسكن الله - عز وجل - آدم وزوجته الجنة قال لهما: ﴿وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ

شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ يعنى شجرة الحنطة **﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾** (البقرة: ٣٥) فنظرا إلى منزلة محمد وعلى وفاطمة والحسن والحسين والأئمة بعدهم فوجداها أشرف منازل أهل الجنة، فقالا: ربنا لمن هذه المنزلة؟ فقال الله جل جلاله: ارفعا رءوسكما إلى ساق العرش، فرفعا رءوسهما فوجدا أسماء محمد وعلى وفاطمة والحسن والحسين والأئمة ـ عليهم السلام ـ مكتوبة على ساق العرش بنور من نور الله الجبار جل جلاله، فقالا: يا ربنا ما أكرم أهل هذه المنزلة عليك، وما أحبهم إليك، وما أشرفهم لديك؟ فقال الله جل جلاله: لولاهم ما خلقتكما، هؤلاء خزنة علمى وأمنائى على سرى، إياكما أن تنظرا إليهم بعين الحسد وتمنى منزلتهم عندى ومحلهم من كرامتى، فتدخلان فى نهيى وعصيانى فتكونا من الظالمين، قالا: ربنا ومن الظالمون؟ قال: المدعون لمنزلتهم بغير حق، قالا: ربنا فأرنا منزلة ظالميهم فى نارك حتى نراها كما رأينا منزلتهم فى جنتك، فأمر الله ـ تبارك وتعالى ـ النار فأبرزت جميع ما فيها من ألوان النكال والعذاب، وقال عز وجل: مكان الظالمين لهم المدعين لمنزلتهم فى أسفل درك منها، كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها، وكلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودًا غيرها ليذوقوا العذاب، يا آدم ويا حواء لا تنظرا إلى أنوارى وحججى بعين الحسد فأُهبطكما عن جوارى، وأُحل بكما عن هوانى **﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ﴾** (الأعراف: ٢٠ـ ٢٢) وحملهما على تمنى منزلتهم فنظرا إليهم بعين الحسد فخُذلا حتى أكلا من شجرة الحنطة، فعاد مكان ما أكلا شعيرًا، فأصل الحنطة كلها مما لم يأكلاه، وأصل الشعير كله مما عاد مكان ما أكلاه، فلما أكلا من الشجرة طار الحلى والحلل عن أجسادهما وبقيا عريانين **﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٢) قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) قَالَ اهْبِطُوا﴾** (الأعراف: ٢٢ - ٢٤) من جوارى فلا يجاورنى فى جنتى من يعصينى، فهبطا موكولين إلى أنفسهما فى طلب المعاش، فلما أراد الله ـ عز وجل ـ أن يتوب عليهما جاءهما جبرئيل ـ عليه السلام ـ

فقال لهمـا: إنكما إن ظلمتما أنفسكمـا بتمنى منزلة من فُضِّل عليكما فجزاؤكـما ما قد عوقبتما به من الهبوط من جوار الله ـ عز وجل ـ إلى أرضه، فسلا ربكما بحق الأسماء التى رأيتموها على سـاق العرش حتى يتوب عليكما، فقالا: إنا نسألك بحق الأكرمين عليك: مـحـمد، وعـلى، وفاطمـة، والحسن، والحسـين، والأئمـة إلا تبت علينا ورحمتنا، فتاب الله عليهما إنه هو التواب الرحيم، فلم يزل أنبياء الله بعد ذلك يحفظون هذه الأمانة ويخبرون بها أوصياءهم والمخلصين من أمـتهم فيأبون حملها ويشفقون من ادعائهـا، وحملها الإنسان الذى قـد عرف بأصل كل ظلم منه إلى يوم القيـامة، وذلك قول الله عـز وجل: ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً**﴾ (الأحزاب: ٧٢) ».

أحاديث مكذوبة فى فضائل على:

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿**أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ...**﴾ (الكهف: ٩) يروى الحويزى خبـرًا غـريبًا يقـول فـيه: «وبإسـناده إلى أنس بن مالك قـال: أُهدى لرسول الله ﷺ بسـاط من قرية يقال لها «بهندف» فـقعد عليه على وأبو بكـر وعمر وعثمان والزبير وعبد الرحـمن بن عوف وسعد، فقال النبى ﷺ لعلى: «يا على قل: يا ريح احـمل بنا» فـقال على: يا ريـح احمل بنا، فـحـمل بهم حـتى أتوا أصحـاب الكهف، فسلم أبو بكر وعمر، فلم يردوا عليهم السـلام، ثم قام علىٌّ فسلم فردوا عليه السلام، فـقال أبو بكر: يا علىٌّ ما بالهم ردوا عليك ولم يردوا علينا؟ فـقال لهم علىٌّ، فـقـالوا: إنا لا نرد بعـد المـوت إلا على نبى أو وصـى نبى، ثم قـال علىٌّ: يا ريح احملينا فحملتنا، ثم قال: يا ريـح ضـعينا فوضـعتنا، فوكـز برجله الأرض فتوضأ علىٌّ وتوضأنا، ثم قـال: يا ريح احـملينا فـحملتنا فـوافينا المدينـة والنبى ﷺ فى صلاة الغداة وهـو يقرأ: ﴿**أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا**﴾ فلمـا قـضى النبى ﷺ الصلاة قـال: «يا علـى، أخـبرونى عـن مسـيـركم أم تحبـون أن أخبركم؟ قال: بل تخبرنا يا رسول الله، قال أنس بن مالك: فقص القصة كأنه معنا».

عرض ولاية على على يونس عليه السلام:

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا﴾ (الأنبياء: ٨٧) قال الحويزى: «وفى حديث أبى حمزة الثمالى أنه دخل عبد الله بن عمر على على بن الحسين زين العابدين ـ عليه السلام ـ وقال له: يا بن الحسين أنت الذى تقول: إن يونس بن متى إنما لقى من الحوت ما لقى لأنه عُرضت عليه ولاية جدى فتوقف عندها؟! قال: بلى ثكلتك أمك، قال: فأرنى آية ذلك إن كنت من الصادقين، فأمر بشد عينه بعصابة وعينىَّ بعصابة، ثم أمر بعد ساعة بفتح أعيننا، فإذا نحن على شاطئ البحر تضرب أمواجه، فقال ابن عمر: يا سيدى دمى فى رقبتك، الله الله فى نفسى، قال: هنينة وأريك إن كنت من الصادقين، ثم قال: يا أيها الحوت، قال: فاطلع الحوت رأسه من البحر مثل الجبل العظيم وهو يقول: لبيك لبيك يا ولى الله، فقال: من أنت؟ قال: حوت يونس يا سيدى، قال: ائتنا بالخبر، قال: يا سيدى إن الله تعالى لم يبعث نبيًا من آدم إلى أن صار جدك محمد إلا وقد عُرض عليه ولايتكم أهل البيت، فمن قبلها من الأنبياء سلم وتخلص، ومن توقف عنها وتتعتع فى حملها لقى ما لقى آدم من المصيبة، وما لقى نوح من الغرق[(١)]، وما لقى إبراهيم من النار، وما لقى يوسف من الجب، وما لقى أيوب من البلاء، وما لقى داود من الخطيئة، إلى أن بعث الله يونس فأوحى الله إليه أن يا يونس تولَّ أمير المؤمنين عليًا والأئمة الراشدين من صلبه، فى كلام له، قال: فكيف أتولى من لم أوه ولم أعرفه؟ وذهب مغتاظا، فأوحى الله تعالى إلىَّ أن التقم يونس ولا توهن له عظمًا، فمكث فى بطنى أربعين صباحًا يطوف معى البحار فى ظلمات ثلاث ينادى أنه لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين، قد قبلت ولاية على بن أبى طالب والأئمة الراشدين من ولده ـ عليهم السلام ـ فلما أن آمن بولايتكم أمرنى ربى فقذفته على ساحل البحر، فقال زين العابدين ـ عليه السلام: ارجع أيها الحوت إلى وكرك، فرجع الحوت واستوى الماء».

---

(١) هكذا بالأصول، وهذا مما يدل على اختلاق وتلفيق مثل هذه الأخبار.

الطعن فى أبى بكر وعثمان:

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى﴾ (محمد: ٢٥): قال الحويزى: «عن أبى عبد الله ـ عليه السلام ـ فى قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى﴾ فلان وفلان وفلان ارتدوا على الإيمان فى ترك ولاية أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ قلت: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾ (محمد: ٢٦) قال: نزلت والله فيهما وفى أتباعهما، وهو قول الله ـ عز وجل ـ الذى نزل به جبرئيل على محمد ﷺ: «ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله فى علىٍّ ـ عليه السلام ـ سنطيعكم فى بعض الأمر» قال: دعوا بنى أمية إلى ميثاقهم أن لا يصيروا الأمر فينا بعد النبى ﷺ، ولا يعطونا من الخمس شيئًا، وقالوا: إن أعطيناهم إياه لم يحتاجوا إلى شىء، ولم يبالوا أن يكون الأمر فيهم، فقالوا: سنطيعكم فى بعض الأمر الذى دعوتمونا إليه ـ وهو الخمس ـ أن لا نعطيهم منه شيئا، وقوله: ﴿كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾ والذى نزل الله ما افترض على خلقه من ولاية أمير المؤمنين، وكان معهم أبو عبيدة، وكان كاتبهم، فأنزل الله: ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (٧٩) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ...﴾ (الزخرف: ٧٩، ٨٠) الآية».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ (الزخرف: ٣٨) قال الحويزى: «وفى خطبة لأمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ وهى خطبة الوسيلة، يقول فيها ـ عليه السلام: ولئن تقمصها دونى الأشقيان ونازعانى فيما ليس لهما بحق، وركباها ضلالة، واعتقلاها جهالة، فلبئس ما عليه وردوا، ولبئس ما لأنفسهما مهَّدا، يتلاعنان فى دورهما، ويتبرأ كل منهما من صاحبه، يقول لقرينه إذا التقيا: ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ فيجيب الأشقى على رثوثة: ﴿يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨) لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا﴾ (الفرقان: ٢٨، ٢٩) فأنا الذكر الذى عنه صُدَّ».

رأيه فى سحر النبى ﷺ:

والحويزى يخالف الكثير من الشيعة الإمامية ويقول بوقوع السحر للنبى ﷺ، فعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ (الفلق: ٤) يقول: «عن أبى عبد الله - عليه السلام - قال: قال أمير المؤمنين - عليه السلام: إن جبرئيل أتى النبى ﷺ وآله وقال له: يا محمد، قال: «لبيك يا جبرئيل» قال: إن فلانًا سحرك وجعل السحر فى بئر بنى فلان فابعث إليه - يعنى البئر - أوثق الناس عندك وأعظمهم فى عينك، وهو عديل نفسك، حتى يأتيك بالسحر، قال فبعث النبى ﷺ على بن أبى طالب وقال: «انطلق إلى بئر أروان فإن فيها سحرًا سحرنى به لبيد بن أعصم اليهودى فأتنى به» قال علىٌّ - عليه السلام: فانطلقت فى حاجة رسول الله ﷺ فهطبت فإذا ماء البئر قد صار كأنها الحناء من السحر، فطلبته مستعجلا حتى انتهيت إلى أسفل القليب فلم أظفر به، قال الذين معى: ما فيه شىء فاصعد، فقلت: لا والله ما كَذَبت وما كُذِّبت، وما نفسى به مثل أنفسكم - يعنى رسول الله ﷺ - ثم طلبت طلبًا بلطف فاستخرجت حُقًّا فأتيت النبى ﷺ فقال: «افتح» ففتحته فإذا فى الحق قطعة كرب النخل فى جوفه وتر عليها إحدى وعشرون عقدة، وكان جبرئيل - عليه السلام - أُنزل يومئذ بالمعوذتين على النبى ﷺ، فقال النبى ﷺ: «يا على اقرأها علىَّ وترًا» فجعل أمير المؤمنين - عليه السلام - كلما قرأ آية انحلت عقدة حتى فرغ منها، وكشف الله - عز وجل - عن نبيه ما سُحر وعافاه».

وبعد .. فأنت ترى من كل ما سقناه إليك أن المؤلف يجدُّ فى إخضاع آيات القرآن لمذهبه، وتنزيلها على وفق هواه وعقيدته، وهذا خروج بكتاب الله تعالى عن معانيه الظاهرة والمرادة منه!!.

٥- البرهان فى تفسير القرآن

للبحـــرانـى

التعريف بصاحب هذا التفسير[(١)]:

هو: السيد هاشم بن سيد سليمان بن سيد إسماعيل بن سيد عبد الجواد بن سيد على بن سيد سليمان بن سيد ناصر الحسينى الكتكانى.

ولد فى «كتكان» من قرى بلدة «توبلى» من أعمال البحرين، ولم يذكر مترجموه تاريخ ولادته ولم يشيروا إلى ما يوضح ذلك، ولكنهم ذكروا سنة وفاته، وقد توفى سنة ١١٠٧هـ (أو سنة ١١٠٩هـ) فى قرية «النعيم» ونقل إلى قرية «توبلى» ودُفن بها.

روى عن جملة من المشايخ منهم: السيد عبد العظيم ابن السيد عباس الإسترابادى الأخبارى، والشيخ محمود بن عبد السلام، والشيخ فخر الدين الطريحى النجفى صاحب كتاب «مجمع البحرين».

وذكر صاحب اللؤلؤة «أنه كان فاضلاً محدثًا جامعً متتبعًا للأخبار بما لم يسبق له سابق سوى شيخنا المجلسى، وقد صنف كتبًا عديدة تشهد بشدة تتبعه واطلاعه».

ومؤلفاته تجاوز السبعين كتابًا، بين صغير وكبير ووسيط.

وها هى جملة من مؤلفاته:

١- إثبات الوصية (ذكر المعلق أن صاحب الذريعة يستظهر أن هذا الكتاب هو كتاب البهجة المرضية الآتى بعد).

٢- احتجاج المخالفين على إمامة أمير المؤمنين.

٣- إرشاد المسترشدين.

٤- الإنصاف فى النص على الأئمة الأشراف من آل عبد مناف.

٥- إيضاح المسترشدين فى بيان تراجم الراجعين إلى ولاية أمير المؤمنين.

٦- البرهان فى تفسير القرآن، وهو ما نحن بصدده.

٧- البهجة المرضية فى إثبات الخلافة والوصية.

(١) مصادر الترجمة فى: أعيان الشيعة (١٠/ ٢٤٩)، أمل الآمل (٢/ ٣٤١)، ريحانة الأدب (١/ ٣٣٣)، لؤلؤة البحرين ٦٣.

٨ - تبصرة الولى فيمن رأى المهدى فى زمان أبيه أو فى غيبته الصغرى أو الكبرى.
٩ - تحفة الإخوان.
١٠- ترتيب التهذيب.
١١- تفضيل الأئمة على الأنبياء الذين كانوا قبل جدهم النبى الخاتم ﷺ.
١٢- تفضيل علىّ على أولى العزم من الرسل.
١٣- تنبيه الأريب وتذكرة اللبيب فى إيضاح رجال التهذيب.
١٤- التيمية فى بيان نسب التيمى.
١٥- التنبيهات فى تمام كتاب الفقه من كتاب الطهارة إلى الدّيات.
١٦- ثاقب المناقب فى المعجزات.
١٧- نزهة الأبرار فى خلق الجنة والنار.
١٨- حقيقة الإيمان.
١٩- حلية الآراء (قال المترجم: والظاهر أنه مصحف الأبرار الآتى).
٢٠- حلية الأبرار فى أحوال محمد وآله الأطهار.
٢١- حلية النظر فى فضل الأئمة الاثنى عشر.
٢٢- الدر النضيد فى خصائص الحسين الشهيد.
٢٣- سلاسل الحديد، منتخب من شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد.
٢٤- عمدة النظر فى الأئمة الاثنى عشر.
٢٥- غاية المرام وحُجة الخصام فى تعيين الإمام من طريق الخاص والعام.
٢٦- لوامع الأنوار فى التفسير.
٢٧- مدينة المعجزات.
٢٨- المحجة فيما نزل فى القائم الحُجَّة.
٢٩- معالم الزلفى فى النشأة الأخرى.
٣٠- معجزات النبى ﷺ.
٣١- مناقب أمير المؤمنين.
٣٢- مناقب الشيعة.

٣٣- مولد القائم.

٣٤- الميثمية.

٣٥- نور الأنوار فى التفسير.

٣٦- نزهة الأبرار ومنار الأفكار فى خلق الجنة والنار (ولعله ما تقدم تحت رقم: ١٧).

٣٧- نهاية الآمال فى ما يتم به الأعمال.

٣٨- نسب عمر بن الخطاب.

٣٩- الهادى وضياء النادى (مجلدان فى تفسير القرآن).

٤٠- وفاة الزهراء.

٤١- وفاة النبى ﷺ.

٤٢- روضة العارفين.

٤٣- الهداية فى تفسير القرآن.

التعريف بهذا التفسير:

والكتاب طبع للمرة الأولى على الحجر فى طهران سنة ١٢٩٥هـ فى مجلدين يبلغ عدد صفحاتهما ١١٤٨ صحيفة، وطبع للمرة الثانية فى أربع مجلدات تبلغ عدد صفحاتهما ١٩٩٦ صحيفة، وذلك فى سنة ١٣٧٥هـ.

وأرى قبل كل شىء أن أسوق للقارئ الكريم أهم الآراء التى يقول بها البحرانى، ويجهر بها فى مقدمة تفسيره، ثم أعرض بعد هذا لتوضيح مسلكه الذى سلكه فى هذا التفسير بذكر بعض النماذج القليلة حيث أن المقدمة أبانت بوضوح لا لبث فيه عن موقفه من القرآن وتفسيره، وإليك أهم هذه الآراء.

علم القرآن عند الأئمة والأوصياء:

قال المؤلف فى مقدمة تفسيره بعد أن ذكر فضل القرآن الكريم ما نصه: «غير أن أسرار تأويله لا تهتدى إليه العقول، وأنوار حقائق خفياته لا تصل إليه قريحة المفضول، ولهذا اختلف فى تأويله الناس، وصاروا فى تفسيره على أنفاس وانعكاس، قد فسروه على مقتضى أديانهم، وسلكوا به على موجب مذاهبهم واعتقادهم، وكل حزب بما

لديهم فرحون، ولم يرجعوا فيه إلى أهل الذكر، صلى الله عليهم وسلم أجمعين، أهل التنزيل والتأويل القائل فيهم جل جلاله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ (آل عمران: ٧) لا غيرهم، وهم الذين أوتوا العلم وأولو الأمر وأهل الاستنباط وأهل الذكر الذين أمر الناس بسؤالهم كما جاءت به الآثار النبوية والأخبار الإمامية، ومن ذا الذى يحوى القرآن غيرهم ويحيط تنزيله وتأويله سواهم؟ ففى الحديث عن مولانا باقر العلم أبى جعفر محمد بن على - عليهما السلام - قال: «ما يستطيع أحد أن يدعى أنه جمع القرآن كله ظاهره وباطنه غير الأوصياء».

وفى حديث آخر عن جابر قال: سمعت أبا جعفر - عليه السلام - يقول: «ما من أحد من الناس ادعى أنه جمع القرآن كله كما أنزل الله إلا كذب، وما جمعه وحفظه كما أنزل الله إلا على بن أبى طالب والأئمة من بعده».

وفى الحديث عن مولى الأمة وإمامها أمير المؤمنين على بن أبى طالب - عليه السلام: «أن عبد الله بن عباس جاءه - عليه السلام - يسأله عن تفسير القرآن فوعده الليل، فلما حضر قال: ما أول القرآن؟ قال: الفاتحة، قال: وما أول الفاتحة؟ قال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، قال وما أول ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾؟ قال: ﴿بِسْمِ﴾، قال: وما أول ﴿بِسْمِ﴾؟ قال: الباء، فجعل - عليه السلام - يتكلم فى الباء طول الليل، فلما قرب الفجر قال: لو زادنا الليل لزدنا».

وقال - عليه السلام - فى حديث آخر: «لو شئت لأوقرت سبعين بعيرًا فى تفسير فاتحة الكتاب».

رأى المؤلف فى تفاسير غير الشيعة:

ثم قال البحرانى: «إذا عرفت ذلك فقد رأيت عكوف أهل الزمان على تفسير من لم يروه من أهل العصمة - سلام الله عليهم - الذى أُنزل التنزيل والتأويل فى بيوتهم، وأوتوا من العلم ما لم يؤته غيرهم، بل كان يجب التوقف حتى يأتى تأويل عنهم لأن علم التنزيل والتأويل فى أيديهم وما جاء عنهم - عليهم السلام - فهو النور والهدى، وما جاء من غيرهم فهو الظلمة والعمى، والعجب كل العجب من علماء علمى المعانى والبيان حيث زعموا أن معرفة هذين العلمين يُطلع على مكنون سر الله، جل جلاله،

من تأويل القرآن. قال بعض أئمتهم: «ويل ثم ويل، ثم ويل لمن تعاطى التفسير وهو فى هذين العلمين راجل، وذلك أنهم ذكـروا أن العلمين مأخوذان من استقراء تراكيب كلام العرب البـلغاء، باحثان عن مقـتضيات الأحـوال والمقام كالحـذف، والإضمار، والفصل، والوصل، والحقيقة، والمجاز، وغير ذلك.

ولا ريب أن محل ذلك من كتاب الله، جل جلاله، يحتاج معرفته إلى العلم به من أهل التنزيل والتـأويل، وهم أهل البيت - عليـهم السلام - الذين علَّمـهم الله سبـحانه وتعالى، فـلا ينبغي معرفـة ذلك إلا منهم، ومَن تعاطى معـرفته من غـيرهم ركب متن عمياء، وخبط خبط عشواء، فماذا بعد الحق إلا الضلال، فأنى تُصرفون؟».

مصادر البحراني فى تفسيره وحملته على تفاسير أهل السنة:

يقول البحراني فى مقـدمته: «وقد كنت أولاً قد جمعت فى كتـاب «الهادى» كثيراً من تفسير أهل البيت - عليـهم السلام - قبل عثوري على تفسير الشيخ الثـقة محمد بن العبـاس بن ماهيـار المعروف بابن الحجـام ما ذكره عنه الشيخ الفاضل شرف الدين النجفي وغيرهما من الكتب الآتي ذكرهـا في البـاب الخامس عشر في ذكـر الكتب المأخوذ منها الكتـاب وذكر مصنفيـها فى مقـدمة الكتـاب، وهذه الكتب من الكتب المعتمد عليها، والمعول والمرجع إليها، مصنفوها مشايخ معتبرون، وعلماء منتجبون، وربما ذكرت في الكتاب التفسير عن ابن عباس على قلة إذ هو تلميذ مولانا أمير المؤمنين - عليه السلام - وربما ذكرت التفسـير من طريق الجمهور إذا كان موافقًا لرواية أهل البيت - عليـهم السلام - أو كان فى فـضل أهل البيت عليـهم السلام. . . عن ابن عباس عن النبي ﷺ قـال: «القرآن أربعة أرباع: فربع فينا أهل البـيت خاصة، وربع حلال، وربع حرام، وربع فرائض وأحكام، والله أنزل فينا كرائم القرآن». والعجب من مصنفي تفسير الجمهور مـع روايتهم هذه الرواية أنها لم يذكروا إلا القليل في تفاسيرهم من فضل أهل البـيت ولا سيـما متأخري [هـكـذا] مفـسريهم كـصاحب الكـشاف والبيضاوى.

ثم إن لم أعثر على تفسير الآية من صريح رواية مسندة عن أهل البـيت ذكرت ما

ذكره الشـيخ أبو الحسن علىّ بن إبراهيم الثـقة فى تفسـيره، إذ هو منسـوب إلى مولانا وإمامنا الصادق ـ عليه السلام».

مدح البحرانى لتفسيره:

ثم قال البـحرانى ـ مادحًا كـتابه: «وكتـابى هذا يُطلعك على كثيـر من أسرار علم القرآن، ويرشدك إلى مـا جهله متعـاطى التفسير من أهل الزمـان، ويوضح لك عن ما ذكره من العلوم الشرعـية والقصص والأخبار الـنبوية وفضائل أهل البيت الإمـامية، إذ صار كتابًا شافيًـا ودستورًا وافيًا ومرجعًا كافيًا، حُـجة فى الزمان، وعينًا من الأعيان، إذ هو مأخوذ من تأويل أهل التنزيل والتـأويل الذين نزل الوحى فى دارهم عن جبريل عن الجليل، أهل بيت الرحمة، ومنبع العلم والحكمة، صلى الله عليهم أجمعين».

السبب الداعى لهذا التأليف:

ثم ذكر المؤلف أنه ألف تفـسيره خدمة للسلطان «شاه بهـادر خان» الذى أثنى عليه بالغ الثناء، ووصل نسبـه بنسب المصطفى عليه السلام، ثم قـال: «واعلم أيها الراغب فيمـا جاء عن أهل البيت ـ عليهم السـلام ـ من التفسيـر، والطالب لما سنح منهم من الحق المنير، أنى قد جمعت ما فى تفسير «الهادى ومصباح النادى» الذى ألفته أولاً إلى زيادات هذا الكتـاب ليعم النفع ويسـهل أخذه على الطلاب، إن فى ذلك لعـبرة الأولى الألباب، وشفـاء للمؤمنين، ونورًا لمن استضـاء به من خُلَّص الأصحاب، فهـو كتاب عليه المـعول، وإليه المـرجع لا تفاسير الجمـهور، فهـذا التفسـير الظل وتفاسـيرهم الحرور».

المنهج التفصيلى للبحرانى:

ثم ذكر البحـرانى فى مقدمة كتابه أبوابًا عـدَّة توضح منهجه الذى نهجه لنفـسه فيه وسار عليه، كما تكشف لنا عن نظرته لكتاب الله ومـوقفه من تفسيره، تلك النظرة التى لا نشك أنها نظـرة رجل ينظر إلى القرآن من خلال عـقيدتـه، وذلك الموقف الذى لا نرتاب فى أنه موقف من أغـراه مذهبه وخدعه هواه، وراح يؤيد آراءه بـأحاديث يرويها عن أهل البيت، كلها ـ فيما نعتقد، ويظهر من أسلوبها ـ من وضع الشيعة.

يقول البحرانى: «إنى جعلت قبل المقصود مقدمة فيها أبواب تشتمل على فوائد فى

الكتاب، وسميته «البرهان فى تفسير القرآن» وهو قد اشتمل على كثير من أهل البيت - عليـهم السلام - الـذين نزل القرآن فى منازلـهم، فمـرجع تنزيله وتأويله إليـهم، والله سبحانه نسأل أن يجعل محيانا محياهم، ومماتنا مماتهم، وهو حسبنا ونعم الوكيل».

ثم ذكر عدة أبواب:

الباب الأول: فى فضل العالم والمتعلم.

الباب الثانى: فى فضل القرآن.

الباب الـثالث: فى الثقلين، وهما كتاب الله والعترة، ويعنى بالعترة: الأئمة الاثنى عشـر، كمـا صرح بذلك فى الحـديث الثالث رواية عن على، وقـيل: أهل بيت النبى ﷺ عامة.

والباب الرابع: فى معنى الثقلين من طريق المخالفين، وفى أنه ما من شىء يحتاج إليه العباد إلا وهو فى القرآن وفيه تبيان كل شىء.

والبـاب الخـامس: فى أن القرآن لم يجمعه كـما أُنزل إلا الأئمة - عليهم السلام - وعندهم تأويله، وذكر أحاديث منها: عن أبى عبد الله قال: «إنا أهل بيت لم ينبعث منا إلا من يعلم كتابه من أول إلى آخره».

وعن أبى عبد الله أيضًا قال: «والله إنى لأعلم كتاب الله من أوله إلى آخره كأنه فى كفى، فيه خبـر السماء وخبر الأرض وخبر ما كان وخبـر ما هو كائن، قال الله تعالى: ﴿تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾[1] (النحل: ٨٩).

وعن يعقوب بن جعفر قال: «كنت مع أبى الحسن - عليه السلام - بمكة، فقال له رجل: إنك لتفسر من كـتاب الله ما لم يُسمع، فقال: علينا نزل قـبل الناس، ولنا فُسر قـبل أن يُفسر فى الـناس، فنحـن نعلـم حـلاله وحـرامـه، وناسـخـه ومنسـوخـه، وسـفريه وحـضريه، وفى أى ليلة نزلت من آية، وفيـمن نزلت، فنحن حكماء الله فى أرضه، وشهداؤه على خلقه، وهو قوله تبارك وتعالى: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ (الزخرف: ١٩)، فالشهادة لنا والمسألة للمشهود عليه، فهذا قد أنهيته».

وعن أبى عبـد الله قال: «إنا أهل البـيت لم يزل الله يبعث منا من يعلم كـتاب من

---

(١) فى المطبوع: «فيه تبيان كل شىء» وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه.

أوله إلى آخره، وإن عندنا من حلاله وحرامه ما يسعنا كتمانه ما نستطيع أن نحدث به أحدًا».

والباب السادس: في النهي عن تفسير القرآن بالرأي والنهي عن الجدال، ويروى فيه: «عن زيد الشحام قال: دخل قتادة بن دعامة على أبي جعفر - عليه السلام - فقال: يا قتادة، أنت فقيه أهل البصرة؟ فقال: هكذا يزعمون، فقال أبو جعفر: بلغني أنك تفسر القرآن، قال له قتادة: نعم، فقال له أبو جعفر: فإن كنت تفسره بعلم فأنت أنت وأنا أسألك، قال قتادة: سل، قال: أخبرني عن قول الله عز وجل في سبأ: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ (سبأ: ١٨) فقال قتادة: ذاك من خرج من بيته بزاد وراحلة وكراء حلال يريد هذا البيت كان آمنًا حتى يرجع إلى أهله، فقال أبو جعفر: ناشدتك الله يا قتادة، هل تعلم أنه قد يخرج الرجل من بيته بزاد حلال وكراء حلال يريد هذا البيت فتقطع عليه الطريق فتذهب نفقته ويُضرب مع ذلك ضربة فيها اجتياحه؟ قال قتادة: اللهم نعم، فقال أبو جعفر: ويحك قتادة، إن كنت إنما فسرت القرآن من تلقاء نفسك فقد هلكت وأهلكت، وإن كنت قد أخذته من الرجال فقد هلكت وأهلكت، ويحك يا قتادة، ذلك من خرج من بيته بزاد وراحلة وكراء حلال يروم هذا البيت عارفًا بحقنا، يهوانا قلبه كما قال الله عز وجل: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ (إبراهيم: ٣٧)، ولم يعن البيت فيقول: «إليه»، فنحن والله دعوة إبراهيم - عليه السلام - التي من هواها قُبلت حجته وإلا فلا، يا قتادة، فإن كان كذلك كان آمنًا من عذاب جهنم يوم القيامة، قال قتادة: لا جرم والله لا فسرتها إلا هكذا، فقال أبو جعفر: ويحك يا قتادة، إنما يعرف القرآن من خوطب به».

والباب السابع: في أن القرآن له ظهر وبطن، وعام وخاص، ومحكم ومتشابه، وناسخ ومنسوخ، والنبي ﷺ وأهل بيته يعلمون ذلك، وهم الراسخون في العلم، وروى فيه عن أبي جابر قال: سألت أبا جعفر عن شيء في تفسير القرآن فأجابني، ثم سألته ثانية فأجابني بجواب آخر، فقلت: جُعلتُ فداك، كنت أجبت في هذه المسألة بجواب غير هذا قبل اليوم، فقال لي: يا جابر، إن للقرآن بطنًا، وللبطن بطنًا وظهرًا، وللظهر ظهرًا، يا جابر، وليس شيء أبعد من عقول الرجال من تفسير القرآن، إن الآية

لتكون أولها فى شىء وأوسطها فى شىء وآخرها فى شىء، وهو كلام متصل ينصرف على وجوه».

وروى فيه أيضًا عن حماد بن عثمان قال: قلت لأبى عبد الله ـ عليه السلام: إن الأحاديث تختلف عنكم، قال: فقال: إن القرآن نزل على سبعة أحرف، وأدنى للإمام أن يفتى على سبعة وجوه، ثم قال: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (سورة ص: ٣٩) ».

والباب الثامن: فيما نزل عليه القرآن من الأقسام. وروى فيه: «عن أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ قال: «أنزل القرآن أثلاثًا: ثلث فينا وفى عدونا، وثلث سنن وأمثال، وثلث فرائض وأحكام».

والباب التاسع: فى أن القرآن نزل بـ «إياك أعنى واسمعى يا جارة» وروى فيه: «عن أبى عبد الله قال: نزل القرآن بـ «إياك أعنى واسمعى يا جارة»، ثم قال الكلينى: وفى رواية أخرى عن أبى عبد الله ـ عليه السلام ـ معناه: ما عاتب الله عز وجل به نبيه ﷺ فهو يعنى به ما قد مضى فى القرآن مثل قوله: ﴿وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً﴾ (الإسراء: ٧٤) ».

والباب العاشر: فيما عنى به الأئمة فى القرآن.

وروى فيه: «عن أبى جعفر قال: إذا سمعت الله ذكر أحدًا من هذه الأمة بخير فهم نحن، وإذا سمعت الله ذكر قومًا بسوء ممن مضى فهم عدونا».

«وروى عن أبى عبد الله قال: لو قرئ القرآن كما أُنزل لألفيتنا فيه مُسمين».

«وعن أبى جعفر قال: لولا أن زيد فى كتاب الله ونقص منه ما خفى حقنا على ذى الحجى، ولو قد قام قائمنا فنطق صدقه القرآن».

«وروى عن داود بن فرقد قال: قلت لأبى عبد الله ـ عليه السلام: أنتم الصلاة فى كتاب الله عز وجل، وأنتم الزكاة، وأنتم الحج؟ فقال: يا داود، نحن الصلاة فى كتاب الله عز وجل، ونحن الزكاة، ونحن الصيام، ونحن الحج، ونحن الشهر الحرام، ونحن البلد الحرام، ونحن كعبة الله، ونحن قبلة الله، ونحن وجه الله، ونحن الآيات، ونحن البينات، وعدونا فى كتاب الله الفحشاء والمنكر والبغى والخمر والميسر والأنصاب والأزلام والأصنام والأوثان والجبت والطاغوت والميتة والدم ولحم الخنزير، يا داود،

إن الله خلقنا وأكرم خلقنا، وفضَّلنا، وجعلنا أمناءه وحفظته وخزانه على ما فى السموات وما فى الأرض، وجعل لنا أضداداً وأعداء، فسمانا فى كتابه وكنى عن أسمائنا بأحسن الأسماء وأحبها إليه تكنية عن العدو، وسمى أضدادنا وأعداءنا فى كتابه، وكنى عن أسمائهم، وضرب لهم الأمثال فى كتابه فى أبغض الأسماء إليه وإلى عباده المتقين».

والباب الحادى عشر: فى معنى الباب العاشر.

والباب الثانى عشر: فى معنى الثقلين والخليفتين من طريق المخالفين.

والباب الثالث عشر: فى العلة التى من أجلها أنّ القرآن باللسان العربى، وأن المعجز فى نظمه، ولم صار جديداً على مر الأزمان.

والباب الرابع عشر: فى أن كل حديث لا يوافق القرآن فهو مردود.

والباب الخامس عشر: فى أول سورة نزلت وآخر سورة.

والباب السادس عشر: فى ذكر الكتب المأخوذ منها الكتاب، وعدَّ ما يزيد عن ستين كتابًا منها ما هو فى التفسير كتفسير الحسن العسكرى، والطوسى، والطبرسى، والزمخشرى، ومنها ما هو فى الحديث كالكافى، ومن لا يحضره الفقيه، والاستبصار، ومنها ما هو فى المناقب، ومنها ما هو فى الزهد والمواعظ.

ثم ذكر أن فى القرآن ناسخًا ومنسوخًا، ومحكمًا ومتشابهًا، وعامًا وخاصًا.. إلخ، وذكر أمثلة لكل ذلك.

ثم ذكر أن فى القرآن ما هو على خلاف ما أنزل الله، وضرب مثلا لذلك قوله تعالى: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**﴾ (آل عمران:١١٠): «قال أبو عبد الله لقارئ هذه الآية: خير أمة يقتلون أمير المؤمنين - عليه السلام - والحسن والحسين - ابنى علىٍّ - عليهم السلام؟ فقيل له: وكيف أُنزلت يا بن رسول الله؟ فقال: إنما نزلت: «كنتم خير أئمة أخرجت للناس» ألا ترى مدح الله لهم فى آخر الآية: ﴿**تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**﴾».

«ومثله انه قرئ على أبى عبد الله: ﴿**وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا**﴾ (الفرقان: ٧٤)، فقال أبو عبد الله: لقد سألوا الله عظيمًا أن

يجعلهم للمتقين إمامًا، فـقيل له: يا بن رسول الله، كيف نزلت هذه الآية؟ فقال: إنما نزلت: «الذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعل لنا من المتقين إمامًا».

«وقوله: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ (الرعد: ١١)، فقال أبو عبد الله: كيف يحفظ الشىء من أمر الله؟ وكيف يكون المعقب من بين يديه؟ فقيل له: وكيف يكـون ذلك يا بن رسول الله؟ فقـال: إنما نزلت: «له مـعقبـات من خلف ورقيب من بين يديه يحفظونه بأمر الله». قال: ومثله كثير».

ثم ذكر ما هو محرف فى القرآن، وذكـر من أمثلة ذلك قوله: «لكن الله يشهد بما أنزل إليك فى على» كذا أنزلت ﴿أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾».

وقولـه: « يا أيها الرسـول بلغ ما أُنزل إليك فى علىٍّ من ربك وإن لـم تفعل فـما بلَّغت رسالته».

وقوله: «إن الذين كفروا وظلموا آل محمد لم يكن الله ليغفر لهم».

وقوله: « وسيعلم الذين ظلموا آل محمد أى منقلب ينقلبون».

وقوله: «ولو تـرى الذين ظلموا آل مـحمد حـقهم فى غـمرات المـوت». قال: «ومثله كثير نذكره فى مواضعه».

ثم ذكر أن بعض الآيات فى سورة وتمامها فى سورة أخرى، فقوله فى سورة البقرة فى قصة بنى إسرائيل «حـين عبر بهم موسى البحر وأغرق الله فـرعون وأصحابه وأنزل موسى بنى إسرائيل (هكذا) وأنزل عليهم المن والسلوى فقالوا لموسى: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ (البقرة: ٦١)، فقال لهم موسى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾، فقالوا له: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ (المائدة: ٢٢)، فنصف الآية فى سورة البقرة، ونصفها فى سورة المائدة».

وقوله تعالى: ﴿اكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ (الفرقان: ٥)، فرد عليهم: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٨)،

فنصف الآية فى سورة الفرقان ونصفها فى سورة العنكبوت. قال: ومثله كثير نذكره فى مواضعه إن شاء الله».

ثم ذكر أن فى القرآن ردًا على الزنادقة والثنوية وعبدة الأوثان والدهرية والمعتزلة و. . و. . . و. . . وعلى من أنكر الرجعة، وهنا عرض لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ (النمل: ٨٣) فروى: «عن حماد عن أبى عبد الله قال: ما يقول الناس فى هذه الآية: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾؟ يقولون إنها فى القيامة؟ قال: ليس كما يقولون، إن ذلك فى الرجعة، يحشر الله فى القيامة من كل أمة فوجًا ويدع الباقين؟ إنما آية يوم القيامة قوله: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ (الكهف: ٤٧) وقوله: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (الأنبياء: ٩٥) فقال الصادق ـ عليه السلام: كل قرية أهلك أهلها بالعذاب لا يرجعون فى الرجعة وأما فى القيامة فيرجعون، والذين محضوا الإيمان محضًا وغيرهم ممن لم يهلكوا بالعذاب ومحضوا الكفر محضًا يرجعون».

«روى عن أبى عبد الله فى قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ﴾ (آل عمران: ٨١)، قال؟: ما بعث الله نبيًا من لدن آدم إلا ويرجع إلى الدنيا فينصر أمير المؤمنين، وهو قوله: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ﴾ يعنى رسول الله ﷺ ﴿وَلَتَنصُرُنَّهُ﴾ يعنى أمير المؤمنين».

«وروى عن معمر بن شمر قال: ذكر عند أبى جعفر ـ عليه السلام ـ جابر، فقال: رحم الله جابرًا، لقد بلغ من علمه أنه كان يعرف تأويل هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ (القصص: ٨٥)، يعنى الرجعة، قال: ومثله كثير نذكره فى مواضعه».

وفى خاتمة الكتاب ذكر أبوابًا هى:

الباب الأول: فى أن المعوذتين من القرآن.

والباب الثانى: فى رد متشابه القرآن إلى تأويله، وساق أمثلة كثيرة من الآيات التى توهم الاختلاف والتناقض ووفق بينها بما يتفق مع اللغة والشرع تارة، وبما يتفق مع مذهبه الشيعى تارة أخرى.

والباب الثالث: فى فضل القرآن، وساق فيه رواية عن علىٍّ ـ عليه السلام ـ أنه

قال: «والذى بعث محمداً ﷺ بالحق، وأكرم أهل بيته، ما من شىء تطلبونه من حرز: من حرق أو غرق أو سرق أو إفلات دابة من صاحبها أو ضالة أو آبق إلا وهو فى القرآن، فمن أراد ذلك فليسألنى عنه». ثم ذكر أن رجالا سألوا عليّا عما يؤمنهم من الغرق والحرق وغير ذلك، فكان ـ عليه السلام ـ يعلم كل واحد من القرآن ما يدفع عنه هذا المكروه، فى روايات متعددة.

والباب الرابع: فى أن حديث أهل البيت صعب مستصعب، وساق روايات متعددة فى هذا المعنى، منها: «عن أبى جعفر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن حديث آل محمد ﷺ صعب متصعب لا يؤمن به إلا ملك مقرب، أو نبى مرسل، أو عبد امتحن الله قلبه للإيمان، فما ورد عليكم من حديث آل محمد ﷺ فلانت له قلوبكم وعرفتموه فاقبلوه، وما اشمأزت منه قلوبكم وأنكرتموه فردوه إلى الله وإلى الرسول وإلى العالم من آل محمد، وإنما الهالك أن يحدث أحدكم بشىء منه لا يحتمله فيقول: والله ما كان هذا، والله ما كان هذا، والإنكار هو الكفر».

الباب الخامس: فى وجوب التسليم لأهل البيت فيما جاء عنهم ـ عليهم السلام ـ وساق روايات كثيرة. . . منها:

«عن أبى سفيان بن السمط قال: قلت لأبى عبد الله ـ عليه السلام: جُعلتُ فداك، يأتينا الرجل من قبلكم يعرف بالكذب فيحدث بالحديث فنستبشعه، فقال أبو عبد الله ـ عليه السلام: يقول لك: إنى قلت الليل إنه نهار والنهار إنه ليل؟ قلت: لا، قال: «فإن قال لك هذا أنى قلته فلا تكذب به فإنك إنما تكذبنى».

«وروى عن على بن سويد عن أبى الحسن الأول ـ عليه السلام ـ أنه كتب إليه فى رسالته: ولا تقل لما يبلغك عنا أو ينسب إلينا: هذا باطل، وإن كنت تعرف خلافه، فإنك لا تدرى لم قلناه وعلى أى وجه وضعناه».

«وروى عن كامل التمار عن أبى جعفر قال: كنت عنده فهو يحدثنى إذ نكس رأسه إلى الأرض فقال: قد أفلح المسلمون، إن المسلمين هم النجباء، يا كامل: الناس كلهم بهائم إلا قليلا من المؤمنين، والمؤمن غريب».

ثم قال المؤلف:

«ثم اعلم أيها الأخ فى الدين، والطالب للحق المستبين، والراغب فى علوم أهل

اليقين محمد وآله والأئمة الراشدين والأمناء المعصومين حجة الله على الخلق أجمعين، وأفضل الأولين والآخرين، فقد اشتمل الكتاب على كثير من الروايات عنهم - عليهم السلام - فى تفسير كتاب الله العزيز، وانطوى على الجم الغفير من فضلهم، وما نزل فيهم - عليهم السلام - واحتوى على كثير من علوم الأحكام والآداب؛ وقصص الأنبياء، وغير ذلك مما لا يحتويه كتاب، إن فى ذلك لعبرة لأولى الألباب، فليس لأحد أن يعمل بتفسير المخالفين بعد إظهار الحق وزهوق الباطل، والالتماس من الإخوان الناظرين فى هذا الكتاب - إن صح عندهم ما هو أصح من الأصول التى أخذت منها هذا الكتاب - فليصلحوا ما تبين فيه من الخلل، لأن بعض الكتب التى أخذت منها هذا الكتاب كتفسير على بن إبراهيم وكان يحضرنى فيه نسخ عديدة، والعياشى وكان يحضرنى منه نسختان من أول القرآن إلى آخر سورة الكهف، فأصلحت وصححت بحسب الإمكان من ذلك، والله سبحانه هو الموفق».

ثم ذكر اصطلاحاته ورموزه إلى من نقل عنهم، ثم ذكر أن كتابه هذا مبنى على كتب المشايخ الثلاثة: الشيخ محمد بن يعقوب الكلينى، والشيخ محمد بن على بن الحسين ابن بابويه، الشيخ محمد بن الحسن الطوسى، ثم ذكر طريقه إليهم.

وجاء فى آخر الكتاب ما نصه:

«وكان الفراغ من تسويد هذا الكتاب المبارك المسمى بـ «البرهان فى تفسير القرآن» على يد مؤلفه الفهامة العلامة بحر العلوم الكامل العالم السيد هاشم ابن السيد سليمان ابن السيد إسماعيل ابن السيد عبد الجواد الحسينى البحرانى لخزانه مؤلفه (هكذا) وفقه الله تعالى لتأليف مثله بحق محمد وآله - باليوم الثالث من شهر ذى الحجة الحرام سنة الخامسة والتسعين بعد الألف من الهجرة المحمدية، على مهاجرها وآله الصلاة والسلام».

وبعد .. فهذه أهم آراء المصنف التى يراها فى القرآن وتفسيره ومفسِّريه، والتى توضح لك مقدار غلوه وتطرفه، ذلك الغلو والتطرف الذى يريد صاحبه من ورائه أن يحجب نور الحق ويطمس معالمه.

وإليك بعض الأمثلة من تفسيره:

ولايـــة على وفضائله:

والبحـرانى يدين بولاية علىٍّ ﷺ وإمامـته، وهو يلوى الآيات ليـدلل على ذلك، فعند تفسير قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الفاتحة: ٦) قال البحرانى: «روى عن أبى عبد الله قال: الطريق هو معرفة أمير المؤمنين، ومعرفة الإمام».

وفى رواية أخرى عنه: «قال: هو أمير المؤمنين ـ عليـه السلام ـ ومعرفته، والدليل على أنه أمير المؤمنين قوله: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ (الزخرف: ٤)، وهو أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ فى أم الكتاب فى قوله: ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾ (الفاتحة: ٧) يقول: «وعن أبى عبد الله قال: المغضوب عليهم الغصاب، والضالين الشكاك الذين لا يعرفون الإمام».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (البقرة: ٧)، روى عن الإمام العسكرى قال: «قال رسول الله ﷺ: «أيكم وقى بنفسه نفس رجل مؤمن البارحة»؟ فقال على ـ عليه السلام: أنا هو يا رسول الله، وقيت بنفسى نفس ثابت بن قيس بن شماس الأنصارى.

فقـال رسول الله ﷺ: «حدِّث بالقـصة إخوانك المـؤمنين ولا نكشف عن اسم المنافقين الكائدين لنا فقد كفاكم الله شرهم وأخرهم للتوبة لعلهم يتذكرون أو يخشون».

فقـال على ـ عليه السـلام: إننى بينا أسيـر فى بنى فلان بظاهر المـدينة وبين يدى بعـيدًا مِنِّى ثابت بن قـيس، إذ بلغ بئرًا عـارية قديمـة بعيـدة القعـر، وهناك رجل من المنافقين فدفعـه ليرميه فى البئر، فتماسك ثابت بى، ثم عاد فـدفعه، والرجل لا يشعر بى حتى وصلت إلـيه وقد اندفع ثابت فى البـئر، فكرهت أن أشـتغل بطلب المنافـقين خوفًا على ثابت، فوقعت فى البئر لعلى آخذه، فنظرت فإذا أنا قد سبقته إلى قرار البئر.

فقال رسول الله ﷺ: «كيف لا تـسبقه وأنت أرزن منه، ولو لم يكن من رزانتك إلا ما فى جوفك من علم الأولين والآخـرين الذى أودع الله ورسوله لكان من حقك أن تكون أرزن من كل شىء، فيكف كان حالك وحال ثابت؟».

قال: يا رسول الله، فصرت إلى البئر واستقررت قائمًا وكان ذلك أسهل علىَّ وأخف على رجلى من خطاى التى كنت أخطوها رويدًا رويدًا، ثم جاء ثابت فانحدر فوقع على يدىَّ وقد بسطتها إليه، وخشيت أن يضرنى سقوطه علىَّ أو يضره، فما كان إلا كطاقة ريحان تناولتها بيدىَّ، ثم نظرت فإذا ذلك المنافق ومعه آخرون على شفير البئر وهو يقول لهما: أردنا واحدًا فصارا اثنين، فجاءوا بصخرة فيها مائة «من» فأرسلوها، فخشيت أن تصيب ثابتًا فاحتضنته وجعلت رأسه إلى صدرى وانحنيت عليه، فوقعت الصخرة على مؤخر رأسى فما كانت إلا كترويحة بمروحة تروحت بها فى حمارة القيظ، ثم جاءوا بصخرة أخرى فيها قدر ثلاثمائة «من» فأرسلوها علينا، وانحنيت على ثابت فأصابت مؤخرة رأسى، فكان كماء صُب على رأسى وبدنى فى يوم شديد الحر، ثم جاءوا بصخرة ثالثة فيها قدر خمسمائة «من» يديرونها على الأرض، لا يمكنهم أن يقلبوها، فأرسلوها علينا، فانحنيت على ثابت فأصابت مؤخر رأسى وظهرى، فكانت كثوب ناعم صببته على بدنى ولبسته فنعمت به، فسمعتهم يقولون: لو أن لابن أبى طالب وابن قيس مائة ألف روح ما نجت منها واحدة من بلاء هذه الصخور، ثم انصرفوا، فدفع الله عنا شرهم، فأذن الله لشفير البئر فانحط، ولقرار البئر فارتفع، فاستوى القرار والشفير بعد بالأرض، فخطونا وخرجنا.

فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا الحسن، إن الله عز وجل أوجب لك من الفضائل والثواب ما لا يعرفه غيره، ينادى مناد يوم القيامة: أين محبو على بن أبى طالب؟ فيقوم قوم من الصالحين فيقال لهم: خذوا بأيدى من شئتم من عرصات يوم القيامة فأدخلوهم الجنة، وأقل رجل منهم ينجو بشفاعته من أهل تلك العرصات ألف ألف رجل، ثم ينادى مناد: أين البقية من محبى على بن أبى طالب؟ فيقوم قوم مقتصدون، فيقال لهم: تمنوا على الله ما شئتم، فيتمنون، فيفعل بكل واحد منهم ما تمناه ثم يضعف له مائة ألف ضعف، ثم ينادى مناد: أين البقية من محبى على بن أبى طالب؟ فيقوم قوم ظالمون لأنفسهم معتدون عليها، ويقال: أين المبغضون لعلى بن أبى طالب؟ فيؤتى بهم جمٌّ غفير وعددٌ كثير، فيجعل كل ألف من هؤلاء فداء لواحد من محبى على بن أبى طالب - عليه السلام - ليدخلوا الجنة، فينجى الله عز وجل محبيك ويجعل أعداءهم فداءهم».

ثم قال رسول الله ﷺ لعلى ـ عليه السلام: «انظر»، فنظر إلى عبد الله بن أبى وإلى سبعة من اليهود، قال: قد شاهدت، ختم الله على قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم، فقال رسول الله ﷺ: «أنت يا على أفضل شهداء الله فى الأرض بعد محمد رسول الله ﷺ»، قال: فذلك قوله: ﴿**خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ**﴾ تبصرهم الملائكة فيعرفونهم بها، ويبصرها رسول الله ﷺ، ويبصرها خير خلق الله بعده على بن أبى طالب ـ عليه السلام، ثم قال: ﴿**وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ (البقرة:٧) فى الآخرة: ﴿**بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ**﴾ (البقرة:١٠) من كفرهم بالله وكفرهم بمحمد رسول الله ﷺ».

وعند قوله تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ**﴾ (البقرة: ٨) «يروى عن جعفر الصادق أنه قال: إن رسول الله ﷺ لما أوقف أمير المؤمنين على بن أبى طالب ـ عليه السلام ـ فى يوم الغدير موقفه المشهور المعروف، ثم قال: «يا عباد الله، انسبونى»، فقالوا: أنت محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، ثم قال: «أيها الناس ألست أولى بكم من أنفسكم؟ فأنا مولاكم، أولى بكم من أنفسكم»؟ قالوا: بلى يا رسول الله، فنظر رسول الله ﷺ إلى السماء فقال: «اللهم إنى أستشهدك بقول هؤلاء» ـ ويقول ذلك ثلاثا ـ ثم قال: «ألا فمن كنت مولاه وأولى به، فهذا مولاه وأولى به، اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه، وانصر من نصره واخذل من خذله»، ثم قال: «قم يا أبا بكر فبايع له بإمرة المؤمنين»، فقام ففعل ذلك وبايع له، ثم قال: «قم يا عمر فبايع له بإمرة المؤمنين»، فقام وبايع له، ثم قال بعد ذلك لتمام التسعة، ثم لرؤساء المهاجرين والأنصار، فبايعوا كلهم، فقام من بين جماعتهم عمر بن الخطاب ـ عليه اللعنة[(١)]، فقال: بخٍ بخٍ لك يا بن أبى طالب، مولاى ومولى كل مؤمن ومؤمنة، ثم تفرقوا عن ذلك وقد وُكِّدت عليهم العهود والمواثيق. ثم إن قومًا من متمردى جبابرتهم تواطئوا بينهم إن كان لمحمد ﷺ كائنة ليدفعن هذا الأمر عن على ـ عليه السلام ـ ولا يتركونه له، فعرف الله ذلك فى

---

(١) هكذا بالأصل المطبوع، وهو يبين منهج المؤلف فى تفسيره وعقيدته فى سب الصحابة، فإلى الله المشتكى.

قلوبهم، وكانوا يأتون رسول الله ﷺ ويقولون: لقد أقمت علينا أحب خلق الله إلى الله وإليك وإلينا، وكفيتنا مؤنة الظلمة والجبابرة فى سياستنا، وعلم الله فى قلوبهم خلاف ذلك مواطأة بعضهم لبعض أنهم على العداوة مقيمون، ولدفع الحق عن مستحقه مؤثرون، فأخبر الله عز وجل محمدًا عنهم فقال: يا محمد: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ**﴾ الذى أمرك بنصب علىٍّ ـ عليه السلام ـ إمامًا وسائسًا لأمتك ومدبرا، ﴿**وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ**﴾ بذلك ولكنهم مواطئون على هلاكه وإهلاكه، يواطئون أنفسهم على التمرد على علىٍّ ـ عليه السلام ـ إن كانت بك كائنة».

ثم ساق تفسير الآيات بعد على هذا النحو الغريب العجيب، وذكر أن «الجبال انقلبت لعلى بن أبى طالب فضة، ثم ذهبًا، ثم مسكا وعنبرًا وجواهر ويواقيت، ونادته أنها مسخرات له فليأمرها بما يشاء، وأنها نادته بأن له عند الله من الشأن العظيم ما لو سأل الله أن يحط السماء إلى الأرض أو ينقل الأرض إلى السماء لفعل... وأن هذا كله وغيره وقع أمام القوم وشاهدوه فمرضت قلوبهم بالإضافة إلى مرض أجسامهم لما شاهدوه من فضل علىٍّ، فقال الله عند ذلك: ﴿**فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا**﴾.. إلخ.

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ...**﴾ الآية (المائدة: ٥٥) يقول ما نصه: «.. عن أبى جعفر ـ عليه السلام ـ قوله عز وجل: ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ**﴾ قال: إن رهطا من اليهود أسلموا، منهم عبد الله بن سلام، وأسيد ابن ثعلبة، وابن يامين، وابن صوريا، فأتوا النبى ﷺ فقالوا: يا نبى الله، إن موسى أوصى إلى يوشع بن نون، فمن وصيك يا رسول الله؟ ومن ولينا بعدك؟ فنزلت هذه الآية: ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ**﴾... إلى قوله: ﴿**وَهُمْ رَاكِعُونَ**﴾ قال رسول الله ﷺ: «قوموا»، فقاموا وأتوا المسجد فإذا سائل خارج فقال: «يا سائل، ما أعطاك أحد شيئًا»؟ قال: نعم؟ هذا الخاتم، قال: «ومن أعطاكه»؟ قال: أعطانيه ذلك الرجل الذى يصلى، قال: «على أى حال أعطاك»؟ قال: راكعًا.. فكبَّر النبى ﷺ وكبَّر أهل المسجد، فقال النبى ﷺ: «على بن أبى طالب وليكم بعدى»، قالوا: رضينا بالله ربا، وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ نبيًا، وبعلى بن أبى طالب وليًا، فأنزل الله عز

وجـل: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (المـائدة: ٥٦) فروى عن عمـر بن الخطاب أنه قال: والله لقد تصدقت بأربعيـن خاتمًا وأنا راكع لينزل الله فىَّ ما نزل فى على بن أبى طالب ـ عليه السلام ـ فما نزل».

والحديث فيه رائحة الافتراء والكذب على عمر رضي الله عنه.

وعند تفسيـره لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ...﴾ إلـى قـوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (المـائدة: ٦٧) قال ما نصه: «... عن أبى الجارود قال: سمـعتُ أبا جعفر ـ عليه السلام ـ يقول: فـرض الله عز وجل على العباد خمسًا: أخذوا أربعًا وتركوا واحدة، قلت: أتسميهن لى، جُعلتُ فداك؟ فقال: الصلاة، وكان الناس لا يدرون كـيف يعملون، فنزل جـبريل ـ عليه السـلام ـ وقال: يا محـمد أخبرهم بمواقيت صلواتهم، ثم نزلت الزكاة فقال: يا محمد، أخبرهم عن زكاتهم مثل ما أخبـرتهم عن صلاتهم، ثم نزل الصوم فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كـان يوم عاشوراً بعث إلى مَن حـوله من القرى فـصاموا ذلك اليـوم، فنزل شهـر رمضـان بين شعـبان وشوَّال، ثم نزل الحج، فنزل جبريـل فقال: أخبرهم عن حجهم مـثل ما أخبرتهم عن صلاتهم وزكاتهم وصومهم، ثم نزلت الولاية، وإنمـا آتاه ذلك فى يوم الجمعة بعرفة، أنزل الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ (المـائدة: ٣)، وكان كـمال الدين بولاية علىّ بن أبـى طالب، فقـال عند ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنّ أمـتى حديثو عهد بالجاهلية، متى أخبرتهم بهذا فى ابن عمى يقول قائل، ويقول قائل، فقلت فى نفسى من غير أن ينطق به لسانى، فأتتنى عزيمة من الله عز وجل بتلة أوعدنى إن لم أبلغ أن يعذبنى (هكذا العبارة بالأصل) فنزلت: ﴿أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ فأخذ الرسول صلى الله عليه وسلم بيد علىّ ـ عليه السلام ـ فقال:

«يا أيها الناس، إنه لم يكن من الأنبياء فيمن كـان قبلى إلا وقد عمَّره الله تعالى ثم دعاه فـأجابه، فـأوشك أن أُدعَى فأجـيب، وأنا مسـئول وأنتـم مسئـولون، فمـاذا أنتم قائلون؟» فـقالوا: نشهد أنك قـد بلغتَ ونصحتَ وأديتَ ما عليك، فجـزاك الله أفضل جزاء المرسلين، فقال: «اللهم اشهد» ثلاث مرات ـ ثم قال: «يا معشر المسلمين، هذا

وليكم من بعدى، فليبلغ الشاهد منكم الغائب» قال أبو جعفر ـ عليه السلام: كان ـ والله ـ أمينًا على خلقه وعيبة علمه ودينه الذى ارتضاه لنفسه، ثم إن رسول الله ﷺ حضره الذى حضره فدعا عليًا فقال: «يا على، إنى أريد أن أئتمنك على ما ائتمننى الله عليه من غيبة علمه ومن خلقه ومن دينه الذى ارتضاه لنفسه، فلم يشرك والله فيها ـ يا زياد ـ أحدًا من الخلق، ثم إن عليًا حضره الذى حضره فدعا ولده، وكانوا اثنى عشر ذكرًا، فقال لهم: يا بنىّ، إن الله عز وجل قد أبى إلا أن يجعل فىَّ سُنَّة من يعقوب، وإن يعقوب دعا ولده، وكانوا اثنى عشر ذكرًا فأخبرهم بصاحبهم، ألا إنى أخبركم بصاحبكم، ألا إن هذين ابنا رسول الله ﷺ: الحسن والحسين، فاسمعوا لهما وأطيعوا، ووازروهما، فإنى قد ائتمنتهما على ما ائتمننى عليه رسول الله ﷺ مما ائتمنه الله عليه من خلقه ومن غيبه ومن دينه الذى ارتضاه لنفسه، فأوجب الله لهما من علىٍّ ـ عليه السلام ـ ما أوجب لعلىٍّ من رسول الله ﷺ، فلم يكن لأحد منهما فضل على صاحبه إلا بكبره، وإن الحسين ـ عليه السلام ـ كان إذا حضر الحسن ـ عليه السلام ـ لم ينطق فى ذلك المسجد حتى يقوم، ثم إن الحسن حضره الذى حضره فسلم ذلك إلى الحسين، ثم إن حسينًا حضره الذى حضره فدعا ابنته الكبرى فاطمة بنت الحسين ـ عليها السلام ـ فدفع إليها كتابًا ملفوفًا ووصية ظاهرة، وكان على بن الحسين ـ عليه السلام ـ مبطونًا لا يرون إلا أنه لِمَا به، فدفعت فاطمة الكتاب إلى على بن الحسين ـ عليه السلام ـ ثم صار ـ والله ـ ذلك الكتاب إلينا».

وبدهى أن هذا الاتجاه فى تفسير ما سبق من الآيات إنما دفع قائليه إليه ما يعتقده فى الإمامة والأئمة.

ولسنا بحاجة إلى الإطالة فى إبطال هذا الاتجاه، بعدما أثبت لنا علماء الحديث ونقاده، أن كل الروايات فى ولاية علىٍّ ليس لها أساس من الصحة، وأنها من وضع الشيعة أنفسهم ليروجوا بها مذهبهم فى الإمامة والأئمة.

التحريف والنقص فى القرآن:

ولما كان البحرانى من غلاة الشيعة الذين يقولون بتحريف القرآن فنراه عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾ (آل عمران: ٣٣) يقول ما نصه:

«الشيخ فى أماليه عن أبى محمد الفحام قال: حدثنى محمد بن عيسى عن هارون قال: حدثنى جعفر بن محمد ـ عليه السلام ـ يقرآ (هكذا): «إن الله اصطفى آدم ونوحًا وآل إبراهيم وآل عمران وآل محمد على العالمين» قال: هكذا نزلت.

«على بن إبراهيم قال العالم عليه السلام: نزل: «آل عمران وآل محمد على العالمين» فأسقطوا آل محمدا من الكتاب».

نزول القرآن فى آل البيت:

يقول البحرانى عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ...﴾ (المائدة: ١) «عن عكرمة أنه قال: ما أنزل الله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلا ورأسها على بن أبى طالب ـ عليه السلام».

«عن عكرمة عن ابن عباس قال: «ما نزلت آية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلا وعلى شريفها وأميرها، ولقد عاتب الله أصحاب محمد ﷺ فى غير مكان، وما ذكر عليا إلا بخير».

«وفى صحيفة الرضا ـ عليه السلام ـ قال: ليس فى القرآن آية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلا فى حقنا».

فضائل أهل البيت والأئمة والشيعة:

فمثلاً، نجد كثيرًا من آيات القرآن لها معان خاصة، ولا صلة لها بأهل البيت، ولا بما لهم من مناقب وشمائل، ولكنا نجد صاحبنا يتأثر بمذهبه الشيعى، فيحاول أن يلوى هذه الآيات إلى معان لا صلة لها باللفظ... معان تحمل فى طياتها طابع التعصب المذهبى بصورة مكشوفة مفضوحة.

فمثلا عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ (إبراهيم: ٢٤ وما بعدها)، يقول البحرانى ما نصه:

«... عن عمرو بن حريث قال: سألت أبا عبد الله ـ عليه السلام ـ عن قول الله: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أصلها، وأمير المؤمنين فرعها، والأئمة من ذُرِّيتهما أغصانها، وعلم الأئمة ثمرتها،

وشيعتهم المؤمنون ورقـها» هل فى هذا فضل؟ قال: لا والله، قال: والله، وإنَّ المؤمن ليولد فتورق ورقة فيها، وإنَّ المؤمن ليموت فتسقط ورقة منها».

وساق رواية أخرى بعد ذلك وفيهـا: «إن المولود ليولد من شـيعتنا فتـورق ورقة منها، وإن المؤمن ليموت فتسقط ورقة منها».

وفى رواية بعدها قال: «قلت له: جُعلتُ فداك، قوله: ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ قال: هو ما يخرج من الإمام من الحلال والحرام فى كل سنة إلى شيعته».

وقـال: «. . . عن أبى عبـد الله: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ. . .﴾ الآيتين، قـال: هذا مثل ضربه الله لأهل بيت نبيـه، ولمن عاداهم هو: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾».

وكذلك عند تفسـير قوله تعالـى :﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ (النبـأ: ٣٨) يروى «عن أبـى عـبـد الله أنـه قـال: ﴿لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ قال: نحن والله المأذون لهم يوم القيامة والقائلون صـوابًا، قلت: ما تقولون إذا تكلمـتم؟ قال: نحمد ربنـا ونصلى على نبينا، ونشفع لشيعتنا فلا يردنا ربنا».

الطعن على الصحابة:

والبحـرانى من غلاة الشيـعة، الذين يطعنون على الصـحابة فلذا نراه عند تفسـيره لقوله تعالى فى سورة النساء: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً﴾ (النساء: ١٣٧) يقول ما نصه: «عن أبى عبد الله ـ عليه السلام ـ فى قوله عز وجل: «إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفـرًا لن تقبل توبتـهم» (هكذا فى الأصل) قـال: نزلت فى فلان وفلان وفـلان، آمنوا بالنبى فى أول الأمر وكـفروا حيث عـرضت عليه الولاية حـين قال النبى ﷺ: «من كنت مولاه فعلى مولاه، ثم آمنوا بالبيعـة لأمير المؤمنين، ثم ازدادوا كفرا بأخذهم من بايعهم بالبيعة لهم، فهؤلاء لم يبق فيهم من الإيمان شىء».

الطعن على أبى بكر:

يقول البحرانى عند تفـسير قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ (الرعد: ١٩): «. . . عن مروان عن السدى عن الكلبى عن أبى صالح

عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ قال: علىّ ـ عليه السلام ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ قال: الأول».

الطعن على أبى بكر وعمر:

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ﴾.. إلى قوله: ﴿ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴾ (الكهف: ٣٢ - ٣٧)، قال البحرانى ما نصه: «يروى عن أبى عبد الله أنه قال: دخل أبو بكر على علىٍّ ـ عليه السلام ـ فقال له: إن رسول الله ﷺ لم يحدث إلينا فى أمرك حدثًا بعد يوم الولاية، وأنا أشهد أنك مولاى، مُقِرٌّ بذلك، وقد سلَّمتُ عليك على عهد رسول الله ﷺ بإمرة المؤمنين، وأخبرنا رسول الله ﷺ أنك وصيه ووارثه وخليفته فى أهله ونسائه، ولم يخبرنا بأنك خليفته من بعده، ولا جَرَم لنا فى ذلك فيما بيننا وبينك، ولا ذنب بيننا وبين الله، فقال له ـ عليه السلام: أرأيتك إن رأيت رسول الله ﷺ حتى يخبرك بأنى أولى بالمجلس الذى أنت فيه، وإن لم تنح عنه كفرت، فما تقول؟ فقال: إن رأيت رسول الله ﷺ حتى يخبرنى ببعض هذا اكتفيت به، قال: فوافنى إذا صليت المغرب، قال: فرجع بعد المغرب فأخذه بيده وأخرجه إلى مسجد قباء فإذا رسول الله ﷺ جالس فى القبلة، فقال: «يا عتيق، وثبتَ على علىٍّ ـ عليه السلام ـ وجلستَ مجلس النبوة، وقد تقدمتُ إليك، فانزع هذا السربال الذى تسربلته فخله لعلىٍّ وإلا فموعدك النار»، ثم أخذ بيده فأخرجه، فقام النبى ﷺ عنهما، وانطلق أمير المؤمنين إلى سلمان فقال: يا سلمان، أما علمت أنه كان من الأمر كذا وكذا؟ فقال سلمان: ليشهرن بك وليبد منه إلى صاحبه وليخبرنه بالخبر، فضحك أمير المؤمنين وقال: أما أن يخبر صاحبه فيفعل، ثم قال: لا والله لا يذكرانه أبدًا إلى يوم القيامة مما نظرا إلى نفسهما من ذلك، فلقى أبو بكر عمر فقال: إن عليًا أتى كذا وكذا لموضع كذا وكذا وقال رسول الله ﷺ كذا وكذا. فقال له عمر: ويلك، ما أقل عقلك، فوالله ما أنت فيه الساعة إلا من بعض سحر ابن أبى كبشة، قد نسيتَ بنى هاشم؟ تقلدَ هذه السربال ومَن فيه».

الطعن على عائشة رضي الله عنها:

قال البحرانى عند تفسيرقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ إلى آخره، (النور: ١١): «يروى عن علىّ بن إبراهيم أنه قال: إن العامة روت أنها نزلت فى

عائشة وما رُميت به فى غزاة بنى المصطلق من خزاعة، وأما الخاصة فإنهم رووا أنها نزلت فى ماريا القبطية وما رمتها بها عائشة، ثم قال علىّ بن إبراهيم: حدثنا محمد بن جعفر قال: حدثنا محمد بن عيسى عن الحسن بن علىّ بن فضالة قال: حدثنا عبد الله ابن بكير عن زرارة قال: سمعت أبا جعفر ـ عليه السلام ـ يقول: لما هلك إبراهيم ابن رسول الله ﷺ حزن عليه حزنًا شديدًا، فقالت عائشة: ما الذى يحزنك عليه؟ فما هو إلا ابن جريج، فبعث رسول الله ﷺ عليّا ـ عليه السلام ـ وأمره بقتله، فذهب علىٌّ ـ عليه السلام ـ ومعه السيف، وكان جريج القبطى فى حائط، فضرب علىٌّ ـ عليه السلام ـ باب البستان، فأقبل جريج ليفتح الباب، فلما رأى عليّا ـ عليه السلام ـ عرف فى وجهه الشر فأدبر راجعًا ولم يفتح باب البستان، فوثب علىٌّ ـ عليه السلام ـ على الحائط ونزل إلى البستان وأتبعه، وولى جريج مدبرًا، فلما خشى أن يرهقه صعد فى نخلة فبدت عورته، فإذا ليس له ما للرجال ولا ما للنساء، فانصرف علىٌّ ـ عليه السلام ـ إلى النبى ﷺ فقال له: يا رسول الله، إذا بعثتنى فى الأمر أكون فيه كالمسمار المحمى فى الوبر أم أثبت؟ قال: «بل اثبت» فقال: والذى بعثك بالحق، ما له ما، للرجال ولا ما للنساء، فقال رسول الله ﷺ: «الحمد لله الذى يصرف عنا السوء أهل البيت».

القائـــم:

قال البحرانى عند تفسير قوله تعالى: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِى إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝٣٦ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ۝٣٧ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ (الحجر: ٣٦ - ٣٨): «روى عن وهب بن جميع مولى إسحاق بن عمار قال: سألت أبا عبد الله ـ عليه السلام ـ عن قول إبليس: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِى إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝٣٦ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ۝٣٧ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ قال له وهب: جُعلتُ فداك، أى يوم هو؟ قال: يا وهب أتحسب أنه يوم يبعث الله فيه الناس؟ إنّ الله أنظره إلى يوم يبعث فيها قائمنا، فإذا بعث الله قائمنا كان فى مسجد الكوفة وجاء إبليس حتى يجثو بين يديه على ركبتيه فيقول: يا ويله من هذا اليوم، فيأخذ بناصيته فيضرب عنقه، فذلك اليوم الوقت المعلوم».

وظاهر أن الذى دفع البحـرانى إلى هذا الاتجاه إنما هو عقـيدته فى إمامة الـمهدى المنتظر الذى سيخرج آخر الزمان ليملأ الأرض عدلاً كما ملئت ظلمًا وجورًا.

وظاهر ـ أيضًا أن البعث المذكور فى الآية هـو بعث الخلائق يوم القيامة، لا بعث مهديهم، وإلا فما وجه الجمع فى ﴿ يُبْعَثُونَ ﴾ وما الدليل على ما يقولون؟.

انتقام القائم من ذرية قتلة الحسين:

وعند تفسيـره لقوله تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ (البقرة: ١٩٣) قال البحرانى ما نصه: «. . . عن أبى عبد الله ـ عليـه السلام ـ فى قوله تـعالى: ﴿ فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ قـال: أولاد قـتلة الحسين ـ عليه السلام».

«وعن عبد السلام بن صالح الهروى قال: قلت لأبى الحسن على بن موسى الرضا ـ عليه السلام: يا بن رسول الله، ما تقول فى حديث روى عن الصادق ـ عليه السلام ـ أنه قال: إذا قام القائم ـ عليـه السلام ـ قتل ذرارى قتلة الحسين ـ عليـه السلام ـ بفعال آبائها، فـقال: هو كذلك، قلت: فقـول الله عز وجل: ﴿ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ (الأنعـام: ١٦٤) ما معناه؟ فقال: صدق الله فى جـميع أقواله، لكن ذرارى قتلة الحسين يرضون فعال آبائهم ويفتخرون بها، ومـن رضى شيئًا كان كمن أتاه، ولو أن رجلا قُتل فى المـشرق فـرضى بقتله رجل فى الـمغـرب لكان الراضى عند الله عز وجل شـريك القاتل، وإنمـا يقتلهم القـائم ـ إذا خرج ـ لرضـاها بفعل آبائهم، قال: فـقلت له: بأى شىء يبدأ القائم فيكم؟ (هكذا) قال: يبدأ ببنى شيبة ويقطع أيديهم لأنهم سراق بيت الله عز وجل».

فضائل السور وخواصها:

والبـحرانى بعـد هذا لا يفوته أن يذكـر فى بداية كل سـورة من الروايات عن أهل البيت مـا يشير لفضل هذه الســورة أو فوائدها وخواصهـا، وما أُعد لقارئهـا من الأجر والثواب، وهذه الروايات لا تعدو أن تكون مكذوبـة، كالروايات المنسوبة إلى أُبى وابن عباس فى فـضائل السور، وليس بغريب أن يذكر صاحـبنا مثل هذه الروايات المكذوبة

فى تفسيره بعدما سوَّد كتابه من أوله إلى آخره بالأحاديث الموضوعة على رسول الله ﷺ، وعلى آل بيته، رضوان الله عليهم، ومثال ذلك ما ذكره فى أول تفسيره لسورة الأعراف حيث ذكر عدة روايات فى فضائلها، منها: «... عن أبى عبد الله - عليه السلام - قال: مَن قرأ سورة الأعراف فى كل شهر كان يوم القيامة من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فإن قرأها فى كل جمعة كان ممن لا يُحاسب يوم القيامة فإن فيها محكمًا، فلا تدعوا قراءتها فإنها تشهد يوم القيامة لمن قرأها».

«وروى النبى ﷺ أنه قال: «مَن قرأ هذه السورة جعل الله يوم القيامة بينه وبين إبليس سترًا، وكان لآدم رفيقًا، ومَن كتبها بماء ورد وزعفران وعلَّقها عليها لم يضرّ به سبع ولا عدو ما دامت عليه بإذن الله».

وعند تفسيره لسورة الشورى يقول: «... ومن خواص القرآن ما روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَن قرأ هذه السورة صلَّت عليه الملائكة وترحَّموا عليه بعد موته، ومَن كتبها بماء المطر وسحق بذلك الماء كحلاً واكتحل به مَن بعينه بياض قلعه وزال عنه كل ما كان عارضًا بعينه من الآلام بإذن الله»، وقال الصادق - عليه السلام: مَن كتبها وعلَّقها عليه أمن من الناس، ومَن شربها فى سفر أنس».

وعند تفسيره لسورة الفتح يقول: «ومن خواص القرآن روى عن النبى ﷺ أنه قال: «من قرأ هذه السورة كتب الله له من الثواب كمن بايع النبى ﷺ تحت الشجرة وأوفى بيعته، وكمن شهد مع النبى ﷺ يوم فتح مكة، ومن كتبها وجعلها تحت رأسه أمن من اللصوص، ومن كتبها فى صحيفة وغسلها بماء زمزم وشربها كان عند الناس مسموع ولا يسمع شيئًا يمر عليه إلا وعاه».

عجائب تأويلات البحرانى:

وللبحرانى فى تفسيره غرائب من التأويلات الباطلة التى لا تخضع لشىء سوى الانحراف عن الجادة، وهى خرافات وأباطيل، لا يقرها عقل ولا شرع، مثال ذلك ما قاله فى تفسيره لقوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ**﴾ (البقرة: ٢٦، ٢٧).. قال ما نصه: «على بن

إبراهيم قـال: حدثنى أبى عن النضـر بن سويد عن القاسـم بن سليمان عن مـعلى بن خنيس عن أبى عبد الله - عليه السلام - أن هذا المثل ضربه الله لأمير المؤمنين على بن أبى طالب - عليـه السـلام - فالبعـوضة: أميـر المؤمنين - عليه السـلام - وما فوقـها: رسول الله ﷺ ».

وعند قـوله تعـالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (المائدة: ٥) يقول ما نصه: « . . . عن أبى حمزة قال: سألت أبا جعفر عن قـول الله تبـارك وتعـالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ قال: تفسـيرها فى بطن القرآن: ومن يكفر بولاية علـى - عليه السلام - وعلى هو الإيمان».

وبالجملة . . فهذا التفسير أشبه ما يكون بالتـفسير المأثور، لالتزام صاحبه فيه بيان المعنى بما ورد من الأخبار عن علماء أهل البيت، إما صـريحًا أو استخلاصًا من عموم الأخبار، غاية الأمر أن هذه الأخبار لا يوثق بصحتها، ولا يُعول على صدق نسبتها إلى من تُنسَب إليه من علماء أهل البيت رضي الله عنهم .

* * *

وبعد أن انتهـينا من الحديث عن تفاسيـر غلاة الشيعة نخـتم الكلام بالحديث عن تفسير «التبـيان» لشيخ الطائفة الطوسى حيث أنه يمثل تيار الاعـتدال عند الإمامية الاثنا عشرية فنقول:

(وفي سورة الذاريات عند قوله تعالى: «إنكم لفي قول مختلف. يؤفك عنه من أفك» يروي عن أبي جعفر أنه قال: «إنكم لفي قول مختلف» اختلاف في ولاية هذه الأمة، فمن استقام على ولاية علي دخل الجنة، ومن خالف ولاية علي دخل النار. وأما قوله: «يؤفك عنه من أفك» قال: يعني عليًّا، من أفك عن ولايته أفك عن الجنة، فذلك قوله: «يؤفك عنه من أفك» ج٤ ص ٢٣٢)

وعند قوله تعالى في سورة المدثر: (كل نفس بما كسبت رهينة. إلى قوله: لم نك من المطعمين) روى عن أبي جعفر محمد بن علي عن أبيه عن جده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: قال لعلي عليه السلام: يا علي قوله عز وجل: «كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين في جنات يتساءلون عن المجرمين ما سلككم في سقر» فالمجرمون هم المنكرون لولايتك «قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين وكنا نخوض مع الخائضين» فيقول لهم أصحاب اليمين: ليس من هذا أتيتم، فما الذي سلككم في سقر يا أشقياء؟ قالوا: وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين، فقال لهم: هذا الذي سلككم في سقر يا أشقياء. ويوم الدين يوم الميثاق حيث جحدوا وكذبوا بولايتك وعتوا عليك واستكبروا.

وفي سورة النبأ عند قوله تعالى: «يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا» يروي عن أبي عبد الله أنه قال: «لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا» قال: نحن والله المأذون لهم يوم القيامة والقائلون صوابا. قلت: ما تقولون إذا تكلمتم؟ قال: نمجد ربنا ونصلي على نبينا ونشفع لشيعتنا فلا يردنا ربنا. ج٤ ص ٤٢٢

محمد حسين الذهبي ... كلية الشريعة ... بغداد ١٩٦٢

صورة خطية من نقولات الشيخ الذهبي من كتاب تفسير

«البرهان» ومنها أخذنا شواهد هذا البحث

٦- التبيان فى تفسير القرآن

للطوسـى

التعريف بصاحب التفسير[١]:

هو محمد بن الحسن بن على، أبو جعفر، الطوسى، المعروف بـ «شيخ الطائفة» متكلم الشيعة وفقيه الإمامية، مصنف «تهذيب الأحكام» و «الاستبصار»، من الكتب الأربعة عند الإمامية والتى عليها مدار استنباط الأحكام.

ولد فى «طوس» من بلاد «خراسان» سنة خمس وثمانين وثلاثمائة، وارتحل إلى بغداد سنة ثمان وأربعمائة، واستوطنها، وأخذ عن الشيخ المفيد ولازمه، واستفاد منه كثيرا، ثم لازم - بعد وفاة المفيد (سنة ٤١٣هـ) - الشريف المرتضى، وحظى بعنايته وتوجيهه لِمَا ظهر عليه من النبوغ والتفوق، وبعد وفاة المرتضى (سنة ٤٣٦هـ) استقل الطوسى بالزعامة الدينية، وارتفع شأنه، وذاع صيته.

وكان الطوسى من بحور العلم، متوفر الذكاء، عالى الهمة، واسع الرواية، ازدحم عليه العلماء والفضلاء، وحصل له من التلامذة ما لا يُحصى كثرة.

ومن الغريب أن السبكى ترجم له فى طبقات الشافعية الكبرى.

وللطوسى تصانيف كثيرة، منها: المبسوط فى فروع الفقه، النهاية فى الفقه، العدة فى أصول الفقه، المفصح فى الإمامة، مسائل الخلاف، والتبيان فى تفسير القرآن، وهو ما نحن بصدد دراسته.

توفى الطوسى بمشهد على من الكوفة سنة إحدى وستين وأربعمائة.

التعريف بهذا التفسير:

وتفسير التبيان يقع فى عشر مجلدات، وله أكثر من طبعة، وهو تفسير جامع وشامل لمختلف أبعاد الكلام حول القرآن، لغةً وأدبًا، قراءةً ونحوًا، تفسيرًا وتأويلا، فقهًا وكلاما بحيث لم يترك جانبًا من جوانب التفسير، إلا وبحث عنه بحثًا وافيًا، فى

---

(١) مصادر الترجمة: الذريعة (٢/ ١٤)، روضات الجنات ٥٨٠، البداية والنهاية (١٢/ ٩٧)، طبقات الشافعية للسبكى (٤/ ١٢٦)، المنتظم (٨/ ٥٢).

وجازة وإيفاء بيان، ويبدو من إحالات الطوسى إلى كتبه الفقهية والأصولية والكلامية، أنه كتب «التبيان» فى فترة متأخرة عن سائر كتبه الأخرى.

الدواعى التى حملت الطوسى على كتابة تفسيره ووصفه إياه:

قال الطوسى فى مقدمة تفسيره: «فإن الذى حملنى على الشروع فى عمل هذا الكتاب، أنى لم أجد أحدًا من أصحابنا قديمًا وحديثًا من عمل كتابًا يحتوى على تفسير جميع القرآن، ويشتمل على فنون معانيه، وإنما سلك جماعة منهم فى جمع ما رواه ونقله وانتهى إليه فى الكتب المروية فى الحديث، ولم يتعرض أحد منهم لاستيفاء ذلك وتفسير ما يحتاج إليه، فوجدت من شرع فى تفسير القرآن من علماء الأمة، بين مطيل فى جميع معانيه، واستيعاب ما قيل فيه من فنون، كالطبرى وغيره، وبين مقصر اقتصر على ذكر غريبه، ومعانى ألفاظه، وسلك الباقون المتوسطون فى ذلك مسلك ما قويت فيه منتهم، وتركوا ما لا معرفة لهم به، فإن الزجَّاج والفراء ومن أشبههما من النحويين، أفرغوا وسعهم فيما يتعلق بالإعراب والتصريف. ومفضل بن سلمة وغيره استكثروا من علم اللغة، واشتقاق الألفاظ. والمتكلمين كأبى على الجبائى وغيره صرفوا همتهم إلى ما يتعلق بالمعانى الكلامية. ومنهم من أضاف إلى ذلك، الكلام فى فنون علمه، فأدخل فيه ما لا يليق به، من بسط فروع الفقه، واختلاف الفقهاء كالبلخى وغيره، وأصلح من سلك فى ذلك مسلكًا جميلا مقتصدًا، محمد بن بحر، أبو مسلم الأصفهانى، وعلى بن عيسى الرمانى فإن كتابهما أصلح ما صنف فى هذا المعنى، غير أنهما أطالا الخطب فيه وأوردا فيه كثيرًا مما لا يُحتاج إليه».

ثم قال: «وسمعت جماعة من أصحابنا قديمًا وحديثًا يرغبون فى كتاب مقتصد، يجتمع على جميع فنون علم القرآن: من القراءة، والمعانى، والإعراب، والكلام على المتشابه، والجواب عن مطاعن الملحدين فيه، وأنواع المبطلين، كالمجبرة والمشبهة والمجسمة وغيرهم، وذكر ما يختص أصحابنا به من الاستدلال بمواضع كثيرة منه على صحة مذهبهم فى أصول الديانات وفروعها، وأنا إن شاء الله تعالى أشرع فى ذلك على وجه الإيجاز والاختصار لكل فن من فنونه، ولا أطيل فيمله الناظر فيه، ولا أختصر اختصارًا يقصر فهمه عن معانيه».

رأى الطوسى فى تحريف القرآن:

قال الطوسى فى مقدمة تفسيره: «وأما الكلام فى زيادته ونقصانه فمما لا يليق به أيضًا، لأن الزيادة فيه مجمع على بطلانها، والنقصان منه، فالظاهر أيضًا من مذهب المسلمين خلافه، وهو الأليق بالصحيح من مذهبنا، وهو الذى نصره المرتضى، وهو الظاهر فى الروايات، غير أنه رويت روايات كثيرة، من جهة الخاصة والعامة، بنقصان كثير من آى القرآن، ونقل شىء منه من موضع إلى موضع، طريقها الآحاد التى لا توجب علمًا ولا عملا، والأولى الإعراض عنها، وترك التشاغل بها، لأنه يمكن تأويلها، ولو صحت لما كان ذلك طعنًا على ما هو موجود بين الدفتين، فإن ذلك معلوم صحته، لا يعترضه أحد من الأمة ولا يدفعه، ورواياتنا متناصرة بالحث على قراءته والتمسك بما فيه، ورد ما يرد من اختلاف الأخبار فى الفروع إليه».

المنهج العام للطوسى فى «التبيان»:

أما المنهج الذى سلكه الطوسى فى تفسيره، فهو المنهج الذى مشى عليه أكثر المفسرين فى عصره، فيبدأ بذكر مقدمات تمهيدية، تقع نافعة فى معرفة أساليب القرآن، ومناهج بيانه وسائر شئونه، مما يرتبط بالتفسير والتأويل، وشروط التفسير المقبول، والمحكم والمتشابه، والناسخ والمنسوخ، ومعرفة وجوه إعجاز القرآن، وأحكام تلاوته وقراءته، وأنه نزل بحرف واحد، والكلام عن حديث: «نزل القرآن على سبعة أحرف» والتعرض لأسامى القرآن وأسامى سوره وآياته، وما إلى ذلك.

ويبدأ الطوسى تفسيره بذكر الآية، ويتعرض لغريب لغتها واختلاف القراءة فيها، ثم التعرض لمختلف الأقوال والآراء، وينتهى إلى تفسير الآية تفسيرًا معنويًا فى غاية الوجازة والإيفاء مع ذكر أسباب النزول، والمسائل الكلامية المستفادة من ظاهر الآية، حسب إمكان اللغة، كما يتعرض للمسائل الخلافية فى الفقه والأحكام، ومسائل الاعتقاد ونحوها، كل ذلك مع عفة اللسان وحسن الأدب فى التعبير.

أما بالنسبة للجانب اللغوى، فقد رأينا الطوسى لغويًا ونحويًا بكل ما فى الكلمة من معنًى حيث كان يسرد آراء اللغويين والنحاة، ثم يأتى عليها لينسف ما ينسف منها بدليل، ويثبت ما يثبت منها بحجة وبرهان، وكان يطرح رأيه الواضح المتميز والمغاير

لأراء غيره من أهل اللغة والنحو بجرأة عظيمة تنبئ عن وجود ثقافة لغوية ونحوية ضخمة تؤهله أن يكون فى مصاف علماء النحو واللغة.

أما بالنسبة للقراءات فلم يستنكر على أحد من القراء قراءته، وإنما كان يقول: بجواز القراءة بما يتداوله القراء، ولذلك يطرح آراءهم جميعًا فى تفسيره.

ورجع الطوسى فى القراءات إلى كل القراء المشهورين أمثال: عاصم، والكسائى، وخلف، وحمزة، ويعقوب، والأعمش، ونافع.

وأما موقفه من الشعر والشعراء، فقال عنه: «ولولا عناد الملحدين وتعجرفهم لما احتيج إلى الاحتجاج بالشعر وغيره، للشىء المشتبه فى القرآن؛ لأن غاية ذلك أن يستشهد عليه ببيت شعر جاهلى، أو لفظ منقول عن بعض الأعراب، أو مَثَلٌ سائر عن أهل البادية، ولا تكون منزلة النبى صلى الله عليه وآله ـ وحاشاه من ذلك ـ أقل من منزلة واحد من هؤلاء».

ورغم قناعة الطوسى بعدم جواز الاحتجاج بشعر الشعراء على القرآن، إلا أنه استشهد بالشعر مبررًا ذلك بقوله: «إنما يحتج العلماء الموحدين بشعر الشعراء وكلام البلغاء اتساعًا فى العلم وقطعًا للشغب».

وناقش الطوسى فى «تبيانه» آراء المفسرين وبخاصة الطبرى، والجبائى، والرمانى، وأبى مسلم، ورجح آراء بعضهم على بعض الآخر، كما رفض أقوالهم أحيانًا، وطرح رأيًا يخالف ما قالوه مستدلا فى كل ذلك إلى حجة أو دليل رآه صوابًا.

وقد تخفف الطوسى فى تفسيره من الحديث عن المبهمات فى القرآن الكريم، وسكت عما سكت عنه القرآن الكريم، ولم يتكلف فى التأويل بأكثر مما يجب، وربما كان يعتبر الخوض فى مثل تلك المسائل والتعمق فيها من صوارف التفسير التى لا يرى الطوسى ضرورة فى سبر غورها والغوص فى تفاصيلها.

كما أشبع الطوسى آيات الأحكام شرحًا وبحثًا وتفصيلا، وقد طرح آراء بعض المجتهدين والمفسرين، وناقش أكثرهم، رادًا على قسم منهم ومبينًا رأيه الفقهى بوضوح وجلاء باعتباره من أئمة الاجتهاد عند الشيعة الإمامية.

ثناء الطبرسى على التبيان:

ولعل الشيخ أبا على الفضل بن الحسن الطبرسى، مؤلف كتاب «مجمع البيان فى تفسير القرآن» خير من عرف حق هذا الرجل، وأول من اعترف بفضله وأهمية كتابه، فقال فيه فى جملة ما قال: «إنه الكتاب الذى يُقتبس منه ضياء الحق، ويلوح عليه رواء الصدق، قد تضمن من المعانى الأسرار البديعة، واحتضن من ألفاظ اللغة الوسيعة، ولم يقنع بتدوينها دون تبيينها، ولا تنميقها دون تحقيقها، وهو القدوة أستضىء بأنواره، وأطأ مواقع آثاره».

موقفه من النسخ:

ذكر الطوسى فى تفسيره الآيات الناسخة والمنسوخة، مع رده على بعض المفسرين الذين خالفوه فى الرأى، كما ورفض الرأى القائل بأن السنة ناسخة للقرآن الكريم مؤكدًا أن الآية القرآنية لا تنسخ إلا بآية قرآنية أخرى، وفق المصلحة ومشيئة الله تعالى.

إمامة على:

لما كان الطوسى يدين بإمامة على ﵁، ويرى أنه خليفة النبى ﷺ بلا فصل، فإنا نراه يحاول جاهدًا أن يثبت إمامته وولايته من القرآن الكريم، فنراه عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ (المائدة: ٥٥) يقول: «واعلم أن هذه الآية من الأدلة الواضحة على إمامة أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ بعد النبى بلا فصل.

ووجه الدلالة فيها أنه قد ثبت أن الولى فى الآية بمعنى الأولى والأحق، وثبت أيضًا أن المعنى بقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ فإذا ثبت هذان الأصلان دل على إمامته، لأن كل من قال: إن معنى الولى فى الآية ما ذكرناه قال: إنها خاصة فيه. ومن قال باختصاصها به ـ عليه السلام ـ قال: المراد بها الإمامة.

فإن قيل: دلوا أولاً على أن الولى يستعمل فى اللغة بمعنى الأولى والأحق ثم على أن المراد به فى الآية ذلك، ثم دلوا على توجهها إلى أمير المؤمنين ـ عليه السلام.

قلنا: الذى يدل على أن الولى يفيد الأولى قول أهل اللغة للسلطان المالك للأمر: فلان ولى الأمر، قال الكميت:

ونعم ولى الأمر بعد وليه ومنتجع التقوى ونعم المؤدب

ويقولون: فلان ولى عهد المسلمين إذا استخلف للأمر لأنه أولى بمقام من قبله من غيره، وقال النبى ﷺ: «أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل» يريد من هو أولى بالعقد عليها. وقال تعالى: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ يعقوب يعنى من يكون أولى بحيازة ميراثى من بنى العم. وقال المبرد: الولى والأولى والأحق والمولى بمعنى يقوم به الأئمة.

قلنا: من أصحابنا من قال: إنه كان إمامًا فى الحال ولكن لم يؤمر لوجود النبى ﷺ وكان وجوده مانعًا من تصرفه، فلما مضى النبى ﷺ قام بما كان له. ومنهم من قال ـ وهو الذى نعتمده ـ أن الآية على فرض طاعته واستحقاقه للإمامة، وهذا كان حاصلاً له. وأما التصرف فموقوف على ما بعد الوفاة كما يثبت استحقاق الأمر لولى العهد فى حياة الإمام الذى قبله وإن لم يجز له التصرف فى حياته. وكذلك يثبت استحقاق الوصية للوصى وإن منع من التصرف وجود الموصى. وكذلك القول فى الأئمة، وقد استوفينا الكلام على الآية فى كتاب «الإمامة» بما لا يحتمل بسطه ههنا.

فإن قيل: أليس قد رُوى أنها نزلت فى عبادة بن الصامت أو عبد الله بن سلام وأصحابه؟ فما أنكرتم أن يكون المراد بالذين آمنوا هم دون من ذهبتم إليه؟.

قلنا: أول ما نقوله: إنا دللنا على أن هذه الآية نزلت فى أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ بنقل الطائفتين، ولما اعتبرناه من اعتبار الصفة المذكورة فى الآية وأنها ليست حاصلة فى غيره بطل ما يروى فى خلاف ذلك، على أن الذى روى فى الخبر من نزولها فى عبادة ابن الصامت لا ينافى ما قلناه؛ لأن عبادة لمّا تبرأ من حلف اليهود أعطى ولاية من تضمنته الآية، فأما ما روى من خبر عبد الله بن سلام فبخلاف ما ذهبوا إليه لأنه روى أن عبد الله بن سلام لما أسلم قطعت اليهود حلفه وتبرأوا منه، فاشتد ذلك عليه وعلى أصحابه، فأنزل الله تعالى الآية تسلية لعبد الله بن سلام وأصحابه وأنه قد عوضهم من محالفة اليهود، ولاية الله وولاية رسوله وولاية الذين آمنوا.

والذى يكشف عما قلناه أنه قد روى أنها لما نزلت خرج النبى ﷺ من البيت، فقال لبعض أصحابه: «هل أعطى أحدًا سائلاً شيئًا» فقالوا: نعم يا رسول الله، قد

أعطى على بن أبى طالب السائل خاتمه، وهو راكع. فقال النبى ﷺ: «الله اكبر قد أنزل الله فيه قرآنا» ثم تلا الآية إلى آخرها، وفى ذلك بطلان ما قالوه.

وقد استوفينا ما يتعلق بالشبهات المذكورة فى الآية فى كتاب «الاستيفاء» وحللناها بغاية ما يمكن، فمن أراده وقف عليه من هناك. فأما الولى بمعنى الناصر فلسنا ندفعه فى اللغة لكن لا يجوز أن يكون مرادًا فى الآية لما بيناه من نفى الاختصاص».

قلت: وقد تكفل العلامة ابن تيمية بالرد على هذه الدعاوى فى كتابه: «منهاج السنة» (٤/ ٣ - ٩).

عصمة الأئمة:

ولما كان الطوسى يدين بعصمة الأئمة فإنا نراه عند تفسير قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً**﴾ (النساء: ٥٩) يقول: «وروى أصحابنا عن أبى جعفر وأبى عبد الله - عليه السلام -: أنهم الأئمة من آل محمد ﷺ وآله، فلذلك أوجب الله تعالى طاعتهم بالإطلاق، كما أوجب طاعة رسوله وطاعة نفسه كذلك. ولا يجوز إيجاب طاعة أحد مطلقًا إلا من كان معصومًا مأمونًا منه السهو والغلط، وليس ذلك بحاصل فى الأمراء، ولا العلماء، وإنما هو واجب فى الأئمة الذين دلت الأدلة على عصمتهم وطهارتهم، فأما من قال المراد به العلماء فقوله بعيد؛ لأن قوله: ﴿**وَأُوْلِي الأَمْرِ**﴾ معناه: أطيعوا من له الأمر، وليس ذلك العلماء».

ثم قال: «وقوله: ﴿**فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ**﴾ فمعنى الردّ إلى الله هو إلى كتابه، والرد إلى رسوله هو الردّ إلى سنته. وقول مجاهد، وقتادة، وميمون ابن مهران، والسدى: والرد إلى الأئمة يجرى مجرى الرد إلى الله والرسول، ولذلك قال فى آية أخرى: ﴿**وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ**﴾ ولأنه إذا كان قولهم حجة من حيث كانوا معصومين حافظين للشرع جروا مجرى الرسول فى هذا الباب».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿**وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**﴾ (البقرة: ١٢٤) قال الطوسى: «واستدل أصحابنا بهذه الآية على أن الإمام لا يكون إلا معصومًا من القبائح؛ لأن الله

تعالى نفى أن ينال عهده ـ الذى هو الإمامة ـ ظالم، ومن ليس بمعصوم فهو ظالم: إما لنفسه، أو لغيره. فإن قيل: إنما نفى أن يناله ظالم فى حال كونه كذلك، فأما إذا تاب وأناب فلا يسمى ظالما، فلا يمتنع أن ينال؟ قلنا: إذا تاب لا يخرج من أن تكون الآية تناولته فى حال كونه ظالما، فإذا نفى أن يناله فقد حكم عليه بأنه لا ينالها، ولم يفد أنه لا ينالها فى هذه الحال دون غيرها، فيجب أن تحمل الآية على عموم الأوقات فى ذلك، ولا ينالها وإن تاب فيما بعد. واستدلوا بها أيضا على أن الإمامة منفصلة من النبوة، لأن الله خاطب إبراهيم ـ عليه السلام ـ وهو نبى، فقال له: إنه سيجعله إمامًا جزاء له على إتمامه ما ابتلاه الله به من الكلمات، ولو كان إمامًا فى الحال لما كان للكلام معنى، فدل ذلك على أن منزلة الإمامة منفصلة من النبوة. وإنما أراد الله أن يجعلها لإبراهيم ـ عليه السلام ـ وقد أملينا رسالة مقررة فى الفرق بين النبى والإمام، وأن النبى قد لا يكون أمامًا على بعض الوجوه، فأما الإمام فلا شك أنه يكون غير نبى».

موقفه من إمامة أبى بكر وعمر:

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ...﴾ (النور: ٥٥) الآية، قال الطوسى: «واستدل الجبائى ومن تابعه على إمامة الخلفاء الأربعة بأن قال: الاستخلاف المذكور فى الآية لم يكن إلا لهؤلاء؛ لأن التمكين المذكور فى الآية إنما حصل فى أيام أبى بكر وعمر؛ لأن الفتوح كانت فى أيامهم، فأبو بكر فتح بلاد العرب وطرفًا من بلاد العجم، وعمر فتح مداين كسرى إلى حد خراسان وسجستان وغيرهما، فإذا كان التمكين والاستخلاف ههنا ليس هو إلا لهؤلاء الأئمة الأربعة وأصحابهم علمنا أنهم مُحِقُّون.

والكلام على ذلك من وجوه:

أحدها: أن الاستخلاف ههنا ليس هو الإمارة والخلافة، بل المعنى هو إبقاؤهم فى أثر من مضى من القرون، وجعلهم عوضًا منهم وخلفًا، كما قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ﴾ (الأنعام: ١٦٥) وقال: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾ (الأعراف: ١٢٩) وقال سبحانه: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ﴾

(الأنعام: ١٣٣) وكقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ (الفرقان: ٦٢) أى: جعل كل واحد منهما خلف صاحبه، وإذا ثبت ذلك، فالاستخلاف والتمكين الذى ذكره الله فى الآية، كانا فى أيام النبى ﷺ حين قمع الله أعداءه، وأعلا كلمته ونشر ولايته، وأظهر دعوته، وأكمل دينه، ونعوذ بالله أن نقول: لم يمكن الله دينه لنبيه فى حياته حتى تلا فى ذلك متلاف [هكذا بالأصل] بعده، وليس ذلك التمكين كثرة الفتوح والغلبة على البلدان؛ لأن ذلك يوجب أن دين الله لم يتمكن بعد إلى يومنا هذا لعلمنا ببقاء ممالك للكفر كثيرة لم يفتحها المسلمون، ويلزم على ذلك إمامة معاوية وبنى أمية؛ لأنهم تمكنوا أكثر من تمكن أبى بكر وعمر، وفتحوا بلادًا لم يفتحوها.

ولو سلمنا أن المراد بالاستخلاف الإمامة للزم أن يكون منصوصًا عليه، وذلك ليس مذهب أكثر مخالفينا، وإن استدلوا بذلك على صحة إمامتهم احتاجوا أن يدلوا على ثبوت إمامتهم بغير الآية، وأنهم خلفاء الرسول حتى تتناولهم الآية. **فإن قالوا:** المفسرون ذكروا ذلك. **قلنا:** لم يذكر جميع المفسرين ذلك، فإن مجاهدًا قال: هم أمة محمد ﷺ. وعن ابن عباس وغيره قريب من ذلك. وقال أهل البيت ـ عليهم السلام: إن المراد بذلك المهدى ـ عليه السلام ـ لأنه يظهر بعد الخوف، ويتمكن بعد أن كان مغلوبًا، فليس فى ذلك إجماع المفسرين. وهذا أول ما فيه. وقد استوفينا ما يتعلق بالآية فى كتاب «الإمامة» فلا نطيل بذكره ههنا، وقد تكلمنا على نظير هذه الآية، وأن ذلك ليس بطعن على واحد منهم، وإنما المراد الممانعة من أن يكون فيها دلالة على الإمامة، وكيف يكون ذلك، ولو صح ما قالوه لما احتيج إلى اختياره، ولكان منصوصًا عليه، وليس ذلك مذهبًا لأكثر العلماء، فصح ما قلنا».

التقيـــة:

والطوسى ـ كغيره من علماء الإمامية ـ يقول بالتقية، فمثلاً عند تفسير قوله تعالى: ﴿لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ...﴾ (آل عمران: ٢٧) الآية، يقول: «والتقية عندنا واجبة عند الخوف على النفس، وقد روى رخصة فى جواز الإفصاح بالحق عندها. روى الحسن أن مسيلمة الكذاب أخذ رجلين من أصحاب رسول الله ﷺ فقال لأحدهما: أتشهد أن محمدًا رسول الله؟ قال: نعم، قال: أفتشهد أنى رسول الله؟ قال: نعم، ثم دعا بالآخر فقال: أتشهد أن محمدًا رسول الله؟ قال: نعم،

فقال له: أفتشهد أنى رسول الله؟ قال: إنى أصم، قالها ثلاثًا، كل ذلك تقية، فتقول ذلك، فضرب عنقه، فبلغ رسول الله ﷺ ذلك فقال: «أما هذا المقتول فمضى على صدقه وتقيته وأخذ بفضله، فهنيئًا له، وأما الآخر فقبل رخصة الله، فلا تبعة عليه». فعلى هذا التقية رخصة، والإفصاح بالحق فضيلة. وظاهر أخبارنا يدل على أنها واجبة، وخلافها خطأ».

الرجعة:

ولما كان الطوسى يقول بالرجعة فإنا نراه عندما فسر قوله تعالى فى الآية (٥٦) من سورة البقرة: ﴿**ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ يقول ما نصه: «وقول من قال: لا تجوز الرجعة لأن ذلك معجزة ودلالة على نبوة نبى، وذلك لا يجوز إلا فى زمن نبى، غير صحيح؛ لأن عندنا يجوز إظهار المعجزات على يد الأئمة والصالحين، وقد بيَّناه فى الأصول. ومن ادعى قيام الحجة بأن الخلق لا يردون إلى الدنيا كما علمنا أن لا نبى بعد نبينا مقترح مبتدع، لما لا دليل على صحته، فإنا لا نخالف فى ذلك، وقال البلخى: لا تجوز الرجعة مع الإعلام بها، لأن فيها إغراء بالمعاصى من جهة الاتكال على التوبة فى الكرَّة الثانية. قال الرمانى: هذا ليس بصحيح من قبل أنه لو كان فيها إغراء بالمعصية، لكان فى إعلام التقية إلى مدة إغراء بالمعصية. وقد أعلم الله تعالى نبيه وغيره إبليس أنه يبقيه إلى يوم يبعثون ولم يكن فى ذلك إغراء بالمعصية. وعندى أن الذى قاله البلخى ليس بصحيح؛ لأن من يقول بالرجعة لا يقطع على أن الناس كلهم يرجعون، فيكون فى ذلك اتكال على التوبة فى الرجعة، فيصير إغراء. فلا أحد من المكلفين إلا ويجوز أن لا يرجع وإن قطع على الرجعة فى الجملة، ويجوز أن لا يرجع، فكفى به فى باب الزجر. وأما قول الرمانى: إن الله تعالى أعلم أقوامًا مدة مقامهم، فإن ذلك لا يجوز إلا فيمن هو معصوم يؤمن من جهة الخطأ كالأنبياء ومن يجرى مجراهم فى كونهم معصومين. فأما من ليس بمعصوم، فلا يجوز ذلك، لأنه يصير مغرى بالقبح».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**﴾ (آل عمران: ١٦٩) قال ما نصه: «وفى الآية دليل على أن الرجعة إلى دار

الدنيا جائزة لأقوام مخصوصين، لأنه تعالى أخبر أن قومًا ممن قتلوا فى سبيل الله ردهم الله أحياء كما كانوا، فأما الرجعة التى يذهب إليها أهل التناسخ، ففاسدة، والقول بها باطل».

تأثر الطوسى بفقه الشيعة فى تفسيره:

ونجد الطوسى فى تفسيره يتأثر بفقه الإمامية الاثنى عشرية وآرائهم الاجتهادية، فنراه يستشهد بكثير من الآيات على صحة مذهبه، أو يرد استدلال مخالفيه بآيات القرآن على مذاهبهم، وهو فى استدلاله ورده، ودفاعه وجدله، عنيف كل العنف، قوى إلى حد بعيد، بحيث يخيل لغير المدقق الخبير أن الحق بجانبه، والباطل بجانب من يخالفه.

نكاح المتعة:

يقول الإمامية الاثنى عشرية بجواز نكاح المتعة، ولا يعترفون بنسخه كغيرهم من المسلمين؛ فلهذا حاول الطوسى - وهو واحد منهم - أن يأخذ هذا المذهب بدليله من كتاب الله تعالى.

فمثلا عند تفسير قوله تعالى: ﴿**وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ...**﴾ **(النساء: ٢٤)** الآية، قال: «وأما الخبر الذى يروونه أن النبى ﷺ نهى عن المتعة فهو خبر واحد لا يترك له ظاهر القرآن، ومع ذلك يختلف لفظه وروايته، فتارة يروون أنه نهى عنها فى عام خيبر، وتارة يروون أنه نهى عنها فى عام الفتح، وقد طعن أيضًا فى طريقه بما هو معروف، وأول دليل على ضعفه قول عمر: «متعتان كانتا فى عهد رسول الله ﷺ أنا أنهى عنهما وأعاقب عليهما» فأخبر أن هذه المتعة كانت على عهد رسول الله، وأنه الذى نهى عنهما، لضرب من الرأى. **فإن قالوا:** إنما نهى لأن النبى ﷺ كان نهى عنهما، **قلنا:** لو كان كذلك لكان يقول: متعتان كانتا على عهد رسول الله ﷺ فنهى عنهما، وأنا أنهى عنهما أيضًا، فكان يكون آكد فى باب المنع، فلما لم يقل ذلك دلّ على أن التحريم لم يكن صدر عن النبى ﷺ، وصح ما قلناه. وقال الحكم بن عتيبة: قال على - عليه السلام: لولا أن عمر نهى عن المتعة ما زنى إلا شفى.

وذكر البلخى، عن وكيع، عن اسماعيل بن أبى خالد، عن قيس بن أبى حازم، عن عبد الله بن مسعود: قال: كنا مع النبى ﷺ ونحن شباب، فقلنا: يا رسول الله ألا نستخصى؟ قال: «قال: لا» ثم رخص لنا أن ننكح المرأة بالثوب، إلى أجل.

ثم قال: وعن الباقر ـ عليه السلام ـ كان علىٌّ يقول: لولا ما سبقنى به ابن الخطاب ما زنى إلا شفى.

أقول: إلا شفى ـ بالفاء ـ يعنى إلا قليل، أراد أنه لولا ما سبقنى به عمر من نهيه عن المتعة وتمكن نهيه فى قلوب الناس لندبت الناس عليها ورغبتهم فيها فاستغنوا بها عن الزنا، فما زنى منهم إلا قليل، وكان نهيه عنها تارة بقوله: متعتان كانتا على عهد رسول الله ﷺ أنا محرمهما ومعاقب عليهما: متعة الحج، ومتعة النساء، وأخرى بقوله: ثلاث كن على عهد رسول الله ﷺ أنا محرمهن ومعاقب عليهن: متعة الحج، ومتعة النساء، وحىَّ على خير العمل فى الأذان؛ وفيه: جاء عبد الله بن عمير الليثى إلى أبى جعفر ـ عليه السلام ـ فقال له: ما تقول فى متعة النساء؟ فقال: أحلها الله فى كتابه وعلى لسان نبيه فهى حلال إلى يوم القيامة، فقال: يا أبا جعفر مثلك يقول هذا وقد حرمها عمر ونهى عنها؟ فقال: وإن كان فعل، قال: فإنى أعيذك بالله من ذلك أن تحل شيئًا حرمه عمر، فقال له: فأنت على قول صاحبك وأنا على قول رسول الله ﷺ، فهلم ألاعنك أن القول ما قال رسول الله ﷺ وأن الباطل ما قال صاحبك، قال: فأقبل عبد الله بن عمير فقال: يسرك أن نساءك وبناتك وأخواتك وبنات عمك يفعل ذلك؟ قال: فأعرض عنه أبو جعفر حين ذكر نساءه وبنات عمه. وفيه سأل أبو حنيفة أبا جعفر محمد بن النعمان ـ صاحب الطاق ـ فقال له: يا أبا جعفر، ما تقول فى المتعة، أتزعم أنها حلال؟ قال: نعم، قال: فما يمنعك أن تأمر نساءك يستمتعن ويكسبن عليك؟ فقال له أبو جعفر: ليس كل الصناعات يرغب فيها وإن كانت حلالاً، وللناس أقدار ومراتب يرفعون أقدراهم، ولكن ما تقول: يا أبا حنيفة فى النبيذ، أتزعم أنه حلال؟ قال: نعم، قال: فما يمنعك أن تقعد نساءك فى الحوانيت نباذات فيكسبن عليك؟ فقال أبو حنيفة: واحدة بواحدة وسهمك أنفذ، ثم قال له أبو جعفر: إن الآية التى فى سأل سائل تنطق بتحريم المتعة والرواية عن النبى ﷺ قد جاءت بنسخها.

فقال له أبو جعفر: يا أبا حنيفة: إن سورة سأل سائل مكية وآية المتعة مدنية، ورواياتك شاذة ردية، فقال أبو حنيفة: وآية الميراث أيضًا تنطق بنسخ المتعة، فقال أبو جعفر: قد ثبت النكاح بغير ميراث، فقال أبو حنيفة: من أين قلت ذلك؟ فقال أبو جعفر: لو أن رجلاً من المسلمين تزوج بامرأة من أهل الكتاب ثم توفى عنها ما تقول فيها؟ قال: لا ترث منه، فقال: قد ثبت النكاح بغير ميراث. ثم افترقا».

فرض الرجلين فى الوضوء:

كذلك يقول الطوسى كغيره من علماء الإمامية بأن المسح هو فرض الرجلين فى الوضوء، فلهذا نراه يجادل بكل قوة ويدافع عن مذهبه وينصره بأدلة، إن دلت على شيء فهو قوة عقله وسعة ذهنه وكثرة اطلاعه، فعندما فسر قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ**﴾ (المائدة: ٥) قال ما نصه: «﴿**وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ**﴾ عطف على الرءوس، فمن قرأ بالجر ذهب إلى أنه يجب مسحهما كما وجب مسح الرأس، ومن نصبها ذهب إلى أنه معطوف على موضع الرءوس، لأن موضعها نصب لوقوع المسح عليها، وإنما جر الرءوس لدخول الباء الموجبة للتبعيض على ما بيَّناه، فالقراءتان جميعًا تفيدان المسح على ما نذهب إليه. وممن قال بالمسح: ابن عباس، والحسن البصرى، وأبو على الجبائى، ومحمد بن جرير الطبرى، وغيرهم ممن ذكرناهم فى «الخلاف» غير أنهم أوجبوا الجمع بين المسح والغسل، المسح بالكتاب، والغسل بالسنة، وخالف الطبرى فى ذلك. وأوجبوا كلهم استيعاب جميع الرِّجل ظاهرًا وباطنًا. وعندنا أن المسح على ظاهرهما من رءوس الأصابع إلى الكعبين. وهما الناتئان فى وسط القدم على ما استدل عليه. وقال عكرمة عن ابن عباس: الوضوء غسلتان ومسحتان. وبه قال أنس بن مالك. وقال عكرمة: ليس على الرجلين غسل إنما فيهما المسح. وبه قال الشعبى، ألا ترى أن التيمم يمسح ما كان غسلاً ويلغى ما كان مسحا. وقال قتادة: افترض الله مسحتين وغسلتين. روى أوس بن أبى أوس قال: رأيت النبى ﷺ توضأ ومسح على نعليه، ثم قام فصلى. وروى حذيفة قال: أتى رسول الله ﷺ سباطة قوم، فبال عليها قائمًا، ثم دعا بماء، فتوضأ ومسح على نعليه، وعنه أنه قال: إن كتاب

الله المسح ويأبى الناس إلا الغسل. وعن أمير المؤمنين على ـ عليه السلام ـ أنه قال: ما نزل القرآن إلا بالمسح.

فإن قيل: القراءة بالجر ليست على العطف على الرءوس فى المعنى، وإنما عطف على طريق المجاورة، كما قالوا: جحر ضب خرب، وخرب، من صفات الجحر لا الضب، وكما قال الشاعر:

كان ثبيرًا فى عرنين وبله ... كبير أناس فى بجاد مزمل

والمزمل من صفه الكبير لا البجاد.

وقال الأعشى:

لقد كان فى حول ثواء ثويته ... تقضى لبانات ويسام سائم

قلنا: هذا لا يجوز من وجوه:

أحدها: ما قال الزجاج أن الإعراب بالمجاورة لا يجوز فى القرآن، وإنما يجوز ذلك فى ضرورة الكلام والشعر.

والثانى: أن الإعراب بالمجاورة لا يكون مع حرف العطف، فأما قول الشاعر:

فهل أنت إن ماتت إتانك راحل ... إلى آل بسطام بن قيس فخاطب

قالوا: جر مع حرف العطف الذى هو الفاء، فإنه يمكن أن يكون أراد الرفع وإنما جر الراوى وهما. ويكون عطفًا على راحل يكون قد أقوى لأن القصيدة مجرورة. وقال قوم: أراد بذلك الأمر وإنما جر لإطلاق الشعر.

والثالث: أن الإعراب بالمجاورة إنما يجوز مع ارتفاع اللبس فأما قول الشاعر: ثواء ثويته، فإنما جره بالبدل من الحول، والمعنى لقد كان فى ثواء ثويته تقضى لبانات. وهو من بدل الاشتمال، كقوله: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ (البروج: ٤) وقول الشاعر:

لم يبق إلا أسير غير منفلت ... وموثق فى عقال الأسر مكبول

فليس خفض موثق على المجاورة؛ لأن معنى البيت: لم يبق غير أسير، قالا بمعنى غير وهى تعاقبها فى الاستثناء. فقوله: غير موثق عطف المعنى على موضع أسير. وتقديره: لم يبق غير أسير وغير منفلت. وأما قوله: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ (الواقعة: ٢٢) فى قراءة من جرهما، فليس بمجرور، بل يحتمل أمرين:

أحدهما: أن يكون عطفا على قوله: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ (الواقعة: ١٧، ١٨) إلى قوله: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ عطف على أكواب. وقولهم: إنه لا يطاف إلا بالكأس غير مسلم، بل لا يمتنع أن يطاف بالحور العين كما يطاف بالكأس، وقد ذكر فى جملة ما يطاف به الفاكهة واللحم.

والثانى: أنه لما قال: ﴿أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ (الواقعة: ١١، ١٢) عطف بحور عين على جنات النعيم فكأنه قال: هم فى جنات النعيم. وفى مقاربة أو معاشرة حور عين. ذكره أبو على الفارسى.

فأما من قال: الرجلان ممسوحان ويراد بالمسح الغسل، فقوله يَبْطُل بما قلناه من أن المسح غير الغسل، واستشهادهم بقولهم: تمسحت للصلاة وأنهم سموا الغسل مسًحا. وقوله: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ (سورة ص: ٣٣) وأنه أراد غسلها، ولذلك قالوا: بعض أعضاء الطهارة مغسولة، وبعضها ممسوحة. وفلان يرى غسل الرجلين، وفلان يرى مسحهما، ولأنه لا خلاف أن الرأس ممسوح مسحًا ليس بغسل فلا بد أن يكون حكم الرجلين حكمه؛ لكونهما معطوفتين عليها، وقولهم: تمسحت للصلاة، فلأنهم لما أرادوا أن يخبروا بلفظ مختصر عن جميع أفعال الصلاة، لم يجز أن يقولوا: اغتسلت للصلاة؛ لأن فى الطهارة ما ليس بغسل.

واستطالوا أن يقولوا: اغتسلت وتمسحت للصلاة، قالوا بدلاً من ذلك: تمسحت، توسعا ومجازًا. وقوله: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ فأكثر المفسرين على أن المراد به فطفق ضربًا. ذهب إليه الفراء وأبو عبيدة. وقال آخرون: أراد المسح فى الحقيقة، وأنه كان مسح أعراقها وسوقها. وإنما حمل على الغسل شاذ منهم، ومن قال القراءة تقتضى المسح غير أنه المسح على الخفين فقوله باطل؛ لأن الخف لا يسمى رجلاً فى لغة ولا شرع. والله تعالى أمر بإيقاع الفرض على ما يسمى رجلا فى الحقيقة. وأما القراءة بالنصب فقد بينا أنها معطوفة على موضع الرءوس لأن موضعها النصب، والحكم فيها المسح والعطف على الموضع جائز، لأنهم يقولون: لست بقائم ولا قاعدا. ويقولون: حسبت بصدره وصدر زيد أن زيدًا فى الدار وعمرو، فيرفع عمرو بالعطف على الموضع. وقال الشاعر:

معاوى إننا بشر فأسجح فلسنا بالجبال ولا الحديدا

وقال آخر:

هل أنت باعث دينار لحاجتنا أو عبد رب أخا عون بن مخراق

وإنما نصب عبد رب؛ لأن التقدير باعث ديناراً، فحمله على الموضع، وقد سوغوا العطف على المعنى، وإن كان اللفظ لا يقتضيه، قال الشاعر:

جئنى بمثل بنى عمرو لقومهم أو مثل أسرة منظور بن سيار

لما كان معنى جئنى هات مثلهم، أو أعطنى مثلهم. قال: أو مثل بالنصب عطفًا على المعنى، وعطف الأرجل على الأيدى لا يجوز؛ لأن الكلام متى حصل فيه عاملان: قريب وبعيد لا يجوز إعمال البعيد دون القريب مع صحة حمله عليه. ولا يجوز أن يقول القائل: ضربت زيدًا وعمرًا، وأكرمت خالدًا وبكرًا. ويريد بنصب بكر العطف على زيد أو عمرو المضروبين، لأن ذلك خروج عن فصاحة الكلام، ودخول فى معنى اللغو، وبمثل ما قلناه ورد القرآن وأكثر الشعر، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ (الجن: ٧) ولو أعمل الأول، لقال: كما ظنتموه. وقال: ﴿آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ (الكهف: ٩٦) ولو أعمل الأول لقال: أفرغه. وقال: ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ (الحاقة: ١٩) ولو أعمل الأول لقال: هاؤم اقرأوه. وقال الشاعر:

قضى كل ذى دين فوفَّى غريمه وعزة ممطولٌ مُعنى غريمها

ولو أعمل الأول لقال: فوفاه غريمه. فأما قول امرئ القيس:

فلو أنما أسعى لأدنى معيشة كفانى ولم أطلب قليل من المال

فإنما أعمل الأول للضرورة؛ لأنه لم يجعل القليل مطلوبًا وإنما كان المطلوب عنده الملك. وجعل القليل كافيًا. ولو لم يرد هذا ونصب لفسد المعنى.

فأما من نصب بتقدير: واغسلوا أرجلكم، كما قالوا:

* متقلدًا سيفا ورمحا *

وقال:

* وعلفها تبنًا وماء باردا *

فقد أخطأ لأن ذلك إنما يجوز إذا استحال حمله على اللفظ.

فأمـا إذا جاز حمله على ما فى اللفـظ، فلا يجوز هذا التقـدير. ومن قال: يجب غسل الرجلين؛ لأنهما محدودتان كـاليدين، فقوله ليس بصحيح؛ لأنَّا لا نسلم أن العلة فى كون اليدين مغسولتين كونهما مـحدودتين، وإنما وجب غسلهما؛ لأنهما عطفا على عضو مغسول، وهو الوجه، فكذلك إذا عطف الرجلين على ممسوح هو الرأس، وجب أن يكونا ممسوحـين. والكعبان عندنا هما الناتئان فى وسط القدم، وبه قـال محمد بن الحسـن، وإن أوجب الغسل. وقـال أكثر المـفسـرين والفقـهاء: الكعـبان هما عـظما السـاقـين، يدل على ما قلناه أنه لو أراد مـا قالوا لقال: إلى الكعـاب؛ لأن فى الرجلين منهـا أربعة. وأيضًـا فكل من قـال: يجب مـسح الرجلين، ولا يجـوز الغسل، قـال: الكعب، وهو ما قلناه؛ لأن من خـالف فى أن الكعب ما قلناه على قولين: قـائل يقول بوجوب الغسل، وآخر يقول بالتخيير».

نكاح الكتابيات:

ولما كان مذهب الطوسى عدم جواز نكاح أهل الكتاب من اليهود والنصارى، فإنا نجده يتأثر بهذا المذهب فيفسر كلام الله على مقتضاه، فنجده عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ ...﴾ (البقرة: ٢٢١) الآية، نجـده يقول: «وهذه الآية على عـمومـها عندنا فى تحـريم مناكحـة الكفار، وليـست منسوخة ولا مخصوصة. وقال ابن عباس فى رواية شهر بن حوشب عنه قال: فرَّق عمر بين طلحة وحذيفة وبين امرأتيهما اللتيْن كانتا عندهما، وقال غيره عن ابن عباس، وإليه ذهب الحسن، ومجاهد والربيع: هى عـامة إلا أنها نسخت بقوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ (المائدة: ٥) وقال قتادة، وسعيد بن جبير: هى على الخصوص، وإنما اختير ما قلناه لأنه لا دليل على نسخها، ولا على خصوصها».

ثم قال: «وعندنا لا يجـوز العقد على الكتابية نكاح الـدوام، لقوله تعالى: ﴿وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ (البـقرة: ٢٢١) ولقوله: ﴿وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ (المـمتحنة: ١٠) فإذا ثبت ذلك قلـنا فى قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ تـأويـلان: أحـدهـمـا: أن يكون المـراد بذلك اللائى أسلمن منهن. والمراد بـقوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ من كن فى الأصل مؤمنات ولدن على الإسلام، قيل: إن

قومًا كانوا يتحرجون من العقد على الكافرة إذا أسلمت، فبين الله بذلك أنه لا حرج فى ذلك، فلذلك أفردهن بالذكر، حكى ذلك البلخى.

والثانى: أن يخص ذلك بنكاح المتعة أو ملك اليمين، لأنه يجوز عندنا وطؤهن بعقد المتعة وملك اليمين، على أنه روى أبو الجارود عن أبى جعفر ـ عليه السلام ـ أن ذلك منسوخ بقوله: ﴿**وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ**﴾ وروى عن عبد الله ـ عليه السلام ـ أنه قال: هو منسوخ بقوله: ﴿**وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ**﴾ وقوله: ﴿**إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ**﴾».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿**وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ**﴾ (الممتحنة: ١٠) قال ما نصه: «وفى ذلك دلالة على أنه لا يجوز العقد على الكافرة سواء كانت ذمية أو حربية أو عابدة وثن، وعلى كل حالٍ؛ لأنه عام فى جميع ذلك، وليس لأحد أن يخص الآية بعابدة الوثن لنزولها بسببهم، لأن المعتبر بعموم اللفظ لا بالسبب».

ثم قال: «والمفسرون على أن حكم هذه الآية منسوخ، وعندنا أن الآية غير منسوخة وفيها دلالة على المنع من تزوج المسلم اليهودية والنصرانية، لأنهما كافرتان، والآية على عمومها فى المنع من التمسك بعصم الكوافر، ولا نخصها إلا بدليل».

الغنائم:

ولما كانت الإمامية الاثنا عشرية لهم فى الغنائم نظام خاص يخالفون به من عداهم، فيوجبون الخُمس لمستحقيه فى مطلق الغنيمة، فهو غير مختص عندهم بغنائم الحرب، بل يشمل أنواعًا سبعة هى: غنائم الحرب، وغنائم الغوص، والكنز الذى يعثر عليه، والمعدن الذى يُستنبط من الأرض، وأرباح المكاسب، والحلال المختلط بالحرام، والأرض المنتقلة من المسلم إلى الذمى. وليس الخُمس الهاشمى الذى يرون وجوبه فيما عدا الغنائم الحربية من الصدقات كما يتوهم البعض، ولكنهم يعتبرونه حقّا امتيازيّا لآل محمد الذين حُرِّمت عليهم الصدقات نظير ما تمتاز به الأسر المالكة اليوم من التمتع بمخصصات خاصة، وقد تضافر الحديث عن الأئمة بأن الخُمس حقٌّ سلطانى بإرادة ملكية، وهى إرادة مليك الكائنات لمستحقيه الذين ذكرهم القرآن(١).

---

(١) تعريف الشيعة ص ٣١.

لما كان هذا، فـإنا نجد الطوسى يُنزل ما ورد فى الغنائم من الآيات عـلى مذهبه، ولهذا عندما فسر قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ...﴾ (الأنفال: ٤١) الآية، يقول متأثرًا بمذهبه:

«وأما خمس الغنيمة فإنه يُقسم عندنا ستة أقسام: فسهم لله، وسهم لرسوله ﷺ، وهذان السهمان مع سهم ذى القربى، للقائم مقام النبى ﷺ ينفقها على نفسه وأهل بيته من بنى هاشم، وسهم لليتامى، وسهم للمساكين، وسهم لأبناء السبيل من أهل بيت الرسول لا يُشركهم فيها باقى الناس، لأن الله تعالى عوَّضهم ذلك عما أباح لفقراء المسلمين ومساكينهم وأبناء سبيلهم من الصدقات، إذ كانت الصدقات محرمة على أهل بيت رسول الله - عليهم السلام - وهو قول على بن الحسين بن على ابن أبى طالب، ومحمد بن على الباقر ابنه عليهم السلام، رواه الطبرى بإسناده عنهما.

وقال الحسين بن على المغربى حاكيًا عن الصابونى من أصحابنا: إن هؤلاء الثلاثة فرق لا يدخلون فى سهم ذى القربى، وإن كان عموم اللفظ يقتضيه؛ لأن سهامهم مفردة، وهو الظاهر من المذهب.

والذين يستحقون الخمس عندنا: من كان ولد عبد المطلب، لأن هاشمًا لم يعقب إلا منه من الطالبيين والعباسيين والحارثيين واللهبيين، فأما ولد عبد مناف من المطلبيين فلا شىء لهم فيه، وعند أصحابنا الخمس يجب فى كل فائدة تحصل للإنسان من المكاسب وأرباح التجارات والكنوز والمعادن والغوص وغير ذلك مما ذكرناه فى كتب الفقه.

ويمكن الاستدلال على ذلك بهذه الآية، لأن جميع ذلك يسمى غنيمة».

ثم قال: «وقد بيَّنا نحن أن المراد بذى القربى أهل بيت النبى ﷺ، وبعد النبى القائم مقامه، وبه قال على بن الحسين - عليه السلام - وروى جبير بن مطعم عن النبى ﷺ: أنهم بنو هاشم، وبنو المطلب، واختاره الشافعى، وقال الحسن وقتادة: سهم الله وسهم رسوله وسهم ذى القربى لولى الأمر من بعده، وهو مثل مذهبنا. وقال أبو على الجبائى: إن الأئمة الأربعة جعلوا سهم الرسول وذى القربى فى الكراع والسلاح، وأجمعوا على أن سهم اليتامى والمساكين وابن السبيل شائع فى الناس بخلاف ما قلناه».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ﴾ (الحشر: ٥) قال الطوسى: «يعنى من اليهود الذين أجلاهم من بنى النضير، وإن كان الحكم ساريًا فى جميع الكفار أيًّا كان حكمهم، فالفىء رد ما كان للمشركين على المسلمين بتمليك الله إياهم ذلك، على ما شرط فيه، يقال: فاء يفىء فيئًا إذا رجع، وأفأته عليه إذا رددته عليه. وقال عمر ابن الخطاب ومعمر: مال الفىء هو مال الجزية والخراج. والفىء كل ما رجع من أموال الكافرين إلى المؤمنين، سواء كان غنيمة أو غير غنيمة، فالغنيمة ما أخذ بالسيف، فأربعة أخماسه للمقاتلة وخمسه للذين ذكرهم الله فى قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم ...﴾ (الأنفال: ٤١) الآية.

وقال كثير من العلماء: إن الفىء المذكور فى هذه الآية هو الغنيمة. وقال قوم: مال الفىء خلاف مال الصدقات، لأن مال الفىء أوسع، فإنه يجوز أن يصرف فى مصالح المسلمين، ومال الصدقات إنما هو فى الأصناف الثمانية. قال قوم: مال الفىء يأخذ منه الفقراء من قرابة رسول الله ﷺ بإجماع الصحابة فى زمن عمر بن الخطاب، ولم يخالفه فيه أحد إلا الشافعى، فإنه قال: يأخذ منه الفقراء والأغنياء، وإنما ذُكِروا فى الآية لأنهم مُنعوا الصدقة، فبيَّن الله أن لهم فى مال الفىء حقًّا. وقال عمر بن الخطاب: مال بنى النضير كان فيأ لرسول الله ﷺ خاصة ﴿وَلِذِى الْقُرْبَىٰ﴾ قرابة رسول الله صلى الله عليه وآله من بنى هاشم وبنى عبد المطلب. وقيل: جعل أبو بكر وعمر سهمين: سهم رسوله وسهم قرابته من الأغنياء فى سبيل الله، وصدقة عن رسول الله ﷺ، ذكره قتادة. والباقى فى أهل الحاجة من أطفال المسلمين الذين لا أبًا لهم، وابن السبيل المنقطع به من المسافرين فى غير معصية الله. وقال يزيد بن رومان: الغنيمة ما أخذ من دار الحرب بالقتال عنوة. وقيل: كانت الغنائم فى صدر الإسلام لهؤلاء الأصناف، ثم نسخ بما ذكره فى سورة الأنفال: بالخمس، والباقى للمحاربين، ذكره قتادة.

والذى نذهب إليه أن مال الفىء غير مال الغنيمة، فالغنيمة كل ما أخذ من دار الحرب بالسيف عنوة مما يمكن نقله إلى دار الإسلام، وما لا يمكن نقله إلى دار الإسلام، فهو لجميع المسلمين ينظر فيه الإمام ويصرف انتفاعه إلى بيت المال لمصالح

المسلمين. والفىء كل ما أخذ من الكفار بغير قتال أو انجلاء أهلها، وكان ذلك للنبى ﷺ وآله خاصة يضعه فى المذكورين فى هذه الآية، وهو لمن قام مقامه من الأئمة الراشدين».

ميراث الأنبياء:

والطوسى يقول - كغيره من علماء مذهبه - بأن الأنبياء يورثون، ولذلك نراه عند تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ (مريم: ٤، ٥) يقول: «وفى الآية دلالة على أن الأنبياء يورثون المال بخلاف ما يقول من خالفنا أنهم لا يورثون؛ لأن زكريا صرَّح بدعائه وطلب من يرثه ويحجب بنى عمه وعصبته من الولد. وحقيقة الميراث: انتقال ملك المورث إلى ورثته بعد موته بحكم الله، وَحَمْلُ ذلك على العلم والنبوة على خلاف الظاهر، لأن النبوة والعلم لا يورثان؛ لأن النبوة تابعة للمصلحة لا مدخل للنسب فيها، والعلم موقوف على من يتعرض له ويتعلمه، على أن زكريا إنما سأل وليّا من ولده يحجب مواليه من بنى عمه وعصبته من الميراث، وذلك لا يليق إلا بالمال؛ لأن النبوة والعلم لا يحجب الولد عنهما بحال، على أن اشتراطه أن يجعله (رضيّا) لا يليق بالنبوة، لأن النبى لا يكون إلا رضيّا معصومًا فلا معنى لمسألته ذلك، وليس كذلك المال، لأنه يرثه الرضى وغير الرضى».

الإجماع وعصمة الأئمة:

ولما كان الطوسى كعلماء مذهبه لا يعتبرون حُجية الإجماع مهما كان نوعه إلا إذا كان كاشفًا عن رأى الإمام أو كان داخلاً فى جملة المجمعين(١)، فإنا نراه يرد الأدلة القرآنية التى استدل بها الجمهور على حجية الإجماع ويناقشهم فى فهم هذه الآيات، فمثلاً عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة: ١٤٢) يقول: «فأما الأمة فجماعتها حجة دون كل واحد منها. واستدل البلخى، والجبائى، والرمانى، وابن الأخشاد، وكثير من الفقهاء، وغيرهم بهذه الآية على أن الإجماع حجة من حيث أن الله وصفهم بأنهم عدول، فإذا

---

(١) تعريف الشيعة ص ١٦.

عدَّلهم الله تعالى، لم يجز أن تكون شهادتهم مردودة، وقد بيَّنا فى أصول الفقه أنه لا دلالة فيها على أن الإجماع حجة وجملته أن الله تعالى وصفهم بأنهم عدول، وبأنهم شهداء، وذلك يقتضى أن يكون كل واحد عدلا، وشاهدًا، لأن شهداء جمع شهيد، وقد علمنا أن كل واحد من هذه الأمة ليس بهذه الصفة، فلم يجز أن يكون المراد ما قالوه، على أن الأمة إن أريد بها جميع الأمة، فقد بينا أن فيها كثيرًا ممن يحكم بفسقه بل بكفره، فلا يجوز حملها على الجميع. وإن خصوها بالمؤمنين العدول، لنا أن نخصها بجماعة، كل واحد منهم موصوف بما وصفنا به جماعتهم: وهم الأئمة المعصومون من آل الرسول ﷺ، على أنَّا لو سلمنا ما قالوه من كونهم عدولا، ينبغى أن نجنبهم ما يقدح فى عدالتهم، وهى الكبائر، فأما الصغائر فلم يمكنا أن نحتج بإجماعهم، لأن ما من شىء أجمعوا عليه إلا ويجوز أن يكون صغيرًا فلا يقدح فى عدالتهم، ولا يجب الاقتداء بهم فيه لكونه قبيحًا. وفى ذلك بطلان الاحتجاج بإجماعهم. وكيف يجنبون الصغائر وحال شهادتهم ليس بأعظم من شهادة النبى ﷺ، ومع هذا يجوزون عليه الصغائر، فهلا جاز مثل ذلك عليهم، ولا تقدح فى عدالتهم كما لم تقدح فى عدالة النبى ﷺ».

وعند تفسيره قوله تعالى: ﴿**وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا**﴾ (النساء: ١١٥) قال: «وقد استدل خلق من المتكلمين والفقهاء بهذه الآية على أن الإجماع حجة، بأن قالوا: توعد الله على اتباع غير سبيل المؤمنين كما توعد على مشاقة الرسول ﷺ فلولا أن اتباعهم واجب لم يجز».

وأيضًا عند تفسير قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِى شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا**﴾ (النساء: ٥٨) قال ما نصه: «واستدل جماعة بهذه الآية على أن الإجماع حجة بأن قالوا: إنما أوجب الله الرد إلى الكتاب والسنة بشرط وجود التنازع، فدل على أنه إذا لم يوجد التنازع، لا يجب الرد، ولا يكون كذلك إلا وهو حجة، وهذا إن استدل به مع فرض أن فى الأمة معصومًا حافظا للشرع كان صحيحًا، وإن

فرضوا مع عدم المعصوم كان باطلا، لأن ذلك استدلال بدليل خطاب، لأن تعليق الحكم بشرط أو صفة لا يدل على أن ما عداه بخلافه عند أكثر المحصلين، فكيف يعتمد عليه ههنا، على أنهم لا يجمعون على شىء إلا عن كتاب أو سنة، فكيف يقال: إذا أجمعوا لا يجب عليه الرد إلى الكتاب والسنة، وهم قد ردوا إليها، على أن ذلك يلزم فى كل جماعة، وإن لم يكونوا جميع الأمة إذا اتفقوا على شىء ألا يجب عليهم الرد إلى الكتاب والسنة؛ لأن قوله: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ﴾ يتناول جماعة ولا يستغرق جميع الأمة، فعلم بذلك فساد الاستدلال بما قالوه. وقد بيَّنا الكلام على ذلك مستوفًى فى «العدة فى أصول الفقه».

تأثر الطوسى بمذهب المعتزلة فى تفسيره:

هذا.. وإن عقيدة الطوسى كعقيدة غيره من الشيعة لها كثير الارتباط بمبادئ المعتزلة فى علم الكلام، ولهذا نراه فى تفسيره كثيرًا ما يوافق المعتزلة فى بعض آرائهم الكلامية ويرتضى مذهبهم ويدافع عنه، ويحاول أن يهدم ما عداه. وأحيانًا نراه لا يرتضى ما يقوله المعتزلة ولا يُسلمه لهم بل يقف موقف المنازع لهم، والمعارض لأدلتهم.

الهدى والضلال:

ففى الآيات التى لها تعلق بهداية العبد وضلاله، نراه يوافق المعتزلة فى عقيدتهم، ويدافع عنها، ويهدم ما عداها.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا ...﴾ (الأنعام: ١٢٥).. الآية يقول ما نصه: «وقيل فى معنى الآية والإضلال فى الآية قولان:

أحدهما: أنه يريد بالهدى تسهيل السبيل إلى الإسلام بالدلائل التى يشرح بها الصدر، والإضلال تصعيب السبيل إليه بالدلائل التى يضيق بها الصدر، لأن حاله أوجبت تغليظ المحنة عليه من غير أن يكون هناك مانع له ولا تدبير غير أولى منه، وإنما هو حض على الاجتهاد فى طلب الحق حتى ينشرح بالدلائل الصدر، ولا يضيق بدعائها إلى خلاف ما سبق من العقد، والهدى إلى ما طلبه طالب الحق، والإضلال عما طلبه طالب تأكيد الكفر.

والثانى: أن يراد بالهداية: الهداية إلى الثواب، وبالإضلال: الإضلال عن الثواب والسلوك به إلى العقاب، ويكون التقدير: من يرد الله أن يهديه للثواب فى الآخرة فيشرح صدره للإسلام فى الدنيا بأن يفعل له اللطف الذى يختار عنده الإسلام، ومن يرد أن يعاقبه ويعدل به عن الثواب إلى النار يجعل صدره ضيقًا حرجًا بما سبق من سوء اختياره الكفر جزاء على فعله ويخذله ويخلى بينه وبين ما يريده من الكفر أو يحكم على قلبه بالضيق والحرج، أو يسميه بذلك على ما فسرناه.

وهذا الإضلال لا يكون إلا مستحقًا كما أن تلك الهداية لا تكون إلا مستحقة، وقد سمى الله تعالى الثواب هداية فى قوله: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ**﴾ (الأعراف: ٤٣) وقال: ﴿**وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ**﴾ (محمد: ٤، ٥) والهداية بعد القتل إنما هى الثواب فى الجنة، وقال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى**﴾ (محمد: ١٧) وقال: ﴿**وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ**﴾ (التغابن: ١١) وقال: ﴿**يَهْدِى بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ**﴾ (التغابن: ١١) وقال: ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا**﴾ (العنكبوت: ٦٩) وكل ذلك يراد به الثواب، وقد سمى العقاب ضلالا فى قوله: ﴿**وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ**﴾ (إبراهيم: ٢٧) وقوله: ﴿**وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ**﴾ (البقرة: ٢٦).

وهذه الجملة معنى قول أبى على الجبائى والبلخى، والأول قول الرمانى، وقيل أيضا: إنما يشرح قلب المؤمن بالآيات، والدلائل لكونه طالب للحق، ولم يفعل ذلك بالكافر لكونه طالبًا لتأكيد الكفر، وفى هذا الوجه حضٌّ على طلب الحق».

رؤية الله تعالى فى الآخرة:

كذلك يقول الطوسى بما يقول به المعتزلة من عدم جواز رؤية الله ووقوعها فى الآخرة، ولهذا نراه يفسر قوله تعالى فى الآيتين: (٢٢، ٢٣) من سورة القيامة: ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**﴾ بما يتفق ومذهبه فيقول: «وقوله: ﴿**إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**﴾ معناه منتظرة نعمة ربها وثوابه أن يصل إليهم. وقيل: ﴿**نَّاضِرَةٌ**﴾ أى: مشرقة ﴿**إِلَى**﴾ ثواب ربها ﴿**نَاظِرَةٌ**﴾ وليس فى ذلك تنغيص لأن الانتظار إنما يكون فيه تنغيص إذا كان لا يوثق بوصوله إلى المنتظر أو هو محتاج إليه فى الحال. والمؤمنون

بخلاف ذلك، لأنهم فى الحال مُستـغنون مُنعمون، وهم أيضًا واثقون أنهم يصلون إلى الثواب المنتظر. والنظر هو تقارب الحدقة الصحيحة نحو المرئى طلبًا للرؤية.

ويكون النظر بمعنى الانتظار، كما قال تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ﴾ (النمل: ٣٥) أى منتظرة، وقال الشاعر:

وجـــــوه يـــوم بـــدر ناظـرات إلى الـرحـــمن تـأتى بالفـــلاح

أى منتظرة للرحمة التى تنزل عليهم.

وقد يقـول القـائل: إنما عـينى ممـدودة إلى الله، وإلى فلان، وأنظر إلـيه، أى: أنتظر خيـره ونفعـه، وأؤمـل ذلك مـن جـهته، وقوله: ﴿وَلا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (آل عمران: ٧٧) معناه: لا ينيلهم رحمته.

ويكون النظر بمعنى المـقابلة، ومنه المناظرة فى الجدل، ومنه نظر الـرحمة، أى: قابله بالرحمة، ويقال: دور بنى فـلان تتناظر أى تتقابل، وهو ينظر إلى فلان أى يؤمله وينتظر خيره، وليس النظر بمعنى الرؤية أصلا؛ بدلالة أنهم يقولون: نظرت إلى الهلال فلم أره، فلو كـان بمعنى الرؤيـة لكان متناقـضًا، ولأنهم يجـعلون الرؤية غـاية للنظر يقولون: مـا زلت أنظر إليه حتى رأيـته، ولا يجعل الشىء غـاية لنفسه، لا يقـال: بما زلت أراه حتى رأيتـه، ويعلم الناظر ناظرًا ضرورة، ولا يعلم كونه رائيًا بل يـسأل بـعد ذلك: هـل رأيت أم لا؟ ودخـول «إلى» فى الآية لا يدل على أن المـراد بالنظر الرؤية، ولا تعليقه بالوجوه يدل على ذلك، لأنَّا أنشدنا البيت، وفيه تعليق النظر بالوجه وتعديه بحرف «إلى» والمراد به الانتظار، وقال جميل بن معمر:

وإذا نـظـرت إلـيـك مـن مـلـك والبـحـر دونك جـدتـنى نعـمـاء

والمراد بـه الانتظار والتأمـيل، وأيضًا فإنـه فى مقابلـة قوله فى صفـة أهل النار: ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ (القيامـة: ٢٥) فالمؤمنون يؤمنون بتـجديد الكرامة وينتظرون الثواب، والكفار يظنون الفاقـرة، وكله راجع إلى فعل القلب، ولو سلمنا أن النظر يعد الرؤية لجاز أن يكون المراد أنها رؤية ثواب ربها، لأن الثواب الذى هو أنواع اللذات من المأكول والمـشروب والمنكوح تصح رؤيته. ويجوز أيـضًا أن يكون إلى واحد الآلاء، وفى واحدها لغـات: «ألا» مثل قـفا، و «ألى» مثل مـعى، و «ألى» مثل حـسى، فإذا

أضيف إلى غيره سقط التنوين، ولا يكون (إلى) حرفًا فى الآية، وكل ذلك يبطل قول من أجاز الرؤية على الله تعالى».

السحر:

والطوسى ينكر حقيقة السحر ولا يقول به، ويخالف جمهور أهل السنة فى ذلك، ويرد أدلتهم، وينكر حديث البخارى فى سحر رسول الله ﷺ، ولهذا تراه فى تفسيره لقوله تعالى: للآية (١٠٢) من سورة البقرة: ﴿**وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ**﴾... الآية، يقول ما نصه:

«وقيل فى معنى السحر أربعة أقوال:

أحدها: أنه خدع ومخاريق وتمويهات لا حقيقة لها يخيل إلى المسحور أن لها حقيقة.

والثانى: أنه أخذ بالعين على وجه الحيلة.

والثالث: أنه قلب الحيوان من صورة إلى صورة، وإنشاء الأجسام على وجه الاختراع، فيمكن للساحر أن يقلب الإنسان حمارًا وينشئ أجسامًا.

والرابع: أنه ضرب من خدع الجن كالذى يمسك له التجدل فيصرع.

وأقرب الأقوال الأول، لأن كل شىء خرج عن العادة الخارقة فإنه لا يجوز أن يتأتى من الساحر. ومن جوَّز للساحر شيئًا من هذا فقد كفر لأنه لا يمكنه مع ذلك العلم بصحة المعجزات الدالة على النبوات، لأنه أجاز مثله من جهة الحيلة والسحر».

ثم قال: «فأما ما روى من أن النبى ﷺ سُحِرَ، وكان يرى أنه يفعل ما لم يفعله، وأنه لم يفعله، فأخبار آحاد لا يلتفت إليها، وحاشا النبى ﷺ من كل صفة نقص، إذ تنفر من قبول قوله؛ لأنه حجة الله على خلقه، وصفيه من عباده، واختاره الله على علم منه. فكيف يجوز ذلك مع ما جنَّبه الله من الفظاظة والغلظة، وغير ذلك من الأخلاق الدنيئة، والخلق المشينة، ولا يجوِّز ذلك على الأنبياء إلا من لم يعرف مقدارهم ولا يعرفهم حقيقة معرفتهم، وقد قال الله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ**﴾، وقد أكذب الله من قال: ﴿**إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا**﴾ فقال: ﴿**إِذْ يَقُولُ**

الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا﴾ (الإسراء: ٤٧) فنعوذ بالله من الخذلان، ونحمده على التوفيق لما يرضاه».

الشفاعة:

هذا.. ولا يلتزم الطوسى القول بكل آراء المعتزلة، بل نراه يخالفهم فى كثير من الأحيان، ويرد عليهم آراءهم، ويجادلهم فيها جدالاً عنيفًا قويًا.

فمذهب الطوسى فى الشفاعة مثلاً يخالف مذهب المعتزلة، ولهذا نراه عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٤٨) من سورة البقرة: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ يقول ما نصه:

«وتقول: فلان يشفع إلىَّ بالعداوة، أى: يعين علىَّ ويعادينى، وتقول: شفعت الرجل: إذا صرت ثانيه، وشفعت له: إذا كانت له شافعًا، وإنما سميت شفعة الدار، لأن صاحبها يشفع ما له بها، ويضمها إلى ملكه، وقوله: ﴿وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ مخصوص عندنا بالكفار، لأن حقيقة الشفاعة عندنا أن يكون فى إسقاط المضار دون زيادة المنافع، والمؤمنون عندنا يشفع لهم النبى ﷺ فيشفعه الله تعالى ويسقط بها العقاب عن المستحقين من أهل الصلاة لما روى من قوله ﷺ: ادخرت شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى» وإنما قلنا لا تكون فى زيادة المنافع؛ لأنها لو استعملت فى ذلك، لكان أحدنا شافعًا فى النبى ﷺ إذا سأل الله أن يزيده فى كراماته، وذلك خلاف الإجماع، فعلم بذلك أن الشفاعة مختصة بما قلناه، وعلم بثبوت الشفاعة أن النفى فى الآية يختص بالكفار دون أهل القبلة.

والشفاعة ثبتت عندنا للنبى ﷺ وكثير من أصحابه ولجميع الأئمة المعصومين وكثير من المؤمنين الصالحين، وقيل: إن نفى الشفاعة فى هذه الآية يختص باليهود من بنى إسرائيل، لأنهم ادعوا أنهم أبناء الله وأحباؤه وأولاد أنبيائه، وأن آباءهم يشفعون إليه، فآيسهم الله من ذلك، فأخرج الكلام مخرج العموم، والمراد به الخصوص، ولا بد من تخصيص الآية لكل أحد، لأن المعتزلة القائلين بالوعيد يثبتون شفاعة مقبولة ـ وإن قالوا: إنها فى زيادة المنافع».

حقيقة الإيمان:

والطوسى أيضًا يخالف المعتزلة فى حقيقة الإيمان، فلذلك لما عرض لتفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ (البقرة: ١٤٣) قال:

«واستدل من قال الصلاة: الإيمان بهذه الآية، فقالوا: سمى الله الصلاة إيمانًا على تأويل ابن عباس، وقتادة، والسدى، والربيع، وداود بن أبى عاصم، وابن زيد، وسعيد ابن المنذر، وعمرو بن عبيد، وواصل، وجميع المعتزلة. ومن خالفهم من المرجئة لا يسلم هذا التأويل ويقول: الإيمان على ظاهره وهو التصديق ولا ينزل ذلك بقول من ليس قوله حجة، لأنهم ليسوا جميع المفسرين بل بعضهم ولا يكون ذلك حجة».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ (آل عمران: ١٩) الآية، قال: «والإيمان عندنا وعند المعتزلة بمعنًى واحد، غير أن عندهم أن فعل الواجبات من أفعال الجوارح من الإيمان، وعندنا أن أفعال الواجبات من أفعال القلوب التى هى التصديق من الإيمان، فأما أفعال الجوارح، فليست من الإيمان، وإن كانت واجبة».

موقفه من أصحاب الكبائر:

وقد خالف الطوسى المعتزلة فى هذه المسألة فقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (النساء: ١٣) قال: «واستدلت المعتزلة بهذه الآية على أن فاسق أهل الصلاة مخلد فى النار، ومعاقب لا محالة، وهذا لا دلالة لهم فيه من وجوه؛ لأن قوله: ﴿وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ﴾ إشارة إلى من يتعدى جميع حدود الله، ومن كان كذلك فعندنا يكون كافرًا، وأيضًا فلا خلاف أن الآية مخصوصة بصاحب الصغيرة، وإن كان فعل المعصية، وتعدى حدًا فإنه خارج منها، فإن جاز لهم إخراج الصغيرة منها لدليل، جاز لنا أن نخرج من يتفضل الله عليه بالعفو، أو يشفع فيه النبى ﷺ، وأيضًا فإن التائب لا بد من إخراجه من هذه الآية لقيام الدلالة على وجوب قبول التوبة، فكذلك يجب أن يشترط من يتفضل الله بإسقاط عقابه، **فإن قالوا:** قبول التوبة واجب، والعفو ليس بواجب؟ **قلنا:** قبول التوبة واجب إذا حصلت، وكذلك سقوط العقاب واجب إذا حصل العفو. **فإن قالوا:** يجوز أن لا يختار الله العفو، **قلنا:** وكذلك يجوز ألا يختار العاصى التوبة، فإن جعلوا الآية دالة على أن

الله لا يختار العفو، جاز لغيرهم أن يجعل الآية دالة على أن العاصى لا يختار التوبة، على أن هذه الآية معارضة بآيات كثيرة، فى وقوع العفو. كقوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ (النساء: ٤٧) على ما سنبينه فيما بعد، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ (الزمر: ٥٢) وقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ (الرعد: ٥). فإن شرطوا فى آياتنا التوبة، شرطنا فى آياتهم ارتفاع العفو، والكلام فى ذلك مستقصًى فى الوعيد، لا نطول بذكره فى هذا الكتاب».

وكذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٩٢) قال الطوسى: «واستدلت المعتزلة بهذه الآية على أن مرتكب الكبيرة مخلد فى نار جهنم، وأنه إذا قتل مؤمنًا، فإنه يستحق الخلود، ولا يعفى عنه بظاهر اللفظ. ولنا أن نقول: ما أنكرتم أن يكون المراد بالآية للكفار ومن لا ثواب له أصلا. فأما من هو مستحق للثواب، فلا يجوز أن يكون مرادًا بالخلود أصلا، لما بيَّناه فيما مضى من نظائره. وقد روى أصحابنا أن الآية متوجهة إلى من يقتل المؤمن لإيمانه، وذلك لا يكون إلا كافرا. وقال عكرمة، وابن جريج: أن الآية نزلت فى إنسان بعينه ارتد ثم قتل مسلمًا، فأنزل الله تعالى فيه الآية؛ لأنه كان مستحلا لقتله، على أنه قد قيل: إن قوله: ﴿خَالِدًا فِيهَا﴾ لا يفهم من الخلود فى اللغة إلا طول اللبث، فأما البقاء ببقاء الله، فلا يعرف فى اللغة، ثم لا خلاف أن الآية مخصوصة بمن لا يتوب؛ لأنه إن تاب فلا بد من العفو عنه إجماعًا، وبه قال مجاهد. وقال ابن عباس: لا توبة له ولا إذا قتله فى حال الشرك ثم أسلم وتاب. وبه قال ابن مسعود، وزيد بن ثابت، والضحاك. ولا يعترض على ما قلناه قول من يقول: إن قاتل العمد لا يوفق للتوبة؛ لأن هذا القول إن صح فإنما يدل على أنه لا يختار التوبة. ولا ينافى ذلك القول بأنها لو حصلت لأزالت العقاب».

ثم قال: «وإذا كان لا بد من تخصيص الآية بإخراج التائبين عنها، جاز لنا أن نخرج منها من يتفضل الله عليه بالعفو، على أن ظاهر الآية يتضمن أن جزاءه جهنم، فمن أين أن ذلك لا بد من حصوله، وأن العفو لا يجوز حصوله؟ وهذا قول أبى مجلز وأبى صالح. ولا يدفع ذلك قوله: ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا

عَظِيمًا﴾ (النساء: ٩٢) لأن ذلك إخبار عن أنه مستحق لذلك، فمن أين حصوله لا محالة؟ وقال الجبائى: الجزاء عبارة عما يفعل، وما لا يفعل لا يسمى جزاء. ألا ترى أن الأجير إذا استحق الأجرة على من استأجره، لا يقال فى الدراهم التى مع المستأجر سواء فعل، أو لم يفعل ألا ترى أنا نقول: جزاء من فعل الجميل أن يقابل عليه بمثله، وإن كان ما فعل بعد؟ وإنما يراد أنه ينبغى أن يقابل بذلك. ونقول: من استحق عليه القود، أو حد من الحدود إن جزاء هذا أن يقتل، أو يقام عليه الحد. ولو كان الأمر على ما قالوه لوجب ألا يكون الخلود فى النار جزاء للكفار، لأنه لم يقع بعد، ولا يصح أن يقع، لأن ما يوجد منه لا يكون إلا متناهيًا، وإنما لم يقل فى الدراهم، إنها جزاء لعمله، لأن ما يستحقه الأجير فى الذمة لا يتعين فى دراهم معينة، وللمستأجر أن يعطيه منها، ومن غيرها، فلذلك لم توصف هذه المعينة بأنها جزاء للعمل، ثم لنا أن نعارض بآيات الغفران، كقوله: **﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾** (النساء: ٤٧) وقوله: **﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾** (الزمر: ٥٢) وقوله: **﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾** (الرعد: ٥) وإذا تعارضا، وقفا وبقينا على جواز العفو عقلا».

موقفه من التفضيل بين الملائكة والأنبياء:

والطوسى يخالف المعتزلة فى هذه المسألة فيقول عند تفسير قوله تعالى: **﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾** (الأعراف: ٢٠): «واستدل جماعة من المعتزلة بهذه الآية على أن الملائكة أفضل من البشر - والأنبياء منهم - وهذا ليس بشىء، لأنه لم يجر ههنا ذكر لكثرة الثواب وأن الملائكة أكثر ثوابًا من البشر، بل كان قصد إبليس أن يقول لآدم: ما نهاك الله عن أكل الشجرة إلا أن تكونا ملكين، فإن كنتما ملكين فقد نهاكما، وحيث لستما من الملائكة فما نهاكما الله عن أكلها».

حدوث القرآن:

والطوسى - كغيره من الإمامية - يقول بخلق القرآن، فعند تفسير قوله تعالى: **﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾** (الحجر: ٨) قال: «وفى هذه الآية دلالة على حدوث

القرآن، لأن مـا يكون منزلاً ومحفوظًا لا يكـون إلا محدثا؛ لأن القديم لا يجـوز عليه ذلك ولا يحتاج إلى حفظه».

موقفه من الإسرائيليات:

وكثيرًا ما يروى الطبرسى فى تفسيره الروايات الإسرائيلية معزوة إلى قائليها ونلاحظ عليه أنه يذكرها بدون أن يعقب عليها.. اللهم إلا إذا كانت مما يتنافى مع العقيدة، فإنه ينبه على كذب الرواية، ويبين مـا فيها من مجافاتها للحق وبعـدها عن الصواب، فمثلا عند تفسيـر قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ (سـورة ص: ٢٠) الآيات، قال بعد أن ذكر ما روى فى ذلك من الإسرائيليات: «فخبر باطل موضوع وهو مع ذلك خبر واحد لا أصل له ولا يجوز أن تقبل أخبار الآحاد فى ما يتضمن فى الأنبياء ما لا يجوز على أدون الناس، فإن الله نزَّههم عن هذه المنزلة وأعلى قدرهم عنـها وقـد قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ﴾ (الحج: ٧٥) وقال: ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (الدخـان: ٣٢) فكيف يختار تعالـى من يتعشق نساء أصحابه ويعرضـهم للقتل من غير استحقاق، ولايجـوِّز مثل هذا على الأنبياء إلا من لا يعرف مقدارهم ولا يعتقد منزلتهم التى خصهم الله فيها، نعوذ بالله من سوء التوفيق.

وقد روى عن على ـ عليه السـلام ـ أنه قال: «لا أوتى برجل يقول إن داود ارتكب فاحشة إلا ضربته حدين: أحدهما للقذف، والآخر: لأجل النبوة».

وكذلك عند تفـسير قـوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ (سـورة ص: ٣٤) الآية، قال: «والذى قاله المـفسرون من أهل الحق ومن نزَّه الأنبيـاء عن القبائح ونزه الله تعـالى عن مثل ذلك هو أنه لا يجـوز أن يُمكن الله تعالى جنيّا ليتمثل فى صورة نبى لما فى ذلـك من الاستبعاد، وأن النبوة لا تكون فى الخاتم، وأنه تعـالى لا يسلب النبى نبوته، وليس فـى الآية شىء من ذلك، وإنما قـال فيـها أنه ألقى على كرسيه جسدا».

الطوسى والمسائل الكونية:

احـتوى «التبيـان» على بعض الإشـارات العلميـة التى تنم عن سـعة أفق تفكيـر الطوسى، حيث كان لا يستبعد فكرة كروية الأرض، مـخالفًا بذلك جمعًا من المفسرين

وأصحاب الرأى، فعند تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً...﴾ (البقرة: ٢١) الآية، قال: «واستدل أبو على الجبائى بهذه الآية على أن الأرض بسيطة ليست كرة كما يقول المنجمون والبلخى بأن قال: جعلها فراشًا، والفراش البساط، بسط الله تعالى إياها، والكرة لا تكون مبسوطة، قال: والعقل يدل أيضًا على بطلان قولهم لأن الأرض لا يجوز أن تكون كروية مع كون البحار فيها لأن الماء لا يستقر إلا فيما له جنبان يتساويان لأن الماء لا يستقر فيه كاستقراره فى الأوانى فلو كانت له ناحية فى البحر مستعلية على الناحية الأخرى لصار الماء من الناحية المرتفعة إلى الناحية المنخفضة كما يصير كذلك إذا امتلأ الإناء الذى فيه الماء، وهذا لا يدل على ما قاله لأن قول من قال الأرض كروية معناه إن لجميعها شكل الكرة».

وأخيرًا .. فقد قرأنا «التبيان» ووجدنا أن الطوسى معتدل فى تشيعه غير مغال فيه كغيره من متطرفى الإمامية الاثنى عشرية، ولم نلمس عليه تعصبًا ممقوتًا، ولم نأخذ عليه أنه كفَّر أحدًا من الصحابة أو طعن فيهم بما يذهب بعدالتهم ودينهم.

كما أنه لم يغال فى شأن علىٍّ بما يجعله فى مرتبة الإله أو مصاف الأنبياء وإن كان يقول بالعصمة للأئمة.

وكل ما لاحظناه عليه من تعصبه أنه يدافع بكل قوة عن أصول مذهبه وعقائد أصحابه، كما أنه إذا روى أقوال المفسرين فى آية من الآيات ونقل أقوال المفسرين من أهل مذهبه فيها نجده يرتضى قول علماء مذهبه ويؤيده بما يظهر له من الدليل.





كتب ورسائل للإسماعيلية

١ - أساس التأويل.

٢ - مسائل مجموعة من الحقائق العالية والدقائق والأسرار السامية.

٣ - رسالة الإيضاح والتبيين.

٤ - مزاج التسنيم.



١- أســـاس التأويـــل

للنعمان بن حيون التميمى

التعريف بصاحب الكتاب[١]:

أولاً: هو قاضى القضاة، النعمان بن محمد بن منصور بن أحمد التميمى، واختلف فى تاريخ ولادته، فقال بعضهم: ٢٥٩هـ. وقال آخرون: إنه ولد فى العشر الأخير من القرن الثالث.

اتصل فى أول عهده بمؤسس الدولة العبيدية، وبعد وفاة المهدى ولاه «القاسم بأمر الله» قضاء طرابلس الغرب، وفى عهد المنصور تولى قضاء المنصورية، ولما دخل المعز مصر، كان معه «النعمان»، وأصبح قاضيًا للقضاة. ووضع للمعز أسس القانون الفاطمى، وينظر إليه أنه المشرع الأكبر للعبيديين.

قال عنه الذهبى: «العلامة المارق، قاضى الدولة العبيدية، كان مالكيّا فارتد إلى مذهب الباطنية، ووضع لهم أسس الدعوة، ونبذ الدين وراء ظهره، وانسلخ من الدين، فبُعدًا له وسُحقًا».

وقال عنه ابن العماد فى «شذرات الذهب»: «والنعمان بن محمد بن منصور القيروانى، القاضى أبو حنيفة، الشيعى ظاهرًا، الزنديق باطنًا، قاضى قضاة الدولة العبيدية، صنف كتبًا فى ابتداء الدعوة، وكتابًا فى فقه الشيعة، وكتبًا كثيرًا تدل على انسلاخه من الدين، يبدل فيها معانى القرآن ويحرفها».

ويكاد لا يوجد من يوازى النعمان بن محمد هذا فى قَدْرِ ما خدم به دعوتهم من تدوين عقائدهم وأخبار أئمتهم، إذ له ما يقرب من خمسين مصنفًا فى ذلك، طبع منها: دعائم الإسلام، وتأويل الدعائم، الاقتصاد فى الفقه، أساس التأويل، وهو ما نحن بصدد دراسته، افتتاح الدعوة، الأرجوزة المختارة، شرح الأخبار فى فضائل الأئمة الأخيار، المجالس والمسايرات، واختلاف الفقهاء، ينتصر فيه لأهل البيت.

توفى النعمان أول رجب سنة ٣٦٣هـ، وصلّى عليه المعز، ودفن فى داره بالقاهرة.

---

(١) مصادر الترجمة: أعيان الشيعة (١٠/ ٢٢٣)، وفيات الأعيان (٥/ ٤١٥) روضة الجنان (٢/ ٢١٩).

التعريف بهذا الكتاب:

واالكتاب طُبع ضمن منشورات دار الثقافة ـ بيـروت ـ بتحقيق الأستاذ عارف تامر، والذى أورد فى مقدمة الكتاب:

«ترددت كثيرًا قبل أن أُقدم عـلى دفع هذا الكتاب إلى الطبع، وما ذلك إلا لرغبتى التامة فى الإبقاء عليه مدة أطول فى كهف التقية بين مجموعة المخطوطات الإسماعيلية الأخرى التى لم يحن وقت نشرها وتعميمها بعد» (ص ٥).

ثم قـال فى مـقدمـتـه: «إنه ـ أى أساس التـأويل ـ الكتاب الوحيـد بين مجمـوعة المخطوطات الإسـماعيلية الذى يعـالج موضوعًا مـعينًا هو (التأويل)، والسفـر النفيس الذى يمثل الفكرة الأساسـية لهذا العالم تمثـيلاً متزنًا معقـولا، ويعرضها عرضًا دقـيقًا مفصلا» (ص ٥).

ثم قـال: «لقد كان التأويل فى عهد الدعـوة الإسماعيلية المبكر وفى إبان ازدهارها هو الموضوع الأساسى لكل فكرة فلسفية باطنة، والشجرة التى نمت وترعرعت ثم تفرع منهـا الكثيـر من الأغصـان، أو بلغـة أصح: الأساس الذى تركـزت عليه هذه الدعـوة الفكرية، والغذاء الذى مَوَّن الفلسفة البـاطنية بالحِكَم والمنطق والبيان، ولأجل هذا كله اعتبر «أساس التأويل» لدى الإسماعيلية من الكتب الثمينة، والذخائر الغالية التى تقضى تعاليمها العقائدية بالمحافظة على سريتـه وكتمان تعاليمه والسهر على منع تسرب المواد العقائدية التى وردت فـيه لمن هم من غير الإسماعـيليين، وكان هذا يعتبر سـر العقيدة ومفتاح باب الدعوة، مضافـًا إلى ذلك أن فى الكتاب تأويلا لقصص الأنبياء التى وردت فى الكتب السمـاوية الثلاث: التوراة، والإنجـيل، والقرآن، فكل هذا يُشكِّل موضـوعًا تقضى العقيدة بالمحافظة على أسراره التامـة مما يخرج عن نطاق المفهوم لدى طبقات العامـة الذين اعتبروا بأنهم لم ينالوا مـن الثقافة إلا قـشورها، ومن العلوم إلا ظاهرها» (ص ٥، ٦).

وقـال: «قد يكون من الواضح أن التأويل بمعناه الواقعى لدى الإسماعيليين يختلف عن التفسير بمعناه الصحيح لدى عامة الفرق الإسـلامية الأخرى، فالتفسير معناه: جلاء المعنى لكل كلمة غامضـة لا يفهم معناها القارئ، فإذا سُئلنا مثلا مـا هو تفسير كلمة:

(شجرة)؟ أجبناه: أنهـا نبتة تغرس صغيـرة، ثم تنمو فيتفرع منهـا جذوع وأغصان ينبت عليـها ورق أخـضـر، وفى الربيع تحمل أزهـارًا لا تلبث بعد ذلك حـتى تعـقد ثمـرًا طيبا... إلخ.

أما إذا قلنا: ما هو تأويل كلمـة: (شجرة)؟ فنجيب: بأن ذلك يتبع رأى المـسئول المباشـر عن التأويل، قد يقـول: إنها حجرة، أو بقـرة، أو صخرة، أو غير ذلـك مما يجب أن يتلاءم مع الحقيـقة والواقع والعقل، فلا يكون غريبًا عن التـصديق، ولا بعيدًا عن الفكر.

إذًا فالتأويل هو باطن المـعنى أو رمزه أو جوهره، وهو حقيقة مـستترة وراء لفظة لا تدل عليها... ومن هنا أعطى النظام الإسماعيلى الفكرى صـلاحية التفسير للناطق، ووهب صلاحية التأويل للإمام، فاعتبـر الأول ممثلا للشريعة والأحكام والفقه والقانون والظاهر، والثانى ممثلا للحقيقة والتأويل والفلسفة والباطن» (ص ٦، ٧).

وقـال: «من المُسَلَّم به، أن التأويل من العلوم التى خَصَّ بها الإسماعيليون أئمتهم وسُمُّـوا لأجله بالباطنية، فـقد جعلوا مـحمدًا هو صـاحب التنزيل للقرآن، كـما قلنا، وجعلـوا عليّا صـاحب التأويل، أى أن القـرآن أنزل على محـمد بلفظه ومـعناه الظاهر للناس، أما أسـراره التأويلية البـاطنة فقد خُص بهـا علىٌّ والأئمة من بعده، وقـد أخذ الإسمـاعيليون بعض آيات القـرآن الكريم دليلا على القـول بوجوب التأويل، كـقوله: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ (يوسف: ٦)، وكقوله: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ (يوسف: ٢١)، وكقوله: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ (الكهف: ٧٨)، وكقوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ ...﴾ إلى قوله: ﴿أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ (آل عمران: ٧، ٨)» (ص ٧، ٨).

وقـــال: «هناك أدلة عقليـة على وجوب التأويل أُخذت من القرآن الـكريم كقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ (فصلت: ٥٣).

وكقوله سـبحانه: ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ (الـذاريـات: ٢٠، ٢١)، وكل هذا يفسر أن الظاهر وجد للدلالة على البـاطن، وقد اعتبروه

ممثـولا والظاهر مثلا[١]، والمؤيد فى الدين داعى دعاتهم وفيلسـوفهم الأكبر يقول فى هذا الصدد: «خلق الله الأمثال والممثولات، فجسم الإنسان مثل ونفسه ممثول، والدنيا مثل والآخرة ممثول».

وقال أيضًا:

«اقصد حمى ممثوله دون المثل   ذا إبر النحل وهذا كالعسل» (ص: ٨)

هذا .. ولم يتناول ابن حيون فى كتابه القرآن كله، بل أخذ بعض الآيات التى ظهر له أنها تؤيد مذهبه، وإليك نماذج من تأويلاته لتتعرف عن قرب على منهجه الباطنى فى التأويل:

فمثلاً عند قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ (الشرح: ١) قال: «عنى به شرح الظاهر».

وفى تأويل قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ (الكوثر: ٢) قال: «أقم الدعوة لله باطنا، وهى باطن الصلاة، وأقمها فى الظاهر ولا الظاهر دون الباطن ﴿وَانْحَرْ﴾ أى خذ عهد الأساسية على أساسك ونصبه للبيان تتصل ذريتك الباطنة ويكثر المستجيبين لدعوتك وينبتر أمر شانئك وقائل ذلك فيك. فكان كما وعد الله جل ذكره، والنحر إنما يكون للجِمَال وهى أمثلة الأئمة، والذبح للغنم وهى أمثال المؤمنين، والبقر أمثال الحُجج، فضرب مثل أساس إبراهيم بالكبش، وأساس موسى بالبقر، وأساس محمد بالبعير، وذلك الذى ذكره من قول إبراهيم لأساسه إسماعيل».

وفى تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي﴾ (الحجر: ٨٧) قال: «أى الأئمة السبعة»، يقصد أئمة الإسماعيلية.

---

(١) إن نظرية المثل والممثول تُعَد حجر الأساس لعامة عقائد الاسماعيلية، التى جعلت لكل ظاهر باطنًا، وسموا الأول مثلا، والثانى ممثولا، وعليه تبتنى نظرية التأويل عندهم، وتذهب إلى أن الله تعالى جعل كل معانى الدين فى الموجودات، لذا يجب أن يستدل بما فى الطبيعة على إدراك حقيقة الدين، فما ظهر من أمور الدين من العبادة العملية، التى بيَّنها القرآن معانى يفهمها العامة، ولكن لكل فريضة من فرائض الدين تأويلا باطنًا، لا يعلمه إلا الأئمة، وكبار حججهم وأبوابهم ودعاتهم.

وفى تأويل قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (الشرح: ٤) قال: «مع التنزيل الظاهر بيان باطنى يوضحه وييسره لمن عسر عليه أمره بالبيان الذى هو التأويل».

وفى تأويل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ (الحديد: ١٩) قال ابن حيون: «فالشهداء: الأئمة، والصديقون هم أيضًا، ومن ذلك قول الله عز وجل: ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾، (الزمر: ٦٩) وقوله تعالى: ﴿أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ (يوسف: ٤٦) وقوله ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» يعنى الإمام».

* * *

١ «بسم الله الرحمن الرحيم» سنة ١٩٦٠

كتاب: أساس التأويل: طبع منشورات دار الثقافة. بيروت

المؤلف: الداعي الإسماعيلي: النعمان بن حيون التميمي المغربي، قاضي قضاة الدولة الفاطمية المتوفى سنة ٣٦٣ ثلاث وستين وثلاثمائة من الهجرة

قال محقق الكتاب: الأستاذ عارف تامر في مقدمته (إن - أساس التأويل - الكتاب الوحيد بين مجموعة المخطوطات الإسماعيلية الذي يعالج موضوعًا معينًا هو (التأويل) والباطن الذي يمثل الفكرة الأساسية لهذا العلم تمثيلًا متزنًا معقولًا، ويعرضها عرضًا دقيقًا مفصلًا» ص٥ ... ثم قال «لقد كان التأويل في عهد الدعوة الإسماعيلية المبكر وفي إبان ازدهارها الموضوع الأساسي لكل فكرة فلسفية باطنية، والشجرة التي نمت وترعرعت ثم تفرع منها الكثير من الأغصان» أو بلغة أصح: الأساس الذي تركزت عليه دعائم هذه الدعوة الفكرية، والغذاء الذي موّن الفلسفة الباطنية بالحياة والنمو والبيان والدليل هذا كله اعتبر كتاب «أساس التأويل» لدى الإسماعيلية من الكتب الثمينة والذخائر الغالية التي تقضي تعاليمهم الاعتقادية بالمحافظة على سريته وكتمان تعاليمه، والسهر على منع تسرب المواد الاعتقادية التي وردت فيه لغيرهم من غير الإسماعيلية، وكل هذا يعتبر من العقيدة وفتح باب الدعوة، ومضافًا إلى ذلك أن في الكتاب أدلة لأقاصيص الأنبياء التي وردت في الكتب السماوية: التوراة، والإنجيل، والقرآن. أضف إلى هذا أنه يشتمل على رموز [illegible] المعتمدة بالمحافظة على أسراره الباطنية مما يخرج عن طاقة العوام لدى تطبيقها [illegible] بأنهم لم يبالوا بالظاهر [illegible] ومن العلم إلا ظواهرها» ص٦.

«فمن الواضح أن التأويل بمعناه الباطني لدى الإسماعيلية يختلف عن التفسير بمعناه الصحيح لدى جماعة الفرق الإسلامية الأخرى، فالتفسير معناه إيضاح المعنى لكل كلمة غامضة

صورة خطية من نقولات الشيخ الذهبي من كتاب «أساس التأويل»

ومنها أخذنا شواهد هذا البحث

٢- مسائل مجموعة من الحقائق العالية والدقائق والأسرار السامية

التعريف بالكتاب ومؤلفه:

وهذا الكتاب لمؤلف مجهول، وقد طُبع ضمن أربعة كتب إسماعيلية، منقولة عن النسخة الخطية (هـ ٧٥) المحفوظة فى مكتبة أمبروسيانة ـ ميلانو، عنى بتصحيحها الدكتور شتروطمان، للمجمع العلمى ـ غوتيغن، ومكتوب عليها: «لا يجوز الاطلاع عليها إلا بإذن من له الحل والعقد».

قال فى مقدمتها: «أما بعد أيها الأخ.. فقد وقفت على مسائلك التى دلت على تألق جذوة ذكائك، وعلوك فى مرتبة العلم وارتقائك، وسألت الإجابة عنها، وهى ـ أيها الأخ ـ تقتضى جوابًا من زُبد الحقائق المصونة، وسرائر الحكم المكنونة، ولب الفوائد المخزونة، وأنا أتحقق أنك أهل لأن تطلع على ذلك، وحقيق بأن تخص بفضل ما هنالك، إلا أنه مما لا يودع فى بطون الأوراق، ولا يجب أن يرمق من العيون الشحمية بالأحداق، صيانة له عن إيذائه وبذله، وخوفًا عليه أن يقع إلى غير أهله، بل يجب أن يكون قرطاسه الأذن الواعية، وقلمه اللسان المترجمة عن جواهرها العالية، لكنى لما أوثره من الجلاء لبصيرتك، والزيادة فى إنارة صورتك، كتبت لك فى هذه الأوراق، وأنا آخذ عليك عهد الله تعالى وعظيم الميثاق الذى أخذه على ملائكته المقربين، وأنبيائه المنتجبين، وأئمة دينه الهادين، وجدودهم الميامين، وإلا فأنت برىء منهم أجمعين، لا وقف على ذلك إلا أنت أو أولادك لا غيرهم، ثم يرد إلىَّ هذه الكراسة بعد أن تحفظ ما فيها، وإن أردت أن تغيب ذلك تركتها عندك مدة ما يحفظ ما فيها، ثم أعدتها إلىَّ، والله على ما نقول وكيل» (ص ٥، ٦)، وإليك نماذج من تأويلاته.

قال المؤلف: «إن الله تعالى نزه أمهات الأئمة عن الطمث، كما قال الله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (الأحزاب: ٣٣) يعنى بالرجس: دم الطمث» (ص ٨).

وقال فى جوابه عن قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ۝٧ وَمَا أَدْرَاكَ

مَا سِجِّينٌ﴾ (المطففين: ٧، ٨): «نقول بفضل الله تعالى ومادة وليه فى أرضه ـ صلوات الله عليه:

إن سجين هى الصخرة التى تقدم ذكرها[(١)] والتى فيها العذاب الأكبر، وهى كما قال الله تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾، ذكر سيدنا حميد الدين[(٢)] ـ أعلى الله قدسه ـ فى كتاب «راحة العقل» أن المعنى بذلك بكتاب الفجار يعنى نفوس الفجار المرقوم فيها ما اكتسبه من الذنوب، وقال: «سجين»: صخرة فى أسفل الأرض يُعذب فيها المخالفون، فعنى بـ «كتاب الفجار» إمامهم وأتباعهم الذين انكتبت فى نفوسهم المعاصى فاستحقوا بها الكون هنالك بخلافهم للحق. كما قال بعض العلماء فى بعض أشعاره:

سجنهم سجين إذا لم يتبعوا عليـنا، دليل علـيـنا

وقال الله تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ فعنى بـ «عليين»: عالم الإبداع، و «كتاب الأبرار»: إمامهم ونفوسهم التى انكبت فيها المعارف الحقيقية وصحت منهم الولاية لأهل الحق، وصفوا وخلصوا فصاروا أئمة بعد أن كانوا مأمومين، كما قال الله تعالى فيهم: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ (القصص: ٥)، فهم المستضعفون؛ يعنى المؤمنين الذين يَمُنُّ الله عليهم فيصيرون أئمة كما تقدم شرح ذلك، ويحصلون فى عليين عند صعودهم فى زمرة القائم، سلام الله عليه، الذى به يصيرون عقلا مجردًا مثل من يخلفونه من عقول عالم الإبداع الذى هو العاشر، ويرتفع العاشر إلى مرتبة من فوقه فاعلم ذلك» (ص ١٦، ١٧).

وقال: «ولما كان الدين ظاهرًا وباطنًا قام النبى ﷺ بتبليغ الظاهر، وصرف إلى وصيه[(٣)] نصف الدين وهو الباطن ... ولذلك خاطبه بقوله: ﴿فَوَلِّ

---

(١) ذكر فى ص ١٢ أنها كانت الصخرة التى هى سفل الأرض، وهى على مثال سفل القدر، فى سفلها مسام ضيقة يدخل فيها البخار والدخان الذى يتصاعد من جثث أضداد القائم بعد حرقهم بنار من الأثير ويصيرون فى وسطها، وهى غيران هائلة وأودية عظيمة.

(٢) هو: حميد الدين أحمد بن عبد الله، الكرمانى (٣٧٥ - ٤١١هـ) الملقب بحجة العراقيين، وكبير دعاة الإسماعيلية فى العراق، له مؤلفات عديدة فى المذهب الإسماعيلى، وكتابه «راحة العقل» طبع فى دار الفكر العربى، القاهرة ١٣٧١هـ.

(٣) يعنى عليًا، كرَّم الله وجهه.

وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ (البقرة: ١٤٤)، فعنى بـ «وجهه» وصيه، وعنى بـ «المسجد الحرام» دعوته التى هى الحرم الذى من دخله كان آمنًا أو أطاعه واستقام على ذلك، و «الشطر» الذى ولاّه إياه بتأويل التنزيل والشريعة اللذيْن جاء بهما الرسول صلى الله عليهما وعلى آلهما» (ص ٢٠).

وقال فى شرحه لقول علىٍّ فى خطبة النهروان: «إن كلامى مغلق، وعلمى غامض، وحكمتى غزيرة»: «إن مولانا يعنى ـ صلوات الله عليه ـ يكون كلامه مغلقًا، وعلمه غامضًا، لأنه إنما ينبئ عن خفيات الغيوب، وما أطلعه الله تعالى عليه بواسطة رسوله ـ صلوات الله عليهما وعلى آلهما ـ من العلم المحجوب، كما قال: «علمنى رسول الله ﷺ ألف باب من العلم، انفتح لى من كل باب منها ألف باب، أدركت علم ما كان وما سيكون إلى يوم القيامة» فهو إذا تكلم بذلك انغلق على من لم يتصل بمن عندهم مفاتيحه ولديهم لديجور الشك مصابيحه من أولاده أئمة الهدى عليهم جميعًا السلام.

وقوله صلوات الله عليه: «وحكمتى غزيرة» فعنى بالحكمة تأويل الكتاب الكريم ودور حقائقه وهى التى ذكرها الله تعالى فى آيات من الكتاب كثيرة بقوله سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ (الجمعة: ٢)، وكرر ذكر الحكمة مع الكتاب فى آيات كثيرة. فالكتاب هو ظاهر القرآن الكريم، والحكمة تأويله ومعانيه.. والغزارة التى ذكرها فى الحكمة هو، يجيب على المسألة بسبعة أجوبة، وبسبعين، وبسبعمائة، كما ذكر ذلك مولانا الصادق صلوات الله عليه... وهذه الغزارة التى لا نهاية لها ولا حد يحقق ذلك قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ (لقمان:٢٧)» (ص ٣٢).

وقال عن قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِى الآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (آل عمران: ٧٧): «إن حكم الآية يعم جميع من تقلد عهد النبى والوصى والإمام، وأعطاه صفقة يمينه على الائتمار بأمره، فراقت الدنيا فى عينه، واستهوته زخارفها فمال إليها،

واستبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير، فباع ما كان قد اشتراه من الله من الجنة الباقية بالدنيا الحقيرة الفانية، وانسلخ من جملة من عناهم قول الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ**﴾ (التوبة: ١١١)، فلم يستحق لنكثه أن يكون له فى الآخرة خلاق ولا نصيب فى الخير، ولا يكلمه الله ولا أن ينظر إليه يوم القيامة ولا أن يزكيه، كما يستحق ذلك المؤمنون، بل خلده بفعله فى عذاب أليم» (ص ٣٤، ٣٥).

وقال فى تفسير قوله تعالى: ﴿**اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾ (النور: ٣٥). إلى آخر الآية: «جعل العقل الأول[1] نور السموات والأرض... ثم قال: ﴿**مَثَلُ نُورِهِ**﴾، فعنى

---

(١) درجات الدعوة الدينية عند الإسماعيلية:

والإسماعيلية يقولون بأن لكل ظاهر باطنًا، ويجعلون لكل درجة كونية درجة دينية، وإليك جدولا يوضح ذلك:

١ - العقل الأول = الناطق

٢ - العقل الثانى = الفلك الأقصى = الأساس.

٣ - العقل الثالث = فلك الثوابت = الإمام.

٤ - العقل الرابع = فلك زحل = الباب.

٥ - العقل الخامس = فلك المشترى = الحجة.

٦ - العقل السادس = فلك المريخ = داعى البلاغ.

٧ - العقل السابع = فلك الشمس = الداعى المطلق.

٨ - العقل الثامن = فلك الزهرة = الداعى المحدود.

٩ - العقل التاسع = فلك عطارد = المأذون المطلق.

١٠ - العقل العاشر = فلك القمر = المأذون المحدود، وربما يطلق عليه المكاسر والمكالب.

وجعلوا تفسير ذلك بإيجاز:

١ - الناطق: وله رتبة التنزيل.

٢ - الأساس: وله رتبة التأويل.

٣ - الإمام: وله رتبة الأمر.

٤ - الباب: وله رتبة الأمر.

٥ - الحجة: وله رتبة الحكم فيما كان حقا أو باطلا.

٦ - داعى البلاغ: وله رتبة الاحتجاج، وتعريف المعاد.

٧ - الداعى المطلق: وله رتبة تعريف الحدود العلوية والعبادة الباطنية.

٨ - الداعى المحصور، أو المحدود: وله رتبة تعريف الحدود السفلية والعبادة الظاهرة.

بالمثل من قام مقامه فى عالم الطبيعة، وهو النبى ﷺ ، وكان ما اتصل به من الوحى وأيد به من التأييد ﴿كَمِشْكَاةٍ﴾ وهى الكوة، فأعلمنا سبحانه أن ما استفاد الناطق من المعارف الإلهية ـ كالخزانة التى عنها تؤخذ، و ﴿فِيهَا﴾ توجد أنوار الملكوت التى كنى عنها بالـ ﴿مِصْبَاحٌ﴾ وإن كانت تلك الموضوعات لا تعرف المعانى كما لا تشعر الكوة بالمصباح، ثم قال: ﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾ فالمصباح كناية عن العلوم الإلهية، والزجاجة كناية عن الأئمة ـ عليهم السلام ـ وتلك المعانى والمعارف هى الأنوار القدسية محيط بها الأئمة القائمون بها، يجمعونها ويحفظونها ولا يفارقونها، فتضىء ذواتهم بها وذوات غيرهم من أتباعهم الطالبين لها إحاطة القنديل وإضاءته لما حوله، وقوله تعالى: ﴿الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ كناية عن الوصى، فعنى أن الأئمة ـ عليه وعليهم السلام ـ فى استنباط المعارف الدينية والحكم النبوية كالوصى ـ عليهم جميعًا السلام ـ فيما انفتح له ظاهرًا وباطنًا من الحكم، واحتوى عليه من العلوم، وقوله: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾، فالشجرة المباركة كناية عن النبى ﷺ ، فوصف الكوكب الدرى بأنه يستنبط المعارف من وضائع الشجرة المباركة التى هى الناطق(١)، وأن الأئمة عليهم السلام يشاكلونه فى استنباط ذلك وإن كانوا لا كهو فى الرتبة لكون مرتبة الوصاية مالكة لمرتبة الإمامة، وقوله: ﴿زَيْتُونَةٍ﴾ يعنى أن الأئمة بمثابة الزيتون الذى هو ثمرة تلك الشجرة، وقوله: ﴿لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ﴾ يعنى ليسوا فى رتبة النبوة التى هى الدعوة الظاهرة فيكون شرقية مثلها، ولا فى رتبة الوصاية التى لها الدعوة الباطنة فيكون غربية مثلها، بل شرقية غربية جميعا بقيامهم مقامهما وحفظهم مكانهما، ولهم فى جمعهم وقيامهم بذلك سرتبتان هما الممثلان بالشرق والغرب، وقوله تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ الزيت: ما خرج من الزيتون من دهنه، وهو مثل

= ٩ - المأذون المطلق: وله رتبة أخذ العهد والميثاق.

١٠- المأذون المحدود: وله رتبة جذب الأنفس المستجيبة، وهو المكاسر.

(١) والنطقاء السبعة عند الإسماعيلية يعبر عنهم بالحروف السبعة (آ، ن، إ، م، ع، م، ق) وهى الحروف الأولى من أسماء النطقاء السبعة، وهم: آدم، نوح، إبراهيم، موسى، عيسى، محمد، قائم.

الكلام والفوائد التى تؤخذ من الأئمة ـ عليهم السلام ـ يقول: تكاد معرفتهم وكلامهم فى إفادتهم وتعليمهم وهدايتهم التى تخرج منهم لفظا، وإن لم يكن عن الوصى المشبهة بالنار تشبه معرفة كلام أولى الوحى، وقوله تعالى: ﴿**نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ**﴾ يقول: يفتح منه أنوار علوم زيادة على زيادة بظهور إمام منهم عن إمام، وقوله: ﴿**يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ**﴾ يقول: وكل منهم فى زمانه قائم.. وقوله: ﴿**وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ**﴾ يقول: وهذا القائم.. ومقام رسوله يقيم خلفاء له فى الجزائر يدعون الناس إلى الله عبادته ومعرفته ما جاء به النبى ﷺ ﴿**وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ يقول: وهذا القائم ... ومقام رسوله بكل شىء من أمور الدنيا وأمور القبلة وأحكامها وما فيها من النجاة عليم خبير لا يشتبه عليه شىء منه» (ص ٣٦ - ٣٨).

وقال: «إن قسط الناطق تلاوة القرآن وبسط الشريعة، وقسط الوصى شرح التأويل وإيضاح الحقيقة» (ص ٤٢).

وقال عن قوله تعالى: ﴿**أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ...**﴾ (البقرة: ٢٥٩) الآية: «إنه عزير النبى ـ عليه السلام ـ وهو من الحدود الداعين فى دور موسى ـ عليه السلام ـ كان قد نظر إلى دعوة خمل أمرها ومات ذكرها وامتحن أهلها وحدهم محنة شديدة فقال فى نفسه: ما أظن أن يرجع إلى هؤلاء بعد هذا الانقطاع عن الخير بلا مادة ولا تأييد يحيون به، فأراد الله إظهار قدرته فى نفسه فأنساه مراتب الحدود التسعة والتسعين الذين هم أسماء الله الحسنى ومرتبة إمام عصره الذى هو المسمى، ثم بعث: يعنى مباحثة حده له عن ذلك فلم يعرف منها غير حدث الذى هو كاليوم منها ونفسه التى هى كبعض اليوم بقوله: ﴿**كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ**﴾ فلم يعترف إلا عن ذلك، فأعلمه حده بما نسى من تلك الأسماء بقوله: ﴿**بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ**﴾ يعنى يتغيره، وهو أنه أمره أن ينظر فيما معه من علم الظاهر الذى هو كالطعام، وعلم الباطن الذى هو كالشراب ليقوم له منه برهان مراتب تلك الحدود، وقوله: ﴿**وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ**﴾ إشارة فى هذا الموضع إلى حدث الذى يحمل عنه ثقل الطلبة كما يحمل الحمار ثقل راكبه ويريح عليه من تعب المسير، الحمار المذموم هو

من علماء المخالفين، والحمار المحمود وهو من علماء الحق ولذلك صار اليهود يتباركون بحافر حمار عزير لِمَا سمعوا له من التشريف فلزموا المثل وتركوا الممثول» (ص: ٥٧، ٥٨).

وقال عن قول النبى ﷺ: «لخلوف فم الصائم أحب إلى الله من رائحة المسك»: «إن الصائم مثل الكاتم لدينه وعلمه عمن لا يستحقه، والخلوف هو ما يطلع على الإنسان من بخار المعدة لتعطلها عن الطعام، فأشار بذلك إلى ما يكون عند الحدود من الصمت عن الكلام فيما لم يؤذن لهم به ولم يحضر أهله وإن كان مكروهًا لعدم الفائدة كما تكره رائحة الخلوف لتغير ريحه، فإن ذلك الإمساك أحبّ إلى الله تعالى من إبدائه إلى غير أهله وفى غير وقته، وشبَّهه لديه تعالى برائحة المسك الذى هو أطيب المشمومات لفضل الكتمان عنده» (ص ٦٩).

وقال عن قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلانِ﴾ (الرحمن: ٣١): «إن الله تعالى قدر دور الستر على مدة معلومة وجعل حساب الخلائق وثوابهم وعقابهم عند انقضاء تلك المدة وفراغها، فأعلمهم تعالى فى هذه الآية أن ما وعدهم به من الثواب وأوعدهم به من العقاب يكون عند فراغها، فذلك معنى قوله: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ فنسب فراغ المدة إليه إذ هى عن أمره تعالى، وإلا فلا ينسب إليه اشتغال ولا فراغ على الحقيقة» (ص ٧٢).

وقال: «إن أبواب الجنة الثمانية هم الأئمة السبعة والقائم، على ذكره السلام، وأبواب النار السبعة هم أضداد الأئمة السبعة، والقائم لا ضد له لقهره الأضداد عند قيامه» (ص ٧٣).

وقال عن قوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (الفرقان: ٧٠): «وهم الذين قال فيهم مولانا الصادق صلوات الله عليه: «والله ما يبدل الله السيئات حسنات إلا لشيعتنا» (ص ٨٩).

وقال فى قصة آدم وإبليس: «إن آدم ـ عليه السلام ـ لما أقيم فى أول دور الستر نُهى عن كشف الحقائق، وهى التى بها النجاة، وهى بالحقيقة شجرة الخلد والمُلك الذى لا يبلى، لكون معرفتها مع الأعمال الصالحة مورثة لعارفها الخلد فى دار النعيم

والملك الذى لا يبلى، ولما تأخر الحارث[١] عن السجود لآدم ورأى ما وقع من التعظيم لآدم ورفع منزلته، فاحتال فى مكيدته فجاءه على وجه النصح وأقسم له على ذلك وقال: إن أردت صلاح من صرف أمره إليك فهم لا يصلحون إلا بإبداء الحقائق، فانخدع ـ عليه السلام ـ وظن أن أحدًا لا يحلف بالله كاذبًا، فأظهر شيئًا من ذلك فأنكره ما تحت يده واضطرب على أمره، وكان فى ذلك ترك وصية ربه ... وسائر قصته المعروفة» (ص ١٠١).

وقال عن تأويل ليلة القدر فى قوله تعالى: ﴿تَنزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا ...﴾ (القدر: ٤) إلى آخر السورة: «إن ليلة القدر مثلٌ على مولاتنا فاطمة ـ عليها السلام ـ لأن الليالى مثلٌ على الحجج وهى حجة مولانا....[٢]، وقال الله تعالى: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ (القدر: ٣) يريد أن فضلها زائد على فضل ألف حجة ممن تقدمها، لأن الشهور أيضًا أمثال الحجج، وقوله تعالى: ﴿تَنزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ (القدر: ٤، ٥) يعنى بالملائكة، والروح: الأئمة من ذريتهما الذين من جملتهم القائم المُكَنَّى عنه بالروح، وأنهم صلوات الله عليهم من ذريتها ونسلهما، إلى طلوع الفجر بقيام قائمهم، صلوات الله عليهم أجمعين، عند انقضاء دور الستر وابتداء دور الكشف الذى هو ممثول الفجر» (ص ١١٤، ١١٥).

وقال عن قوله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (ق: ١٨) «والجواب ما قال الله تعالى فى صفة الأئمة ـ صلوات الله عليهم ـ وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة: ١٤٣)، وذلك أن الله تعالى أطلعهم بمادته وتأييده لهم على نيات الخلق وما تخفيه صدورهم، فما يتحرك متحرك ولا يسكن ساكن إلا وعندهم ـ صلوات الله عليهم ـ علمه مما أخذوه عن جدهم رسول الله ﷺ، كما جاء فى الرواية عن مولانا الصادق ـ صلوات الله عليه ـ أنه قال يومًا لبعضهم ما كان البارحة عاملاً فى دار فلان، فاستحى الرجل من كلامه ـ صلوات الله عليه ـ فقال بعض من حضره: أوتعلم ما يفعل

---

(١) اسم الشيطان.

(٢) حروف مقطعة وأرقام يرمز بها لأمور نجهلها، وهى كتابة سرية.

يا بن رسول الله؟ فقال: ما كان الله تعالى ليجعلنا شهداء على خلقه ويحجب عنا شيئًا من أمورهم، استحيوا منّا فى السر كما تستحيون منّا فى العلانية، فهم صلوات الله عليهم الرقباء والشهداء على الخلق» (ص ١١٥، ١١٦).

وقال عن قوله تعالى فى شأن آدم: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (الحجر: ٢٩): «الخطاب من إمام ذلك الوقت ـ عليه السلام ـ للملائكة الذين هم الحدود المالكون أمر الدعوة، يقول: فإذا أقمت آدم ونفخت فيه من روحى، يعنى أمددته بما يقدر على القيام فيمن دون، فقعوا له ساجدين، أى أطيعوا له واستمعوا وسلموا لأمره ولا تعترضوا، فأطاعوا وسلموا إلا إبليس ـ وهو شخص ممن كان قد أقيم لإفادة غيره ـ فإنه تكبّر وأبى عن السجود وعارض آدم ـ عليه السلام ـ وكانت القضية فى ذلك كمثل ما كان رسول الله ﷺ فى إقامة وصيه صلوات الله عليهما يوم غدير خم، وطاعة من أطاعه كسلمان وأبى ذر والمقداد وعمار ومن تبعهم ﷺ، وعصيان من عصى كالأضداد الثلاثة[١] وتابعيهم وهذا جار فى جميع الأدوار» (ص ١١٧).

وقال عن علىٍّ: «كيف كان يقتل عن يمينه وشماله وخلفه وقدامه، وهو شخص واحد؟ فإذا كانت معجزة فكيف بيان هذه المعجزة؟... الجواب: أن هذه منه صلوات الله عليه من جملة المعجزات التى تقدم ذكرها والتى لا يقدر عليها إلا الرسول والوصى والأئمة صلوات الله عليهم أجمعين، وفى ضمن كل واحد منهم صلوات الله عليهم من الصور ما لا يحصيه العدد، كل صورة منها قادرة على التشخيص على الانفراد أى وقت شاءت، وقد جاءت الرواية عن أصحاب رسول الله ﷺ، أنه قال: لما كان فى يوم «أحُد» واشتد القتال، خرجتُ من عند رسول الله ﷺ وهو واقف، ووصيه معه فى بعض المواضع، فلما وصلت العسكر رأيت رسول الله ﷺ، وعليًا ـ عليه السلام ـ يحملان فى عسكر المشركين، فيلقيان الميمنة على الميسرة، والميسرة على الميمنة، ثم عدتُ إلى حيث عهدتهما فوجدتهما قاعدينْ ما تغير منهما شىء، فهذه الرواية تؤكد ما تقدم ذكره من التشخيص بما شاءوا ـ أى وقت شاءوا ـ صلوات الله عليهم» (ص ١٢٢، ١٢٣).

(١) يقصد أبا بكر وعمر وعثمان ﷺ.

وقال عن قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ...﴾ (النساء: ١) الآية: «إن المراد بالنفس الواحدة هنا الناطق صلوات الله عليه ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، يعنى: الوصى - عليه السلام - المزاوج له فى الدين ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً﴾ يعنى حدودًا مقيدين بمنزلة الرجال ومستفيدين بمنزلة النساء، قال النبى ﷺ: «أنا وأنت يا على أبوا المؤمنين» (ص ١٢٥).

وقال فى قوله: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ﴾ (الرحمن: ٣٣): «السلطان هو قائم القيامة الذى يقدر به على خرق الأفلاك بوجيز من القول» (ص ١٢٥).

وقال: «لما سئل عن الأنبياء والأئمة والمحن التى وقعت عليهم، بم استحقوا المحنة؟ وما عدل الله سبحانه؟ وكيف هذا القصاص؟.. الجواب: أن الله تعالى لا يظلم مثقال ذرة، ولا عنده حيف ولا محاباة لأحد، قال سبحانه: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (الزلزلة: ٨)، ولما كان الأنبياء والأئمة صلوات الله عليهم مجامع لمن دونهم، وكان منهم من له ذنب صغير وكبير، كانت المكافأة بالمحن والقتل وغيره على قدر ذنوب من فى ضمنهم بما يوجبه العدل وتقتضيه الحكمة، وما يظلم ربك أحدًا» (ص ١٢٧، ١٢٨).

وقال: «وقد سئل عن كبش إسماعيل الذى فُدِىَ به ما هو؟ الجواب: أن إسحاق - عليه السلام - هو المكنى عنه بالكبش، وذلك أن إبراهيم صلوات الله عليه كان قد همَّ أن يأخذ العهد على إسماعيل لإسحاق - عليه السلام - فأوحى الله تعالى إليه أن يأخذ العهد لإسماعيل على إسحاق ويقيمه سترًا عليه وحجابًا، وهو ما نصه الكتاب الكريم من قوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْىَ﴾ يعنى: إسماعيل - عليه السلام ﴿قَالَ يَا بُنَىَّ إِنِّى أَرَىٰ فِى الْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ﴾ أى آخذ العهد عليك لإسحاق ﴿فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِى إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ (الصافات: ١٠٢) أى: صابرًا على ما تأمرنى به، مُسَلِّمًا لأمرك.. إلى قوله تعالى: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ (الصافات: ١٠٧) وهو ما أمر به من أخذ العهد على إسحاق لإسماعيل - عليه السلام - فإسحاق المكنى عنه بالكبش» (ص ١٢٧، ١٢٨).

وقال عن ردم ذى القرنين: «الجواب: أن الإشارة بذى القرنين إلى مولانا أمير المؤمنين على بن أبى طالب ـ صلوات الله عليه ـ وقد قال فى بعض كلامه: «أنا ذو قرنى هذه الأمة» والمعنى فى ذلك: أنه الحائز لرتبة الظاهر والباطن بعد رسول الله ﷺ، وكذلك كل إمام من ولده هو الحائز لهذه الرتبة، والردم بين يأجوج ومأجوج وبين البشر، هو مثلٌ على العهد الكريم الذى حجز به بين أهل الظاهر وبين أهل الدعوة. . وفى الرواية: «أن يأجوج ومأجوج قصار الخلق، مشوهو الصور، وأنهم لا يزالون يلحسون السد بألسنتهم فى الليل يطلبون خرقه، وأن ألسنتهم كمثل المبارد، فإذا طلع الفجر عليهم وأحسوا أصوات المؤذنين هربوا وعاد السد بحاله»، والمعنى فى ذلك أن «يأجوج ومأجوج» كما تقدم به القول هم أمثال أهل الظاهر «وقصر قامتهم وشوه خلقهم» هو إشارة إلى قصور دينهم وقصورهم لخلاف الحق وأهله، ومعنى لحسهم السد بألسنتهم فى الليل: أنهم فى أيام الفترات يتبعون آثار الأولياء ويطلبون تبطيلاً للعهود والمواثيق والاطلاع على مذهب الحق والكفر فيه، «فإذا أذن المؤذنون»، يعنى أقام الدعاة الذين هم ممثول المؤذنين «هربوا» يعنى قهقروا على أعقابهم وانكسروا وبطل سحرهم وتمويههم «وعاد السد إلى ما كان عليه» يعنى استقامت أمور الدعوة على ما كانت عليه من أخذ العهود والمواثيق والحراسة عن أهل الفساد والعناد»(١) (ص ١٣٠).



(١) شواهد هذا البحث مما كتبه الوالد، رحمه الله.

٣- رسالة الإيضاح والتبيين

التعريف بالرسالة ومؤلفها:

هذه الرسالة هى الرسالة الثانية من أربعة كتب إسماعيلية، منقولة عن النسخة الخطية (هـ ٧٥) المحفوظة فى مكتبة أمبروسيانة - ميلانو - السابق الإشارة إليها - وعنوانها الكامل: «رسالة الإيضاح والتبيين فى كيفية تسلسل ولادتى الجسم والدين» لعلى بن محمد بن الوليد، ولم أعثر له على ترجمة، فيما بين يدى من مراجع.

قال فى على ﷺ: «أنا المخاطب من الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[1] (الرعد: ٧).

وقال: «إن عليًّا هو المعنى بقول الله تعالى فى مخاطبته نبيه - عليهما السلام: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾[2] (القصص: ٣٥)».

* * *

(١) الإيضاح والتبيين ص ١٣٨.
(٢) الإيضاح والتبيين ص ١٣٩.

٤- مـــزاج التســــنيم

لإسماعيل بن هبة الله

التعريف بالكتاب وصاحبه:

كتـاب «مزاج التسنيـم» من تأليف: ضياء الدين إسـماعيل بن هـبة الله بن إبراهيم الإسـماعـيلى السلـيمـانى، توفى بنجـران سنة ١١٨٤هـ، وترتـيبـه فى الدعـوة الرابع والثلاثون، عنى بتصحيحه الدكتور شتروطمان، للمجمع العلمى ـ غوتيغن، عن النسخة الخطية (هـ ٧٦) المحفوظة فى مكتبة أمبروسيانة ـ ميلانو.

وهـو تفسـيـر باطنى يبدأ من قوله تعالى فى سـورة التوبة: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ﴾ (التـوبة: ٩٤) وينتهى عند آخر قوله تـعالى فى سورة العنكبوت: ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (العنكبوت: ٤٤).

وهو مطبـوع فى أربعة أقسام مسلسلة الأرقـام يبدأ القـسم الأول من صفـحة (١) وينتهى القسم الرابع بصفحة (٣٧٠). . وفى آخـر القسم الرابع فك رموز الكتابة السرية الموجودة بالكتاب.

وجاء فى آخر النسخة:

«وكان الـفراغ من زبر هذا الكتـاب الموضح من الأسـرار لما هو لب اللبـاب يوم الأحد خامس عشر من شهر رجب الأصب (هكذا) سنة ١١٧٣هـ، وذلك من مسودتها التى هى بخط مؤلفها سيدنا الداعى الجليل عدم النظير والمثيل: ضياء الدين ودرة تاجه والإكليل، إسمـاعيل ابن سـيدنا هبة الله أيده الله بـالنصر والظفر، وبلغـه فى رفع بناء الدعوة كنه الأمل والوطر، وذلك بحصنه السـعيد وقصره الشامخ المشـيد من محروس نجران ببلاد يام، حرسـها الله من الأشرار اللئام، وذلك بخط العبد الـضعيف، البائس الذليل اللهيف، أحقر عـبيد مولاه، وأحوجهم لعفوه ورضاه، عـبد الله ابن سيدنا على ابن هبة الله، وفقه الله لما يحب ويرضى، وخـتم له بالحسنى، فيجب على من قرأه أن لا يتركـه من الدعاء بأن الله يرحم لطيـفه وكـثيفـه، ويسرع بانضمـامه إلى جـوار جده وأليفه، وأجره على من لا يضيع أجر المحسنين:

يلوح الخـط فى القـرطاس دهراً ... وكـاتبـه رمـيـم فى التـراب»

وهذا الكتاب يروج لنظريات وعقائد الإسماعيلية الفلسفية الباطلة كنظرية المثل والممثول، ويحاول أن يخضع القرآن وتفسيره ليبرهن على أسس عقيدتهم فى العقول العشرة، والنطقاء السبعة، وغيرها من عقائدهم الفاسدة، وإليك نماذج من تأويلاته:

قال مؤلفه فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا...﴾ (التوبة: ١٠٧) إلى آخر الآية، ما نصه: «﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾ وهم أشر أقسام أهل الإضرار، ممن يظهر فى دور الستر ﴿مَسْجِدًا﴾ يعنى بعبد اللات، إمام الضلالة، لما نصبوه لهم قائدًا باختيارهم، وذلك جارٍ منهم فى أول كل دور عطفًا على ما سبق من ابتداء الدعوة الإبليسية ﴿ضِرَارًا﴾ لكى يضاروا به أهل الندم من أهل النسبة الأدون ﴿وَكُفْرًا﴾ يعنى بمقام حجاب العين ﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعنى بين أهل الدعوة الإسلامية ﴿وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يعنى مركزًا لهم يأوون إليه ﴿مِن قَبْلُ﴾ يعنى من حال ابتداء تلك الدعوة الإبليسية ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ﴾ يعنى بالدعاء إلى الحجاب النبوى ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ﴾ يعنى الميم ﴿إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ يعنى فيما يقولون سابقًا ولاحقًا، وأيضًا أن هذا المسجد الذى كانوا يجتمعون فيه فى وقت الرسول ويعقدون فيه الآراء الفاسدة، أنه من البقاع الخبيثة التى كانوا يجتمعون بها فى كل دور، ويتصل بها خبائث من حثالاتهم، وهى تلحق بالسقيفة بالرجاسة...» (ص ٨، ٩).

وقال فى شرحه لأول سورة يونس: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ۝١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾ (يونس: ١، ٢) ما نصه: «﴿الر﴾ إقسام منه بـ «ألف» الفاطر المتفرد فى المقام، و «لام» الحسين، و «راء» شبر اللذين صارا مقامًا واحدًا ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ يعنى إشارة إلى أسماء الكرار وصفاته ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ يعنى أهل النسبة الأدون ﴿أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ يعنى من مجموع صفو زبدهم الريحية وصورهم الملائكية، ﴿أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ﴾ يعنى بحجابه وهم أهل الجرائر وذلك من مخالفة وصيه فى الظاهر (J T٩ .T عل.TV2) [يقصد: أبى بن كعب] ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعنى بوصيه فى الباطن (J1iH عل) [يقصد: سلمان] المحتجب

به الفاطر ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يعنى الحسين بالانضمام إليه ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ﴾ يعنى بهذه المقامات، ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾ يعنى تعمية للعقول إرادة منهم الدحض لأمر من أمروا بطاعتهم» (ص ١٠٠، ١٠١).

وقال فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا..﴾ ما نصه: «﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ يعنى: حجابه ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ (إبراهيم: ٣٥) يعنى يشير إلى حجاب ولده إسماعيل المتظاهر به فى مقر دعوته فى كل دور، وذلك بمكة المشرفة التى صارت مركزًا لخمائرهم الشريفة، وأيضًا أن دعاءه متوجه بالأمان إلى ما يتصل بتلك البقاع الطاهرة من خمائر أهل الندم لكى لا يلحقها ويمتزج بها شىء من الخبائث التى فى تلك المواضع المظلمة ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ﴾ يعنى حجب الأئمة القائمين هنالك لهداية أهل الجزائر ﴿أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ يعنى يشير إليهم شىء من المراتب يقومون بها فى الدعوة وهم أعنى بذلك الأضداد ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ يعنى من المأنوسين بالدعوة وذلك سابقًا ولاحقًا لكونهم مالوا إليهم فى حال المحارات ﴿فَمَن تَبِعَنِي﴾ يعنى فى حد الابتداء ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ يعنى فى الانتهاء ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ يعنى فى قبول ما دعوت إليه، ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يعنى ساتر لمن أطاعك رحيم به لأنه أشار بالرحمة إلى العصاة» (ص ١٠٠، ١٠١).

وقال فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ ما نصه: «﴿وَقَالَ اللَّهُ﴾ يعنى العين ﴿لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ يعنى إمامين، وهو صاحب الولاية وضده ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ يعنى المقام فيها (JLIH عل) [يقصد: سلمان] ﴿فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ يعنى من مخالفة أمره ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ يعنى التصرف فى أمور الدعوتين ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا﴾ يعنى الإمداد للأبواب السلسية يصبه إليهم فى كل عصر ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ﴾ يعنى الميم المحتجب به ﴿تَتَّقُونَ﴾ يعنى من المخالفة» (ص: ١٢٣).

وقال عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ (الإسراء: ٧١) ما نصه: «قال مولاى الحسام: يعنى عند قيام السابع يدعى أهل كل وقت بمن هو إمام لهم وشاهد عليهم، ثم قال

تعالى: ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ يعنى وجد اعتقاده فى الوصى ممثول اليمين، ﴿فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ﴾ يعنى يظهرون ولاية إمامهم ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾ يعنى فى ثوابهم ﴿فَتِيلًا﴾ والفتيل ما فى شق نوى التمرة، يعنى: لا يظلمون آخر ما فعلوه ووالوا به وكان شيئا يسيرًا من الولاية المرموز عليها بالفتيل. هذا قوله أعلى الله شريف قدسه.. ثم قال تعالى مخاطبًا لأهل دعوة الناطق: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ﴾ يعنى فى المقامات البشرية عن معرفة الحق الموجب ما كان منه سابقًا ﴿فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ يعنى فى القوالب الممسوخة ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ يعنى أبق، وأيضًا من ظهر وهو فى التراكيب البشرية أعمى عَمِىَ فى غيرها، ثم قال تعالى مخاطبًا للحجاب النبوى: ﴿وَإِن كَادُوا﴾ يعنى أولئك الأجبات ﴿لَيَفْتِنُونَكَ﴾ يعنى يصدونك كما جرى ذلك من أصولهم إلى أصلك ﴿عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يعنى من إقامة الوصى الذى هو من (.ح T. ٧ ط ٩) [يقصد: حجب على] ﴿لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ﴾ يعنى بنصب جبتهم الموازين له فى كل كرة ﴿وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ يعنى مخاللاً لهم فى أمورهم النكيرة» (ص ١٥١، ١٥٢).

وقال عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا﴾ (الإسراء: ٩٠) ما نصه: ﴿وَقَالُوا﴾ يعنى مجاثم الضلال كبراء هذه الأمة ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ يعنى نستسلم استسلام معرفة ويقين بمقام من أقمته للوصاية ﴿حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ﴾ يعنى تظهر لنا من دعوة الباطن ﴿يَنبُوعًا﴾ يعنى بابها السلسلى نستفيد منه مشافهة ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ﴾ يعنى دعوة ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ﴾ يعنى من حدود الحضرة ﴿فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ﴾ يعنى الأسرار المحجوبة ﴿خِلَالَهَا تَفْجِيرًا﴾ يعنى يتخلل بها الكل منهم ومن أهل الدعوة حتى يستووا فى معرفتها ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ يعنى يقيم لهم وصيًا منهم كما زعمت، يعنى بما كان أوهمهم من إشراكهم فى الأمر وذلك طلبًا من الحجاب النبوى تسكين شرهم كما أوهم ذلك فيما سبق ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ﴾ يعنى المحتجب بك ﴿وَالْمَلَائِكَةِ﴾ يعنى بحدود الدعوة العمرانية العلوية ﴿قَبِيلًا﴾ يعنى: نشاهدهم مقابلة ومعاينة ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ يعنى وصيًا، يشيرون إلى جبتهم المزخرف، إذ هى مأوى للصور المنكرة المتزخرفة بالإفك

﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ﴾ يعنى تدعى مقام مرسلك ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ يعنى الارتقاء إلى ذلك المقام ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا﴾ يعنى تنصب لنا إمامًا منا، وكان هذا دأبهم فى كل دور بحسب ما اختاروه ومالوا إليه فى حال المحارات. وجمد على ذلك مائع تصوراتهم من الانحدار ﴿نَّقْرَؤُهُ﴾ يعنى يتصورون من تصوره بالاستفاده منه.. ثم قال تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي﴾ يعنى تقديسًا للمحتجب به أن يكون فى مقامه أو يقيم وصيًا بغير أمره ﴿هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا﴾ يعنى من أحد حدود أهل النسبة الأدون المباشرين لكم، ﴿رَّسُولاً﴾ يعنى منه إلى من أرسل إليهم سابقًا» (ص ١٥٥).

وقال عند تفسير لقوله تعالى فى سورة مريم: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ الآيات (مريم: ٧٥) - ما نصه: «﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلالَةِ﴾ يعنى عن اتباع العين وحجبه ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ يعنى الميم بأمر العين ﴿مَدًّا﴾ يعنى من الإمهال ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ﴾ يعنى فى التراكيب ﴿وَإِمَّا السَّاعَةَ﴾ يعنى عند ظهور القائم المنتظر، ثم قال تعالى: ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ يعنى عند مشاهدتهم ذلك ﴿مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ يعنى مأوى ﴿وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ يعنى أنصارًا، ثم قال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ﴾ يعنى إمام كل زمان ﴿الَّذِينَ اهْتَدَوْا﴾ يعنى إلى الندم سابقًا ﴿هُدًى﴾ يعنى فى ظهور فضلاتهم وذلك فى المعرفة والصفاء والإنارة ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ يعنى الذين بقوا على الطاعة وصلحت نياتهم على القيام بصلاح الدعوة فى الحديث عطفًا منهم على ما سبق فى القديم ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ﴾ يعنى العين ﴿ثَوَابًا﴾ يعنى إثابة فى صعودهم فى سلالم الصعود ﴿وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ يعنى يأوون إليه عند ترتيبهم فى النواسيت واللاواهيت، ثم قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا﴾ يعنى «حبتر»(١) كفر بحجاب الوصى وحدوده فى كل دور ﴿وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا﴾ يعنى علمًا وأتباعًا وترشحًا منه للفساد، ولذلك تظاهر بدخوله فى الملة الإسلامية تملقًا ليبلغ مرامه من الإغواء، وكان ذلك بمتقضى ما انعقد فى وهمه الخبيث ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ﴾ يعنى على علم الباطن ﴿أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ يعنى عند الناطق مقامًا يعهد به إليه ويشير ﴿كَلاَّ﴾ يعنى إقساما لا يكون ذلك، ثم قال تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ يعنى فى تصوره المظلم ما

---

(١) يقصد: أبا بكر رضي الله عنه، وهذه عادة غلاة الشيعة، ومن شاكلهم من الإسماعيلية.

كان منه من التعدى والتمويه ﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ يعنى ما يقترفه من تلك السيئات ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ يعنى ما طلبه من الإمهال سابقًا ولاحقًا ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ يعنى فى العذاب الأدنى والعذاب الأكبر لتفرده فى أليم العذاب على أتباعه، ثم قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا﴾ يعنى أهل الإصرار ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ يعنى إمام كل زمان ﴿آلِهَةً﴾ يعنى أهل أئمة وهم الذين اتخذوهم سابقًا ومالوا إليهم ﴿لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ يعنى فى معادهم يعتزون بهم ﴿كَلاَّ﴾ يعنى امتناعهم بذلك المرام الفاسد ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ يعنى بتعبدهم لهم بالطاعة ويتبرأون منهم، ذلك حين يكشف لهم أنواع العذاب ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ يعنى يضادونهم بالتعذيب لهم والتهويل والإحراق لهم بتصوراتهم النارية» (ص ١٩٧، ١٩٨).

وقال عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ ...﴾ (الأنبياء: ١٦وما بعدها) ما نصه: «﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ﴾ يعنى رتبنا (JIH عل) [يقصد: سلمان] فى مقام الوصاية الباطنة دليلا على (H,IJ ٩ عل) [يقصد: الحسين] ﴿وَالأَرْضَ﴾ يعنى رتبنا (J T ٩ T ج T .V عل) [يقصد: أبى بن كعب] فى مقام الوصاية الظاهرة دليلا على (J I H عل) [يقصد: الحسن] ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ يعنى من الحدود فى الدعوتين ﴿لاعِبِينَ﴾ يعنى مستهزئين فى إقامتهم ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ يعنى «حبتر» ﴿لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا﴾ يعنى لأقمناه منا، ولكن لا تكون الظلمة كالنور ولا الظل كالحرور ﴿إِن كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ يعنى إقامته. ثم قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ يعنى مقام حجاب (J I 2 عـ J عـ) [يقصد: الكرار] ﴿عَلَى الْبَاطِلِ﴾ يعنى مقام الضد ﴿فَيَدْمَغُهُ﴾ يعنى لظهور أمر (J I 2 عـ J عـ) [يقصد: الكرار] لا سيما عند تمام مدة مهلة الأجبات ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ يعنى عن مقام ما يدعيه من الخلافة، ثم قال تعالى مشيرًا إلى فريق الإصرار: ﴿وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ يعنى أن حبترًا لحجاب (J I 2 عـ J عـ) [يقصد: الكرار] (ص ٢٢٥).

وقال عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ ...﴾ (الأنبياء: ٨٣ وما بعدها) ما نصه: «﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ﴾ يعنى إمام زمانه وهو كان من أبوابه وصار مجمعًا عظيمًا من الأعضاء الرئيسية أولا فى دور المسيح وآخره فى

المجمع المحمدى ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ يعنى إشارة إلى حجابه الذى حصل منه وممن فى جواره التوقف فى أحد أعضاء الهيكل العلوى، وهو المستقر فى ذلك الزمان فابتُلى باضطراب أهل دعوته وكثرة المنافقين وتغلبهم، وجرى ذلك منهم فى كل دور عند ظهور فضلائهم ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ﴾ يعنى ذلك الابتلاء ﴿وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ﴾ يعنى أهل دعوته الذين كان ظهور فضلائهم فيها فى كل كَرَّة ﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ يعنى من غير أهل دعوته، استجابوا له وصلحوا على يديه ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ يعنى ساقهم إليه وهداهم به وخصهم بذلك كما اختصه فى ابتداء الفطرة ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ يعنى: المتعبدين منهم بطاعته ذكرهم بالهداية وقادهم إليها» (ص ٢٣٥).

وقال عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا ...﴾ (المؤمنون: ٨٤ وما بعدها) ما نصه: «﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا﴾ يعنى الدعوة وحدودها، وأيضًا الأرض الظاهرة ومن فيها ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ يعنى المدبر ﴿قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ يعنى أنه العين تعالى علاه، ثم قال تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ﴾ يعنى الذى تكون منه مراتب السبعة الأتماء الذين أحاطت مراتبهم على أكثر المراتب لكونهم أشرف مقامات الدور العمرانى، ومقامات أهل الدور العمرانى أفضل ممن تقدمهم فى الأدوار - وقد أشار إلى ما لهم من علو المنازل فى الهيكل القائمى، ولأنهم وحدهم وأبيهم صاحب كنز الوالد بما هذا فصه أعلى الله قدسه ورزقنا شفاعته وأنسه - وإتمام دوره مثل فاطمة والحسن والحسين وعلى بن الحسين ومحمد بن على وجعفر ابن محمد وإسماعيل بن جعفر ومحمد بن إسماعيل سابعهم، منهم حاسة السمع، ومنهم حاسة البصر، ومنهم حاسة الشم، ومنهم حاسة التذوق، ومنهم حاسة اللمس، ومنهم حاسة التخيل، ومنهم حاسة الحفظ، ومنهم حاسة الذكر، وهؤلاء الثمانية يكونون هذه الحواس الثمانى، ومحمد ﷺ وعلى آله حاسة النطق والفطنة (VII ا ٩. ل ا ى T) [يقصد:] والفكرة ﴿وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ يعنى (ل ا XX ل عـــ) [يقصد: الفاطر] ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ يعنى صاحب الاستقرار ﴿قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ يعنى من مخالفته» (ص ٢٧٢، ٢٧٣).

وقال عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالإِفْكِ ...﴾ (النور: ١١ وما بعدها): ما نصه: «﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالإِفْكِ﴾ يعنى الذين اختاروا الضد وأقاموا بحسب ما كان منه ومنهم فى القديم ﴿عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ يعنى بتظاهرهم بالدخول فى الملة الإسلامية ﴿لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم﴾ يعنى نكوصهم لأنه بذلك امتاز الخبيث من الطيب ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ يعنى ترافعت درجاتكم وتلألأت صوركم. ثم قال تعالى: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ﴾ يعنى بقدر ما يصرفه من الضلال أو عمل به سابقًا أو لاحقًا ﴿وَالَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ﴾ يعنى معظم أمر الضد منهم وهم أهل السقيفة ﴿لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يعنى متضاعف على غيرهم فى جميع أبواب العذاب الأدنى والأكبر، ثم قال تعالى: ﴿لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ قال مولاى ذو الحدين - قدس الله روحه فى ذلك: يعنى نص النبى على الوصى ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ﴾ يعنى بمستفيدهم، ثم قال تعالى: ﴿خَيْرًا وَقَالُوا﴾ يعنى أولئك المخالفين ﴿هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ يعنى: كذب بين، ثم قال تعالى: ﴿لَوْلا جَاءُو عَلَيْهِ﴾ يعنى على صحة أنه ضدهم ﴿بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ يعنى يشهدون بأربعة دلائل، **الأولى:** كونه من أهل بيت النبوة، **والثانية:** إثبات الإمام فى عقبه، **والثالثة:** الإشارة من الله ورسوله إليه، **والرابعة:** كونه فى مقام العصمة ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ﴾ يعنى بهذه الدلائل ﴿فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللَّهِ﴾ يعنى عند الناطق ﴿هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ يعنى عليه بالإشارة إلى ما ليس يستكمل خصال الوصاية» (ص ٢٧٩، ٢٨٠).

وقال عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا ...﴾ (الفرقان: ٦٣ وما بعدها) ما نصه: «﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ يعنى الدعاة ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ﴾ يعنى فى قوانين الدعوة عند ظهور فضلائهم فى الأدوار ﴿هَوْنًا﴾ يعنى بوقار ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ﴾ يعنى بمقاماتهم ﴿قَالُوا سَلامًا﴾ يعنى أجابوه بلين وحسن عبارة ووعظ، وذلك دأبهم فى كل ظهور ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ﴾ يعنى صاحب عصرهم ﴿سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ يعنى متوجهين إليه بالعبادة ظاهرًا وباطنًا ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا﴾ يعنى إمام زمانهم الذين هم دعاة إليه ﴿اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ يعنى: الإدراك ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ يعنى هلاكا ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا﴾ يعنى أسوأ مستقر لمن دخلها ﴿وَمُقَامًا﴾ يعنى لمن أقام فيها ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ يعنى

من علوم صاحب الدعوة الهادية وأمواله لكونهم معصومين به ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ يعنى متوسطا بين الحالين ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ﴾ يعنى ولى أمره ﴿إِلَهًا آخَرَ﴾ يعنى إمامًا ثانيا ﴿وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ يعنى بواجب لدى الجهاد أو فى أمر توجبه الشريعة، وأيضا لا يسقطون أحدًا من مرتبته إلا باستحقاقه لذلك لموجب ما صدر منه من الذنب الذى جرى عليه فى الكرات ﴿وَلا يَزْنُونَ﴾ يعنى يتعدون إلى شىء من الخدم فى غير حرائرهم التى أمرهم مصروف إلى سواهم من الدعاة ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ يعنى من الذين هم غير معصومين ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ يعنى ظاهرًا وباطنًا ﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يعنى من انتقامه يجدد عليه فى القوالب ﴿وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾ يعنى فى الصخرة، ثم قال تعالى: ﴿إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ﴾ يعنى رجع إلى التوبة وأقلع عن ذلك الذنب، وكان ذلك منه المتاب بحسب ما انعقده فى ضميره، ولا بد له من التصفية والتطهير بقدر ذلك الذنب ﴿وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا﴾ يعنى بالدعوة إلى ولى أمره ﴿فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ﴾ يعنى ولى الزمان المتولى للتدبير ﴿سَيِّئَاتِهِمْ﴾ يعنى تلك الذنوب التى ابتنت فى صورهم ظلمات، وما كانوا قد ترتبوا فيه من الضدية، ﴿حَسَنَاتٍ﴾ يعنى بمراتب من مراتب أهل الحق وبصور نورانية من فعلهم ذلك، وتلك التخيلات التى قد انقشعت عنهم تلتئم ثم تكون لها أهلا من أهل العناد، ثم قال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ يعنى لمن تاب إليه» (٣٠٦، ٣٠٧) .

وقال عند تفسيره لقوله تعالى فى أول سورة الشعراء: ﴿طسم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ (الشعراء: ١، ٢) ما نصه: «قال الله تعالى: ﴿طسم﴾ إقسام من العاشر بمجمع المعين الذين جمع مجامع النطقاء والأسس والأئمة، لكون الطاء من النطقاء، والسين من الأسس، والميم من الأئمة، وأيضًا أن عدد الطاء تسعة، وعدد السين والميم مائة، فدلتنا المائة على أن مجموعه حوى من الصور الكلية التى سلمها إليه العاشر يوم (ل ا B Y ٩ عـ) [يقصد: الغدير] من المركزية الاستقرارية مائة صورة، ثم على تسعة مجامع عظام رجعت إليه وهم: الميم والفاء وأسابيع الدور المحمدى فأقسم بها تعالى، وكان وضع الطاء فى أول الحروف هذه إشارة أن العين الأولة أو ما تسلم إلى العين الآخرة من المجامع الميم والفاء وأسابيع الدور المحمدى ﴿تِلْكَ آيَاتُ

الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ يعنى مقامات (ل ا ، H ٩ عل) [يقصد: الحسين]، قباب الأنوار من ولده لكونه الكتاب وهم آياته» (ص ٣٠٩).

وقال عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ...﴾ (العنكبوت: ٨) ما نصه: «﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ﴾ قال مولاى الحسام فى حقيقة ذلك: يعنى محمد بن أبى بكر ﴿بِوَالِدَيْهِ﴾ يعنى الضالين اللذين كان استفادته أولا منهما ﴿حُسْنًا﴾ يعنى أن يدعوهمـا إلى ولاية الوصى، ثم قـال تعالى: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي﴾ يـعنـى أن تشركهما فى مقام الوصاية ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ يعنى أنهم يستحقانه ﴿فَلا تُطِعْهُمَا﴾ يعنى فيما أمراك به ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ يعنى دعوتهم إذا قام السابع ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يعنى صرف الدعوة» (ص ٣٦١).

ملحوظة: فى آخر القسم الرابع من كتاب: «مزاج التسنيم» توجد حروف الكتابة السرية وما يقابلها بالحروف العربية على النحـو المبين فى الصفحة التالية، وهى منقولة بخط الشهيد الشيخ الذهبى.

ويلى ذلك فك الرموز المـوجودة بالكتاب ابتداء من أول سـورة يونس إلى آخر ما وصل إليه من سورة العنكبوت.

وقد وضعنا فك الرموز بين معقوفتين فى ثنايا النص، إتمامًا للفائدة.

ملحوظة هامة

القسم الرابع من

في آخر كتاب مزاج التسنيم توجد حروف الكتابة السرية وما يقابلها بالحروف العربية على النحو الآتي:

ا ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ص ض

ط ظ ع غ ف ق ك ل م ن ه و ى لا

ويلي ذلك فك الرموز الموجودة بالكتاب ابتداءً من أول سورة يونس إلى آخر ما وصل إليه من سورة العنكبوت. وقد وضعنا فك الرموز بالهامش نقلاً عن الجدول الموجود بآخر الكتاب.

محمد حسين الذهبي

بغداد في ٦/٥/١٩٦٢

صورة خطية للكتابة السرية الواردة فى كتاب «مزاج التسنيم»

بخط الشهيد الشيخ الذهبى



الباب الخامس

تفاسير الإباضية

* تفسير كتاب الله العزيز
لهود بن محكم.



تفسـير كتـاب اللـه العـزيـز

لهود بن محكم الهوارى

التعريف بصاحب التفسير(١):

هو الشيخ العلامة المفسر هود بن مُحكِّم، وهو الراجح فى ضبط هذا الاسم، ابن هود الهوارى، وقبيلة «الهوارى» التى ينتسب إليها من قبائل البرانس البربرية، وقد سكن بطونها عدة مواطن فى إفريقيا والمغرب، حيث جاورت هوارة قبيلة نفوسة بجبل نفوسة جنوب طرابلس الغـرب، وسكنت بطون منهـا بلاد الجريـد جنوب الحدود الجـزائرية التونسيـة الآن، وسكنت بطون منها جبل «أوراس» ونواحيه، وهـو الموطن الذى ينتمى إليه الشيخ هود ـ رحمه الله.

ولم تحدد المصادر العام الذى ولد فيـه الشيخ هود، ولكن يُقدر أنه وُلِدَ فى العقد الأول أو الثانى من القرن الثالث الهجرى (٢٠٠ - ٢٤٩ هـ).

ولقد كان الشيخ محكم والد الشيخ هود عالمًا جليـلا، وقاضيًا فحلا، عينه الإمام أفلح ـ حكم الدولة الرستمية بين: ٢٠٨ - ٢٥٨هــ ـ قاضيًا على «تيـهرت» عاصـمة الدولة الرستمية.

وقد ذهب مـحقق الكتاب إلى عدم اسـتبعـاد كون الشيخ هود هاجر إلى القـيروان وتيهرت لطلب العلم.

وكما ذهب الأستاذ سلـطان الشيبانى كذلك إلى عدم استبعـاد كون الشيخ هود قد رحل إلى الأندلس فى أواخر حياته، وقرأ على مشايخها وتتلمذ عليهم.

ووصفـه الشمـاخى بقوله: «وهو عـلامة مـتفنن غـائص، وهو صاحب التـفسير المعروف، وهو كتـاب جليل فى تفسير كلام الله لم يتعرض فـيه للنحو والإعراب، بل على طريقة المتقدمين».

ولم تُسعف المصـادر بذكر شيوخه إذا استـثنيا أباه مُحكما، وكذلك الأمـر بالنسبة لتلاميذه الذين تلقوا عنه العلم.

---

(١) لخصنا هذه الترجمة من مقدمة محقق التفسير.

ولم نظفر له بتاريخ وفاة، ويقدر الأستاذ شريفى أنها كانت فى العقد الثامن أو التاسع من القرن الثالث الهجرى، أى حوالى سنة ٢٨٠ هـ، حيث أن كل من ذكره من المؤرخين وكتاب السير يؤكد أنه من علماء الطبقة السادسة (٢٥٠ - ٣٠٠هـ).

التعريف بالتفسير:

وتفسير هود بن محكم هو أول تفسير كامل للقرآن، يصل إلينا من تفاسير الإباضية، وطبع مؤخرًا فى أربعة مجلدات بدار الغرب الإسلامى الطبعة الأولى ١٩٩٠م، بتحقيق بالحاج بن سعيد الشريفى، وهو إباضى أيضًا.

ولقد ظل هذا التفسير أكثر من أحد عشر قرنًا منسيًّا مغمورًا، إلى أن ظهرت مخطوطاته المتفرقة فى بعض الخزائن الخاصة، وهى خزائن لعلماء من القرون الأربعة الأخيرة يحتفظ بها أبناؤهم وحفدتهم، وهى موجودة فى وادى ميزاب جنوب الجزائر بمدن العطف، وبنى يسجن، والقرارة، وفى جزيرة جربة، بالبلاد التونسية.

وقد اطلع الوالد - رحمه الله - على الجزئين الأول والرابع من مخطوطات هذا التفسير، وكانت فى ملك الشيخ إبراهيم إطفيش، رحمه الله.

وقد ذكر محقق هذا التفسير أن هناك صلة وثيقة بين هذا التفسير وتفسير يحيى بن سلام البصرى، وبينهما قرن من الزمان، ويؤيد ذلك بكثرة الروايات فيه عن علماء البصرة صحابة وتابعين، ثم عقد مقارنة بينهما تثبت العلاقة الوثيقة بين التفسيرين.

ثم قال محققه: «واليوم وبعد أكثر من عشر سنوات من التحقيق والمقارنة والاستقراء، أستطيع أن أقول بدون تردد: إن الشيخ هودًا الهوارى اعتمد اعتمادًا كثيرًا - إن لم أقل اعتمادًا كليًّا - على تفسير ابن سلام البصرى».

وقد يكون هود بن محكم رحل إلى القيروان طلبًا للعلم فتلقاه مباشرة من محمد ابن يحيى بن سلام أو من أبى داود العطار تلميذ يحيى، والذى أضافه هو تحريف عقيدة يحيى بن سلام السلفية فى تفسيره إلى العقيدة الإباضية.

والملاحظ على هذا التفسير أنه ينقل كثيرًا عن علماء الإباضية فى روايات كثيرة جاءت منسوبة إلى جابر بن زيد وإلى عبيدة بن مسلم خاصة، وإلى عامة علماء الإباضية وفقهائهم الذين يصفهم بقوله: «أصحابنا».

وقد قـدَّم هود بن محكم لكتابه بمـقدمة حوت بعـضًا من علوم القرآن، وقد فـقد أولها لأن المخطوطات المـوجودة اتفقت على عدم وجود بداية المقـدمة مثل: أول ما نزل، وآخر ما نزل، ونزول القرآن على سبعـة أحرف، وقراءة القرآن فى عهده ﷺ، وعدد سور القـرآن، والمكى والمدنى، وفى القول فى القرآن بغـير علم، وما يلزم من تكلم فى التفسير من علوم، وفضل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما فى التفسير.

ويورد المؤلف فى ذلك كله آثارًا فـقط يبدؤها بقوله: ذكـروا، ويسندها لصاحبـها بدون ذكر سنده إليه.

وتفسير هود بن محكم يُعَدُّ أول مختصر لتفسير يحيى بن سلام، وقد حفظه لنا فى صورته الكاملة أو القريبة من الكمال؛ فـهو أقرب زمنًا من المؤلف من ابن أبى زمنين، كما أنه حوى من الآثار والأخبار ما لا يوجد فيه.

كما يلاحظ أنه يسرد الأقوال دون ترجيح، ولا يهتم بِعَدِّ الآى، ولكنه يذكر المكى والمدنى.

موقفه من العقيدة:

وهود بن محكم يقف فى تفسيره ضد من يقول بالإرجـاء، ولكنه يرد على إرجاء أهل السنة وليس إرجاء المرجئة.

يقول ابن سيرين عن الخوارج: «هم عمـدوا إلى آيات الوعيد النازلة فى المشركين فوضعوها على المسلمين فجاءوا ببدعة القول بالتكفير».

فمثـلا عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ (النحل: ٩٤) قال مـا نصـه: «﴿دَخَـلًا بَيْنَكُمْ﴾ أى: خيانة وغدرًا كمـا صنع المنافقون الذين خانوا الله، إذ نقضوا الأيمان فقالوا ولم يعملوا، وتركوا الوفاء بما أقروا لله به، والدخل: الخيانة».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿ارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ (التوبة: ٤٥) قال: «أى وشكت قلوبهم فى أن لا يعـذبهم الله بالتـخلف عن الجـهـاد بعـد إقرارها بـالله والنبى... ولم يكن ارتيابهم شكًّا فى الله وإنما كان ارتيابهم وشكهم فى أن لا يعذبهم الله بتخلفهم عن نبى الله بعد إقرارهم وتوحيدهم».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ (فاطر: ١٠) قال: «ولا التوحيد

إلا بالعمل، كقوله تعالى: ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ (الإسراء: ١٩) والإيمان قول وعمل، لا ينفع القول دون العمل».

كما نراه يحاول بكل وسيلة أن يقرر عقيدته ويستدل على ذلك بآيات الكتاب الكريم، فمثلاً عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ...﴾ (البقرة: ٨ - ١٠) الآيات، يقول: «ثم ذكر الله صنفًا آخر من الناس - يعنى المنافقين - فقال: أقروا لله بألسنتهم وخالفت قلوبهم ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ أى: حتى يستكملوا دين الله ويوفوا بفرائضه ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّىٰ﴾ (النجم: ٣٧) أى الذى أكمل الإيمان وأكمل الفرائض. قوله: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى بما أعطوهم من الإقرار والتصديق، وأعطوا الحقوق من الزكاة يخادعون بذلك رسول الله ﷺ والمؤمنين، فجعل الله مخادعتهم رسوله والمؤمنين كمخادعة منهم لله، وهو كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ (الفتح: ١٠) والإيمان بالنبى ﷺ إيمان بالله، والكفر به هو كفر بالله، وكذلك مخادعة الله، قال: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ﴾ أى: إن ذلك يرجع إليهم عذابه وثواب كفره. وتفسير خدعة الله إياهم فى سورة الحديد، ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أى: أن ذلك يصير عليهم، ثم قال: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ يعنى بذلك النفاق. يقول: فى قلوبهم نفاق، فنسب النفاق إلى القلب كما نسب الإثم إليه، كقوله فى الشهادة: ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ (البقرة: ٢٨٣)، قال: ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ أى: الطبع على قلوبهم بكفرهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يعنى عذابًا موجعًا ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ مخففة؛ أى: بقولهم: إنا مؤمنون وليسوا بمؤمنين، إذ لم يستكملوا فرائض الله ولم يوفوا بها. فهذا تفسير من قرأها بالتخفيف. ومن قرأها بالتثقيل «بما كانوا يُكَذِّبون» فهو يريد: بعض العمل أيضًا تكذيب؛ إن التكذيب تكذيبان: تكذيب بالقول، وتكذيب بالعمل، ومثله فى اللغة أن يقول القائل للرجل إذا حمل علي صاحبه فلم يحقق فى حملته: كذب الحملة، وإذا حقق قالوا: صدق الحملة. فمن قرأها بالتخفيف فهو يريد الكذب على معنى ما فسرناه أولاً، وأخت هذه الآية ونظيرتها التى فى براءة ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ (التوبة: ٧٧) يقول: أعقبهم بالخلف والكذب الذى كان منهم، نفاقًا فى قلوبهم إلى يوم

يلقونه. ومن قرأها بالتثقيل فهـو بالمعنى الآخر الذى وصفناه آخرًا، ولا يعنى به جحدًا ولا إنكارًا؛ لأن مرض النفاق غير مرض الشرك، وكذلك كفر النفاق غير كفر الشرك».

موقفه من أصحاب الكبائر:

كذلك نجد المؤلف يحاول أن يأخذ من القرآن ما يدل على أن مرتكب الكبيرة مخلد فى النار وليس بخارج منها، فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ...﴾ (البقرة: ٨١، ٨٢) يقول: «﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ يعنى الشرك ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ ثم مات ولم يتب منه ﴿فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أى لا يموتون ولا يخرجون منها أبد الأبد».

موقفه من الشفاعة:

ويرى هود بن محكم أن الشفاعة لا تكون إلا للمؤمنين، فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (البقرة: ٤٨) يقول: «أى: لا تفديها ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ لأن الشفاعة لا تكون إلا للمؤمنين ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أى: فداء، كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ (المائدة: ٣٦) أى: من فضة وذهب ﴿وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾ (المائدة: ٣٦) وكقوله: ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا﴾ (الأنعام: ٧٠) أى: وإن تفد بكل فدية ما تُقُبِّل منها».

وكذلك عند تفسيره قول تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ (البقرة: ١٢٣) يقول: «أى: فداء، وقد فسرناه قبل هذا الموضع ﴿وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾ أى لا يشفع لها أحد عند الله، لأنه لا تكون الشفاعة إلا للمؤمنين خاصة ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أى: لا أحد ينصرهم يومئذ، كقوله: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ۝٢٥ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ (الصافات: ٢٥، ٢٦) ».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ (الأعراف: ٥١) قال: «يعنى أنه ليس أصحاب النار كلهم جاحدين، يقول: ﴿وَمَا كَانُوا﴾ أى: ولم يكونوا، أى:

أهل النار جميعًا بآياتنا يجحدون، أي: إن من أهل النار الجاحد بآياتنا وغير الجاحد، وهذا حقيقة التأويل؛ لأنه قد دخلت النار بغير الجحود، دخلها أكلة الربا وراكبو الزنا، وقاتلو الأنفس، وآكلو أموال اليتامى وأموال الناس بالباطل، وغير ذلك من الكبائر الموبقة.

والآية جامعة لجميع الكفار من كافر مشرك، وكافر منافق على المعنى الذى فسرنا. فمن قال: إن أهل النار كلهم جاحدون أكذبه الوجود، فقد دخلها بغير جحود من وصفنا.

ومن قال: إنهم جميعًا غير جاحدين لقول الله: ﴿وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ أى: إنهم جميعًا لم يكونوا جاحدين أكذبه الوجود أن أهل الجحد والإنكار من أهل النار. قال الله: ﴿وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ فانقطعت قصة أهل الجنة وأهل النار ههنا».

موقفه من مغفرة الذنوب:

ثم إن المؤلف حمل كل آيات العفو والمغفرة على مذهبه القائل: بأن الكبائر لا يغفرها الله إلا بالتوبة منها والرجوع عنها، فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ (الزمر: ٥٢) يقول: «قال: بالشرك والكبائر الموبقة ﴿لا تَقْنَطُوا﴾ أى: لا تيأسوا ﴿مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ على التوبة ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ذكروا عن الحسن أنه قال: لما نزل فى قاتل المؤمن وفى السارق والزانى وغير ذلك مما نزل تخوف قوم أن يؤاخذوا بما عملوا فى الجاهلية فقالوا: أينا لم يفعل، فأنزل الله: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ أى: لمن تاب وآمن وعمل صالحًا ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ وأنزل ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (الفرقان: ٦٨ - ٧٠) أى: لمن تاب إليه إذ جعل له بعد ذنوبه متابًا ومرجعًا».

موقفه من المتشابه:

كذلك نجد المؤلف يقف أمام المتشابه موقف التأويل، فمثلاً عند تفسير قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ ...﴾ (البقرة: ٢١٠) الآية يقول: «قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾ يوم القيامة ﴿فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ﴾ أى وتأتيهم الملائكة ﴿وَقُضِيَ الأَمْرُ﴾ يعنى الموت ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ يعنى عواقبها. قال بعض المفسرين: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾ أى: بأمره ﴿فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ﴾ (البقرة: ٢١٠) أى الموت».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ (الفجر: ٢٢) قال: «أى: جاء أمر ربك».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ (الكهف: ٨٠) قال: «ذكر بعضهم قال: فى مصحف عبد الله بن مسعود: فخاف ربك أن يرهقهما طغيانًا وكفرًا. وتأويل فخاف ربك: أى فكره ربك؛ وهو مثل قوله تعالى: ﴿وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ﴾ (التوبة: ٤٦) وتفسير كره: لم يُرد».

موقفه من الإسرائيليات:

أسرف هود فى ذكر الإسرائيليات، وملأ بها كتابه ولم يفندها أو يعقب عليها، وأكثرها عن الكلبى.

فمثلاً عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ (الإسراء: ٧) قال: «أى: وليفسدوا ما غلبوا عليه فساداً. فبعث الله فى الآخرة بختنصر البابلى المجوسى فقتل وسبى وخرَّب بيت المقدس، وقذف فيه الجيف والعذرة. ويقال: إن فسادهم الثانى قتل يحيى بن زكريا، فبعث الله بختنصر عقوبة عليهم بقتلهم يحيى، فقتل منهم سبعين ألفًا.

وذكر بعضهم قال: كان يحيى بن زكريا فى زمان لم يكن للرجل منهم أن يتزوج امرأة أخيه بعده. فإذا كذب متعمداً لم يُوَلَّ المُلك. فمات الملك، وولى أخوه، فأراد أن يتزوج امرأة أخيه ـ الملك الذى مات ـ فسألهم فرخصوا له. وسأل يحيى بن زكريا فأبى أن يرخص له، فحقدت عليه امرأة أخيه، وجاءت بابنة أخى الملك الأول إليه،

فقال لها: سليني اليوم حكم. فقالت: حتى أنطلق إلى أمي. فلقيت أمها فقالت: قولي له: إن أردت أن تفي لنا بشيء فأعطني رأس يحيى بن زكريا، فقالت: أقول له خيرًا من هذا. فقالت: هذا خير لك منه. فأتت إليه فسألته، فكره أن يُخلِفَها ولا يُولي الملك. فدفع إليها يحيى بن زكريا، فلما وضعت الشفرة على حلقة قال: قولي باسم الله هذا ما بايع عليه يحيى بن زكريا عيسى ابن مريم على أن لا يزني ولا يسرق ولا يلبس إيمانه بسوء. فلما أمَرَّت الشفرة على أوداجه فذبحته ناداها منادٍ من فوقها فقال: يا ربة البيت الخاطئة الغاوية. قالت: إنها كذلك، فماذا تريد منها؟ فقال: لِتَبشر، فإنها أول من تدخل النار. قال: فخسف بابنتها. فجاءوا بالمعاول فجعلوا يحفرون عنها وتدخل في الأرض حتى ذهبت ولم يُقدر عليها».

وكذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ (سورة ص: ٢٥) قال: «قال الكلبي: إن داود قال: رب اتخذت إبراهيم خليلاً، وكلمت موسى تكليمًا، فوددت أنك أعطيتني من ذلك ما أعطيتهم. قال الله: إني ابتليتهما بما لم أبتلك به. قال: فإن شئت أبتليك بما ابتليتهما وأعطيك مثل ما أعطيتهما. قال: رب، نعم. قال: اعمل عملك حتى يتبين بلاؤك. فمكث ما شاء الله بذلك؛ يصوم النهار ويقوم الليل، فكان على ذلك، فبينما هو في المحراب ذات يوم، والزبور بين يديه، إذ جاء طائر فوقع قريبًا منه، فتناوله داود، فطار إلى الكوى، فقام ليأخذه، قال بعضهم: فوقع في مضجعه، فقام ليأخذه، فوقع الطير إلى البستان، فأشرف داود فنظر، فإذا هو بامرأة تغتسل في البستان. فعجب من حسنها، فأبصرت ظله فنقضت شعرها فغطاها. فزاده ذلك عجبًا بها. ثم أرسل غلامًا له فقال: اتبع هذه المرأة فاعلم من هي، أو ابنة من هي، وهل لها زوج؟.

فاتبعها الغلام حتى عرفها، فرجع فقال: هي ابنة فلان، وزوجها فلان، وكان يومئذ مع ابن أخت داود في بعث. فكتب داود إلى ابن أخته: أن ابعث فلانًا واجعله بين يدي التابوت فلا يرجع حتى يفتح المدينة أو يُقتل. فبعثه فقُتل. فلما انقضت عدة المرأة أرسل إليها فتزوجها، وهي أم سليمان بن داود.

فلما علم الله ما وقع في عبده أحب أن يستنقذه، فأرسل إليه ملكين فأتياه في

المحراب، والحرس حول المـحراب، وهم ثلاثة وثلاثون ألفًا، فرأى داود الرجلين قد تسوّروا المـحراب، فـفزع منهمـا وقال: لقـد ضعف سلطانى حتـى إن الناس تسوّروا محرابى». . . إلى آخر القصة وفيها ما فيـها من أباطيل ومساس بعصمة الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام.

موقفه من المسائل الفقهية:

ومن المواضع الفقـهية فى تفسـير هود بن محكم ـ والتى تؤكد سطوه على تفـسير يحيى بن سلام ما ذكره فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (البقرة: ٣) حيث قال: «يعنى الزكاة المفروضة على ما سن رسول الله ﷺ فى الذهب والفضة، والإبل والبقر والغنم، والبر والشعير، والتمـر والزبيب. وفى قول الحسن وغيره من أصحابنا: وما سوى ذلك فليس فيه زكاة حتى يباع فتكون فيه زكاة الأموال يزكيه مع ماله إذا زكى إذا كان له مـال. وبعض أصحابنا يجـعل الذرة مع البر والشعـير. وقد فـسرنا ذلك فى أحاديث الزكاة».

ولا يعرف لهـود كتاب فى الحـديث، ويبدو أن هذه الجمـلة من تفسـير يحيى بن سلام نقلت حرفـيًا وأراد بها كتابه «الجامع» الذى صنفـه فى الحديث، وقد رجَّح ذلك محقق التفسير.

ولما كان الإباضية يجوزون قتل النساء والصـبيان فى الحرب، فإن هودًا عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (البقرة: ١٩٠) أعرض عن ذكر الآثار الواردة فى النهـى عن ذلك وقـال: «﴿وَلا تَعْـتَـدُوا﴾ أى فى حربـكم فتقـتلوا من لا يقاتلونكم، وتـقتلوا من قد آمنتـموه وتحرم بحـرمتكم ﴿وَلا تَعْـتَـدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ ثم أمر بقتالهم فى سورة براءة فقال: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ (التوبة: ٥)».

حملته على أهل السنة:

ونرى المؤلـف كلما سنحت له الفـرصة للتنديد بجـمهـور أهل السنة ـ ويسمـيهم بالفرقة الشاكة إلا ولمزهم، فمثلاً عند تفسير قوله تعالى: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ ۝١ رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ (الحجر: ١، ٢)، قال: «وقـد تأولت

الفرقة الشاكة هذه الآية على غير تأويلها، وردّت على الله تنزيله، فقالوا: هم قوم من أهل التوحيد يدخلون النار، فيعيرهم أهل النار، ويقولون: قد كان هؤلاء مسلمين فما أغنى عنهم؛ قالوا: فغضب لهم ربهم فيخرجهم - زعموا - من النار ويدخلهم الجنة. قالوا: فعند ذلك ﴿يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ فزعموا أن الله مخرج أقوامًا من النار قد احترقوا وصاروا حممًا فيدخلون الجنة، فيقول أهل الجنة: هؤلاء الجهنّميون. قالوا: فيدعون ربّهم فيمحى ذلك الاسم عنهم، فيسمّون عتقاء رب العالمين، افتراء على الله، وكذبًا عليه، وجحودًا بتنزيله . . .» إلى أن قال: «فكيف بعد هذا من تنزيل الله ومحكم كتابه تزعم الفرقة الشاكة أن أهل جهنم يخرجون منها ويدخلون الجنة؟ يتّبعون الروايات الكاذبة التى ليس لها أصل فى كتاب الله، وينبذون كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون، فالله بيننا وبينهم وهو خير الحاكمين».

وكذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ (هود: ١٠٨) قال: «أى: إلا ما سبقهم به الذين دخلوا قبلهم، وذكرها هنا ما افترت الفرقة الشاكة من أن قومًا يدخلون النار ثم يخرجون منها بالشفاعة؛ فإن هذا موضعه وموضع الرد عليهم».

رؤية الله تعالى فى الآخرة:

ويرى مؤلفنا كغيره من الإباضية أن رؤية الله تعالى غير جائزة ولا واقعة لأحد مطلقًا، فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (القيامة: ٢٢، ٢٣) قال: «أى: تنتظر الثواب، وهى وجوه المؤمنين، وحدثنى مسلم الواسطى قال: سمعت أبا صالح يقول فى قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ قال: تنتظر الثواب من ربها. قال أبو صالح: ما رآه أحد ولا يراه أحد».

رأيه فى الميزان:

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم﴾ (الأعراف: ٩) قال: «وبلغنا أن المؤمن توزن حسناته وسيئاته، فمنهم من تفضل حسناته على سيئاته، وإن لم تفضل إلا حسنة واحدة يضاعفها الله له فيدخله الجنة» وخالف هود فى ذلك الكثيرين من الإباضية الذين لا يقرون بالميزان، ويؤولونه بالعدل.

حطه من قدر عثمان ـ رضي الله عنه ـ والطعن فيه:

ثم إن المؤلف لا تكاد تـأتى مناسبة وفـيها ذكـر لعثمـان رضي الله عنه إلا وغض من شأنه ورماه بكل نقيصة، فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِى إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ (المائدة: ٣٢) قال: «ذكروا عن عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحـدى ثلاث: رجل كفر بعد إسـلامه، أو قتل نفسًـا متعمـدًا، أو زنى بعد إحصانه» قال جابر بن زيد: وأنـا أقول الرابعة من كتاب الله: ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ (الحجرات: ٩)».

وعند تفسيـره لقوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (الأنعـام: ١٥١) قال: «ذكروا أن عثمان بـن عفان ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يحل دم امـرئ مسلم إلا بإحـدى ثلاث: رجل كفـر بعد إسـلامه، أو قـتل نفسًـا متعمدًا» وبعضهم يقول: والرابع: ما حكم الله مـن قتل الفئة الباغية حتى تفىء إلى أمر الله» وفيما يؤثر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أُمرت أن أقاتل حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالـوها فقد عصـموا منى دماءهم وأموالهم وسـبى ذراريهم إلا بحقها» فـينبغى أن يتفهم الناس هذه النكتة: إلا بحـقّها؛ وحقها ما وصفنا من رجل كـفر بعد إسلامه، أو زنى بعد إحصانه، أو قتل نفسًا متعمدًا، أو قاتل أهل البغى فقُتل عليه».

هذا هو مفسـرنا الإباضى، وهذا هو تفسيـره الذى ملأه بعقائد الإباضـية، مع بيان لمدى تعصبه الشديد لمذهبه، ومجاراته للمعتزلة فى بعض عقائدهم

* * *



الباب السادس

تفاسير الزيدية

* تفسير الأعقم.



تفسير الأعقم

التعريف بمؤلف هذا التفسير[١]:

مؤلف هذا التفسير هو العلامة على بن محمد بن على الأعقم الآنسى، من قرية «مطح آنس» عالم فقيه مفسر، من علماء القرن التاسع الهجرى، زيدى المذهب.

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

يقع هذا التفسير فى مجلد واحد، وطبع عام ١٩٩٠م فى دار الحكمة اليمانية.

ويتعرض الأعقم فى تفسيره لأسماء السور وبيان مكيها ومدنيها، ويورد فى بداية كل سورة ما ذكر فى فضلها من الأحاديث الموضوعة ـ غالبًا ـ ثم يذكر أسباب النزول، إن وجدت، كما يتعرض الأعقم فى تفسيره للقراءات المتواتر منها والشاذ وينسبها ـ غالبًا ـ إلى من قرأ بها من القراء.

أما مصادره فى التفسير فمن أهمها: تفسير الزمخشرى، والحاكم الجشمى، والثعلبى، والهادى، وصاحب العجائب والغرائب.

أخذه بمذهب المعتزلة فى حرية الإرادة وخلق الأفعال:

والأعقم متأثر بأقوال المعتزلة فى تلك المسألة، ولكنه عندما يجد ما يصادمه من الآيات الصريحة فى أن أفعال العباد كلها مخلوقة لله تعالى، يلجأ للتخلص من هذه الضائقة بالقول باللطف، فمثلا عند تفسير قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ (آل عمران: ٨) يقول: «لا تبلنا ببلايا تزيغ فيها قلوبنا، وأرشدنا لدينك، ولا تمنعنا ألطافك بعد إذ لطفت بنا».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (المائدة: ٤١) قال الأعقم: «﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ﴾ تركه مفتونًا وخذلانًا ﴿فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ فلن تستطيع له من لطف الله وتوفيقه شيئًا. قوله تعالى: ﴿أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ يعنى: من الألطاف ما يطهر قلوبهم به لأنهم ليسوا من أهلها».

---

(١) لم أعثر له على ترجمة مفصلة، فيما بين يدى من مراجع، ويقينى أن له ترجمة فى «معجم مؤلفات الزيدية» ولكنه ليس تحت يدى الآن.

وعندما تكلم الأعقم عن قوله تعالى: ﴿مَن يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الأنعام: ٣٩) قال: «﴿مَن يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ﴾ أى: يخليه وضلالته لا يلطف به، لأنه ليس من أهل اللطف ﴿وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أى: يلطف به».

وعند تفسيره للآيات (٢٨ - ٣٠) من سورة الأعراف قال: «وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ أى بالقبائح، وكفى به ردًا على أهل الجبر ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٢٨) قُلْ﴾ يا محمد ﴿أَمَرَ رَبِّى بِالْقِسْطِ﴾ أى: بالعدل، وقيل: بالتوحيد أحياء لا من شىء أو لا ﴿تَعُودُونَ﴾ أحياء بعد الموت والفناء، وقيل: تعودون على ما أنتم عليه المؤمن على إيمانه والكافر على كفره ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ قيل: المراد بالهدى الدلالة وذلك أن المؤمن نظر فعرف وهؤلاء لم يعرفوا، وقيل: الهدى إلى طريق الثواب والضلال عنه بالعقاب فى النار».

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ...﴾ الآيات (٤٧ - ٥٠) من سورة القمر قال: «نزلت فى وفد نجران، وقيل: فى القدرية من هذه الأمة، وعن النبى ﷺ: «لعنت القدرية والمرجئة على لسان سبعين نبيًا»، قيل: يا رسول الله، ومن القدرية؟ قال: «قوم يعملون المعاصى يقولون: الله قدرها عليهم» قيل: ومن المرجئة؟ قال: «هم قوم يقولون الإيمان بلا عمل» وقد علمنا أن المجبرة أعداء الرحمن وشهود الشيطان، وعنه ﷺ: «القدرية مجوس هذه الأمَّة».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (القمر: ٤٩) قال: «يعنى كل شىء خلقناه على قدر معلوم فاللسان على مقدار ما يصلح الكلام، واليد للبطش، والرجل للمشى، والعين للبصر، والأذن للسمع، والمعدة للطعام، وقيل: خلق النار بمقدار استحقاق أهلها، **ومتى قيل:** هلا حملتم ذلك على أفعال العباد وأنه خلق الخير والشر؟ **قلنا:** ليس فى الظاهر ذلك لأن أفعالهم ليست بخلق الله تعالى لأن فيها الكفر والظلم».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ (التكوير: ٢٨) قال: «والآية تدل على أن العبد مخيَّرٌ يقدر على الخير والشر».

وعند تفسيره قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا

تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (التغابن: ٢) قال ما نصه: «كذلك ههنا الله تعالى خلقهم ثم الإيمان والكفر منهم، وقيل: فمنكم كافر بالله ومنكم مؤمن به، وقيل: فمنكم كافر فى السر مؤمن فى العلانيَّة كالمنافقين، وقيل: فمنكم كافر بالله مؤمن بالكوكب ومنكم مؤمن بالله كافر بالكوكب، ولا يجوز حمله على أنه خلقهم مؤمنين كافرين لأن الكفر والإيمان فعل العبد».

تزرع المؤلف بالمجاز والتمثيل والتخييل فيما يستبعد ظاهره:

كذلك نرى الأعقم يعتمد فى تفسيره على الفروض المجازية ويحمل الكلام الذى يبدو غريبًا فى ظاهره على أنه من قبيل التمثيل والتخييل، فعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (الأعراف: ١٧٢، ١٧٣) قال نقلاً عن الزمخشرى: «هذا من باب التمثيل والتخييل.. وباب التمثيل واسع فى كتاب الله ومن كلام العرب».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (البقرة: ٧٤) قال: «والخشية فى الحجارة مجاز عن انقيادها لأمر الله تعالى».

موقفه من أصحاب الكبائر:

كذلك نجد المؤلف يحاول أن يأخذ من القرآن ما يدل على أن مرتكب الكبيرة مخلد فى النار وليس بخارج منها.

فمثلاً عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٩٣) يقول: «والعجب من قوم يقرأون هذه الآية ويرون ما فيها ويسمعون ما فى هذه الأحاديث العظيمة ثم يطمعون بالعفو من قاتل المؤمن».

موقفه من رؤية الله تعالى فى الآخرة:

ويرى الأعقم أن رؤية الله تعالى غير جائزة ولا واقعة لأحد مطلقًا، ويصرح بذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (القيامة: ٢٣) حيث قال: «فيه وجهان: أحدهما: أن المراد نظر العين، وثانيهما: أن المراد الانتظار، فمن حمله على الانتظار قيل: تنتظر الثواب من ربها، روى ذلك عن أمير المؤمنين على - عليه السلام - والحسن، وقيل: «إلى» بمعنى النعمة، أى: نعم ربها منتظرة، أى قطعوا أطماعهم عن كل شىء سوى الله، قال الشاعر:

وجوه ناظرات يوم بدر إلى الرحمن يأتى بالخلاص

فأما من قال: يحمل على نظر العين قيل: إلى ثواب ربها ناظرة، أى: منتظرة إلى ما أعطاها الله فى الجنة من النعم حالاً بعد حال، وروى ذلك عن جماعة من المفسرين فذكر نفسه وأراد ثوابه، قال القاضى: والأول أولى».

موقفه من المسائل الفقهية:

وتعرض الأعقم فى تفسيره لبعض المسائل الفقهية باختصار شديد، وهو يذكر أقوال العترة والإمام يحيى والقاسم وأبى حنيفة والشافعى، ويرجح ما يراه صوابًا حتى لو خالف مذهبه.

مثال ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ...﴾ (المائدة: ٥) الآية، حيث قال: «﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ هم اليهود والنصارى، واختلفوا فى معناه، قيل: نساء أهل الكتاب عن أكثر المفسرين، والذين آمنوا منهم إزالة الشبهة، أى من كانت يهودية فآمنت يجوز أن يتزوج بها، عن يحيى والقاسم - عليهم السلام - وقيل: أراد الحرائر من أهل الكتاب فتحل الحرائر، ولا تحل الإماء، عن مجاهد وجماعة، وإليه ذهب الشافعى».

نقله للروايات الموضوعة والضعيفة:

ويلاحظ على هذا التفسير أن مؤلفه لا يتحرى الصحة فيما ينقله من الأحاديث، وما يذكره يمر عليه مرًا سابريًا دون أن يعقب عليه ولو بكلمة واحدة تشعر بضعف الحديث أو توهينه أو وضعه.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ (المائدة: ٥٥) قال: «نزلت فى على ـ عليه السلام ـ حين تصدق بخاتمه وهو راكع فى صلاته حين سأله سائل فطرح إليه بخاتمه، ذكره الحاكم ـ يقصد الحاكم الجشمى ـ والثعلبى والكشاف» ثم قال: «قال فى تفسير الثعلبى: قال أبو ذر الغفارى: سمعت رسول الله ﷺ بهاتين وإلا فصمتا، ورأيته بهاتين وإلا عميتا يقول: «علىٌّ قائد البررة وقاتل الكفرة، منصورٌ من نصره، مخذولٌ من خذله» أما إنى صليت مع رسول الله ﷺ يومًا من الأيام فسأله سائل فى المسجد فلم يعطه شيئًا، وعلى ـ عليه السلام ـ كان راكعًا، فأومأ إليه بخنصره، فأقبل السائل حتى أخذ الخاتم من خنصره، فنزل فيه: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ...﴾ الآية».

وقد علمنا أن هذه رواية موضوعة لا أساس لها من الصحة باتفاق أهل العلم.

وكذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (المائدة: ٦٧) قال: «قال جار الله: جميع ما أنزل الله إليك، وقيل: نزلت فى اليهود، قال فى الثعلبى: يعنى بلِّغ فى فضل على بن أبى طالب ـ عليه السلام ـ لما نزلت الآية أخذ بيد علىٍّ ـ عليه السلام ـ وقال: «من كنت مولاه فعلىٌّ مولاه»، وروى فى الحاكم أنها نزلت فى علىٍّ ـ عليه السلام ـ قال فى الثعلبى: لما نزلت أخذ بيد على ـ عليه السلام ـ فقال: «ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «ألست أولى بكل مؤمن من نفسه؟» قالوا: بلى، قال: «هذا مولى من أنا مولاه، اللهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه» قال: فاستقبله عمر بن الخطاب فقال: هنيئًا لك يا بن أبى طالب، أصبحت مولاى ومولى كل مؤمن ومؤمنة» ثم يمر الأعقم على هذه الرواية أيضًا بدون أن يتعقبها بشىء أصلاً.

وكذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ (البقرة: ٣٧) قال: «واختلفوا فى هذه الكلمات على أقوال: فالذى ذكره الفقيه أحمد بن مفضل ـ رحمه الله ـ ورواه أيضًا فى الثعلبى، وهو أيضًا رواية أهل البيت ـ عليهم السلام: أن آدم لما خرج من الجنة رأى عن يمين العرش أشباحًا خمسة، فقال آدم: يا رب من هؤلاء؟ قال: صفوة من نورى، فأنا الله المحمود وهذا محمد، وأنا المتعالى وهذا على، وأنا

الفاطر وهذه فاطمة، وأنا المحسن وهذا الحسن، ولى الأسماء الحسنى، وهذا الحسين، قال آدم ـ عليه السلام: فبحقهم اغفر لى».

موقفه من الإسرائيليات:

وقد ملأ الأعقم تفسيره بالكثير من الإسرائيليات، ويمرّ عليها دون أن يتعقبها، وغالب ما يرويه ينقله عن تفسير الثعلبى، والزمخشرى، فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ (هود: ٣٧) الآيات، قال: «وروى أن نوحًا ـ عليه السلام ـ اتخذ السفينة فى سنتين، وكان طولها ثلاثمائة ذراع، وعرضها خمسين ذراعًا، وطولها فى السماء ثلاثون ذراعًا، وكانت من خشب الساج، وجعل لها ثلاثة بطون، فحمل فى الأسفل الوحوش والسباع والهوام، وفى البطن الأوسط الدواب والأنعام، وركب هو ومن معه فى البطن الأعلى مع ما يحتاج إليه من الزاد، وحمل معه جسد آدم وجعله معترضًا بين الرجال والنساء، وعن الحسن: كان طولها ألفًا ومائتى ذراع، وعرضها ستمائة ذراع، وروى أن الحواريين قالوا لعيسى ـ عليه السلام: لو بعثت لنا رجلاً شهد السفينة يحدثنا عنها، فانطلق بهم حتى انتهى إلى كثيب من تراب فأخذ كفًا من ذلك التراب فقال: أتدرون من هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: هذا كعب بن حام، فضرب الكثيب بعصاه وقال: قم بإذن الله، فإذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه وقد شاب، فقال له عيسى: أهكذا هلكت؟ قال: لا، متُّ وأنا شاب، ولكنى ظننت أنها الساعة فمن ثَمَّ شبت، قال: حدثنا عن سفينة نوح، قال: كان طولها ألف ذراع، وعرضها ستمائة ذراع، وكانت ثلاث طبقات، فقال له: عد بإذن الله كما كنت، فعاد ترابًا، روى ذلك جار الله».

وروى قصة عجيبة عند تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ (المائدة: ١١٤) الآيات، حيث قال: «وروى أن عيسى ـ عليه السلام ـ لما أراد الدعاء لبس صوفًا ثم قال: ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ والمائدة: الخوان عليها الطعام، فنزلت سفرة حمراء بين غمامتين، غمامة فوقها وأخرى تحتها، وهم ينظرون إليها حتى سقطت بين أيديهم، فبكى عيسى ـ عليه السلام ـ وقال: اللهم اجعلنى من الشاكرين، اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها مُثْلة وعقوبة، فقال لهم: ليقم أحسنكم عملاً فيكشف عنها ويذكر اسم الله عليها ويأكل منها، قال شمعون ـ كبير

الحواريين: أنت أولى بذلك يا روح الله، فقام عيسى - عليه السلام - فتوضأ وصلى وبكى ثم كشف المنديل فقال: باسم الله خير الرازقين، فإذا سمكة مشوية بلا فلوس ولا شوك تسيل دسمًا، وعند رأسها ملح، وعند ذنبها خل، وحولها البقول ما خلا الكراث، وإذا خمسة أرغفة على واحد منها زيتون، وعلى الثانى عسل، وعلى الثالث سمن، وعلى الرابع جبن، وعلى الخامس قديد، قال شمعون: يا روح الله أمن طعام الدنيا أم من طعام الآخرة؟ فقال: ليس شيء منهما، ولكنه شيء اخترعه الله تعالى بالقدرة الغالبة، كلوا مما سألتم، واشكروا الله يمددكم ويزدكم من فضله، قال الحواريون: يا روح الله لو أريتنا من هذه الآية آية أخرى، فقال عيسى - عليه السلام: يا سمكة أحيى بإذن الله تعالى، فاضطربت، ثم قال لها: عودى كما كنت، فعادت مشوية، ثم طارت المائدة، روى ذلك الكشاف.

وروى الثعلبى: أنه أقبلت الملائكة بمائدة يحملونها عليها سبعة أرغفة وسبعة أحوات حتى وضعوها بين أيديهم أكل منها آخر الناس كما أكل منها أولهم، وروى فيه أيضًا: كانت المائدة إذا وضعت بين يدى بنى إسرائيل اختلفت عليهم الأيدى من السماء بكل طعام إلا اللحم، وروى: أنه ما أحد أكل منها من أهل العلل إلاَّ برئ، ولا فقير إلا استغنى، وروى أنها كانت إذا نزلت اجتمع إليها الناس الكبار والصغار والفقراء والأغنياء والرجال والنساء، فأوحى الله تعالى إلى عيسى - عليه السلام - أن اجعل رزقى ومائدتى للفقراء لا الأغنياء، فعظم ذلك على الأغنياء حتى شكوا، فقال لهم عيسى - عليه السلام: هلكتم فشمروا لعذاب الله تعالى، وروى أنه مسخ منهم ثلاثمائة وثلاثون رجلاً أصبحوا خنازير يسعون فى الكناسات، وقيل: كانوا خمسة آلاف رجل ما فيهم من امرأة ولا صبى، فلما نظرت الخنازير إلى عيسى - عليه السلام - بكت وجعل عيسى - عليه السلام - يدعوهم بأسمائهم واحدًا واحدًا فيبكون ولا يقدرون على الكلام، روى ذلك الثعلبى».

التفسير الإشارى:

فمثلا عند تفسير قوله تعالى: ﴿**اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ...**﴾ (النور: ٣٥) قال الأعقم: «واختلف العلماء فى هذا المثل المشبه به على

أقوال: قيل: هو مثل لمحمد ﷺ، المشكاة صدره، والزجاجة قلبه، والمصباح فيه، والنبوة لا شرقية ولا غربية، أى لا يهـوديَّة ولا نصرانية، يوقد من شجرة وهو إبراهيم، وكان نور محمد ﷺ بين الناس ولو لم يتكـلم، وقيل: المشكاة إبراهيم، والزجاجة إسماعيل، والمصباح محمد ﷺ، من شجرة: يعنى إبراهيم، مباركة لأن أكثر الأنبياء منه، لا شرقية ولا غربية: يعنى إبراهيم لم يـكن يهوديًا ولا نصرانيًا «يكاد زيتها يضىء» يكاد محـاسن محمد يضىء قـبل أن يوحى إليه، وقيل: المـشكاة فاطمة، والمصـباح الحسن والحسـين، وقيل: هو مثل ضربه الله للمـؤمنين فهو يتقلب فى خـمسة أنوار، فكلامه نور، وعـلمه نور، ومدخله نور، ومـخرجـه نور، ومصيـره نور إلى النور يوم القيامة فى الجنة».

والكتاب لا يشفى الغليل فى الوقوف على صورة واضـحة لتفاسير الزيدية، وكنت أتمنى الكتابة عن تفسير الحاكم الجشمى ـ المعتزلى ثم الزيدى ـ غير أن الدكتور عدنان زرزور قد سبقنى إلى ذلك، فى كتابه القيم: «الحاكم الجشمى ومنهجه فى التفسير».



الْبَابُ السَّابِعُ

تفاسير الصوفية

١- تفسير القشيرى.

٢- تفسير ابن برجان.

٣- تفسير الخروبى.

٤- تفسير النخجوانى.

٥- تفسير إسماعيل حقى.

٦- تفسير ابن عجيبة.



١- لطائف الإشارات

للقشــــيرى

التعريف بالمؤلف[(١)]:

هو: عـبـد الكريم بن هوازن بن عـبـد الله بن طلحـة القـشـيـرى، أبو القـاسم النيسابورى، أحد مشاهير الشافعية، عالم بالفقه والأصول والحديث والكلام والأدب.

ولد سنة ست وسبعـين وثلاثمائة، توفى أبوه وهو طفل صغيـر وبقى فى كنف أمه إلى أن تعلم الأدب والعربية، ثم رحل بعد ذلك من «إستوا» ـ القرية التى ولد بها ـ إلى «نيسابور» قاصداً تعلم ما يكفـيه من طرق الحساب لحـماية أهل قريته من ظلـم عمال الخراج.

وأثـنـاء هـذه الرحلـة حضـر حلقـة الإمـام الصـوفى الـشـهير بأبـى علـى الدقـاق، وكان لسـان عصـره فى التـصـوف وعلـوم الشـريعـة، فَقَبِـلَ القشيرىَّ فـى حلقته بشرط أن يكتسب الشريعة، ويتقن علومها، وقد قبل هذا الشرط وعكف على دراسة الفقه عند أئمته، ولما انتهى منه حضـر عند الإمام أبى بكر بن فورك ليتعلـم الأصـول، فبـرع فى الفقه والأصول معًا، وصار من أحسن تلامذته ضبطًا وسلوكًا.

وبعد وفاة أبى بكر اختلف إلى الأستاذ أبى إسحـاق الإسفراايينى وقعد يسمع جميع دروسه، وبعد أيام قال له الأستاذ: هذا العلم لا يحصل بالسمـاع، فأعاد عليه ما سمعه منه، فقـال له: لست تحتاج إلـى دروسى، بل يكفيك أن تطالع مصنـفاتى، وتنظر فى طريقتى، وإن أشكل عليك شىء طالعـتنى به، ففعل ذلك، وجمع بين طريقـته وطريقة ابن فورك.

ثم نظر فى كتب القاضى أبى بكر بن الطيب الباقلانى، وبذلك صار القشيرى بارعًا فى الفقه والأصول مما دفع بالجوينى إمام الحـرمين أن يصاحبه، ويحج معه، رفقة أبى بكر البيهقى.

---

(١) مصادر الترجمة: سير أعلام النبلاء (١٨/ ٢٢٧)، طبقات الشافعية الكبرى (٥/ ١٥٣)، طبقات المفسرين للداودى (١/ ٣٤٤)، شذرات الذهب (٣/ ٣١٩).

ولم يقتصر القشيرى على الفقه والأصول، بل كان متحققًا فى علم الكلام ومفسرًا، متفننًا نحويًا ولغويًا، أديبًا كاتبًا شاعرًا، شجاعًا بطلا، له فى الفروسية واستعمال السلاح الآثار الجميلة.

وهكذا حقق الإمام القشيرى ما طلبه منه أستاذه «الدقاق» فى تحصيل علوم الشريعة، كل ذلك وهو يحضر حلقات أستاذه «الدقاق» فى التصوف، إلى أن رأى فيه قبسًا من النبوغ والعطاء، فزوجه كريمته.

وكان القشيرى يحسن الكلام على مذهب الأشعرى، ويحفظ الأشعار والحكايات، وكان له مجلس وعظ، وعندما نال القشيرى هذه الشهادة أصبح أستاذ خراسان بدون منازع.

صنف القشيرى العديد من الكتب والرسائل غير أن مصادر التاريخ تذكر أن أغلب مصنفاته قد فُقد.

ونذكر فيما يلى أهم مؤلفاته:

١ - الرسالة القشيرية فى التصوف.

٢ - لطائف الإشارات، وهو ما نحن بصدده.

٣ - كتابا القلوب (الصغير، والكبير).

٤ - أحكام السماع.

٥ - شكاية أهل السنة.

٦ - ناسخ الحديث ومنسوخه.

٧ - ديوان شعر.

٨ - القصيدة الصوفية.

٩ - الحقائق والرقائق، مخطوط.

١٠ - آداب الصوفية، مفقود.

١١ - كتاب الجواهر، مفقود.

١٢ - كتاب المناجاة، مفقود.

١٣ - رسالة ترتيب السلوك، ظهرت مترجمة بالألمانية سنة ١٩٦٢م بقلم فرتزماير.

١٤- بلغة القاصد.

١٥- منثور الخطاب فى مشهور الأبواب، مخطوط بالخزانة الملكية بالرباط.

١٦- المنشور فى الكلام، على أبواب التصوف، مخطوط بالخزانة الملكية بالرباط.

١٧- عيون الأجوبة فى أصول الأسئلة، مفقود.

١٨- شرح أسماء الله الحسنى، أو التحبير فى التذكير.

١٩- التفسير الكبير.

وتوفى القشيرى ـ رحمه الله ـ فى ربيع الآخر سنة خمس وستين وأربعمائة، ودفن إلى جوار صهره وشيخه أبى على الدقاق.

التعريف بهذا التفسير ومنهج القشيرى فيه:

تفسير لطائف الإشارات واحد من أقدم التفاسير الصوفية الكاملة التى وصلت إلينا، وطُبع هذا التفسير فى مصر سنة ١٩٦٩م بتحقيق الدكتور إبراهيم بسيونى، وطبع بعد ذلك عدة مرات منها طبعة المكتبة التوفيقية بالقاهرة والتى رجعنا إليها فى هذه الدراسة.

وما يثير انتباه قارئ هذا المؤلف الكبير للوهلة الأولى هو انعدام ذكر أسماء المصادر التى اعتمدها الإمام القشيرى فى تفسيره، وهذه المنهجية تختلف تماما عن التى ارتضاها عند تأليف رسالته المشهورة.

والقشيرى رجل أوتى حظًا وفيرًا من العلوم العقلية والنقلية قبل أن يلج باب الصوفية، وهذه فى حد ذاتها ظاهرة لها أهميتها، ثم هو بعد ذلك كله أديب ينظم الشعر ويتذوق الأسلوب العربى تذوقًا يعتمد على أسس قوية، فإذا جاء بعد ذلك ليدرس الأسلوب القرآنى، وليستخرج منه إشارات لطيفة فهو مُعَدٌّ لذلك أحسن إعداد، وهو قمين بالوصول إلى نتائج باهرة، بقدر ما لديه من تهيؤ صالح مكتمل.

ثم هو شافعى أشعرى، وهو سنى متحفظ، وهو بهذه الأوصاف باحث متعمق منصف، لا يأخذ ـ وهو يستخرج إشارة من العبارة ـ إلا جانب الحذر والحيطة والاعتدال، لا ينصر الحقيقة على حساب الشريعة، ولا ينصر الشريعة على حساب الحقيقة، فليس غريبًا أن يجىء «لطائف الإشارات» تعبيرًا صادقًا عن التصوف فى أفضل

درجات الاعتدال، وأنقى صور التناول، فليس عند القشيرى ما عند غيره من مساس بالألوهية، بل هو طالما يعلنها حربًا لا هوادة فيها على المبتدعين والمضللين الذين أساءوا إلى التصوف وأهله، تارة تحت ستار الثوب، وتارة بدعوى الفناء المُغرق، والحلول والاتحاد، ونحو ذلك من الأباطيل.

صدَّر القشيرى كتابه بمقدمة أوضحت منهجه فى تناول الأسلوب القرآنى، وهذه المقدمة لا تلقى ضوءًا على الكتاب وحده، إنما تقف بنا على المقصود بالتفسير الإشارى للقرآن، وسائله وغاياته.

ومن المقدمة نفهم أن هذا اللون من التفسير يعتمد على استبطان خفايا الألفاظ - مفردة أو مركبة - دون التوقف عند حدود ظواهرها المألوفة ومعانيها المعجمية، وإنما يُنظَر إلى اللفظة القرآنية على أنها ذات جوهر يدق على الفهم المادى، والأصفياء من عباده وحدهم هم الذين يتاح لهم - بفضل من الله - العلم الذى يكشفون به عن هذا الجوهر.

وفى ذلك يقول القشيرى فى مقدمته: «أكرم الأصفياء من عباده بفهم ما أودعه من لطائف أسراره وأنواره لاستبصار ما ضمنه من دقيق إشاراته وخفىِّ رموزه، بما لوَّح لأسرارهم من مكنونات، فوقفوا بما خُصوا به من أنوار الغيب على ما استتر عن أغيارهم، ثم نطقوا على مراتبهم وأقدارهم، والحق - سبحانه وتعالى - يلهمهم بما به يكرمهم، فهم به عنه ناطقون، وعن لطائفه مُخبرون، وإليه يُشيرون، وعنه يُفصحون، والحكم إليه فى جميع ما يأتون به ويذرون».

كما حاول القشيرى فى «لطائفه» أن يبرهن على أن كل صغيرة وكبيرة فى علوم الصوفية لها أصلٌ من القرآن، ويتجلى ذلك بصفة خاصة حيثما ورد المصطلح الصوفى صريحًا فى النص القرآنى، كالذكر، والتوكل، والرضا، والولى، والولاية، والظاهر والباطن، والقبض والبسط.

موقفه من العقيدة:

لا تبتعد المواقف الكلامية للإمام القشيرى كما وردت فى «لطائف الإشارت» والتى تخص الأسماء والصفات والقدر وخلق الأفعال ومصير مرتكب الكبائر ورؤية الله يوم

القيامة. . . إلخ، عن مـواقف المدرسة الأشعرية التى ينتمى إليها القـشيرى ودافع عنها بشدة طول حـياته، ويظهر فـيها كـذلك تأثير ابن فورك والإسـفرائينى على تلميـذهما القشيرى فى ميدان العقيدة.

فمثـلا عنـد تفسير قـوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ﴾ (البـقـرة: ٢) قال: «حقـيقة الإيمان التصـديق ثم التحقيق، وموجب الأمـرين التوفيق. والتصديق بالعقل والتحـقيق ببذل الجهد، فى حفظ العهد، ومـراعاة الحد. فالمؤمنون هم الذين صدقوا باعتقادهم ثم الذين صدقوا فى اجتهادهم».

وعند تفسير قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٨) قال: «فالأكوان بقدرته استوت، لا أن الحق سبحانه بذاته على مـخلوق استـوى، وأنى بذلك! والأحـدية والصمـدية حـقه، ومـا توهموه من جـواز التخـصيص بمكان فمـحال ما توهموه، إذ المكان به اسـتوى، لا الحق سبـحانه على مكان بذاته استوى».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ (الأعراف: ٥٣) قال القشيرى: «﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ أى: توحد بجلال الكبريـاء بوصف الملكوت. وملوكنا إذا أرادوا التجلى والظهور للحـشم والرعية برزوا لهم على سرير ملكهم فى ألوان مشـاهدهم، فأخبر الحق سبحـانه بما يقرب من فهم الخلق مـا ألقى إليهم من هذه الجـملة: استوى على العـرش، ومعناه اتصافـه بعز الصمدية وجلال الأحـدية، وانفراده بنعت الجبروت وعلاء الربوبيـة، تقدَّس الجبار عن الأقطار».

وعند تفسيـره لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (يـونـس: ١٠٠) الآية قال: «لا يمـكن حمل الإذن فى هذه الآية إلا على مـعنى المشيـئة؛ لأنه لـلكافة بالإيمان، والذى هو مأمـور بالشىء لا يقال: إنه غير مأذون فيـه. ولا يجوز حمل هذه الآية على معنى أنه لا يؤمن أحد إلا إذا ألجـأه الحق إلى الإيمان واضطره، لأن موجب ذلك ألا يكون أحد فى العالم مؤمنًا بالاخـتيار، وذلك خطأ، فدل على أنه أراد به: إلا أن يشـاء الله أن يؤمن هو طوعًا. ولا يجـوز بمقـتضى هذا أنه يريد من أحـد أن يؤمن

طوعًا ثم لا يؤمن؛ لأنه يُبطل فائدة الآية، فصح قول أهل السنة بأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن».

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: ١٠٣) قال: «حروف الصفات يقوم بعضها مقام بعض فقوله تعالى: ﴿عَلَيْنَا﴾ ههنا معناها «منا» فلا شيء يجب على الله لكونه إلهًا ملكًا، فيجب الشيء من الله لصدقه ولا يجب عليه لعزته، وكما لا يجوز أن يدخل نبى من الأنبياء ـ عليهم السلام ـ فى النار لا يجوز أن يخلد واحد من المؤمنين فى النار لأنه أخبر أنه ينجى الرسل والمؤمنين جميعًا».

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا...﴾ (الرعد: ٥) الآية قال: «وإن تعجب يا محمد لقولهم فهذا موضع يتعجب منه الخلق، فالعجب لا يجوز فى صفة الحق، إذ إن التعجب الاستبعاد والحق لا يستبعد شيئًا، وإنما أثبت موضع التعجب للخلق، وحسن ما قالوا: «إنما تعجب من حجب» لأن من ينل عيون البصيرة لا يتعجب من شيء. وقوم أطلقوا اللفظ بأن هذا من باب الموافقة، أى: إنك إن تعجب فهذا عجب موافقتك له. وإطلاق هذا وإن كان فيه إشارة إلى حالة لطيفة لا يجوز، والأدبُ السكوتُ عن أمثال هذا. والقوم عبروا عن ذلك فقالوا: أعجب العجب قول ما لا يجوز فى وصفه العجب.. وإن تعجب».

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ (يس: ٧١) قال: «ولفظ ﴿أَيْدِينَا﴾ توسع؛ أى مما عملنا وخلقنا».

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (الزمر: ٦٧) قال: «ما عرفوه حق معرفته، وما وصفوه حق وصفه، وما عظموه حق تعظيمه؛ فمن اتصف بتمثيل، أو جنح إلى تعطيل حاد عن السنة المثلى وانحرف عن الطريق الحسنى. وصفوا الحق بالأعضاء، وتوهموا فى نعته الأجزاء، فما قدروه حق قدره؛ فالخلق فى قبضة قدرته، والسموات مطويات بيمينه، ويمينه قدرته».

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ (النجم: ٨، ٩) قال: «دنا جبريل من محمد ﷺ. فتدلى جبريل: أى نزل من العلو إلى

محمد. وقيل: «تدلى» تفيد الزيادة فى القرب، وأن محمدًا ﷺ هو الذى دنا من ربه دنو كرامة، وأن التدلى هنا معناه السجود. ويقال: دنا محمد من ربه بما أُودِعَ من لطائف المعرفة وزوائدها، فتدلى بسكون قلبه إلى ما أدناه ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ ويقال: كان بينه ﷺ وبين الله قدر قوسين، أراد به دنو كرامة لا دنو مسافة. ويقال: كان من عادتهم إذا أرادوا تحقيق الألفة بينهم إلصاق أحدهم قوسه بقوس صاحبه عبارة عن عقد الموالاة بينهما، وأنزل الله سبحانه هذا الخطاب على مقتضى معهودهم. ثم رفع الله هذا فقال: ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ أى بل أدنى».

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (الرحمن: ٢٦، ٢٧) قال: «كل من على وجه الأرض فى حكم الفناء من حيث الجواز. ومن حيث الخبر: ستفنى الدنيا ومن عليها ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام، «والوجه»: صفة لله سبحانه لم يدل عليه العقل قطعًا ودل عليه جوازًا، وورد الخبر بكونه قطعًا، ويقال: فى بقاء الوجه بقاء الذات؛ لأن الصفة لا تقوم بنفسها، ولا محالة شرطها قيامها بنفسه وذاته، وفائدة تخصيص الوجه بالذكر أن ما عداه يعرف بالعقل، والوجه لا يعلم بالعقل، وإنما يعرف بالنقل والأخبار».

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا...﴾ (النمل: ٧) الآية قال القشيرى: «وبدت لعينه تلك النار قريبة، فكان يمشى نحوها، وهى تتباعد حتى قرب منها، فرأى شجرة رطبة خضراء تشتعل كلها من أولها إلى آخرها، وهى مضيئة، فجمع خُشيبات وأراد أن يقتبس منها، فعند ذلك سمع النداء من الله، لا من الشجرة، كما توهم المخالفون من أهل البدع، وحصل الإجماع أن موسى سمع تلك الليلة كلام الله، ولو كان النداء فى الشجرة لكان المتكلم به الشجرة، ولأجل الإجماع قلنا: لم يكن النداء فى الشجرة، وإلا فنحن نجوز أن يخلق الله نداء فى الشجرة ويكون تعريفًا، ولكن حينئذ يكون المتكلم بذلك الشجرة ولا ينكر فى الجواز أن يكون الله أسمع موسى كلامه بإسماع خلقه له، وخلق كلامًا فى الشجرة أيضًا، فموسى سمع كلامه القديم وسمع كلامًا مخلوقًا فى الشجرة... وهذا من طريق العقل جائز».

نماذج من تفسيره الإشارى المقبول:

هذا. . . وقد حفل «لطائف الإشارات» بالعديد من التفسير الإشارى المقبول، بل لا نبالغ إذ وضعناه فى قمة تفاسير الصوفية الإشارية المقبولة، مثال ذلك ما قاله عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ (البقرة: ١٩٣) الآية، قال: «الإشارة من الآية إلى مجاهدات النفوس؛ فإن أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك. أى استوف أحكام الرياضة حتى لا يبقى للآثار البشرية شىء، وتسلم النفس والقلب لله، فلا يكون معارض ولا منازع منك لا بالتوقى ولا بالتلقى، لا بالتدبير ولا بالاختيار بحال من الأحوال؛ تجرى عليك صروفه كما يريد، وتكون محوًا عن الاختيارات، بخلاف ما يرد به الحكم، فإذا استسلمت النفس فلا عدوان إلا على أرباب التقصير، فأما من قام بحق الأمر تقصى عن عهدة الإلزام».

وكذلك عند تفسيره لقوله جل ذكره: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾ (البقرة: ١٩٧) قال: «كما أن للحج بالنفوس أشهر معلومات لا ينعقد الإحرام به إلا فيها، ولا يجوز فعل الحج فى جميع السنة إلا فى وقت مخصوص، من فاته ذلك الوقت فاته الحج، فكذلك حج القلوب له أوقات معلومة لا يصح إلا فيها، وهى أيام الشباب؛ فمن لم تكن له إرادة فى حال شبابه فليست له وصلة فى حال مشيبه، وكذلك من فاته وقت قصده وحال إرادته فلا يصلح إلا للعبادة التى آخرها الجنة، فأما الإرادة التى آخرها الوصلة. . فلا».

وأيضًا عند تفسيره لقوله جل ذكره: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ (البقرة: ١٩٧) حيث قال القشيرى: «كذلك الإشارة لمن سلك طريق الإرادة ألا يُعرِّج على شىء فى الطريق، ولا يمزج إرادته بشىء. فمن نازعه أو عارضه أو زاحمه سلَّم الكل للكل، فلا لأجل الدنيا مع أحد يخاصم، ولا لشىء من حظوظ النفس والجاه مع أحد يزاحم».

نماذج من تأويلاته وإشاراته الغير مقبولة:

هذا. . ولم يخل تفسير القشيرى من بعض الإشارات التى لا تخضع لقواعد التأويل، فمثلا يقول القشيرى عند تفسيره لقوله جل ذكره: ﴿وَجَعَلْنَا فِى الأَرْضِ رَوَاسِىَ

أن تَميدَ بِهِمْ﴾ (الأنبياء: ٣١): «الأولياء هم الرواسى فى الأرض وبهم يُرزقون، وبهم يُدفع عنهم البلاء، وبهم يوفى عليهم العطاء. وكما أنه لولا الجبال الرواسى لم تكن للأرض أوتادٌ. فكذلك الشيوخ الذين هم أوتاد الأرض فلولاهم لنزلت بهم الشدة».

وعند تفسيره لقوله جل ذكره: ﴿أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهارًا﴾ (النمل: ٦١) قال: «ويقال: الرواسى فى الأرض الأبدال والأولياء والأوتاد؛ بهم يديم إمساك الأرض، وببركاتهم يدفع عن أهلها البلاء».

وكذلك عند تفسيره لقوله جل ذكره: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى الأَرْضِ رَوَاسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ (لقمان: ١٠) يقول القشيرى: «﴿وَأَلْقَىٰ فِى الأَرْضِ رَوَاسِىَ﴾ فى الظاهر الجبال، وفى الحقيقة الأبدال والأوتاد الذين هم غياث الخلق، بهم يقيهم، وبهم يصرف البلاء عن قريبهم وقاصبهم» ونصَّ القشيرى ـ كما ترى ـ على أن هذا هو المراد حقيقة! .

موقفه من البسملة:

سار القشيرى فى «اللطائف» على خطة واضحة محددة التزم بها من أول الكتاب إلى آخره، فهو يبدأ بتفسير البسملة كلمة كلمة، وأحيانًا حرفًا حرفًا، حسبما يحلو له من مقال أو يلوح له من خيال، من غير ضابطة يعتمد عليها أو حجة مقبولة، فمثلاً عند تفسير البسملة من سورة الفاتحة يقول: «الباء فى «باسم الله» حرف التضمين، أى بالله ظهرت الحادثات، وبه وجدت المخلوقات، فما من حادث مخلوق، وحاصل منسوق، من عين وأثر، ومن حجر ومدر، ونجم وشجر، ورسم وطلل، وحكم وعلل، إلا بالحق وجوده، والحق ملكه، ومن الحق بدؤه، وإلى الحق عوده، فبه وَحَّدَ مَن وَحَّدَ، وبه جحد من ألحد، وبه عرف من اعترف، وبه تخلَّف من اقترف».

لم نعرف حرف التضمين، ولم نعرف كيف فسر البسملة من هذه السورة بهذه المعانى، ولكنه فى سائر السور يفسرها بمعانٍ أُخر، ولعله يدعى أنه هكذا أُلهم وأُشرق عليه.

موقفه من الحروف المقطعة فى أوائل السور:

وللقشيرى فى تفسير الحروف المقطعة فى أوائل بعض السور منحًى غريب، يقف العقل أمامه حائرًا وعاجزًا عن تلمس محمل له يُحمل عليه حتى يبدو صحيحًا مقبولا.

فمثلا عند تفسيره لقوله جل ذكره: ﴿الٓر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود: ١) قال: «الألف إشارة إلى انفراده بالربوبية، واللام إشارة إلى لطفه بأهل التوحيد، والراء إشارة إلى رحمته بكافة البرية».

وعند تفسيره لقوله جل ذكره: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾ (العنكبوت: ١، ٢) قال: «الألف إشارة إلى تفرده عن كل غير بوجه الغنى، وباحتياج كل شىء إليه؛ كالألف تتصل بها كل الحروف ولكنها لا تتصل بحرف، واللام تشير إلى معنى أنه ما من حرف إلا وفى آخره صورة تعويج ما، واللام أقرب الحروف شبهًا بالألف فهى منتصبة القامة مثلها، والفرق بينهما أن الألف لا يتصل بها شىء ولكن اللام تتصل بغيرها فلا جرم أن لا يكون فى الحروف حرف واحد متكون من حرفين إلا اللام والألف ويسمى لام ألف ويكتب على شكل الاقتناع مثل صورة لام. أما «الميم» فالإشارة فيه إلى الحرب من؛ فمن الرب الخلق، ومن العبد خدمة الحق، ومن الرب الطَّوْل والفضل».

وعند تفسيره لقوله جل ذكره: ﴿الٓمٓ ۝١ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ (لقمان: ١، ٢) قال: «الألف تشير إلى آلائه، واللام تشير إلا لطفه وعطائه، والميم تشير إلى مجده وسنائه؛ فبآلائه يرفع الجحد عن قلوب أوليائه؛ وبلطفه وعطائه يثبت المحبة فى أسرار أصفيائه، وبمجده وسنائه مستغنٍ عن جميع خلقه بوصف كبريائه».

وهذا الذى قاله القشيرى مشكل إلى حد بعيد، ذلك أن الإشارة إلى الكلمة بحرف ليس معهودًا فى كلام العرب، اللهم إلا إن دل عليه الدليل اللفظى أو الحالى، على ما ذكره، ولكن أين الدليل؟.

غمز القشيرى لأهل الظاهر وثناؤه على العوام:

لم يسلم أهل الشريعة من غمز ولمز القشيرى لهم فى تفسيره، مع ثنائه على العوام المعظمين للصوفية، مثال ذلك عند تفسيره لقوله جل ذكره: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ

يَدْرُسُونَهَا...﴾ (سبأ: ٤٤) الآية حيث قال: «الإشارة من هذا إلى أهل الغفلة؛ يعارضون أصحاب القلوب فيما يجرى من الأمور، بما تشوش إليهم نفوسهم، ويخطر ببالهم من هواجسهم عن مُقتضى تفرقة قلوبهم على قياس ما يقع لهم من غير استناد إلى إلهام، أو اعتماد على تقدير من الله وإفهام. وأهل الحقائق الذين هم لسان الوقت إذا قالوا شيئًا أو أطلقوا حديثًا، فلو طولبوا بإقامة البرهان عليه لم يمكنهم؛ لأن الذى يتكلم عن الفراسة أو عن الإلهام، أو كان مُستنطقًا فليس يمكن لهؤلاء إقامة الحجة على أقوالهم. وأصحاب الغفلة ليس لهم إيمان بذلك، فإذا سمعوا شيئًا منه عارضوهم فيهلكون، فسبيل هؤلاء الأكابر عند ذلك أن يسكتوا، ثم الأيام تجب أولئك».

وعند تفسيره لقوله جل ذكره: ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾ (الشورى: ١، ٢) قال: «والإشارة إلى أهل الظاهر الذين لم تساعدهم أنوار البصيرة فهم مربوطون بأحكام الظاهر؛ لا لهم بهذا الحديث إيمان، ولا بهذه الجملة استبصار، فالواجب صون الأسرار عنهم فإنهم لا يقابلون هذا الحديث إلا بالإنكار، وإن أهل الوداعة من العوام الذين فى قلوبهم تعظيم لهذه الطريقة، ولهم إيمان على الجملة بهذا الحديث لأقرب إلى هذه الطريقة من كثيرٍ ممن عد نفسه من الخواص وهو بمعزل عن الإيمان بهذا الأمر».

موقفه من الإسرائيليات:

لم يخل «لطائف الإشارات» من ذكر الإسرائيليات والتى يوردها القشيرى دون أن يعقب عليها، فمثلاً عند تفسيره لقوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ (سورة ص: ٣٤) قال: «اختلف الناس فى هذه الفتنة؛ ومنها أنه كانت له مائة امرأة فقال: «لأطوفن على هؤلاء فيولد من كل واحدة منهن غلام يقاتل فى سبيل الله» ولم يقل: إن شاء الله، ولم تحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشق مولود، فألقته على كرسيه، فاستغفر ربه من ترك الاستثناء، وكان ذلك ترك ما هو الأولى.

وقيل فى التفاسير: إنه تزوج بامرأة كانت زوجة ملك، قهره سليمان، وسباها، فقالت له: إن أذنت لى أن اتخذ تمثالاً على صورة لأبى لأتسلى بنظرى إليه، فأذن لها، فكانت تعظمه وتسجد له مع جواريها أربعين يومًا، وكانت تعبده سرًا، فعوقب عليه.

وقيل: كان سبب بلائه أن امرأة كانت من أحب نسائه إليه، كان إذا أراد دخول الخلاء نزع خاتمه ودفعه إليها، وهى على باب الخلاء، فإذا خرج استرده. وجاء يوم شيطان يقال له «صخر» على صورة سليمان وقال لامرأته: ادفعى إلىَّ الخاتم، فدفعته، ولبسه، وقعد على كرسيه، يُمشى أموره، إلا التصرف فى نسائه، فقد منعه الله عن ذلك. فلما خرج سليمان طالب المرأة بالخاتم، فقالت: الساعة دفعته إليك. فظن أنه فُتن، وكان إذا أخبر الناس أنه سليمان لا يُصدقونه، فخرج هاربًا إلى ساحل البحر، وأصابته شدائد، وحمل سمك الصيادين بأجرةٍ حتى يجد قوتًا.

ولما اتهم بنو إسرائيل الشيطان واستنكروا حكمه نشروا التوراة بين يديه ففر ورمى بالخاتم فى البحر، وطار فى الهواء. ولما أذن الله رد ملك سليمان إليه، ابتلعت سمكة خاتمه، ووقعت فى حبال الصيادين، ودفعوها إلى سليمان فى أجرته، فلما شق بطنها ورأى خاتمه لبسه، وسجد له الملاحون، وعاد إلى سرير مُلكه».

موقفه من القدرية:

وعند تفسيره لقوله جل ذكره: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلا بِكُمْ...﴾ (الأحقاف: ٩) الآية قال القشيرى: «وفى الآية دليل على فساد قول أهل القدر والبدع حيث قالوا: «إيلام البرىء قبيح فى العقل» لأنه لو لم يجز ذلك لكان يقول: أعلم قطعًا أنى رسول الله، وأنى معصوم... فلا محالة يغفر لى، ولكنه قال: وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم؛ ليعلم أن الأمر أمره، والحكم حكمه، وله أن يفعل بعباده ما يريد».

موقفه من إمامة أبى بكر وعمر رضي الله عنهما:

وعند تفسيره لقوله جل ذكره: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ...﴾ (الفتح: ١٦) الآية قال: «جاء فى التفاسير أنهم أهل اليمامة، أصحاب مسيلمة، وقد دعاهم أبو بكر وحاربهم. فالآية تدل على إمامته... وقيل: هم أهل فارس دعاهم عمر بن الخطاب وحاربهم؛ فالآية تدل على صحة إمامته. وصحة إمامته تدل على صحة إمامة أبى بكر».

وواضح من هذا أنه يقصد ضمنًا الرد على الشيعة فى قولهم بإمامة علىٍّ رضي الله عنه.

موقفه من السيرة والتاريخ:

ويتعرض القشيرى فى تفسيره أحيانًا لأحداث السيرة ويورد طرفًا قليلاً منها، مثال ذلك عند تفسيره لقوله جل ذكره: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ (الفتح: ١٨) قال: «هذا بيعة الرضوان، وهى البيعة تحت الشجرة بالحديبية، وسميت بيعة الرضوان لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ وكانوا ألفًا وخمسمائة، وقيل: وثلاثمائة، وقيل: وأربعمائة. وكانوا قصدوا دخول مكة، فلما بلغ ذلك المشركين قابلوهم صادين لهم عن المسجد الحرام مع أنه لم يكن خارجًا لحرب، فقصده المشركون، ثم صالحوه على أن ينصرف هذا العام، ويقيم بها ثلاثًا ثم يخرج، وأن يكون بينه وبينهم صلح عشرة أعوام يتداخل فيها الناس ويأمن بعضهم بعضا، وكان النبى قد رأى فى منامه أنهم يدخلون المسجد الحرام آمنين، فبشر بذلك أصحابه، فلما صدهم المشركون خامر قلوبهم شىء، وعادت إلى قلوب بعضهم تهمةٌ حتى قال الصديق: لم يقل العام! فسكنت قلوبهم بنزول الآية؛ لأن الله سبحانه علم فى قلوبهم من الاضطراب والتشكك؛ فأنزل السكينة فى قلوبهم وثبتهم باليقين ﴿وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (الفتح: ١٨) هو فتح خيبر بعد مدة يسيرة، وما حصلوا عليه من مغانم كثيرة من خيبر. وقيل: ما يأخذونه إلى يوم القيامة».

موقفه من الفقه والأصول:

لم يشغل هذا الجانب فى «لطائف الإشارات» مساحة واسعة، وإنما يتعرض له القشيرى بإيجاز شديد، فمثلاً عند تفسيره لقوله جل ذكره: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ (الحشر: ٥) قال: «لما أمر رسول الله ﷺ بقطع بعض نخيل بنى النضير قالت اليهود: ما فائدة هذا؟! فبقى المسلمون عن الجواب، فأنزل الله تعالى هذه الآية ليوضح أن ذلك بإذن الله... فانقطع الكلام، وفى هذا دليل على أن الشريعة غير مُعللة، وأن الأمر الشرعى إذا جاء بطل التعليل، وسكتت الألسنة عن المطالبة بـ «لِمَ؟».

موقفه من أسباب النزول:

عُنى القشيرى فى تفسيره بأسباب النزول، ولكن دون إسهاب مثال ذلك فى تفسيره لقوله جل ذكره: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر: ٩) حيث قال: «قيل: نزلت الآية فى رجلٍ منهم أُهديت له رأس شاة فطاف على سبعة أبيات حتى انتهى إلى الأول. وقيل: نزلت فى رجل منهم نزل به ضيف فقرب منه الطعام وأطفأ السراج ليوهم ضيفه أنه يأكل، حتى يؤثر به الضيف على نفسه وعلى عياله، فأنزل الله الآية فى شأنه».



٢- تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب والتعرف على الآيات والأنباء العظام

لابن بَرَّجان

التعريف بصاحب هذا التفسير (١):

هو أبو الحكم ابن برجان اللخمى الإفريقى الإشبيلى الصوفى، عالم، له مشاركة فى فنون مختلفة، أحد العارفين الأقطاب الذى شغل الناس فى أواخر القرن السادس.

وتضاربت آراء المترجمين له فى اسمه، فمنهم من سماه عبد الرحمن، ومنهم من سماه عبد السلام، ومنهم من جعل الاسمين لشخصين منفردين، ومنهم من اعتبره اسمًا لشخص واحد، وأغلب المترجمين له يطلقون عليه: أبا الحكم عبد السلام بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن، ويجعلون وفاته سنة ستة وثلاثين وخمسمائة، وطائفة منهم يطلقون عليه: عبد السلام بن عبد الرحمن بن عبد السلام بن عبد الرحمن ابن أبى الرجال محمد بن عبد الرحمن، ويجعلون وفاته بعد سنة ثلاثين وخمسمائة، ويكاد جمهور المترجمين له يتفقون مع ابن الأبار فى سنة الوفاة، إلا أنهم يختلفون معه فى الاسم، رغم أن بعضهم صرح بالنقل عنه كالذهبى فى «السير» واليافعى فى «مرآة الجنان». . . ويظهر أنهما شخصان متمايزان خلط بينهما بعض المترجمين، ويزكى هذا الاحتمال السيوطى فقد ترجم للمفسر فى «طبقات المفسرين»، وترجم للغوى فى «بغية الوعاة» وجعلهما مختلفين فى الاسم وسنة الوفاة، بينما طابق بينهما فى اللقب فقط «ابن برجان» معتبرًا أن هذا اللقب مخفف من أبى الرجال، وقد ضبطه ابن خلكان قبله فقال: برجان بفتح الباء الموحدة وتشديد الراء بعدها جيم وبعد الألف نون.

وذهب الباحثون المعاصرون مع الجمهور، معتبرين أن أبا الحكم عبد السلام بن عبد الرحمن محمد بن برجان هو الذى شغل المغرب والأندلس فى الثلث الأولى من القرن السادس، ومعهم كذلك الدكتور إبراهيم الوافى الذى نَسَبَ إليه هذا التفسير، لكنه ذكر من بين المؤلفين فى التفسير فى القرن السابع الهجرى: عبد السلام بن

(١) مصادر الترجمة: طبقات المفسرين للداوودى (١ /٣٠٦)، مرآة الجنان، (٣/ ٢٦٧)، مفتاح السعادة ((٢/ ١١١)، النجوم الزاهرة (٥/ ٢٧٠)، طبقات المفسرين للسيوطى (٢٠).

عبد الرحمن بن برجان وقال: إنه حفيد المترجم، ونسب إليه تفسيرًا للفاتحة، وذكر أنه موجود بالخزانة التيمورية.

واتفق المترجـمون أنه من أهل «إشبيليـة» ويرجعون أصله إلى إفريقـية، وذكر ابن الأبار أنه كان من أهل المعرفة بالقراءات والحـديث والتحقق بعلم الكلام والتصوف مع الزهد والاجتهاد فى العبادة.

أما عن شيوخه فلم يذكروا إلا أنه سمع الحديث من ابن منظور.

وذكروا من تلامذته: أبا القـاسم القنطرى، وأبا محمد عبـد الحق الإشبيلى، الذى اشتهر فى علم الحديث والرجال، وأبا محمـد عبد الغفور بن إسماعيل بن خلف، وأبا عبد الله بن خليل القيسى، وهو آخر من روى عنه حسب بن الزبير.

وهكذا فقد جمع ابن برجان بين الحـديث، وعلم الكلام، والتصوف، ووصفه ابن الزبير بأنه: «أخذ من كل علم بأوفر حظ، مؤثرًا لطريقة التصوف وعلم الباطن، متصرفًا فى ذلك، عارفًا بمذاهب الناس، متـقيدًا - فى نظره - بظواهر الكتاب والسنة، بريئًا من تعمق الباطنية، بعيدًا عن قحية الظاهرية، شديد التمسك بالكتاب والسنة».

أما مؤلفاته فإن المترجمين ينسبون له ثلاثة مؤلفات وهى:

١- كتـاب فى التفسير: قال ابن الأبار عنه: لم يكمله، ووصـفه ابن الزبير بأنه: «جرى فيه على طريقة لم يسبق إليها، اسـتقرأ من آيات عجائب وقرائن من الغيوب إلا أنه أغـمض فى التعبيـر، فلا يصل إلى مـقصـوده إلا من فهم كـلامه وألف إشـاراته وإلهامه».

ونقل ابن خلكان بعد ذكر تنبؤ ابن برجـان بفتح بيت المقدس سنة ٥٩٨هـ، أنه لم يزل يطلب هذا التفـسير حـتى وجده، غير أن القـصة مذكـورة فى الحاشية بخط غـير الأول، ونقل محققه إحـسان عباس قال: «بهامش المختار، قـلت - أعنى كاتبها موسى ابن أحـمد لطـف الله به: وقفت فى القـاهرة ودمـشق على ثلاث نسخ من التـفـسـير المذكور، وهذا الفصل المشار إليه، لكنه مكتـوب على الجميع على الحاشية بعد خط الأصل، قال: وأخبرنى الشـيخ تقى الدين محمد بن زين الدين الشافـعى قاضى القضاة بالديار المصـرية - رحمه الله تعالى - أنه رأى هذا الفـصل فى نسختين علـى صورة ما

ذكرناه، والله أعلم». وهذا يدل على اعتناء المـشارقة بهذا التفسـير، وأنه قد دخل إلى المشرق فى وقت مبكر وتعددت نسخه هناك.

٢- كتـاب فى تفـسير الأسـماء الحـسنى: وصفـه ابن الزبير بالشـهير، وقـد ذكره العلامة الـطاهر ابن عاشور ونقل منه، وذكر أبو العـلا عفيفى أن المـخطوطين: «شرح مـعانى أسـماء الله الـحسنى» و «ترجـمـان لسان الحق المـبـثوث فى الأمـر والخلق» الموجودين بألمانيـا وفرنسا كتاب واحد. وقد أشـار ابن برجان إلى هذا الكتاب فى عدة مناسبات فى تفسيره، ومن ذلك يُعلم أن هذا الكتاب وضع قبل التفسير.

٣- «الإرشـاد» قيل عنه: «إنه قصد فيه على اسـتخراج أحاديث صحيح مسلم بن الحجـاج من كتاب الله تعالى، فـتارة يريك الحديث من نص آية، وتارة من محـتواها ومفهـومها، وتارة من إشارتها أو من مـجموع آيتين مؤتلفـتين أو مفترقـتين، ومن عدة آيات، إلى أشباه هذه المآخذ».

التعريف بتفسير الإمام ابن برجان:

وهذا التفسـير لم يطبع بعد، والراجح أنه مؤلفه لم يتمه، وقـد وقفت على نسخة مصورة عن الأصل المـمحفوظ بمكتبة السليـمانية بتركيا، وتبدأ من سـورة الفاتحة إلى سورة الكهف، وأخرى مصورة عن النسخة المـحفوظة فى الخزانة العامة بالرباط تحت رقم (٢٤٢ ك) تبدأ بسورة الأعراف وتنتهى عند تفسير قوله تعالى: ﴿**لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ**﴾ **(الآية: ٦٢)** من سورة النور.

وهذا التفسـير فى مجمله تفسـير صوفى، يركز فيه مؤلفـه على الحروف وأسرارها وشىء من الإشارة وأنواع من التخليط والهذيان، وهو لا ينقل عن أحد سبقه ألبتة، ولا يهتم باللغويات والنحو.

تسمية الكتاب:

وأغلب المتـرجمين لابن برجـان ينسبون له التفـسير بالإطلاق بدون وصـفه باسم يميزه، وسماه حـاجى خليفة: «الإرشاد فى تفسير القرآن» وكذلك فـعل إسماعيل باشا البغدادى، ويُعكر على هذا ما ذكرنـاه من أن له كتاب «الإرشاد»، والذى يظهر أن اسم التفسير هو: «تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب والتعرف على الآيات والأنباء العظام» ـ وهو ما أثبتناه ـ تبعًا للباحثين الذين وقفوا على نسخة من هذا التفسير فى ألمانيا.

منهج ابن برجان فى تفسيره:

بدأ ابن برجان التفسير بخطبة الكتاب، ثم عقد فصلاً يدل على فكره ومنهجه المنحرف فى تفسير القرآن الكريم فقال: «ثم قد يكشف الله جل جلاله لبصائر بعض عباده المؤمنين فيرون بها ما غاب عن أبصار رءوسهم. . . فرأوا بنور الإيمان وحقيقة الإيقان ما ليس بشخص ولا جوهر ولا عرض ولا هو من قبيل ذلك، ثم قد يرون أيضًا ما ليس كالأجسام المعهودة مرائى روحانية يصورها مصور العقل فى باطن الذكر، وكذلك يزيل الوقر عن أسماع قلوبهم فيسمعون بها ما غاب عن آذان رءوسهم. . .» ثم تكلم عن الإلهام.

وبعد أن يذكر ابن برجان اسم السورة، يشير فى بعض الأحيان إلى كونها مكية أو مدنية، وعدد المنسوخ فيها، ثم يبدأ فى التفسير، وفى سورة مريم مثلاً يقول: «بسم الله الرحمن الرحيم، مريم، فيها من المنسوخ أربع آيات»؛ ثم يبدأ بتفسير الآيات فى السورة مقسمًا إياها إلى جمل ويوضح معناها دون استطراد.

ففى سورة الإسراء قال: «قوله تعالى: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً**﴾ إلى قوله: ﴿**إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾» ثم شرع يفسر التسبيح، وبعده فسر قوله تعالى: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ**﴾ لينتقل إلى ما بعده ﴿**لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**﴾.

ومما يلفت النظر فى هذا التفسير اهتمام ابن برجان بالمعانى الدقيقة، فمثلاً فى سورة الإسراء عند الحديث عن بركة المسجد الأقصى قال: «ربما سميت تلك الأرض مقدسة لتجلى المبارك القدوس - عز وجل - فيها لموسى - عليه السلام - وتكليمه إياه فيما هنالك، قال - عز وجل: ﴿**نُودِىَ أَن بُورِكَ مَن فِى النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا**﴾ (النمل: ٨) وقال: ﴿**إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى**﴾ (طه: ١٢) فليس يبعد مع هذا أن يكون الله - عز وجل ذكره - أبقى بركة تجليه فيما هنالك إلى يوم القيامة».

وقد يورد ابن برجان أقوال المفسرين ويردّ ما لا يراه صوابًا - فى نظره - فمثلاً فى قصة موسى رد ما أورده المفسرون من سبب عقدة لسان موسى وإرجاعهم ذلك السبب إلى الجمرة قائلاً: «والصحيح - والله أعلم بما ينزل - أنه كان رجلاً عبرانيًا فى مجاورة القبط فى جحورها فكان ظاهر لسانه لغة القبط ثم تغرب إلى أرض مدين وجاور العرب

فتغرب من أجل ذلك مدة سنين كان فيها هنالك، قال عز وجل: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ فكانت من أجل ذلك لكنة لسانه فلم يكن فصيحًا فى لسانهم كأخيه هارون عليهما السلام».

موقفه من تفسير القرآن بالقرآن:

يولى ابن برجان تفسير القرآن بالقرآن عناية واضحة فقد يأتى بآية ليؤيد بها معنى محتملا من آية أخرى، مثال ذلك ما ذكره فى سورة الإسراء بعد الحديث عن الإسراء هل كان بجسده ﷺ أم بروحه، فقال: «فصل: قال الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ (النجم: ١٣ - ١٧) فأخبر جل جلاله نصًا غير محتمل أنها كانت منه رؤية بصر».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾ (الإسراء: ١٧) قال: «ففى هذه الآية والتى فى سورة الشورى، قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ...﴾ (الشورى: ٢٠) الآية، غير أن التى فى هذه السورة أجلى وأبين، وجاءت آية سورة هود وفيه بعض الإشكال قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ (هود: ١٤) وهى أخبار لا يجوز عليها النسخ، والتوفية فى هذه الآية - والله أعلم بما ينزل - هو: أن يطعم بعلمه ويسقى فيحصى عليه الفوافى، ونعم السمع والبصر والحواس فتكون ذلك توفية لعمله، ويعطيه ربه من الدنيا ما شاء ولربما زاده على مراده ثم يحتسب له من ذلك فيما ذكرناه، دل على هذا التأويل قوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ (النساء: ١٢٣)».

موقفه من التفسير بالمأثور:

ويستدل الإمام ابن برجان بالأحاديث النبوية وأقوال الصحابة والتابعين فى محاولة منه للوقوف على مراد الله تعالى فى كتابه الكريم، مثال ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ...﴾ (الإسراء: ٧٠) الآيات، حيث قال: «قرأ النبى ﷺ الآيتين فقال: يدعى أحدهم فيعطى كتابه بيمينه ويمد له فى جسمه ستون ذراعًا ويبيض وجهه ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤ يتلألأ فينظر إلى أصحابه

فيرونه من بعيد فيقولون: اللهم آتنا بهذا وبارك لنا فى هذا حتى يأتيهم فيقول: ابشروا لكل رجل منكم مثل هذا».

وابن برجان ليس مجرد ناقل للأقوال، بل يناقشها ويرجح بينها، ويرد منها ما لا يراه صوابًا، فمثلا عند تفسير قوله تعالى: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ (الأنبياء: ٩٨) قال: «روى عن جابر بن عبد الله أن النبى ﷺ قال: «الورود الدخول حتى لا يبقى بَرٌّ ولا فاجر إلا دخلها، فتكون على المؤمنين بردًا وسلامًا كما كانت على إبراهيم، ثم ينجى الله الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيًا» وروى نحو ذلك عن ابن عباس، وروى عن ابن مسعود أنه قال: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾ (مريم: ٧١) يعنى الصراط، وروى أنه قال: يردونها ويصدرونها بأعمالهم، وقال قتادة: ورودها الممر عليها؛ وأما ما روى عن جابر عن النبى ﷺ فإنه لو ثبت لكان الحجة البالغة، وطريق هذا العلم، ولا يصح العلم ولا يتحصل بطريق الآحاد كيف وقد ضعفت نقلة هذا الحديث، فإنهم مجهولون».

موقفه من القراءات:

وابن برجان من أهل المعرفة بالقراءات - كما ذكر ابن الجزرى - فى «غاية النهاية فى طبقات القراء» ولذا كان طبيعيًا أن يوظف ابن برجان علومه ومعارفه فى التفسير، خاصة تلك العلوم التى لها علاقة وطيدة بالتفسير والقراءات، فلا غرابة إذًا أن يعنى ابن برجان فى تفسيره بالقراءات، مع ذكره لقراءات الصحابة والتابعين: أمثال ابن عباس وابن مسعود ومجاهد وعكرمة والشعبى وغيرهم، والقراء السبع وغير السبع، لكن اهتمام ابن برجان بقراءاتَ الصحابة والتابعين يبدو أكثر وضوحًا، مثال ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِى إِسْرَائِيلَ فِى الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِى الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ (الإسراء: ٣) قال ابن برجان: «قرأها ابن كثير «فى الكُتب» على الجمع» وفى ﴿لَتُفْسِدُنَّ﴾ قال: «قرأها ابن عباس «لتُفْسَدن» بتاء مضمومة وفتح السين».

ويجمع ابن برجان فى تفسيره بين القراءات ويوظفها ليستدل بها على المعانى مثال ذلك ما ذكره عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ﴾ (الإسراء: ١٠٦) حيث قال: «قرأها ابن عباس وقتادة وعكرمة وابن محيصن والشعبى: «فرَّقناه»

بالتشديد، أى: فرقنا تنزيله، قال: من خفف معناه بيناه، وفى قراءة أُبى وابن مسعود «فرقناه لتقرأه على الناس» ثم قال: «والجمع بينها وبين قراءة التخفيف أن إنزاله إلى بيت العزة جملة فيه من القراءة ثم فرق إنزاله بعد على نجومه ومنازله ليقرأه على الناس على مكث» وهكذا حمل قراءة التشديد على التنزل الأول، وقراءة التخفيف على التنزل الثانى.

كما يورد ابن برجان فى تفسيره القراءات الشاذة، مثال ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ (الإسراء: ١١٠) حيث قال: «قرأ طلحة: «أيا من تدعون» كأنه قال: من دعوت بهذين الاسمين فهو الله جل ذكره».

وأتى بقراءة ابن عباس وأبى: «وأما الغلام فكان كافرًا وكان أبواه مؤمنين».

قال ابن برجان: «قرأ الخدرى: وأما الغلام فكان فاجرًا وكان أبواه مؤمنين».

المناسبة بين السور:

لم يغفل ابن برجان فى تفسيره الإشارة إلى ذكر المناسبة بين بعض السور، مثال ذلك ما قاله فى أول تفسير سورة الإسراء حيث قال: «انتظم أول هذه السورة بمعنى آخر سورة النحل من ذكر إبراهيم وذكر أصحاب السبت وذكر نبوة محمد ﷺ وأمره إياه بأن يدعو إلى سبيل ربه ـ عز وجل ـ يمدح نفسه بعد، وإتيانه موسى الكتاب وجعله هدى لبنى إسرائيل ثم قال: ﴿أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً﴾ (الإسراء: ٢) من معنى التوحيد وخالص التعبد الذى حاله التوكل، ثم قال: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ (الإسراء: ٣) ذكَّره بسننه القديمة إذ لم يجعله من الهالكين بالكفر وعرض باقتضاء الشكر بقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ (الإسراء: ٣)».

المناسبة بين الآيات:

والإمام ابن برجان يولى هذه المسألة اهتمامًا شديدًا.

فمثلاً عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا﴾ (النحل: ٥) قال: «عطف هذا الخطاب على ما تقدم لاتصال ذكر الخلق بالأمر وتقارب معنيهما لصدورهما فى أمر الخالق جل وعلا».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾

(الرعد: ١٥) قال: «انتظام هذه الآية بالتى تقدمتها يعنى أنه ليس بشىء كائن ما كان مؤمن أو كافر أو حيوان أو نبات بخارج عن التعبد لله ـ عز وجل ـ والقنوت لعظمته».

ابن برجان ومقاصد السور:

يعنى ابن برجان فى تفسيره بذكر مقاصد السور، ويوليها عناية خاصة مثال ذلك ما قاله فى سورة الحجر: «الغرض المقصود الأول فى هذه السورة ـ والله أعلم ـ الذكر والتذكير».

وقال بعد حديثه عن السبع المثانى: «فهذا يؤيد ما تقدم ذكره من العبرة والقول بأن القرآن كله واحد فرد لم يتفصل بعد على كل شىء» ثم قال: «عبر عن ذلك قوله فى مفتتح أم القرآن وأم الكتاب: الحمد لله، فجاء بالحمد الذى هو جامع الثناء والمدائح والذكر أجمعه وأضافه إلى اسمه جل ذكره، والذى جميع الأسماء له شارحة ثم تفصلت عنه الأسماء جميعًا كما تفصلت عن الحمد الأذكار كلها، أتبع ذلك رب العالمين، فذكر الوجود كله الواقع تحت اسم العالمين، وهو كل مخلوق وكل مذكور وموجود سوى الله ـ عز وجل ـ فظهر بذلك ما فصّله إيجادًا كما أظهر بتغاير الأسماء ما فصّله عن اسمه الواحد الأحد».

موقفه من أحاديث فضائل السور والآيات:

وابن برجان يكثر فى تفسيره من ذكر الصحيح والضعيف والموضوع فى فضائل السور والآيات، وربما يتعرض لها بالنقد والتضعيف.

موقفه من أسباب النزول:

كما يتعرض ابن برجان فى تفسيره لأسباب النزول، مثال ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ﴾ (النساء: ٤٣) قال: «قال على ابن أبى طالب كرم الله وجهه: صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعامًا فدعانا وسقانا الخمر، فأخذت منا، وحضرت الصلاة فقدمونى فقرأت: «قل يا أيها الكافرون، لا أعبد ما تعبدون، ونحن نعبد ما تعبدون» فأنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ﴾».

موقفه من السيرة والتاريخ:

وابن برجان يتعرض فى تفسيره للسيرة والتاريخ وقصص الأنبياء، مثال ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾ (الأعراف: ١٧٥) حيث قال: «اختلف الناس فيمن هو المعنىُّ بهذا، فقال قوم: هو بلعام بن باعوراء، وقيل: باعر، وقال آخرون: هو البسوس، عابد من بنى إسرائيل، قالوا: كانت له ثلاث دعوات استنفدهن على ما ذكروه فى أمره، والله أعلم أكان ذلك أم لا؟ وقال قوم: هو أمية بن أبى الصلت، وقال قوم: نزلت فى راهب بن صيفى، وقال قوم: إنها نزلت مثلا فى اليهود والنصارى وكل من آتاه الله من آياته وعلمه كتابه فانسلخ من ذلك فهو المعنى بهذا، ثم اختلفوا فى القصص عن هؤلاء المذكورين، وأنا ذاكر طرفًا من قصص أمية ابن الصلت لقرب طريقه وتارك ذكر قصص ما قص فى شأن أولئك لبعد الطريق وتعذر الوقوف على صحته وسقمه. . .» ثم ذكر طرفًا وشعرًا كثيرًا له فى التوحيد.

موقفه من الفرق الأخرى:

وابن برجان فى تفسيره يتعرض أحيانًا للفرق الأخرى ويردّ عليها، فمثلاً عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾ (آل عمران: ٥٥) وبعد أن ذكر كلامًا كثيرًا عن المسيح والمسيح الدجال تطرق للكلام عن عقيدة الشيعة فى الرجعة فقال: «وحتى هذا اعتقد قوم أنه حىٌّ وأنه تكون منه رجعة فيفعل ما يفعل الوصى، فإنهم ادعوا أن رسول الله ﷺ جعله وصيًا، وهذا لم يثبت؟ وإنما يكون فى نسله ومنهم يكون الرجل الصالح المهدى المبشر به، فهذا أوقع أولئك فى هذيانهم من قولهم بالرجعة».

الاتجاه الإشارى فى تفسير ابن برجان:

قال الداودى فى طبقات المفسرين (١/ ٣٠٦): «عابوا عليه الإمعان فى علم الحروف حتى استعمله فى تفسير القرآن».

فمثلا عند تفسير فاتحة الكتاب ذكر ابن برجان كلامًا كثيرًا فيه هذيان وتخليط، ذكر فيه أن الفاتحة سبعة فصول، تنفصل هذه السبعة فصول إلى مائة فصل عدد أسمائه جل ذكره، وعددها عدد درجات الجنة، عنها انفصل العلم كله وإليها رجع، ثم قال:

«وهذه الفصول الأربعة للقرآن شبيهة بالفصول السبعة للأسماء وقد تقدم ذكرها فى شرح الأسماء[١]، وهى أيضًا شبيهة بأيام السنة سابعها يوم الجمعة وهو جامعها وموضع فريدها، عنه انفصلت وإليه ترجع، على نحو ما تقدم من العبرة فى اسم الشهيد، وهذه الفصول السبعة وما انفصلت إليه ترجع كلها إلى فصلين: فصل الإلهية، وفصل النبوة يرجعان معًا إلى فصل الإلهية، الأعلى ينتظم الأسفل».

ثم قال: «إنباه إياى أعنى ونفسى أخاطب أين يذهب بك أيها اللاعب المتلاهى والبطال المتغافل؟ أغفلت حظك ولهيت عن فوزك رب العالمين الرحمن الرحيم ذو العرش العظيم يذكر ويثنى كلامه على تلاوتك».

وعند تفسير كلمة ﴿الرَّحِيمِ﴾ قال: «فصل: كان الله جل جلاله ولا شىء قبله ولا موجود سواه، ولما كتب فى الذكر كل شىء ثم أوجد أوائل ما كتبه فكان ذلك ثناء لفردانيته ثم استوى على العرش فحمد كل شىء باستوائه على العرش إذ حيى باستوائه ذلك العبد الكلى واستوى أى كمل وتم كما شاءه المستوى العلى الكبير، فهو جل ذكره لا يعزب عنه من موجودات عبده الكلى والجزئى مثال ذرة فى العلو ولا فى المنتهى ولا ما هو أصغر من ذلك ولا أكبر، فكان مقتضى اسمه الرحمن شاملاً للجملة، ومقتضى اسمه الرحيم عامّا للمطيعين».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ قال: «وهى كلمة مركبة من أربعة أحرف من حروف المعرفة الهمزة والياء والألف والكاف، والهمزة صادرة من ذات المخاطب إلى الكاف التى هى لمواجهة المخاطب، والياء والألف سبيل إلى ذلك وعماد له، أشار بها السر المخاطب بالإخلاص للعبادة على حكم التوحيد المحض...».

وعند تفسير قوله تعالى فى أول سورة البقرة: ﴿الٓمٓ﴾ قال: «ثلاثة حروف مرسومة ظاهرة وأربعة رءوس وستة توالى دخلت لضرورة النطق بالرءوس المرسومة الرءوس، ولما كانت الهمزة إنما دخلت لضرورة النطق بالألف لحقت بالتوالى إذًا سبعة والمرسومة ثلاثة فهى عشرة كانت هذه التوالى...» إلى أن قال: «فصل: فالهمزة يعطى معناها ههنا كل ما ما أفهمته من معنًى وما أعملته من معلوم، وكذلك

---

(١) يقصد ابن برجان كتابه فى شرح الأسماء الحسنى.

الألف، وكذلك اللام، إذ هى أوائل المعانى فى كل ما دخلت عليه كل صحيح معتبر...».

ثم ذكر فى الحروف حوالى خمس صفحات، وقال فيها: «وعلى هذا السبيل تأولها حبر العرب عبد الله بن عباس حيث قال: ﴿الٓمٓ﴾ أنا الله أعلم، ﴿الٓر﴾ أنا الله أعلم وأرى. ولإمعانه فى العلم بالحروف لما سئل عن تفسير قوله جل وعز: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ قال: لو أخبرتكم بتفسيرها لكفرتمونى، وفى أخرى. لكفرتم، أى بتكذيبكم الحق».

وهذا إن صح عن ابن عباس فهو مشكل إلى حد بعيد، ذلك لأن الإشارة إلى الكلمة بحرف ليس معهودًا فى كلام العرب، اللهم إلا إن دل عليه الدليل اللفظى أو الحالى كقول الشاعر:

* فقلت لها قفى فقالت قاف *

أراد: قالت: وقفت.

وقول زهير:

بالخير خيرات وإن شرًا فا ولا أريد الشر إلا أن تا

أراد: وإن شرًا فشر، وأراد: إلا أن تشاء.

وقول الآخر:

نادوهموا ألا الجموا ألا تا قالوا جميعًا كلهم ألا فا

أراد: ألا تركبون، قالوا: ألا فاركبوا.

وقوله ﷺ «كفى بالسيف شا» أراد، شافيًا.

... ولكن أين الدليل على ما ذكر فى قوله: ﴿الٓمٓ﴾؟.

على أنه لم يقم دليل من الخارج يدل على هذا التفسير، إذ لو كان له دليل لاقتضت العادة نقله، لأنه من المسائل التى تتوفر الدواعى على نقلها لو صح أنه مما يفسر ويقصد تفهيم معناه... ولما لم يثبت شىء من ذلك دل على أنه من قبيل المتشابهات، فإن ثبت له دليل عليه صرنا إليه وإلا توقفنا.

وعلى هذا فتفسير (ابن برجان) تفسير عظيم الضرر، وإن كانت له حسنات فهى قطرة فى بحر سيئاته، ويكفى شهادة معاصريه لمؤلفه بأنه مبتدع.

٣- تفسير «رياض الأزهار وكنز الأسرار»

للخروبي

التعريف بصاحب هذا التفسير[١]:

مؤلف هذا التفسير هو محمد بن على، أبو عبد الله الخروبى، الطرابلسى، السفاقسى، ثم الجزائرى.

كان فقيهًا مالكيّا، صوفيّا، مفسرًا.

ولد الإمام الخروبى فى قرية «قرقارش»، إحدى قرى طرابلس الغرب فى ساحلها الغربى، وبها مسجد يعرف بـ «مسجد الخروبى»، وقد جُدد وكُتب على بابه: «مسجد وضريح سيدى على الخروبى»، والضريح بجوار المسجد وبجانبه زاوية للذاكرين ملحقة به، فهذه النسبة إلى والده، إذ كان رجلاً صالحًا، وابنه الشيخ محمد تربى فى هذا الجو العلمى الصالح.

حضر مجالس العلم والعرفان، وأخذ عن أساتذة عصره ومشايخ مصره، ويأتى فى مقدمتهم: الشيخ أحمد زروق، وأبو عبد الله الزيتونى، وعمر بن زيان المديونى، وعلى الخروبى، والحطاب الصغير، وغيرهم.

ارتحل إلى الجزائر، وجلس هنالك للتدريس، وأخذ عنه جماعة من أهل العلم، وأقام بها، وكان ذا مكانة عند أمراء الجزائر وحكامها، وأوطن بها إلى أن مات فى سنة (٩٦٣هـ)، وله أيضًا رحلة إلى المغرب الأقصى، وكان ذلك سنة (٩٥٨هـ) حيث أخذ عنه كثير من أهلها، وقدم مراكش سفيرًا من سلطان آل عثمان ومن الأمير أبى عبد الله الشريف بقصد المهادنة بينهما وتحرير البلاد.

وكان ـ رحمه الله ـ إمامًا بارعًا محققًا، وضّاح الفهم، ساطع الحجة، عباب علمى الظاهر والباطن، متين الحفظ، واسع المعرفة، شديد الرواية، معتدل الإفادة، شهير الذكر.

---

(١) مصادر الترجمة: هدية العارفين (٢/ ٢٤٥)، إيضاح المكنون (٢/ ٤٧١)، شجرة النور الزكية ٢٨٤ برقم ١٠٧٤، الأعلام (٦/ ٢٩٢)، معجم المؤلفين (١١/ ٦)، النحو وكتب التفسير للدكتور إبراهيم الوافى (ص٩٧٤ - ٩٧٧)، وقد استفدت منه كثيراً فى بحثى.

وجمع الخروبى فى مؤلفاته بين التصوف والتفسير والتاريخ؛ فألف شرحًا لـ«الحكم العطائية»، ورسالة رد فيها على أبى عمر القسطلى المراكشى، وتفسيرًا للقرآن الكريم «رياض الأزهار وكنز الأسرار» وهو ما نحن بصدده، ومن تواليفه أيضًا: مزيل اللبس عن آداب وأسرار القواعد الخمس، وشرحٌ على الصلاة المشيشية، ووُصِف على أنه فى غاية الجودة والنبل، والحِكَم الكبرى، والأُنس فى التنبيه على عيوب النفس، وكفاية المريد وحلية العبيد، وكتاب فى تاريخ وتراجم أساتذته ومعاصريه.

وتوفى الإمام الخروبى بالجزائر، سنة ثلاث وستين وتسعمائة.

التعريف بهذا التفسير:

وتفسير «رياض الأزهار وكنز الأسرار» لم يطبع بعد، وتوجد منه نسخة خطية بدار الكتب المصرية، رقم ٣٦٤/ تفسير مكتبة طلعت، وهى من الجزائر، ويوجد على بعض أوراقها اسم الزاوية التى كانت موقوفة عليها، وهى بخط مغربى، وتقع هذه النسخة فى ثمانية أجزاء، كل جزء فى مجلد مستقل، وقد كتب على ظهر الورقة الأولى صورة وقفية تثبت أن هذه النسخة من تفسير الشيخ الخروبى بأجزائها الثمانية، وأوقفها الشيخ محمد بن محمد الترقتى الأندلسى على زاوية الأندلس، بالجزائر فى أواسط جمادى الآخرة سنة ١١١١هـ.

وقد كلفت الدار كاتبًا اسمه السيد حسن رشيد بكتابة نسخة حديثة منها؛ فقام بنسخها، وخطه واضح جيد، ولكنه لم يستطع أن يستنسخ تفسير سورة «المنافقون» إلى آخر الجزء الثامن والأخير لرداءة النسخة الأصل، وانطماس خطها وتآكل أوراقها، وهذه النسخة الحديثة تحمل رقم ٢٢٣٦٢/ ب.

مصادر الخروبى ومقصده ومنهجه فى التفسير:

أشار الخروبى فى مقدمة كتابه إلى أهم مصادره التى اعتمد عليها فى التفسير فقال: «وأعتمد فى التفسير على كتاب الإمام ابن عطية - رحمه الله تعالى، وعلى الجواهر الحسان للشيخ أبى زيد عبد الرحمن الثعالبى - رحمه الله تعالى، والقاعدة فى كتابنا هذا أن أجعل العين المهملة للإمام ابن عطية، والثاء المثلثة للشيخ الثعالبى، وإن أتيت

بكلام غيرهما فى كل فن أنسبه إلى قائله، وإن أطلقت الكلام أو أسندت القول إلى ضمير المتكلم فهو لنا، هكذا فى الكتاب كله».

وهو أكثر نقلاً عن ابن عطية فى التفسير والإعراب والقراءات وتوجيهها لسعة تفسيره وإمامته، وهو أصل كليهما.

ولكن الخروبى لم يقتصر على هذين المصدرين بل نراه ينقل كثيرًا عن أبى حيان، والنقاش، والواحدى، والفخر الرازى، والزمخشرى، وهو حيثما ذكر الزمخشرى أعقبه - غالبا - بهذه الجملة الدعائية: «سامحه الله»، وهو دعاء يوحى بعدم الرضا عنه لنزعته الاعتزالية.

ثم ذكر الخروبى بعد ذلك فصولاً فى: إعراب القرآن ولغاته، وذكر أئمة التفسير من الصحابة والتابعين ومن جاء من بعدهم، والوعيد فيمن فسر القرآن برأيه، وفصلاً فى جمع القرآن، وأول ما نزل، وآخر ما نزل، والمكى والمدنى، وتفسير أسماء القرآن، وذكر السورة والآية، ونقط القرآن وشكله وترتيب سوره وتجزئته، ثم ذكر بابًا فى الاستعاذة، ثم شرع فى تفسير الفاتحة.

ثم تحدث الخروبى فى مقدمة كتابه عن مقصده من تأليفه، وهو أن يجمع فيه بين الشريعة والحقيقة، أى بين الأحكام الظاهرة والأسرار الربانية الصوفية، قال: «ونحن قصدنا فى كتابنا هذا أن نجمع بين الطرفين؛ ليكون جامعًا بين الشريعة والحقيقة، فنأتى من علوم ظاهرة بعلم التفسير، إذ هو العلم المراد لذاته وباقى العلوم دالة معينة عليه، ولنأت معه بما أمكن من أسباب النزول للفوائد المتعلقة به».

فهو يثبت التفسير الظاهر - أولاً - ليكون الأساس الذى يبنى عليه الباطن وما يبديه من حقائق وأسرار؛ لأن ذلك أضمن لإصابة الحق والبعد عن الزيغ فى تفسير كتاب الله، قال: «ولنأت من علوم باطنة بالحقائق البادية من آياته، وبالأسرار التى تضمنها تراكيب جمله وألفاظه، مما سبق الغير إليها أو مما لم يعثر أحد غيرى عليها، ولنقدم التفسير؛ ليكون قاعدة لما نأتى به من الحقائق والأسرار، إذ ذلك أبلغ فى نيل الغرض وأنقى للعرض، وإن دلت الآية على تعلق أو تحلق أو تخل أو تحل أنبه على ذلك بلفظ موجز».

والخروبى يحتاط فى تفسيره ولا يرضى بشطحـات الصوفية فى كتاب الله تعالى إذ هو من العلمـاء الأثبات، وهو الواجب، إذ يتحـتم على من يريد أن يستـجلى الأسرار والأفهام الدقيقة من معانى القرآن الكريم أن يحكم تفسير ظاهره بدلالة أسلوبه ومقاصده وما أُثِرَ فى بيانه، ولا يحيد عن ذلك.

وقد ذكر الخروبى أن بعض المفسرين كابن عـطية والزمخشرى وابن العربى اشتغل بظاهر القرآن وأحكامه الظاهرة من فـقه ونحو ولغة وغيرها، وبعضهم اشـتغل بالحقائق والأسرار كالسُّلمى، فرأى هو الجمع بينهما؛ ليكون تفسيره أكثر نفعًا وأسير ذكرًا، قال: «وإنما سلكت فى كـتابنا هذا المـسلك الغريب، ونحوت فـيه هذا المنحى العـجيب؛ ليكون جامعًا بين الشريعة والحقيقة، فيعتمده كل طالب نجيب وكل صوفى لبيب ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ (البـقـرة: ٦٠) فكان كتـابنا ـ والحمد لله ـ جامـعًا بين العلم والعمل».

موقفه من أسماء السور والمكى والمدنى وعد الآيات:

يتعرض الخروبى فـى تفسيره لأسماء السور، وبيـان المكى والمدنى، وعدَّ الآى، مثال ذلك عند تفـسير سورة مريم حـيث قال: «وهذه السورة مكية بإجمـاع إلا السجدة منها، فقيل: مكية، وقيل: مدنية، وهى تسعون وثمانية أو تسع آيات».

فضائل السور:

والخروبى يورد فى تفسيره الصحيح والضـعيف والموضوع عند حديثه عن فضائل السور والآيات فقال مثلاً عند تفسير سورة مريم: «روى من قرأ سورة مريم أعطى عشر حسنـات بعدد من كـذَّب زكريا وصدَّق بـه، ومريم، وعيـسى، وإبراهيم، وإسـحاق، ويعقوب، وموسى، وهارون، وإسماعـيل، وإدريس، وعشر حسنات بعدد من دعا الله فى الدنيا وبعدد من لم يدع الله».

موقفه من تفسير القرآن بالقرآن:

يولى الخروبى تفسير القرآن بالقرآن عناية خاصة، فمثلاً عند تفسير ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾ (الشعراء: ٣٣) قال: «هنا معناه: أخرجها من جيبه بدليل: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ (النمل: ١٢)، ومن كمه بدليل: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ (طه: ٢٢)».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ (الأعراف: ١٣٧)، قال: «المراد بـ ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ﴾ قوله: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ (القصص: ٥، ٦)».

موقفه من تفسير القرآن بالمأثور:

اعتماد الخروبى التفسير بالمأثور سمة واضحة فى تفسيره، فمثلا عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ (مريم: ٣) قال: «وفى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال: خير الذكر الخفى».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف: ١٤٣) قال الخروبى: «قال ابن عبَّاس، ومجاهد: يريد أوَّل المؤمنين من قومه بنى إسرائيل ومن أهل زمانه؛ إذ كان الكفر عمَّ الآفاق.

ويحتمل أن يريد: ﴿أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بأنَّك لا تُرى فى الدنيا، قاله أبو العالية.

قلت: فيكون على قول أبى العالية قوله: ﴿أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ إخبار بإيمانه عن حالٍ وقتى، وعلى قول ابن عبَّاس: إخبار عن إيمانٍ سابق فائدته الاستعطاف؛ بقبول توبته».

موقفه من أقوال بعض المفسرين:

والخروبى فى تفسيره ليس مجرد ناقل لأقوال غيره من المفسرين، بل نراه يرجح بينها ويردُّ منها ما لا يراه صوابًا، فمثلا عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ (الأعراف: ١٣٨) قال الخروبى: «﴿الْبَحْرَ﴾ بحر القلزم، ووقع فى كتاب النقاش أنه نيل مصر، وهذا خطأ لا تساعده رواية ولا يحتمله لفظ إلا على تحامل».

موقفه من المبهمات:

يتعرض الخروبى فى تفسيره للمبهمات، ويورد أقوال من سبقوه، ولكنه يوردها بميزان الناقد البصير، فمثلاً عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾ (الأعراف: ١١٣) قال الخروبى: «قيل: إنَّ السحرة الذين جاءوا فرعون كانوا خمسة عشر ألفًا، قاله ابن إسحاق، وقال ابن جريج: تسعمائة، وقال النقاش: كانوا اثنين وسبعين

رجلاً، وقـال عكرمة: سـبعون ألـفًا، وقال مـحمد بـن المنكدر: ثمانون ألفًـا، وقال السدى: مائتا ألف ونيف، وهذه أقوال ليس لها سند يوقف عنده».

موقفه من الإعراب:

لما كان بيان الشريعـة والحقيقة هو الهدف الأساسى من هذا التفسـير، فقد جاء ما عداه من المسائل الأخرى كـالنحو واللغة والقراءات مختصرًا حسـبما دعت إليه الحاجة وبما يُعين على تحقيق الهدف الأصلى للتفسير، يقول الخروبى: «ومهما دعا الحال إلى التعرض إلى بعض مسائل من نحو ولغة وقراءات وغير ذلك من العلوم الظاهرة فلنتكلم عليها باختصار».

مثال ذلك ما ذكره فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ (الأنعـام: ٣) حيث قال الخروبى: «الظـرفية هنا فى قوله: ﴿فِـي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ﴾ ليست على حد قولنا: زيد فى الدار لاستحالة حلوله تعالى فى الأماكن ومماسـته للأجرام ومحاذاته لها، فوجب صرف الآية إلى مـعنى جائز فى حقه تعالى، فقالت فـرقة من العلماء: تأويل ذلك على تقدير صفة مـحذوفة من اللفظ ثابتة فى المعنى، كأنه قـال: وهو الله المعبود فى السماوات وفى الأرض، وقـيل: التقدير: وهو الله المدبر للأمر فى السـموات والأرض، وقال الزجاج: «فى» متعلقـة بما تضمنه اسم الله عز وجل من المعانى، كما يقال: أمير المؤمنين الخليفة فى المشرق والمغرب ـ عليه السلام: هذا عندى أفضل الأقوال وأكثرها إحرازًا لفصاحة اللفظ وبراعة المعنى، وإيضاحه أنه أراد أن يدل على خلقه وآثار قدرته وإحاطته واستيلائه ونحو هذه الصفات، فجمع هذه كلها فى قوله جلت قدرته وهو...».

وعند تفسيره قوله تعالى: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأنعـام: ٢٧) قال الخروبى: «وقرئ برفع «نكذب»، على الاسـتئناف والقطع عن التمنى ومثّله سيبويه بقولك: دعنى ولا أعـود وأنا لا أعود، ويحتمل أن يكون حالاً، تقديره: نرد غير مكذبيـن أو عطفًا على نرد، وقرئ بالنصب بإضمـار «أنْ» بعد الواو فى جواب التمنى، وقوله: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ (الأنعام: ٢٩)، الجمهور أن هذا ابتداء كلام وحكاية لقولهم من إنكار البعث، و «إن» هنا نافية، وقيل: إن مقالتهم هذه عطف

على «لعادوا» أى ولو ردوا لكفروا ولقالوا: إن هى إلا حياتنا الدنيا، وقيل: يجوز أن يعطف على قوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (الأنعام: ٢٨) على معنى وإنهم لقوم كاذبون فى كل شىء، وهم الذين قالوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾».

وأيضًا عند تفسير قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾ (النمل: ١٨)، قال: «قرأ جمهور القراء «لا يحْطمنَّكم» بشد النون وسكون الحاء، وقرأ أبو عمرو فى رواية عبيد بسكون النون، وهى قراءة ابن أبى إسحاق، وقرئ «لا يُحَطِّمنَّكم» بضم الياء وفتح الحاء وكسر الطاء وشدها وشد النون، وقرئ أيضًا بفتح الياء وكسر الحاء والطاء وشدها، وقرئ: «لا يَحْطِمْكُم» مخففة بغير نون، وفى مصحف أُبى بن كعب: «لا يحطمنكن» مخففة النون التى قبل الكاف، قال الزمخشرى - سامحه الله وعفا عنا وعنه: **فإن قلت:** لا يحطمنكم ما هو؟ **قلت:** يحتمل أن يكون جوابًا للأمر، وأن يكون نهيًا بدلا من الأمر، والذى جوز أن يكون بدلا منه أن فى معنى لا تكونوا جوابًا للأمر، وأن يكون نهيًا بدلا من الأمر، والذى جوز أن يكون بدلا منه أنه فى معنى لا تكونوا حيث كنتم؛ فيحطمكم على طريقة «لا أرينك ههنا»، أراد لا يحطمنكم جنود سليمان فجاء بما هو أبلغ».

والخروبى كما ترى ينقل توجيهات الزمخشرى النحوية بقبول لها، وتجويز الزمخشرى أن يكون ﴿لا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ جوابًا للأمر ضعيف منتقد؛ لأن جواب الأمر لا يؤكد بالنون، وقد نقله الخروبى على نحو ما وجده فى «الكشاف».

ومراده بقوله: «على طريقة لا أرينك ههنا» أن النملة نهت عن الحطم، والمراد النهى عن البقاء خارج المساكن، أى لا تظهروا بأرض الوادى فيحطمكم جنود سليمان، كما أن «لا أرينك» المتكلم ينهى به نفسه عن رؤية المخاطب، والمقصود طرده؛ أى لا تكن هنا فأراك - وهو مثل - وفى المراجع التى رأيتها بلفظ «بعين ما أرينك».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ...﴾ (مريم: ٥) الآية، قال: «﴿مِن وَرَائِي﴾ أى: بعد موتى، ويتعلق بالموالى أو بمحذوف تقديره: فعل الموالى وهو تبديلهم وسوء خلافتهم، ويصح تعلقه بمحذوف هو حال من الموالى ومضاف إليهم، ولا يصح تعلقه بـ ﴿خِفْتُ﴾ لفساد المعنى».

وعند تفسير قـوله تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ (مـريم: ٢) يقـول الخروبى: «﴿ذِكْرُ﴾ مرتفع بقوله: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ فى قول فرقة، وقيل: ارتفع على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره: هذا ذكر».

موقفه من القراءات:

وموقف الخـروبى من القراءات يتـفق مع موقف الثـعالبى منها، وذلـك يظهر فى سلوكه مسلكه فى الابتـعاد عن ذكر نقد المفسرين لبـعض القراءات، ومنهم ابن عطية، فالخروبى لا يذكـر هذا النقد، ولا يثبته فـى تفسيره، وهو إذا ما حكاه يذكـر معه الرد عليه؛ ليثبت عدم صحته أو عـدم جوازه، ومثال ذلك ما ذكـره عن ابن عطية فى قوله تعالى: ﴿عَادًا الأُولَى﴾ (النجم: ٥٠)، حيث قال: «وقرأ نافع أيضًا وأبو عمرو بالوصل والإدغام: إدغام النون فى اللام ونقل حركة الهمزة إلى اللام، وعاب أبو عثمان والمبرد هذه القراءة وقالا: إن هذا النقل لا يخرج اللام عن حد السكون، وحق ألف الوصل أن تبقى... قال أبو على والفراء: القراءة سائغة، وأيضًا فمن العرب من يقول: لحمر جاء فيحذف الألف مع النقل ويعتمد بحركة اللام ولا يراها فى حكم السكون».

والخروبى فى تفسيره يورد القراءات المتـواترة والشاذة، وقراءات الصحابة وينسبها إلى من قرأ بها، ويعنى بتوجيهها.

فعند تفسير قوله تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ (مريم: ٢) قال: «وقرأ الجمـهور «ذِكْرُ» بكسر الذال، وسكون الـكاف، ورفع الراء، وقرأ الحسن «ذَكَّرَ رحـمة ربك» بفتـح الذال والكاف وشدها، وفتح الـراء، ونصب رحمة، أى: هذا المـتلو فى القرآن ذكـر رحمة ربك، وحكى أبو عمـرو الدانى عن يعمر أنه قرأ «ذكـر» بفتح الذال وكسر الكاف وشدها، وسكون الراء، وفتح رحمة».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِى﴾ (مريم: ٢٤) قال: «قرأ نافع وحمزة وجماعة بكسر ميم «من»، وقرأ ابن كثيـر وأبو عمرو وجماعة بفتحها، والفاعل ينادى على القراءتين: قيل عـيسى عليه السلام أى ناداها المولود، وقيل: جـبريل عليه السلام، وفى قـراءة ابن عباس «فناداها ملك من تحـتها»، وقرأ علقـمة «فخاطبـها من تحتها»، والقول الأول أظهر».

موقفه من المسائل الفقهية:

اعتمد الخروبى فى تفسيره وفى عرضه للأحكام الفقهية على كتب المالكية لموافقتها مذهبه، ولا يعنى هذا أنَّه كان متعصبًا لها، بل كان متحررًا فى الرأى، دقيقًا فى النقل، موافقًا للدليل، فتضمن كتابه آراء الفقهاء الأربعة فى الآية مع ترجيح مذهبه على سائرها.

وكثيرًا ما يسكت عن ذكر الأحكام ويحيل إلى كتب الفقه، مثال ذلك ما ذكره عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ (الجمعة: ٩) حيث قال: «واختلفوا فى حكم إذا وقع ـ أى البيع والشراء، وذلك مذكور فى كتب الفقه».

موقفه من العقيدة:

والخروبى فى تفسيره يسير على منهج أهل السنة فى آيات الأسماء والصفات وغيرها من المسائل الكلامية.

الخروبى وصفة الكلام:

فمثلاً عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ...﴾ الآية (الأعراف: ١٤٣) قال: «والآية نصٌّ على ثبوت كلام الله تعالى لموسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ بكلامه القديم الذى هو صفة من صفاته ليس بحرف ولا بصوت ولا تقديم ولا تأخير، وذلك أنَّ الله سبحانه خلق لموسى إدراكًا سمع به الكلام القديم الذى هو صفة ذات، هذا هو مذهب أهل الحق، ولغيرهم فيه كلام غير معول عليه.

وقال ابن عبَّاس، وسعيد بن جبير: أدنى الله موسى حتى سمع صريف الأقلام فى اللوح.

وكلام الله ـ عزَّ وجل ـ لا يشبه كلام المخلوقين؛ وكما أنَّ ذاته لا تشبه الذوات، فصفاته لا تشبه الصفات، وهو سبحانه معلوم كالمعلومات».

الخروبى ورؤية الله تعالى فى الآخرة:

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ (الأعراف: ١٤٣) قال الخروبى: «سأل موسى عليه الصلاة والسلام من ربه الرؤية، فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ وهذا

دليل على جوازها عقلاً، وبه قال أهل السنة، ولو كانت محالاً - كما يقوله غيرهم - لما سألها الرسول موسى عليه الصلاة والسلام.

ولجواز الرؤية أدلة كثيرة انظرها فى محلها، منها: أنَّه لمَّا كان تعالى موجودًا صحت رؤيته وكانت جائزة.

وقوله: ﴿**قَالَ لَن تَرَانِي**﴾ (الأعراف: ١٤٣) جوابٌ من الرب جلَّ جلاله لموسى عليه الصلاة والسلام، وليس هو بجواب لمن سأل محالاً، لتعليقه الرؤية على جائز، وهو رؤية الجبل، ولذا استدرك النفى فقال: ﴿**انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي**﴾ (الأعراف: ١٤٣)، فلمَّا علَّق الرؤية على أمرٍ جائز، وهو استقرار الجبل مكانه، علمنا أنَّ ما علِّق على الجائز جائز مثله، ولو كانت الرؤية محالة لعلَّقها على محال، ولو نظرنا إلى مجرد نفى الرؤية بـ ﴿**لَن**﴾ لاقتضى الحال أنَّ موسى لا يرى ربه أبدًا، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة، لكن ناقض ذلك التواتر الوارد عنه ﷺ، والآيات القرآنية الدالة على أنَّ المؤمنين يرون ربَّهم يوم القيامة، وهذا يجب الإيمان به.

وكان نفى الرؤية فى الآية إنَّما هو بسبب عدم استقرار الجبل مكانه، ولو استقرَّ لحصلت الرؤية، كما نصَّ على ذلك بقوله: ﴿**فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي**﴾ فالمنفى إذًا استقرار الجبل مكانه، لا الرؤية نفسها، وإنْ كان ظاهر اللفظ يأبى هذا لمباشرة أداة النفى الرؤية.

لكنَّ المعنى يصححه لثبوت المنفى وجوازه أيضًا، فلو كانت الرؤية ممتنعة منع استحالة لقال: لا أُرى، أو لست بمرئى، فينفى أصل الرؤية، فلما لم ينفِ أصلها دلَّ على جوازها.

فإن قيل: كيف قال: ﴿**لَن تَرَانِي**﴾، ولم يقل لن تنظر إلىَّ حتَّى يكون مطابقًا لقوله: ﴿**أَنظُرْ إِلَيْكَ**﴾؟.

فالجواب: أنَّ النَّظر لمَّا كان مقدمة الرؤية، كان المقصود هو الرؤية لا النَّظر الذى لا رؤية معه، قاله الإمام الفخر».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿**فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا**﴾

(الأعراف: ١٤٣) قال الخروبى: «التجلى: عبارة عن ظهور أنوار عظمته ونعوت كماله، أمَّا التجلى الذى هو من صفة الأجسام فمحالٌ فى حقه، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

قال المتأوِّلون ـ كالقاضى الباقلانى وغيره: إنَّ الله ـ عزَّ وجل ـ خلق للجبل حياةً وحسًا وإدراكًا به، ثمَّ تجلَّى له، أى: ظهر وبدا سلطانه، فاندك الجبل لشدة المطلع، فلمَّا رأى موسى ما بالجبل صُعق، وهذا المعنى هو المروى عن ابن عبَّاس.

وأسند الطبرى عن حماد بن زيد عن ثابت عن ابن عبَّاس عن النبى ﷺ: أنَّه قرأ ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ فوضع الإبهام قريبًا من طرف خنصره، قال: «فساخ الجبل» فقال حميد لثابت: تقول هذا؟! فرفع ثابت يده فضرب صدر حميد، وقال: يقوله رسول الله ﷺ، ويقوله أنس، وأكتمه أنا؟!».

الجانب الصوفى فى تفسير الخروبى:

ذكرنا فى بداية هذا المبحث أن مقصد الخروبى ومنهجه فى هذا التفسير، هو الجمع بين الشريعة والحقيقة، والحق أن النزعة الصوفية فى هذا التفسير ليست هى السمة الغالبة عليه، وهى نزعة صوفية سنية منضبطة بميزان الشريعة، ليس فيها شطط من التأويل، أو قول بالحلول والاتحاد، أو نقل عمن عُرفوا بالزيغ والإلحاد.

فمثلاً عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (الأعراف: ١٤٤) يقول: «أى: اقبل ما أعطيتك، واشتغل بالشكر على ذلك، فهو أولى بك من سؤال غيره، ولا مرية أنَّ القيام بحقوق النعم الحاصلة أولى من الاشتغال بطلب غيرها، وهذا أمرٌ لا يخفى على الرسول ﷺ، كيف وهو يعلِّم النَّاس الآداب، وإنَّما حمله على ذلك: الإدلال والشوق إلى رؤية ربه؛ إذ لمَّا سمع كلامه، لم يطق الصبر على رؤيته، والحبيب يشتاق إلى رؤية حبيبه قبل سماع كلامه فكيف بعد سماعه الكلام.

فكأنَّ موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ فهم أنَّ الكلام جعله الله مقدمة بين يدى أمرٍ أعظم منه، وهو الرؤية، فطلبها على سبيل الترقى فى المقامات العلية، وهذا شأن أهل الكمال».

ثم قال: «وفى هذه الآية: ما يفيد العبد أدبًا مع الله، فليكن مشغولاً بشكر نعم ربه عن تحصيل غرض نفسه، فالأوَّل: شغلٌ بالحقوق، والثانى: شغلٌ عنها».

وبعـد . . ولِمَا كان لـلخروبى من شـهرة واسعـة فى عالم الـتصوف، وقـوله فى مقدمتـه: إنه أراد أن يجمع فى تفسيره بين الشريعـة والحقيقة، فقد صُـنِّفَ كتابه ضمن تفاسـير الصوفيـة، وبعد مطالعتى لهـذا التفسـير فإنى أرى أن يوضع فى مصـاف كتب التفسير بالرأى المحمود، لغلبة التفسير بالظاهر فيه على الجانب الإشارى.

وندعو الله أن يرى هذا التفسير النور قريبًا ليعم النفع به.



٤- الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية

للنخجواني

التعريف بصاحب هذا التفسير[١]:

هو: نعمة الله بن محمود النخجواني، ويعرف بالشيخ علوان، و «بابا نعمة الله» من أهل «آقشهر» بولاية «قرمان» نسبته إلى «نخجوان» من بلاد «القفقاس» رحل إلى الأناضول، واشتهر، وتوفي بآقشهر، سنة ١٥١٤م - ٩٢٠هـ.

له من المصنفات:

١- الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية، وهو ما نحن بصدد دراسته.

٢- هداية الإخوان في التصوف.

التعريف بهذا التفسير:

و «الفواتح الإلهية» تفسير صوفي إشاري كامل للقرآن الكريم، ويقع في مجلدين كبيرين، وطبع في استانبول سنة ١٣٢٥هـ، وهي الطبعة التي نُحيل إليها في هذه الدراسة.

قال صاحب الشقائق النعمانية: «كتبه بلا مراجعة للتفاسير وأدرج فيه من الحقائق والدقائق ما يعجز عن إدراكه كثير من الناس».

وهو تفسير يسير فيه المؤلف على منهج صوفي لا يفهم إلا الباطن، متجاوزاً الظاهر، وهو يُقدم لتفسير كل سورة من سور القرآن بفاتحة للسورة وخاتمة، ويفسر «البسملة» في بداية كل سورة، وهو لا يتعرض إطلاقًا للقراءات أو اللغة أو أسباب النزول أو المسائل الفقهية، ولا ينقل النخجواني عن أحد من المفسرين ألبتة، وإنما ينقل عن أناس عرفوا بالزيغ في العقيدة أمثال أبي يزيد البسطامي، وابن عربي.

وقد افتتح المؤلف تفسيره بمقدمة طويلة تدل على انحراف منهجه وفكره، وتأثره بنظرية وحدة الوجود، حيث قال: « قبل الخوض في المقصود لا بد من تمهيد أصلي

---

(١) مصادر الترجمة: الأعلام (٨/ ٣٩) كشف الظنون ١٢٩٣، الشقائق النعمانية بهامش ابن خلكان (١/ ٣٩٨)، وتحرف اسمه في التفسير المطبوع إلى «النخوجاني».

كلىّ جملى يتضمن على سرائر عموم المعارف والحقائق والمكاشفات والمشاهدات الواردة على قلوب الكُمَّل».

ونحن لا ننكر على النخجوانى أن ثم حقائق ومكاشفات يلقيها الله فى قلوب أصفيائه وأحبابه، ويخصهم بها دون غيرهم، على تفاوت بينهم فى ذلك بمقدار ما بينهم من تفاوت فى درجات السلوك ومراتب الوصول، كما لا ننكر عليه أن تكون هذه الأقوال تفسيراً للقرآن وبياناً لمراد الله من كلامه، ولكن بشرط: أن تكون هذه المكاشفات يمكن أن تدخل تحت مدلول اللفظ العربى القرآنى، وأن يكون لها شاهد شرعى يؤيدها، أما أن تكون هذه المكاشفات خارجة عن مدلول اللفظ القرآنى، وليس لها من الشرع ما يؤيدها فذلك ما لا يمكن أن نقبله على أنه تفسير للآية وبيان لمراد الله تعالى؛ لأن القرآن عربى، والله سبحانه وتعالى يقول فى شأنه: ﴿**كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**﴾ (فصلت: ٣) وحاشا لله أن يلغز فى آياته، أو يعمى على عباده طريق النظر فى كتابه، وهو يقول: ﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ**﴾ (القمر: ١٧).

ثم قال: «وبعدما قد بلغت الكثرة غايتها وانتهت المخالفة نهايتها أظهر سبحانه مرتبتى النبوة والولاية ـ كما أشرنا إليه ـ بأن خص بعض النفوس القدسية بالإلهامات الغيبية والإلقاءات الكشفية المعدة للنفوس الزكية لأن ينزل عليها سلطان الوحدة الذاتية حسب شئونها وأوصافها وأسمائها، وبعدما قد نزلت الوحدة الذاتية عليها على وجهها وتمكنت فيها بذاتها وتشرفت هى بنزولها وورودها قد فنيت حينئذ هويتها الناسوتية فى لاهوتية الحق بالمرة، فمنهم من انجذب إليها بالكلية ولم ينزل عن تلك المرتبة أصلاً بل قد بقيت فى عالم اللاهوت منخلعة عن ألبسة عالم الناسوت رأساً بلا شائبة التفات ورجوع منهم إلى جانب عالم الناسوت ومقتضياتها أصلا، ألا وهم البدلاء الأمناء العرفاء الحائرون الهائمون الوالهون الواصلون الفانون الفائزون الباقون الدائمون التائهون الآمنون، وهم هم تحت قباب عز الوجوب متمكنون، وعن لوازم الإمكان منسلخون، ﴿**أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ (يونس: ٦٢) ومنهم من حاز كلتى مرتبتى الظاهر والباطن والغيب والشهادة والأولى والأخرى فاستقروا فى مرتبة الخلافة

والنيابة الإلهية، وأحاطوا عموم مراتب الملك والملكوت والناسوت واللاهوت والغيب والشهادة، فاستحقوا بكمال التمجيد والتعظيم، واختصوا بمزيد التربية والتكريم من لدنه سبحانه، وكيف لا وهم قد تأيدوا من عنده سبحانه بالقوة القدسية والحدس الفطرى والكشف الجبلِّى بتربية بعض الأسماء الإلهية إياهم وتقويته عليهم وتأييده إليهم، فهؤلاء هم الأنبياء الأمناء الأصفياء الواصلون إلى وحدة الذات، المكنون فى مقر الخلافة الإلهية والنيابة الحقيقية الحقية، وبالجملة فقد انتهت علومهم اللدنية وإدراكاتهم الفطرية اللاهوتية الفائض عليهم من العقل الكلى المتشعب من حضرة العلم المحيط الإلهى إلى مبدئها الأصلى ومنشأها الحقيقى، وكذا عموم أعمالهم الصالحة المقبولة المرضية عند الله الفائضة عليهم من النفس الكلية المتشعبة من حضرة القدرة العلية الغالبة المحيطة الإلهية أيضًا إلى منشأها الأصلى ومبدئها الحقيقى، وبالجملة فقد انتهت عموم أوصافهم وأفعالهم ومواجيدهم وأحوالهم إلى ما قد فاضت عليهم من المبدأ الفياض، وكيف لا وقد خلَّقهم الحق بأخلاقه بعد ما خلَّفهم عن نفسه وأنابهم مناب قدس ذاته، وبعثهم إلى جميع خليقته وعموم بريته بالولاية المطلقة والدعوة العامة والهداية الكاملة والإرشاد التام إلى وخدة ذاته وكمالات أسمائه وصفاته وأيدهم بأنواع الكرامات والإرهاصات والمعجزات الخارقة لمطلق الرسوم والعادات».

ثم قال: «فعليك أيها العارف المتفرج أعانك الله على ما يعنيك أن تنصرف أنت فى نفسك عن تصرفات مداركك ومشاعرك مطلقا، وتنعزل عن مقتضيات قواك وآلاتك جملة، وعن لوازم حواسك ومدركاتها رأسا.

وبالجملة فعليك أن تميت نفسك بالموت الإرادى عن مقتضيات الحياة المستعارة الصورية ولوازمها الناسوتية مطلقًا حتى تكون أنت بلا أنت، وكنت بلا كنت، مُتصفًا بالحياة الحقيقية الحقية ولوازمها اللاهوتية، ومقتضياتها الروحانية الباقية أزلا وأبدًا، وحينئذ يمكنك التحقق والتمكن والتقرر فى مقر الخلافة والنيابة الإلهية بلا تزلزل وتلوين، فحينئذ حق لك أن تنفرج فى مظاهر الحق ومجاليه التى هى متنزهات اليقين العلمى والعينى والحقى، وتنعم أنت بلا أنت فى روضات المكاشفات والمشاهدات الجارية فيها أنهار المعارف والدجاقات المملوءة بمياه العلوم اللدنية والإدراكات الفطرية

الفائضة من العقل الكلى والنفس الكلية المتشعبتين من حضرتى العلم المحيط الإلهى والقدرة الكاملة الشاملة المنبسطة من القوة القدسية المترشحة من بحر الوجود بمقتضى الجود الإلهى».

ثم قال أيضًا: «وبالجملة فما كذب فؤاده أيضًا فى عموم ما علم ورأى إذ ليس وراء الله مرئى ومرمى، ومن ترقى من مرتبة العين إلى الحق فقد هُدى إلى ما هدى ووصل إلى ما وصل وحصل عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى، وتشرف بشرف اللُّقيا، وتكرم بكرامة قاب قوسين أو أدنى، وحينئذ قد أوحى إليه الحق ما أوحى، فقد طويت دونه سجلات الأوصاف والأسماء، واضمحل لديه نشآت الأولى والأخرى، وارتفع عن بصر بصيرته، ونظر كشفه وشهوده مطلق التعداد والإحصاء ولم يبق دونه لا الإراء ولا الأهواء، بل قد تلاشى عنه الاسم والمسمى، وقد فنى حينئذ هو وهويته وذاته وماهيته فى هوية الحق وذاته مطلقا، واضمحلت تعينه فى عينه سبحانه، وبالجملة قد لاحت عنده وبرزت دونه عماء فى عماء مشتملة على صفاء فى صفاء بحيث لا يتعاقب فيها لا الظلمة ولا الضياء، ولا الصباح ولا المساء، ولا اللذة ولا العناء، ولا الوجد ولا الفقد، ولا الجَّد ولا الجِّد، ولا الفرح ولا الترح، ولا العدد ولا المعدود، ولا الحد ولا المحدود، ولا الحامد ولا المحمود، ولا الشاهد ولا المشهود، ولا الحضور ولا الشهود، ولا الموجود، ولا الوجدان، ولا الفقدان، بل هو نور على نور، وحضور فى حضور، وسرور غب سرور، بحيث لا يعرضه فترة وفتور، ولا يحوم حوله غفلة وفطور، وفتور وقصور، ومن لم يجعل الله له نورًا فما له من نور».

وحدة الوجود:

وحيث أن المؤلف من القائلين بوحدة الوجود، فنرى أن نُعرِّف القارئ بنبذة مختصرة عن هذه النظرية والقائلين بها، وموقف المحققين منها ومنهم، ثم نورد العديد من الأمثلة من هذا التفسير، لنرى إغراق النخجوانى فيها، فنقول:

وحدة الوجود مذهب فلسفى لا دينى يقول بأن الله والطبيعة حقيقة واحدة، وأن الله هو الوجود الحق، ويعتبرونه ـ تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا ـ صورة هذا العالم

المخلوق، أما مجموع المظاهر المادية فهى تعلن عن وجود الله دون أن يكون لها وجود قائم بذاته.

وهو مذهب قديم وجدت جذوره لدى: اليونانيين القدماء، وكذلك فى الهندوسية الهندية، ثم انتقل إلى بعض الغلاة من متصوفة المسلمين، ومن أبرزهم: محيى الدين ابن عربى.

ويتلخص مذهب ابن عربى فى وحدة الوجود فى إنكاره لعالم الظاهر ولا يعترف بالوجود الحقيقى إلا لله، فالخلق هم ظل للوجود الحق، فلا موجود إلا الله، فهو الوجود الحق.

وابن عربى يقرر أنه ليس ثمة فرق بين ما هو خالق وما هو مخلوق، ومن أقواله التى تدل على ذلك:

«سبحان من أظهر الأشياء وهو عينها».

ويقول مبينًا وحدة الوجود، وأن الله يحوى فى ذاته كل المخلوقات:

يا خالق الأشياء فى نفسه ... أنت لما تخلق جامعُ
تخلق ما لا ينتهى كونه ... فيك فأنت الضيق الواسعُ

ويقول أيضًا:

فالحق خلق بهذا الوجه فاعتبروا ... وليس خلقًا بذاك الوجه فاذكروا
جمعٌ وفرقٌ فإن العين واحدة ... وهى الكثيرة لا تبقى ولا تذرُ

وبناء على هذا التصور فليس ثمة خلق ولا موجود من عدم، بل مجرد فيض وتجلٍّ، وما دام الأمر كذلك فلا مجال للحديث عن علة أو غاية، وإنما يسير العالم وفق ضرورة مطلقة ويخضع لحتمية وجبرية صارمة.

وهذا العالم لا يُتكلم فيه عن خير وشر، ولا عن قضاء وقدر، ولا عن حرية أو إرادة، ومِن ثَمَّ لا حساب ولا مسئولية، ولا ثواب ولا عقاب، بل الجميع فى نعيم مقيم، والفرق بين الجنة والنار إنما هو فى المرتبة فقط لا فى النوع.

ومما يؤكد على قوله بالجبر، الذى هو من نتائج مذهبه الفاسد:

الحكم حكم الجبر والاضطرار ... ما ثم حكم يقتضى الاختيار
إلا الذى يعزى إلينا ... ففى ظاهره بأنه عن خيار

لو فكَّر الناظر فيه رأى بأنه المختار عن اضطرار

وكما قد ترتب على قول ابن عربى بوحدة الوجود قوله بالجبر ونفى الحساب والثواب والعقاب، فإنه ترتب على مذهبه أيضًا قوله بوحدة الأديان، وقد أكد ابن عربى على أن من يعبد الله ومن يعبد الأحجار والأصنام، ومن عبدوا العجل، كلهم سواء، لأنهم فى الحقيقة ما عبدوا إلا الله، إذ ليس ثمة فرق بين خالق ومخلوق.

يقول فى ذلك:

لقد صار قلبى قابلاً كل صورة فمرعى لغزلان ودير لرهبانِ

وبيت لأوثان وكعبة طائف وألواح توراة ومصحف قرآنِ

وقد تابع ابنَ عربى فى القول بوحدة الوجود قومٌ أعجبوا بآرائه وعرضوا لذلك المذهب فى أشعارهم وكتبهم، ومن هؤلاء: ابن الفارض، وابن سبعين، والتلمسانى.

أما ابن الفارض فيؤكد مذهبه فى وحدة الوجود فى قصيدته المشهورة بالتائية التى يقول فيها:

لها صلاتى بالمقام أقيمها وأشهد أنها لى صلت

وما زالت إياها وإياى لم تزل ولا فرق بل ذاتى لذاتى أحبت

فهو هنا يصرح بأنه يصلى لنفسه، لأن نفسه هى الله، ويبين أنه ينشد ذلك الشعر فى حال الصحو لا فى حال السكر فيقول:

ففى الصحو بعد المحو لم أك غيرها

وذاتى إذا تحلَّت تجلَّت

والصوفية معجبون بهذه القصيدة التائية ويسمون صاحبها بـ «سلطان العاشقين»، على الرغم مما يوجد فى تلك القصيدة من كفر صريح، وإلحاد فى دين الله.

وأما ابن سبعين فمن أقواله الدالة على متابعة ابن عربى فى القول بوحدة الوجود قوله: ربٌّ مالك، وعبدٌ هالك، وأنتم ذلك الله فقط، والكثرة وهم.

وهنا يؤكد ابن سبعين أن هذه الموجودات ليس له وجود حقيقى، فوجودها وهم، وليس ثمة فرق بين الخلق وبين الحق، فالموجودات هى الله!!.

أما التلمسانى، فقد قال عنه شيخ الإسلام ابن تيمية: من أعظم هؤلاء كفرًا، وهو

أحذقهم فى الكفر والزندقة فهو لا يفرق بين الكائنات وخالقها، إنما الكائنات أجزاء منه وأبعاض له، بمنزلة أمواج البحر فى البحر، وأجزاء البيت من البيت، ومن ذلك قوله:

البحر لا شك عندى فى توحُّده   وإن تعدد بالأمواج والزَّبدِ
فلا يَغُرَّنك ما شاهدت من صورٍ   فالواحد الرب سارى العين فى العددِ

ويقول أيضًا:

فما البحر إلا الموج لا شىء   غيره، وإن فرقته كثرة المتعدد

ومن شعره أيضًا:

أحنُّ إليه وهو قلبى، وهل يرى   سواى أخو وجد يحن لقلبه؟
ويحجب طرفى عنه إذ هو ناظرى   وما بعده إلا لإفراط قربه

فالوجود عند التلمسانى واحد، وليس هناك فرق بين الخالق والمخلوق، بل كل المخلوقات إنما هى الله ذاته.

وألف الصوفى الشهير عبد الغنى النابلسى رسالة صغيرة فى هذا الموضوع، سماها «إيضاح المقصود فى معنى وحدة الوجود» طبعت مؤخرًا فى مصر، ولم يأت فيها بجديد، وزعم أن المسألة خلافية بين علماء الأئمة قاطبة من ناحية، وهؤلاء الأربعة من ناحية أخرى.

ولم يبرهن على صحتها بشىء، وقال: إن ابن كمال باشا «مفتى تركيا» تمنى لو أن السلطان ألزم الأمة بالإيمان بها!!.

ومع هذا فقد وجد من العلماء ـ وبخاصة الصوفية ـ من نصر مذهب ابن عربى فى وحدة الوجود، كالمهايمى فى تفسيره، والقاشانى صاحب التأويلات، والبروسوى صاحب «روح البيان» وصاحبنا النخجوانى صاحب «الفواتح الإلهية».

ويقول ابن تيمية ـ بعد أن ذكر كثيرًا من أقوال أصحاب مذهب وحدة الوجود: «يقولون: إن الوجود واحد، كما يقول ابن عربى ـ صاحب الفتوحات ـ وابن سبعين، وابن الفارض، والتلمسانى، وأمثالهم ـ عليهم من الله ما يستحقونه ـ فإنهم لا يجعلون للخالق سبحانه وجودًا مباينًا لوجود المخلوق، وهو جامع كل شر فى العالم، ومبدأ ضلالهم من حيث لم يثبتوا للخالق وجودًا مباينًا لوجود المخلوق، وهم يأخذون من

كلام الفلاسفة شيئًا، ومن القول الفاسد من كلام المتصوفة والمتكلمين شيئًا، ومن كلام القرامطة والباطنية شيئًا، فيطوفون على أبواب المذاهب ويفوزون بأخس المطالب، ويثنون على ما يذكر كلام التصوف المخلوط بالفلسفة» «جامع الرسائل ١/ ١٦٧» .

وممن حمل على الحلاج وابن عربى وابن الفارض العلامة البقاعى، ورماهم بالزندقة والإلحاد فى كثير من كتبه، بل أفردهم بالتأليف فى كتب مستقلة.

وإليك بعض النماذج من هذا التفسير:

يقول النخجوانى عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ...﴾ (البقرة: ٢٠) الآيات: «﴿يَكَادُ﴾ يقرب ﴿الْبَرْقُ﴾ أى برق التجلى اللطفى من غاية قربه ﴿يَخْطَفُ﴾ ويعمى ﴿أَبْصَارَهُمْ﴾ التى يرون بها أنفسهم ذوات متأصلات فى الوجود بل ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ﴾ وأشرق ﴿لَهُم﴾ التجلى اللطفى وأمد عليهم بحسب البسط والجمال ﴿مَّشَوْا﴾ وساروا ﴿فِيهِ﴾ باقين ببقائه ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ﴾ وقبض ظله عنهم بمقتضى التجلى القهرى حسب القبض والجلال ﴿قَامُوا﴾ سكنوا وبقوا على ما هم عليه من العدم ﴿و﴾ بالجملة ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ المنتقم الغيور المتجلى عليهم بالقهر دائما ﴿لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ وبعموم تعيناتهم التى ظنوا أنفسهم بسببها أنهم موجودات حقيقة وصيرهم فانين معدومين بحيث لا وجود لهم أصلا كما هم عليه حقيقة دائما عند العارف المحقق المتحقق بوحدة الوجود المسقطة لعموم الكثرات».

وعند تفسير قوله تعالى ﴿فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ...﴾ (البقرة: ٥٤) قال: «﴿فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ الأمارة بهذا الظلم بأنواع الرياضات وترك المشتهيات والمستلذات وقطع المألوفات وترك المستحسنات، لائمين عليها بأنواع الملامات حتى تكون مطمئنة بما قسم لها الحق، راضية بجريان حكم القضاء الإلهى، مرضية بالفناء الكلى فى الله، بل فانية عن الفناء أيضًا ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ المشار إليه من الإنابة والرجوع وإبراء الذمة والإذلال بأنواع الرياضات والفناء المطلق ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ وخالقكم الذى قد خلقكم لمصلحة التوحيد والعرفان».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ...﴾ (البقرة: ١٩٧) قال: «إذ الحج كناية عن الموت الإرادى المنبئ عن الحياة

الحقيقية، وهذه الأمور من أوصاف الأحياء بالحياة الطبيعية، فمن قصد الحج الحقيقى والحياة الحقيقة فعليه أن يميت نفسه من لوازم الحياة الطبيعية المستعارة الغير القارة ليفوز بالحياة الحقيقية الأزلية والبقاء الأبدى السرمدى، وذلك لا يتيسر إلا بالخروج عن مقتضيات العقل الجزئى المشوب بالوهم والخيال بل هو مغلوب منهما محكوم لهما دائما، ولا يحصل ذلك إلا للسالك الناسك الذى قد جذبه الحق عن نفسه متدرجًا مترقيًا من عالم إلى عالم، من العوالم المنتخبة عنها ذاته إلى أن وصل إلى مقام ومرتبة قد طويت المراتب عندها وفنيت العوالم بأسرها فيها، وفنى هو أيضًا فيها، بل قد فنى فناءها أيضًا فيها، ولم ينزل منها هابطًا أصلا بل تقرر وتمكن واطمأن فيها كما نشاهد نحن مثلها متحسرين إليها متمنين لها من بعض بدلاء الزمان، أدام الله ظله العالى على مفارق أهل اليمين والعرفان، وإبهام اسمه إنما هو لإبهام شأنه، هيهات هيهات ما لنا وما له حتى نتكلم عنه! جعلنا الله من خدامه وتراب أقدامه».

وعند تفسير قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ...﴾ (البقرة: ٢١٣) قال النخجوانى: «﴿وَاللَّهُ﴾ المرشد الموفق لكل العباد إلى ما هم عليه ﴿يَهْدِى﴾ بفضله ﴿مَن يَشَاءُ﴾ من خلص عباده ﴿إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ موصل إلى بابه بلا عوج وضلال، أرجوتم وطمعتم أيها المحمديون المتوجهون إلى زلال التوحيد وصفو التجريد والتفريد أن تصلوا إليه بأنانيتكم هذه بلا سلوك ومجاهدة، وسكر وصحو، وتلوين وتمكين، وقيد وإطلاق، ونفى وإثبات، وفناء وبقاء، هيهات هيهات ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ وتمنيتم متوقعًا ﴿أَن تَدْخُلُوا﴾ فجأة بهويتكم هذه بلا إفنائها وفنائها فى هوية الله».

وعند تفسير قوله تعالى ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَىُّ الْقَيُّومُ...﴾ (البقرة: ٢٥٥) قال: «﴿اللَّهُ﴾ أى الذات الموجود الكائن الثابت الحق الحقيق بالحقية والتحقيق والثبوت، إياك أن تتقيد بالألفاظ ومحتملاتها إذ الغرض من التعبير إنما هو التنبيه وإلا فكيف يعبر عنه سبحانه وهو أجل من أن يحيط به العقول فتعبر عنه وتورده فى قالب الألفاظ الذى ﴿لا إِلَهَ﴾ أى لا موجود، وإن شئت قلت: لا وجود ولا تحقق ولا كون ولا ثبوت ﴿إِلاَّ هُوَ﴾ هذا هو نهاية ما ينطق به ألسنة التعبير عن الذات الأحدية إذ كل العبارات

والإشارات وعموم الإدراكـات والمكاشفات والمشاهدات إنما ينتهى إليـه، وبعد انتهاء الكل إليه تكل وتَـجهل وتَعمى وتدهش، مـا للتراب ورب الأرباب حتى يـتكلموا عنه! سوى أن الحق سبحانه لما ظهر لهم بذاته وبعموم أوصافه وأسمائه أنزل عليهم على قدر عقولهم المودعة فيهم كلامًا جامعًا ينبههم على مبدئهم ومعادهم بعد توفيق منه وجذب من جانبه إلى أسهل الطرق بالنسبة إلى المسترشدين، إنما هى الألفاظ المنبهة عن غيب الذات إذ الألفاظ خالية عن المواد الغليظة والكدورات الكثيـفة المزيحة لصفاء الوحدة، ومع ذلك أيضًا لا يخلو عن شـوب الكثرة والحجـاب، والحاصل أن من اطلع بإطلاع الله وإلهامه إياه على أن فيه مبدأ التكاليف الذى هـو العقل الجزئى المتشعب من العقل الكل المتشـعب من حضرة العلم الحضورى الحـقى فلا بد له أن يصرفه إلى امتـثال ما أمر، واجتناب مـا نهى؛ ليكون فى مرتبة العـبودية مطمئنًا راضيًـا مستدرجًـا من الحياة الصورية إلى الحياة المعنوية التى هى عبارة عن الوجود البحت».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ...﴾ (البقرة: ٢٥٥) قال: «﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾ مجلاه ومظاهره ﴿السَّمَوَاتِ﴾ المذكورة ﴿وَالأَرْضَ﴾ المذكورة ﴿وَلا يَئُودُهُ﴾ ولا يثقله ﴿حِفْظُهُمَا﴾ وإن كانت سماوات الأسماء وأرض الطبيعة غير متناهية بل وإن فرضت بأضعافها وآلافها أمـورًا متعددة غير متناهية لا يثقله، إذ كل من تحقق بسـعة قلب الإنسـان المنعكس من الذات الأحدية المـائل نحوها بالمـيل الحبى والشوقى، المتلذذ دائمًا بوجده وحضوره قـد تحقق عنده ولاح لديه من الوسعة والسعة ما لا يمكن التعبير عنه مطلقًـا، كما سمح به سلطان العارفين وبرهان الواصلين - أعنى أبا يزيد البسطامى - عمت بركـات أنفاسه الشريفة على عـموم الفقراء المتوجـهين نحو فضاء التوحيد حيث قال: لو أن العرش وما حواه مائة ألف ألف مرة فى زاوية من زوايا قلب العارف مـا أحس، وأيضًا قد جـاء بعده رأس المـوحدين ورئيس أرباب التحـقيق واليقين محيى الملة والدين الذى هيج بحر الوحـدة تهيجًا شديدا إلى حيث يترشح من تيار قلبه الزخار رشحـات المعارف والحقائق على ذوى العزائم الصحيحة المـقتفية أثر طريقه، قدس الله روحه العـزيز وأرواحهم، وشكر الله سعيه ومساعـيهم حيث قال فى «فصـوص الحكم»: وهذا وسع أبى يزيد فى عـالم الأجسـام، بل أقول: لـو أن ما لا

يتناهى وجوده قدر انتهاء وجوده مع العين الموجدة له فى زاوية من زوايا قلب العارف ما أحس بذلك فى علمه».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ...﴾ (آل عمران: ٤٤) الآيات، حيث قال: «﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ فى أمرها وحفظها، وإنما نوحيه ونلهمه إليك يا أكمل الرسل لتكون آية لك فى صدق دعواك النبوة والرسالة، والإنكار على أمثال هذه الأخبارات والإنباءات الصادرة عن الأنبياء والأولياء المستندة إلى محض الإلهام والوحى النازل من عند العليم العلام إنما ينشأ من العقل القاصر المموه بالوهم المزخرف والخيال الباطل المضل عن طريق الكشف واليقين وإلا فمن صفا عقله المفاض له من حضرة العلم المحيط الإلهى عن كدورات الوهم والخيال وانكشفت سريرة سره بسرائر الأقوال وأسرار الأحوال ومرموزات الأحكام والأفعال ظهر عنده بلا سترة وحجاب أن من النفوس البشرية من تترقى فى هذه النشأة عن عالم الشهادة إلى عالم الغيب المطلق، واتصلت بالمبادى العلية التى هى الصفات الإلهية بحيث قد اضمحلت حصة ناسوتها بالمرة وغلبته الحصة اللاهوتية عليها، وحينئذ ظهرت منها بإمداد الحضرة العلية العلمية الإلهية واردات غيبية ومكاشفات قلبية وملاحظات سرية ومشاهدات عينية بعضها متعلق بعالم الغيب وبعضها بالشهادة، كالإخبار عن الوقائع الماضية والآتية كما نسمع ونشاهد أمثال ذلك من بعض بدلاء الزمان ـ أدام الله بركته على مفارق أهل اليقين والعرفان ـ فى حالتى قبضه وبسطه، كلمات وحكايات متعلقة بوقائع وقعت فى البلاد النائية ونحن نجزم بوقوعها كما نسمع، ونعلم أيضًا جزمًا أنه حاضر عند وقوعها، وأيضًا نجزم بأنه لم يسمع من أحد قط لانسلاخه عن مطلق الاستخبار والاستفسار على الوجه المتعارف بين الناس، ونسمع أيضًا منه ـ مد الله ظله ـ أحوالاً ووقائع قد جرت بيننا وشوب شائبة، ونحن إذا راجعنا وجداننا لم نستحضر الأمور التى جرت علينا فى يومنا بل فى ساعتنا هذه بلا فوت شىء منها، وبالجملة وقوع أمثال ذلك منه ـ مد ظله ـ أكثر من أن تحصى».

وقال النخجوانى فى خاتمة سورة النساء: «وأما البدلاء المجذوبون المنجذبون المستغرقون فى بحر الذات، الهائمون بمطالعة جمال الله، الفانون فيه مطلقًا، فهم هو،

وهو هم، ما لنا وما لهـم حتى نتكلم عنهم، جعلنا الله من خدامـهم وتراب أقدامهم، فعليك أيها المـريد العازم لسلوك طريق الفناء، الحازم الجـازم فى هذا العزم أن تصفى أولاً سرك وسريرتك عن التوجـه إلى غير الحق، وتجعل مطلبك ومقصـدك الاستغراق والفناء فى بحر الوحدة، ولا يتيسر لك هذا إلا بعد كسر سفينة هويتك الباطلة وتخريب أركـان بدنك العاطلة، ولا يتـأتى لك هذا الكسـر والتخـريب إلا بالرياضـات الشاقـة والمجاهدات الشديدة من الجوع والعطش والسهر المفرط والانقطاع عن اللذات الحسية والمشتـهيات النفسية، وكـذا بالتلذذ بالموت الإرادى والفناء الاختيـارى، وبالصبر على البلاء الاضطرارى، والرضا على عموم ما قد جرى عليه القضاء الإلهى».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ...﴾ (المائدة: ٩٦) قال: «وتساقـون أيها المـؤمنون للعرض والحـساب، وعليكم الحـذر والاتقاء عن التـعرض بمصنوعاته بقهر وغلبة فى عمـوم أحوالكم سيما فى أوان الحج عند لبس الإحرام الذى هو كفن الفناء المـعنوى والموت الإرادى الحقيـقى عند ذوى الألباب الناظرين إلى لب الأحكام وزبدتهـا، فكمـا لا يبقى عنـد عروض المـوت الصـورى للقوى والأوصـاف والآلات الظاهرة آثار وأفـعال بل قـد تعطلت وانمحت وتلاشت بحـيث لا يتوقع مـنها ذلك أصلا، كذلك فى الموت الإرادى الذى هو عـبارة عن حج العارف بالله لا بد من إحرامه وتعطيل أعـضائه وجوارحه عن مقتـضيات الأوصاف البشرية والقوى الـحيوانية وعن جميع لوازم التعينات الجسمانية والروحانيـة والغيبية والشهادية والظاهرية والباطنية مطلقـًا، وبالجملة عن عمـوم الإضافـات والكثرات الحـاجبة لصـرافة الوحـدة الذاتية المستهلك دونهـا جميع ما يتوهم من أشباح الأظـلال والعكوس والأمثال، لذلك صار الموت الإرادى أشـد فى الانمحاء وأغـرق فى الفناء من الموت الصـورى عند العارف المكاشف المـشاهد إذ منتهى الأمـر فى الموت الإرادى والفناء الاخـتيـارى إلى العدم الصرف والفناء المحض المطلق الذى ما شم رائحة الوجود أصلا، فكيف تخـلف الموت والحياة والوجود والعدم للوجود الأزلى الأبدى والبقاء السرمدى الذى لا يعرضه الموت والفوت مطلقًا، تاهت فى بيداء صمديتك أنظار العقل وآراؤه».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ...﴾ (الحج: ٢٦) قال: «﴿وَ﴾ بعد تطهير أوساخ الأمكان وأكدار الهيولا والأركان ﴿لْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ التى قد نذروها فى

قطع بوادى تعيناتهم ومهاوى هوياتهم وماهياتهم من ذبح بقرة أمارتهم المضلة عن سواء السبيل ﴿وَ﴾ بعدما تطهروا من الأوساخ وأوفوا بالعهود والنذور ﴿لْيَطَّوَّفُوا﴾ منخلعين عن خلعة ناسوتهم متجردين عن ثياب بشريتهم وجلباب هويتهم ﴿بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ والركن الوثيق الذى هو عبارة عن قلب العارف المحقق المتحقق بمقام الفناء الذاتى والبقاء الأزلى الأبدى الذى لا يلحقه إنصرام ولا يعرضه انقراض وانخرام، فالأمر ﴿ذَلِكَ﴾ لمن أراد السلوك لطريق الفناء والحج الحقيقى والطواف المعنوى».

تمنى كثير من المحققين مرتبة إبليس:

ونختم الحديث عن هذا التفسير بنموذج آخر - إن دل على شىء فإنما يدل على شطط الأقوال وخلل الأفكار عند النخجوانى، حيث قال عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: ٣٤) قال: «والسر فى استثنائه - سبحانه - إبليس عن هذا الحكم وعدم توفيقه وإقداره إياه السجود أن يظهر سر الظهور والإظهار، والربوبية والعبودية، والإيمان والكفر، والجنة والنار، وجميع المعتقدات الشرعية والتكاليف الإلهية، إذ بسببه تظهر الاثنينية، وتتعدد الطرق، وتتفاوت الآراء والمقالات، وتتبين المخالفات والمنازعات، وبتعزيره وتضليله يستتر الحق ويظهر الباطل، وبالجملة فهو الرقيب الحاجب الحافظ المحافظ لآدابه سبحانه، والمعتكف ببابه حتى لا يكون شرعة لكل وارد أو يتوجه إليه واحد بعد واحد، غيرةً منه على الله، وحمية لحمى قدس ذاته وفضاء لاهوته، ولهذا قد تمنى كثير من المحققين مرتبته! ومن كمال غيرته على ربه إلهاء بنى آدم وإغرارهم بالمستلذات والمزخرفات التى مالت إليها نفوسهم بالطبع ليشغلهم ويلهيهم بها عن التوجه إلى جنابه والعكوف حول بابه»!.

والخلاصة .. أن هذا التفسير ليس هفوة قلم من مؤلفه، بل هو مزلة قدم لمن لم يعرف مقاصد القوم، وخاصة أن النخجوانى كتبه فى حال الصحو، لا حال السُّكْر والمحو، وليته احتفظ به لنفسه ولم يخرجه للناس فيوقع الكثير منهم بسببه فى حيرة واختلاف، فمنهم من يأخذه على ظاهره، ويعتقد أن ذلك هو مراد الله من كلامه، وإذا وجد فى كتب التفسير ما يعارضه أو يخالفه فربما كذب به أو أشكل عليه، ومنهم من يكذبه على الإطلاق، ويرى أنه تقوُّلٌ على الله وبهتان، فليته فعل ذلك إذًا لأراحنا من هذه الحيرة، وأراح نفسه من كلام الناس فيه.

٥- روح البيان فى تفسير القرآن

لإسماعيل حقى

التعريف بصاحب التفسير(١):

هو الشيخ: إسماعيل حقى بن مصطفى الإسلامبولى الحنفى الجلوتى، المولى أبو الفداء: متصوف مفسر، تركى مستعرب، ولد فى آيدوس سنة ١٠٦٣هـ، وسكن القسطنطينية، وانتقل إلى بروسة، وكان من أتباع الطريقة «الخلوتية» فنُفى إلى تكفور طاغ، وأوذى، وعاد إلى «بروسا» فمات فيها، سنة ١١٣٧هـ، وعمره أربع وسبعون سنة، ولم نعرف من شيوخه سوى: سمى ابن عفان.

وله مصنفات فى شتى العلوم منها العربى، ومنها التركى، قاربت الستين كتابًا، ذُكر معظمها فى آخر المجلد الأول من تفسيره، ونذكر منها:

روح البيان فى تفسير القرآن، ويُعرف بتفسير حقى، والرسالة الخليلية، والأربعون حديثًا.

التعريف بهذا التفسير:

شرع البروسوى فى تفسيره سنة ١٠٩٤هـ، وفرغ منه سنة ١١١٧هـ، وقضى فى تأليفه ٢٣ سنة.

وتنوعت مصادر البروسوى التى استقى منها مادة تفسيره، ولعل من أهمها:

فى التفسير: بحر العلوم للسمرقندى، والوسيط للواحدى، ومعالم التنزيل للبغوى، والتيسير للنسفى، والكشاف للزمخشرى، وأحكام القرآن لابن العربى، ومفاتيح الغيب للرازى، والبحر المحيط للرازى، والتأويلات النجمية لنجم الدين الأسدى الرازى المعروف بـ «داية»، والجامع لأحكام القرآن للقرطبى، وتأويلات القاشانى، وتفسير الحدادى، وتفسير الكواشى، وتفسير الجلالين، وإرشاد العقل السليم لأبى السعود الذى تأثر به كثيرًا.

---

(١) مصادر الترجمة: إيضاح المكنون (١/ ٥٨٥)، معجم المطبوعات ٤٤١، المكتبة الأزهرية (١/ ٢٣٣)، الأعلام للزركلى (١/ ٣١٣).

أما مصادره فى علوم القرآن فهى: أسباب النزول للواحدى، البرهان للزركشى، والإتقان للسيوطى.

وفى الحديث: صحيح البخارى، وجامع الترمذى، والترغيب والترهيب للمنذرى، والمقاصد الحسنة للسخاوى.

ومن مصادره فى التصوف: الرسالة القشيرية، والفتوحات المكية، والفصوص، وتلقيح الأفهام، وجميعها لابن عربى، والمثنوى لجلال الدين الرومى.

ومن مصادره فى الفقه وأصوله: بدائع الصنائع للكاسانى، تبيين الحقائق للزيلعى، الأشباه والنظائر لابن نجيم.

وفى العقيدة: رسالة القضاء والقدر لابن كمال باشا.

وفى التراجم: طبقات الشافعية للسبكى.

ومن مصادره فى اللغة: مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهانى، والنهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير، والقاموس المحيط للفيروزآبادى، وغيرها من المصادر.

وهذا التفسير يقع فى عشرة مجلدات كبار، والطبعة التى اعتمدت عليها هى طبعة دار الفكر، وهى مصورة عن الطبعة الأولى، المطبوعة فى «إستانبول».

وقد اختصر الشيخ الصابونى هذا التفسير وسماه: «زبدة البيان» فى أربعة مجلدات، وهو مطبوع.

الداعى إلى تأليف هذا التفسير:

قال البروسوى فى مقدمة تفسيره: «لما أشار إلىَّ شيخى الإمام العلامة، وأستاذى الجهبذ الفهامة، سلطان وقته ونادرة زمانه، حجة الله على الخلق بعلمه وعرفانه، مُطلع أنوار العناية والتوفيق، وارث أسرار الخليفى على التحقيق، المشهود له بسر التجديد فى رأس العقد الثانى من الألف الثانى، معدن الإلهام الربانى السيد الثانى، الشيخ الحسيب النسيب سمى ابن عفان نزيل قسطنطينية، أمده الله وأمدنا به فى السر والعلانية، بالنقل إلى برج الأولياء مدينة «بروسا» صينت عن تطاول يد الضراء والبوسى، فى العشر السادس من العشر العاشر من العقد الأول من الألف الثانى، ولم أجد بدًّا من الوعظ

والتذكير فى الجامع الكبير والمعبد المنير الشهير وقد كان منى حين انتواء الإقامة ببعض ديار الروم بعض صحائف ملتقطة من صفحات التفاسير وأدوات العلوم، مشتملة على ما يزيد على آل عمران، من سور القرآن، لكنها مع الإطناب الواقع بها كانت متفرقة كأيادى سبأ، جزء منها حوته الدبور وجزء منها حوته الصبا، أردت أن ألخص ما فرط من الالتقاط وأخلص الأوراق المتفرقة من مسامحات الألفاظ والحروف والنقاط، وأضم إليها نبذًا مما سنح لى من المعارف، وجعله فى سمط ما أنظمه من اللطائف، وأسرد بأنملة البراعة، وإن كنت قليل البضاعة قصير الباعة، ما يليه إلى آخر النظم الكريم، إن أمهلنى الله العظيم إلى قضاء هذا الوطر الجسيم، وأُبيض للناس قدر ما حررته بين الأسابيع والشهور، وأفرزته بالتسويد أثناء السطور، ليكون ذخرًا للآخرة يوم لا ينفع مال ولا بنون، وشفيعًا لى حين لا يجدى نفعًا غير الكاف والنون وأسأل الله تعالى أن يجعله من صالحات الأعمال وخالصات الآثار، وباقيات الحسنات إلى آخر الأعمار، فإنه إذا أراد بعبد خيرًا حسن عمله فى الناس، وأهَّله لخيرات هى بمنزلة العين من الرأس».

ثم أشار فى آخر الكتاب إلى زمن انتهائه من هذا التفسير وأنه أتمه فى ثلاث وعشرين عامًا - على مدة الوحى المحمدى - فقال: «وقد تم تحرير روح البيان فى تفسير القرآن، فى مدة الوحى تقريبًا لما أن قسى الأقدار رمتنى إلى أقاصى أقطار الأرض، وأيدى الأسفار النائية تداولتنى من طول إلى عرض، حتى أقامنى الله مقام الإتمام، فجاء بإذن الله التمام: يوم الخميس الرابع عشر من جمادى الأولى المنتظم فى سلك شهور سنة سبع عشرة ومائة ألف، من هجرة من يرى من قدام وخلف، وقلت فى تاريخه نظمًا:

إن من جناب ذى المنن ... ختم تفسير الكتاب المستطاب
قال فى تاريخه حقى الفقير ... حامدًا لله: قد تم الكتاب

منهج البروسوى فى تفسيره:

ويبدأ البروسوى تفسيره مباشرة بشرح الآيات غير مكثر من وجوه التفسير، وأحيانًا يقدم بين يدى السورة، مع العناية ببيان النواحى اللغوية، ويتعرض للإعراب إن كان مهمًا فى فهم المعنى، ثم يعتنى بتحديد معانى العبارات والمصطلحات فيعرف كل كلمة تقريبًا، ويكثر من ذكر أسباب النزول دون عزو، ومنها المكذوب.

ثم يشرع البروسوى فى التفسير، ويتعرض لذكر الروايات والقصص بعد ذلك، ويطغى الجانب الوعظى على مساحة كبيرة من هذا التفسير، ويكثر من ذكر الإسرائيليات وربما نقد بعضها أحيانًا، كما يتطرق أحيانًا لذكر المناسبة بين الآيات، ويعتنى بتفسير الآيات الفقهية، بما يتناسب مع مذهبه الحنفى، ويذكر أحيانًا بعض النكات التى يمكن أن تثار حول الآية.

أما من الناحية البلاغية فإن البروسوى لم يتعرض تقريبًا لعلم البديع، واعتنى اعتناء واضحًا بعلم المعانى بإشارات بلاغية مختصرة متأثرًا فى ذلك بأبى السعود، وهذه الإشارات لا تتجاوز ذكر نوع الأسلوب البلاغى دون بيان لسر استخدامه وموقعه من السياق، أما كلامه فى البيان فأقل بكثير من كلامه فى المعانى.

ويؤخذ علي البروسوى كثرة التعبيرات بالفارسية، وكثرة استشهاده بالشعر الفارسى مما جعل فى تناول الكتاب وفهمه صعوبة فى كثير من الأحيان.

موقفه من أسماء السور:

ويتعرض البروسوى فى تفسيره لذكر أسماء السور مثال ذلك ما ذكره فى سورة الفاتحة حيث قال: «وسميت بسورة الصلاة، وسورة الشفاء، والشافية، وأساس القرآن، والكافية، والوافية، وسورة الحمد، وسورة السؤال، وسورة الشكر، وسورة الدعاء لاشتمالها عليها، وسورة الكنز لما يروى أن الله تعالى قال: فاتحة الكتاب كنز من كنوز عرشى».

موقفه من فضائل الآيات والسور وخصائصها:

كما يكثر البروسوى فى تفسيره من ذكر الأحاديث الضعيفة والموضوعة فى فضائل السور والآيات، مثال ذلك ما ذكره فى فاتحة الكتاب حيث قال: «قال الشيخ الأكبر فى الفتوحات: إذا قرأت فاتحة الكتاب فصل جبريل ـ عليه السلام ـ حالفًا عن ميكائيل ـ عليه السلام ـ حالفًا عن إسرافيل ـ عليه السلام ـ قال الله تعالى: يا إسرافيل بعزتى وجلالى وجودى وكرمى من قرأ بسم الله الرحمن الرحيم متصلة بفاتحة الكتاب مرة واحدة فاشهدوا عليَّ أنى قد غفرت له وقبلت منه الحسنات وتجاوزت له عن السيئات،

ولا أحرق لسانه بالنار، وأجيره من عذاب القبر وعذاب النار وعذاب يوم القيامة والفزع الأكبر، وتلقانى قبل الأنبياء والأولياء أجمعين».

وقال أيضًا: «وفى الخبر أن النبى ﷺ قال: «ليلة أسرى بى إلى السماء عُرِض علىَّ جميع الجنان فرأيت فيها أربعة أنهار، نهرًا من ماء، ونهرًا من لبن، ونهرًا من خمر، ونهرًا من عسل، فقلت: يا جبريل، من أين تجىء هذه الأنهار؟ وإلى أين تذهب؟ قال: تذهب إلى حوض الكوثر، ولا أدرى من أين تجىء، فادع الله تعالى ليُعلمك أو يُريك، فدعا ربه، فجاء ملك فسلم على النبى ﷺ ثم قال: يا محمد غمض عينيك، قال: فغمضت عينى، ثم قال: افتح عينيك، ففتحت، فإذا أنا عند شجرة ورأيت قبة من درة بيضاء ولها باب من ذهب أحمر وقفل، لو أن جميع ما فى الدنيا من الجن والإنس وضعوا على تلك القبة لكانوا مثل طائر جالس على جبل، فرأيت هذه الأنهار الأربعة تخرج من تحت هذه القبة، فلما أردت أن أرجع قال لى ذلك الملك: لم لا تدخل القبة؟ قلت: كيف أدخل وعلى بابها قفل لا مفتاح له عندى؟! قال: مفتاحه بسم الله الرحمن الرحيم، فلما دنوت من القفل وقلت بسم الله الرحمن الرحيم انفتح القفل، فدخلت فى القبة فرأيت هذه الأنهار تجرى من أربعة أركان القبة، ورأيت مكتوبًا على أربعة أركان القبة: بسم الله الرحمن الرحيم، ورأيت نهر الماء يخرج من ميم بسم الله، ورأيت نهر اللبن يخرج من هاء الله، ونهر الخمر يخرج من ميم الرحمن، ونهر العسل من ميم الرحيم، فعلمت أن أصل هذه الأنهار الأربعة من البسملة، فقال الله عز وجل: يا محمد من ذكرنى بهذه الأسماء من أمتك بقلب خالص من رياء وقال: بسم الله الرحمن الرحيم سقيته من هذه الأنهار»!.

هذا .. ولا يفوت البروسوى أن يذكر بعض الخصائص لبعض الآيات والأسماء، مما ينزه عنه كتب التفسير، مثال ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ (البروج: ١٤) حيث قال: «وخاصية الاسم الودود ثبوت الوداد لا سيما بين الزوجين، فمن قرأه ألف مرة على طعام وأكله مع زوجته غلبتها محبته ولمن يمكنها سوى طاعته، وقد روى أنه اسم الله الأعظم فى دعاء التاجر الذى قال فيه: يا ودود، يا ذا العرش المجيد، يا مبدئ، يا معيد، أسألك بنور وجهك الذى ملأ أركان عرشك، وبقدرتك

التى قدرت بها على جميع خلقك، وبرحمتك التى وسعت كل شىء، لا إله إلا أنت، يا مغيث أغثنى، يا مغيث أغثنى، يا مغيث أغثنى... الحديث قد ذكره غير واحد من الأئمة».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ (البروج: ١٥) قال البروسوى: «ومن خاصية هذا الاسم - المجيد - تحصيل الجلالة والمجد والطهارة ظاهرًا وباطنًا، حتى فى عالم الأبدان والصور، فلقد قالوا: إذا صام الأبرص أيامًا وقرأه كل ليلة عند الإفطار كثيرًا فإنه يبرأ بإذن الله تعالى، إما بلا سبب أو بسببٍ يفتح الله له به».

موقفه من الإسرائيليات:

يكثر البروسوى فى تفسيره من ذكر الإسرائيليات والغرائب إلى حدٍّ كبير دون أن يعلق عليها أو يتعقبها، وسوَّد بها الكثير من صفحات تفسيره، مثال ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الفاتحة: ٢) حيث قال: «قال وهب: لله ثمانية عشر ألف عالَم، الدنيا عالم منها، وما العمران فى الخراب إلا كفسطاط فى صحراء. وقال الضحاك: ثلاثمائة وستون، ثلاثمائة منهم حفاة عراة لا يعرفون خالقهم، وهم حشو جهنم، وستون عالمًا يلبسون الثياب، مرَّ بهم ذو القرنين وكلمهم. وقال كعب الأحبار: لا يُحصى لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ (المدثر: ٣١). وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن الله تعالى خلق الخلق أربعة أصناف: الملائكة، والشياطين، والجن، والإنس، ثم جعل هؤلاء عشرة أجزاء، تسعة منهم الملائكة، وواحد الثلاثة الباقى، ثم جعل هذه الثلاثة عشرة أجزاء، تسعة منهم الشياطين، وجزء واحد الجن والإنس، ثم جعلها عشرة أجزاء، فتسعة منهم الجن، وواحد الإنس، ثم جعل الإنس مائة وخمسة وعشرين جزءًا، فجعل مائة جزء فى بلاد الهند، منهم ساطوح، وهم أناس رؤسهم مثل رءوس الكلاب، ومالوخ وهم أناس أعينهم على صدورهم، وماسوخ وهم أناس آذانهم كآذان الفيلة، ومالوف وهم أناس لا يطاوعهم أرجلهم يسمون ذوال ياى، ومصير كلهم إلى انار، وجعل اثنى عشر جزءًا منهم فى بلاد الروم: النسطورية، والملكانية، والإسرائيلية، كل من الثلاث أربع طوائف، ومصيرهم إلى النار جميعًا، وجعل ستة أجزاء فى المغرب، الزنج، والزط، والحبشة، والنوبة، وبربر، وسائر كفار العرب،

ومصيرهم إلى النار، وبقى من الإنس من أهل التوحيد جزء واحد فجزأهم ثلاثًا وسبعين فرقة، اثنتان وسبعون على خطر، وهم أهل البدع والضلالات، وفرقة ناجية، وهم أهل السنة والجماعة، وحسابهم على الله تعالى، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ (يوسف: ٤) أورد البروسوى خبرًا طويلاً غربيًا، فقال: «قال بعض من مال إلى الاشتقاق فى هذه الأسماء: إنما سمى يعقوب لأن يعقوب وعيصا كانا توأمين فاقتتلا فى بطن أمى فلأقتلهما، فتأخر يعقوب فخرج عيص، فأخذ يعقوب بعقب عيص فخرج بعده، فلذا سمى به، وسمى الآخر عيصًا لمَّا عصى وخرج قبل يعقوب، وكان عيص رجلاً أشعر، وكان يعقوب أجرد، وكان عيص أحبهما إلى أبيه، وكان يعقوب أحبهما إلى أمه، وكان عيص صاحب صيد، وكان يعقوب صاحب غنم، فلما كبر إسحاق وعمى قال لعيص يومًا: يا بنى أطعمنى لحم صيد، واقترب منى أدع لك بدعاء دعا لى به أبى، هو دعاء النبوة، وكان لكل نبى دعوة مستجابة، وأخر رسولنا ﷺ دعاءه للشفاعة العظمى يوم القيامة، فخرج عيص لطلب صيد، فقالت أمه ليعقوب: يا بنى اذهب إلى الغنم فاذبح منها شاة ثم اشوها، والبس جلدها، وقدِّمها إلى أبيك قبل أخيك... إلخ».

موقفه من العقيدة:

يبدو من تفسير روح البيان أن البروسوى ماتريدى المعتقد، مؤول للصفات، مثال ذلك ما قاله عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الفتح: ١٠) حيث قال: «المعنى قوة الله ونصرته فوق قوتهم ونصرتهم كأنه قيل: ثق يا محمد بنصرة الله لك لا بنصرة أصحابك ومبايعتهم على النصرة والثبات، وقال بعضهم: اليد فى الموضعين بمعنى الإحسان والصنيعة، فالمعنى نعمة الله عليهم فى الهداية إلى الإيمان وإلى بيعة الرضوان فوق ما صنعوا من البيعة كقوله تعالى: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ﴾ (الحجرات: ١٧)».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ (الفجر: ٢٢) قال البروسوى: «﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ أى ظهرت آيات قدرته وآثار قهره، مُثِّل ذلك بما يظهر عند حضور السلطان بنفسه من أحكام هيبته وسياسته فإنه عند حضوره يظهر ما لا يظهر بحضور وزرائه وسائر خواصه وعساكره، وقال الإمام أحمد: جاء أمره وقضاؤه على حذف المضاف للتهويل».

رأى البروسوى فى الحروف المقطعة التى فى أوائل السور:

عند تفسير قوله تعالى: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ (يوسف: ١) قال البروسوى: «الحروف المقطعة من الأسرار المكتومة التى يحرم إفشاؤها لغير أهلها، وقول بعضهم: هذه الحروف من المتشابهات القرآنية لا يعلم معانيها إلا الله سلوك إلى الطريق الأسلم وتسليم للأمر إلى أهله، وليس ببعيد من كرم الله تعالى إلى أن يفيض معانيها على قلوب الكُمَّل لكنهم إنما يرمزون بها ويشيرون بغير تصريح بحقائقها صونًا للعقول الضعيفة وحفظًا للعهد المأخوذ منهم»!!.

وتلك الدعاوى - الفيض والكشف - ليس لها دليل برهانى أو إقناعى، ولا تصلح دليلا شرعيّا بحال من الأحوال.

موقفه من الإعراب:

ويتعرض البروسوى فى تفسيره للإعراب إن كان مهمّا فى فهم المراد، مثال ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ﴾ (الأعراف: ١٤٨) حيث قال: «أى من بعد ذهابه إلى الطور، و «من» لابتداء الغاية ﴿مِنْ﴾ للتبعيض ﴿حُلِيِّهِمْ﴾ جمع حلى كثدى وثدى، وهو ما تزين به من الذهب والفضة، وإضافة الحلى إليهم مع أنها كانت للقبط لأدنى الملابسة حيث كانوا استعاروا من أربابها حين هموا بالخروج من مصر ﴿عِجْلاً﴾ مفعول أول لقوله: اتخذ، لأنه متعدٍّ إلى اثنين بمعنى التصيير، والمفعول الثانى محذوف أى صيروه إلهًا، والعجل: ولد البقر، وأبو العجل الثور، والجمع: العجاجيل، والأنثى عجلة، سمى عجلاً لاستعجال بنى إسرائيل عبادته، وكانت مدة عبادتهم له أربعين يومًا فعوقبوا فى التيه أربعين سنة، فجعل الله تعالى كل

سنة فى مقابلة يوم ﴿جَسَدًا﴾ بدل من عجلا أى جثة ذات دم ولحم أو جسدًا من ذهب لا روح معه؛ فإن الجسد اسم لجسم له لحم ودم، ويطلق على جثة لا روح لها».

موقفه من الرقص والسماع عند بعض الصوفية:

قال البروسوى عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ (الأعراف: ١٤٨): «وهل يجوز السماع؟ **الجواب:** إن كان السماع سماع القرآن أو الموعظة يجوز، وإن كان السماع الغناء فهو حرام لأن التغنى واستماع الغناء حرام، ومن أباحه من مشايخ الصوفية فلمن تخلى عن الهوى وتحلى بالتقوى».

ثم ذكر شرائط السماع فقال: «وله شرائط:

إحداها: أن لا يكون فيهم أمرد، **والثانية:** أن لا يكون جمعيتهم إلا من جنسهم ليس فيه فاسق ولا أهل دنيا ولا امرأة، **والثالثة:** أن يكون نية القوال الإخلاص لا اتخاذ الأجرة والطعام، **والرابعة:** أن لا يجتمعوا لأجل طعام أو نظر إلى فتوح، **والخامسة:** لا يقومون إلا مغلوبين، **والسادسة:** لا يُظهرون الوجد إلا صادقين.

قال الشيخ عمر بن الفارض فى القصيدة الموسومة بنظم الدر:

إذا هام شوقًا بالمناغى وهمّ أن ... يطير إلى أوطانه الأوليه

يسكن بالتحريك وهو بمهده ... إذ ناله أيدى المربى بهزه

قال الإمام القاشانى فى شرحه: إذا هام الولى واضطرب شوقًا إلى مركزه الأصلى ووطنه الأولى بسبب مناغاة المناغى وهمَّ طائر روحه إلى أن يطير إلى عشه ووكره الأولىّ تهزه أيدى من يربيه فى المهد فيسكن بسبب التحريك من قلقه وهمه بالطيران، والمقصود من إيراد هذا المعنى أن يشير إلى فائدة الرقص والحركة فى السماع وذلك أن روح السآمة بهم عند السماع أن يرجع إلى وطنه المألوف ويفارق النفس والقالب فتحركه يد الحال وتسكنه عما يهم به بسبب التحريك إلى حلول الأجل المعلوم، وذلك تقدير العزيز العليم».

ثم قال: «واعلم أن الرقص والسماع حال المتلون لا حال المتمكن، ولذا تاب سيد الطائفة الجنيد البغدادى ـ قدس سره ـ عن السماع فى زمانه، فمن الناس من هو

متواجد، ومنهم من هو أهل وجد، ومنهم من هو أهل وجود، **فالأول:** المبتدئ الذى له انجذاب ضعيف، **والثانى:** المتوسط الذى له انجذاب قوى، **والثالث:** المنتهى الذى له انجذاب قوى وهو مستغن عن الدوران المعنوى بخلاف الأولين، ولا بد من العشق فى القلب، والصدق فى الحركة حتى يصح الدوران، والعلماء وإن اختلفوا فى ذلك فمن مثبت ومن نافٍ لكن الناس متفاوتون، والجواز للأهل المستجمع لشرائطه لا لغيره».

ثم تكلم - سامحه الله - عن مبدأ علم الموسيقى فقال:

«ذكر أن عليًا قال يومًا: لا أجد لذة العبادة يا رسول الله، فلقَّنه التوحيد، ووصَّاه أن لا يكلم أحدًا بما ظهر من آثار التوحيد، فلما امتلأ باطنه من أنوار التوحيد واضطر إلى التكلم جاء إلى بئر فتكلم فيها فنبت منها قصب، فأخذ راعٍ وعمل منه المزمار، وكان ذلك مبدأ لعلم الموسيقى»!!.

تعظيم البروسوى لشأن ابن عربى:

والبروسوى من المعجبين بابن عربى، فيقول عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (يوسف: ٢): «ولكون الرسول ﷺ عربيًا جاء وارثه الأكمل من العرب، وهو حضرة الشيخ الأكبر والمسك الأذفر، والكبريت الأحمر، محيى الدين بن عربى، قدس الله نفسه الزاكية، وإنما قلت بكونه الوارث الأكمل لكونه خاتم الولاية الخاصة المحمدية، فهو أكمل مظاهر هذه المرتبة، وفيه ظهر التفضيل الذى لم يظهر فى غيره ومن عداه طفيلى مائدته فى هذا الباب، وبهذا المعنى نصرح به ولا نكنى، وليمت المنكر بغيظه وغضبه، ونعوذ بالله من سوء الاعتقاد»

تعظيمه لشأن الحلاج:

كما يعظم البروسوى الحلاج فيقول عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ (الفجر: ٢٧، ٢٨): «وهى صورة جذبة العناية الربوبية نفوس الأنبياء والأولياء تجذبها من أنانيتها إلى هوية ربوبيته ﴿رَاضِيَةً﴾ أى طائعة تلك النفوس شوقًا إلى لقاء ربها ﴿مَّرْضِيَّةً﴾ أى على طريقة مرضية فى السير لربها باذلة نفسها فى مشاهدة اللقاء طامعة لرفع الاثنينية ودوام الالتقاء، قيل: لما قُدِّم الحلاج

لِتُقْطَع يده قُطعت اليد اليمنى أولاً فضحك، ثم قُطعت اليد اليسرى فضحك ضحكًا بليغًا، فخاف أن يصفر وجهه من نزف الدم فأكبَّ وجهه على الدم السائل ولطخ وجهه بدمه وأنشأ يقول:

الله يعلم أن الروح قد تلفت ... شوقًا إليك ولكنِّى أُمنِّيها
ونظرة منك يا سؤلى ويا أملى ... أشهى إلىَّ من الدنيا وما فيها
يا قوم إنى غريبٌ فى دياركمُ ... سَلَّمت روحى إليكم فاحكموا فيها
ما أُسلم النفس للأسقام تُتلفها ... إلا لعلمى بأن الوصل يُحييها
نفسُ المحب على الآلام صابرةٌ ... لعلَّ مُسْقِمها يومًا يُداويها!

ثم رفع رأسه إلى السماء وقال: يا مولاى إنى غريب فى عبادك وذكرك أغرب منى، والغريب يألف الغريب، ثم ناداه رجل وقال: يا شيخ، ما العشق؟ قال: ظاهره ما ترى وباطنه دقَّ عن الورى».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٣) قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ (الأنعام: ٤٣، ٦٤) قال البروسوى: «حين تجلى لكم نور من أنوار صفاته فبعضكم يشرك ويقول: أنا الحق [يقصد: الحلاج]، وبعضكم يقول: سبحانى ما أعظم شانى [يقصد: أبا يزيد البسطامى] ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ﴾ (الأنعام: ٦٥) حين تقولون أنا الحق وسبحانى ﴿عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ (الأنعام: ٦٥) بأن يرخى حجابًا بينه وبينكم يعذبكم به عزة وغيرة ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ (الأنعام: ٦٥) أى حجابًا من أوصاف بشريتكم باستيلاء الهوى عليكم ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ (الأنعام: ٦٥) يجعل الخلق فيكم فرقًا، فرقة يقولون: هم الصديقون، وفرقة يقولون: هم الزنادقة ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ (الأنعام: ٦٥) بالقتل والصلب وقطع الأعراق كما فُعل بابن منصور، قالوا: وكان قد جرى من الحلاج - قُدس سره - كلام فى مجلس حامد بن عباس، وزير المقتدر، بحضرة القاضى أبى عمر فأفتى بِحلٍّ دمه، وكتب خطة بذلك، وكتب معه من حضر المجلس من الفقهاء، وقال له الحلاج: ظهرى حمًى، ودمى حرام، وما يحل لكم أن تتأولوا علىَّ بما يُبيحه، وإنما اعتقادى الإسلام، ومذهبى السنة، وتفضيل الأئمة الأربعة، الخلفاء الراشدين، وبقية العشرة من الصحابة ﷺ،

ولى كتبٌ فى السنة موجودة فى الوراقين، فالله الله فى دمى، ولم يزل يردد هذا القول وهم يكتبون خطوطهم إلى أن استكملوا ما احتاجوا إليه وانفضوا من المجلس، وحُمِلَ الحلاج إلى السجن، وكتب الوزير إلى المقتدر يخبره بما جرى فى المجلس، فعاد جواب المقتدر بأن القضاة إذا كانوا قد أفتوا بقتله فَلْيُسَلَّم إلى صاحب الشرطة وليتقدم بضربه ألف سوط، فإن مات وإلا فيضرب ألف سوط آخر، ثم ليضرب عنقه، فسلمه الوزير إلى الشرطى وقال له ما رسم به المقتدر، وقال أيضًا: إن لم يتلف بالضرب تُقطع يده ثم رجله ثم يحز رأسه وتحرق جثته، وإن خدعك وقال لك: أُجرى لك الفرات ودجلة ذهبًا وفضة فلا تقبل منه ذلك، ولا ترفع العقوبة عنه، فتسلمه الشرطى ليلاً، وأصبح يوم الثلاثاء لسبع بقين من ذى الحجة من سنة تسع وثلاثمائة فأخرجه إلى باب الطاق وهو يتبختر فى قيوده، واجتمع من العامة خلقٌ لا يُحصى عددهم، وضربه الجلاد ألف سوط ولم يتأوه، ولما فرغ من ضربه قطع أطرافه الأربعة ثم حزَّ رأسه، ثم أُحرقت جثته، ولما صار رماداً ألقاه فى دجلة، ونصب الرأس ببغداد على الجسر، وادَّعى بعض أصحابه أنه لم يُقتل ولكن أُلقى شبهه على عدو من أعداء الله تعالى، كما وقع فى حق عيسى، عليه السلام، والأولياء ورثة للأنبياء!.

يقول الفقير: لهذا التشبيه والتخييل نظائر فى حكايات المشايخ يجدها من تتبع، ومرادى بيان جوازه لا اعتقاد أنه كان كذلك.

فإن قلت: من حق ولاية الحلاج أن لا يحترق ولا يكون رماداً!؟ **قلت:** ذلك غير لازم فإن الأجساد مشتركة فى قبول العوارض والآفات، ألا ترى إلى حال أيوب ويحيى وغيرهما من الأنبياء عليهم السلام، وقد ذكر أهل التفسير فى أصحاب الرَّس أنهم قتلوا الأنبياء المبعوثين إليهم وأكلوا لحومهم تمرداً وعناداً، ورسّوا بئرهم بعظامهم، نعم قد يكون فى هذه النشأة أمور خارجة عن العادة خارقة كأحوال بعض الأنبياء والأولياء الذين قُتلوا مثلا ثم أحياهم الله تعالى، وأما فى القبر فقد ثبت أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء ومن يليهم».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿**وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ**﴾ قال: «إنما أنا رسول وليس إلىَّ شىء من الهداية، ولو كانت الهداية إلىَّ

لآمن كل من فى الأرض، وإنما إبليس مُزين وليس له من الضلالة شىء، ولو كانت الضلالة إليه لأضل كل من فى الأرض ولكن الله يضل من يشاء، كذا فى «تلقيح الأذهان»، فعليك بترك القيل والقال ورفض الاعتزال والجدال فإن الرضا والتسليم يسبب القبول وخلافه يؤدى إلى غضب الحبيب المقبول، يحكى عن حضرة الشيخ الأكبر ـ قدس سره الأطهر ـ أنه قال: أقمت بمدينة قرطبة بمشهد فأرانى الله أعيان رسله ـ عليهم السلام ـ من لدن آدم إلى نبينا ﷺ، فخاطبنى منهم هود ـ عليه السلام ـ وأخبرنى فى سبب جمعيتهم، وهو أنهم اجتمعوا شفعاء للحلاج إلى نبينا ﷺ؛ وذلك أنه كان قد أساء الأدب بأن قال فى حياته الدنيوية: إن رسول الله ﷺ همَّته دون منصبه، قيل له: ولم ذلك؟ قال: لأن الله تعالى قال: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ (الضحى: ٥) وكان من حقه لا يرضى إلا أن يقبل الله تعالى شفاعته فى كل كافر ومؤمن، لكنه ما قال إلا: «شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى» فلما صدر منه هذا القول جاءه رسول الله ﷺ فى واقعة وقال له: يا منصور، أنت الذى أنكرت علىَّ الشفاعة؟! فقال: يا رسول الله، قد كان ذلك، فقال: ألم تسمع أننى حكيت عن ربى عز وجل: «إذا أحببت عبدًا كنت له سمعًا وبصرًا ولسانًا ويدًا»؟ فقال: بلى يا رسول الله، فقال: أولم تعلم أنى حبيب الله؟ قال: بلى يا رسول الله، قال: فإذا كنت حبيب الله كان هو لسانى القائل، فإذا هو الشافع والمشفوع إليه، وأنا عدم فى وجود، فأى عتاب علىَّ يا منصور؟! فقال: يا رسول الله أنا تائب من قولى هذا، فما كفارة ذنبى؟ قال: قرِّب نفسك لله قربانًا فاقتل نفسك بسيف شريعتى، فكان من أمره ما كان، ثم قال هود، عليه السلام: وهو من حيث فارق الدنيا محجوب عن رسول الله ﷺ: والآن هذه الجمعة لأجل الشفاعة له إلى رسول الله ﷺ.

يقول الفقير سامحه الله القدير: فى هذه القصة أمران: **أحدهما:** عظم شأن الحلاج ـ قدس سره ـ بدلالة عظم شأن الشفعاء، **والثانى:** أنه قُتل فى بغداد فى آخر سنة ثلاثمائة وتسع وعشرون سنة، والظاهر ـ والله أعلم ـ أن روح الحلاج كان محجوبًا عن روح رسول الله ﷺ أكثر من ثلاثمائة سنة تقريبًا، وذلك بسبب كلمة صدرت منه على خلاف الأدب، فإن من كان على بساط القرب والحضور ينبغى أن يراعى الأدب فى كل أمر من الأمور»!!.

البروسوى ووحدة الوجود:

والبروسوى من القائلين بوحدة الوجود، وينص على ذلك فى تفسيره، فعند قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (التوبة: ٣٣) قال: «وفى التأويلات النجمية: هو الذى أرسل رسول القلب إلى أمة العالم الأصغر الذى هو المملكة الأنفسية الإجمالية المضاهية للعالم الأكبر وهو المملكة الآفاقية التفصيلية بنور الهداية الأزلية ودين الحق الغالب على جميع الأديان وهو الملة الحنيفية السهلة السمحاء ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ الذين أشركوا مع الحق غيره وما عرفوا أن الغير والغيرية من الموهومات التى أوجدتها قوة الوهم وإلا ليس فى الوجود إلا الله وصفاته».

ثم ذكر شعرًا للكمال الخجندى، والمولى الجامى، ثم قال معقبًا: «يقول الفقير: هذه الكلمات المنبئة عن وحدة الوجود قد اتفق عليها أهل الشهود قاطبة، فالطعن لواحد منهم بأنه وجوديٌّ طعن لجميعهم، وليس الطعن إلا من الحجاب الكثيف والجهل العظيم وإلا فالأمر أظهر على البصير».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ (قريش: ٤) قال البروسوى: «أشار بقريش إلى النفس المشركة وقواها الظالمة الخاطئة الساكنة فى البلد الإنسانى الذى هو مكة الوجود، وبالشتاء إلى القهر والجلال، وبالصيف إلى اللطف والجمال، وأغنى بالقهر والجلال العجز والضعف لأن المقهور عاجز ضعيف، وباللطف والجمال القدرة والقوة لأن الملطوف به صاحب التمكين، فأما عجز النفس وضعفها فعند عدم مساعدة هواها، وأما قوتها وقدرتها فعند وجود المساعدة، فهى وصفاتها ترتحل عند العجز والضعف إلى يمين المعقولات لأنها فى جانب يمين القلب، وعند القوة والقدرة ترتحل إلى شأم المحسوسات لأنها فى جانب شمال القلب الذى يلى الصدر، فهى تتقلب بين نعم المعقولات ونعم المحسوسات، ولا تشكرها بأن تقر بوحدة الوجود ورسالة رسول القلب كالفلاسفة المتوغلة فى المعقولات والفراعنة المنهمكة فى المحسوسات، ولذا قال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ﴾ (قريش: ٣) إلى بيت القلب الذى هو الكعبة الحقيقة لأنها مطاف الواردات والإلهامات، ومن ضرورة العبادة له

الإقرار برسالة رسول الهدى الذى هو القلب، فالبيت مُعَظَّم مُشَرَّف مطلقًا لإضافة الرب إليه، فما ظنك بعظمة الرب وجلاله وهيبته، ورب القلب هو الاسم لجامع المحيط بجميع الأسماء والصفات، وهو الاسم الأعظم الذى نيط به جميع التأثيرات العقلية والروحانية والعلمية والغيبية، أُمروا بأن يكونوا تحت هذا الاسم لا تحت الأسماء الجزئية ليتخلصوا من الشرك ويتحققوا بسر وحدة الوجود، فإن الأسماء الجزئية تعطى التقييد، والاسم الكلى يعطى الإطلاق، ومن ثمة بُعث النبى ﷺ فى أم البلاد إشارة إلى كليته وجمعيته، وهذا الرب الجليل المفيض المعطى أزال عنهم جوع العلوم والفيوض وأطعمهم بها وآمنهم من خوف الهلاك من الجوع لأن نفس الجاهل كالميت، ولا شك أن الأحياء يخافون من الموت، هكذا ورد بطريق الإلهام من الله العلام».

هذا هو تفسير «روح البيان»، وهذه هى أهم آراء مؤلفه فى إيجاز، والتى يدور معظمها حول وحدة الوجود، مع تعظيمه لغلاة الصوفية ورفعه لقدرهم، فخلط فيه عملا صالحًا وآخر سيئًا، عسى الله أن يغفر لنا وله.



٦- البحر المديد فى تفسير القرآن المجيد

لابن عجيبة

التعريف بصاحب التفسير[١]:

هو أحمد بن محمد بن المهدى بن الحسين بن محمد، المعروف بابن عجيبة، والمكنى بأبى عباس، الحسنى نسبًا، التطوانى دارًا، الفاسى تعلمًا، المالكى مذهبًا، الشاذلى طريقة.

ولد ابن عجيبة فى قرية «أعجبيش»، من قبيلة «أنجرة» التى تسكن الجبال المحيطة بمدينة تطوان، الواقعة فى أقصى شمال المغرب، على مسافة عشرة كيلومترات، من ساحل البحر الأبيض المتوسط، وكان مولده سنة ستين - وقيل: إحدى وستين - ومائة وألف هجرية.

حفظ القرآن وهو فى سن مبكرة، ورحل إلى مدينة القصر الكبير، وأقام فيها نحوًا من عامين، اجتهد خلالهما فى تحصيل العلم، ثم رحل إلى «تِطْوَان» وهو ابن العشرين، وأقام فيها، وأقبل على تحصيل العلم فى شتى الأبواب بكل جد، وتنوعت مجالسه بين أئمة الفقه، والتفسير، والحديث، واللغة، والنحو، والصرف، والمنطق.

ثم شدَّ الرحال إلى «فاس» وهو فى سن الأربعين، فسمع من علمائها، وأخذ عنهم، فأخذ علم الحديث عن محدث عصره التاودى بن سودة، ودرس التفسير والفرائض واللغة، ومكث هنالك سنتين، عاد بعدهما إلى «تطوان» ليتابع تدريسه وتأليفه.

كما تتلمذ ابن عجيبة على كثير من علماء عصره، أمثال: عبد الكريم بن قريش، والفقيه الشيخ أبو الحسن على بن أحمد بن شطير الحسنى، وأبو عبد الله محمد بن الحسن الجنوى الحسنى، والحافظ أبو عبد الله الطيب بن عبد المجيد بن كيران، وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن بنيس الفاسى.

---

(١) مصادر الترجمة: لخصنا هذه الترجمة من المقدمة التى كتبها الدكتور أحمد القرشى فى تحقيقه للكتاب، وفيها ترجمة وافية لابن عجيبة.

ومن شيوخ ابن عجيبة فى التصوف: أبو المعالى العرب بن أحمد الحسنى الشهير بالدرقاوى، ومحمد بن الحبيب أحمد البوزيدى الحسنى.

وقد صنف ابن عجيبة فى التفسير والحديث والفقه واللغة والتصوف، وبلغت مؤلفاته ما يزيد على خمسة وأربعين تأليفًا أكثرها فى التصوف.

ومن مؤلفاته:

١ - البحر المديد فى تفسير القرآن المجيد، وهو ما نحن بصدده.
٢ - التفسير الكبير للفاتحة.
٣ - التفسير الوسيط للفاتحة.
٤ - التفسير المختصر للفاتحة.
٥ - الدرر المتناثرة فى توجيه القراءات المتواترة.
٦ - الكشف والبيان فى متشابه القرآن.
٧ - حاشية على الجامع الصغير للسيوطى.
٨ - أربعون حديثًا فى الأصول والفروع والرقائق.
٩ - الأنوار السنية فى الأذكار النبوية.
١٠- الأدعية والأذكار الممحقة للذنوب والأوزار.
١١- حاشية على مختصر خليل.
١٢- رسالة فى العقائد والصلاة.
١٣- تسهيل المدخل لتنمية الأعمال بالنية الصالحة عند الإقبال.
١٤- سلك الدرر فى ذكر القضاء والقدر.
١٥- الفتوحات القدوسية فى شرح المقدمة الآجرومية.
١٦- أزهار البستان فى طبقات الأعيان.
١٧- الفهرسة: وهى سيرة الشيخ الذاتية.
١٨- الأنوار السنية فى شرح القصيدة الهمزية.
١٩- الفتوحات الإلهية فى شرح المباحث الأصلية.
٢٠- اللوائح القدسية فى شرح الوظيفة الزروقية.

٢١- إيقاظ الهمم فى شرح الحِكَم.

٢٢- ديوان قصائد فى التصوف.

٢٣- رسالة فى ذم الغيبة ومدح العزلة والصمت.

٢٤- شرح أسماء الله الحسنى.

٢٥- شرح بردة الأبوصيرى، وغيرها.

توفى ابن عجيبة - رحمه الله - فى السابع من شوال سنة ١٢٢٤هـ.

التعريف بهذا التفسير:

وتفسير «البحر المديد» يقع فى ستة مجلدات، وطبع مؤخرًا على نفقة الدكتور حسن عباس زكى، وبتحقيق الدكتور أحمد القرشى، المدرس بكلية أصول الدين جامعة الأزهر، وهو تفسير صوفى إشارى لا يغفل التفسير بالظاهر، وطريقة مؤلفه فيه أنه يقسم السورة إلى مقاطع ثم يقوم بتفسير كل مقطع حسب ما يقتضيه الظاهر، ثم يُتبع ذلك بالتفسير الإشارى.

صفات من يتصدى للتفسير الإشارى:

وقد ذكر ابن عجيبة فى مقدمة كتابه أهمية علم التفسير، وصفات من يتصدر له، فقال: «وبعد ... فإن علم تفسير القرآن من أجل العلوم، وأفضل ما يُنْفق فيه نتائج الأفكار وقرائح الفهوم، ولكن لا يتقدم لهذا الخطر الكبير إلا العالم النحرير، الذى رسخت أقدامه فى العلوم الظاهرة وجالت أفكاره فى معانى القرآن الباهرة، بعد أن تضلع من العلم الظاهر، إعرابًا وتصريفًا، وبلاغةً وبيانًا، وفقهًا وحديثًا، وتاريخًا، يكون آخذ ذلك من أفواه الرجال، ثم غاص فى علوم التصوف ذوقًا وحالا ومقالا، بصحبة أهل الأذواق من أهل الكمال، وإلا فسكوته عن هذا الأمر العظيم أسلم، واشتغاله بما يقدر عليه من علم الشريعة الظاهرة أتم».

السبب الداعى لهذا التأليف ورأى ابن عجيبة فى الظاهر والباطن:

ثم ذكر ابن عجيبة أنه كتب هذا التفسير الجامع بين تفسير أهل الظاهر وإشارة أهل الباطن بناء على طلب من شيخيه: محمد البوزيدى، والعربى الدرقاوى، ثم قال: «واعلم أن القرآن الكريم له ظاهر لأهل الظاهر، وباطن لأهل الباطن، وتفسير أهل

الباطن لا يذوقه إلا أهل الباطن، ولا يفهمه غيرهم، ولا يذوقه سواهم، ولا يصح ذكره إلا بعد تقرير الظاهر، ثم يشير إلى علم الباطن بعبارة رقيقة وإشارة دقيقة، فمن لم يبلغ فهمه لذوق تلك الأسرار فليسلم ولا يبادر بالإنكار، فإن علم الأذواق من وراء طور العقول، ولا يدرك بتواتر النقول».

ثم ذكر رأى ابن عطاء الله السكندرى فى التفسير الصوفى فقال: «قال فى لطائف المنن: اعلم أن تفسير هذه الطائفة - يعنى الصوفية - لكلام الله وكلام رسوله ﷺ بالمعانى الغريبة ليس إحالة للظاهر عن ظاهره، لكن ظاهر الآية مفهوم منه ما جاءت الآية له ودلت عليه فى حرف اللسان، وثَمَّ أفهام باطنة تفهم من الآية والحديث لمن فتح الله قلبه، وقد جاء أنه - عليه السلام - قال: «لكل آية ظاهر وباطن، وحد ومطلع»، فلا يصدنك عن تلقى المعانى الغريبة منهم أن يقول لك ذو جدل ومعارضة: هذا إحالة لكلام الله - عز وجل - وكلام رسوله ﷺ، فليس ذلك بإحالة، وإنما يكون إحالة لكلام الله لو قالوا: لا معنى للآية إلا هذا، وهم لا يقولون ذلك، بل يقرون الظواهر على ظواهرها ومراداتها وموضوعاتها، ويفهمون عن الله ما أفهمهم».

مصادر ابن عجيبة فى تفسيره:

ومصادر ابن عجيبة فى التفسير الظاهر هى: تفسير الرازى، والبيضاوى، والواحدى، وابن جزى، وحاشية الفاسى، والثعلبى، وغيرهم.

وأما فى الجانب الإشارى فينقل عن أقطاب التصوف أمثال: القشيرى، وأبى الحسن النورى، وابن الفارض، والحلاج، وأبى يزيد البسطامى، والقطب الجيلانى، وأبو الحسن الشاذلى، ومحيى الدين بن عربى، والجنيد، والورتيجى، والحارث المحاسبى، والششترى، وغيرهم.

منهج ابن عجيبة فى التفسير:

سار ابن عجيبة فى تفسيره على منهج واضح المعالم، فهو يبدأ فى تفسير السورة ببيان المكى والمدنى، وعدد آياتها، ويذكر الاختلاف فى عدد الآيات - إن وجد - ويذكر عدد حروف السورة، مع ذكر مناسبة السورة لما قبلها، وسبب نزولها، إن وجد، وفضائلها، ومضمونها الإجمالى، ثم يشرع فى تفسير الآيات؛ فيبدأ بالشرح اللغوى

للكلمات الغريبة، ذاكرًا الإعراب، ثم يبين المعنى المراد معتمدًا فى ذلك على القرآن والأحاديث والآثار، وأقوال المفسرين المتقدمين، ثم يتبع ذلك بالتفسير الإشارى حيث يقول: «الإشارة».

موقفه من القراءات:

عُنى ابن عجيبة فى تفسيره بذكر القراءات المختلفة فى الآية، مُبينًا المعنى المترتب على ذلك، وغالبًا ما يعزو القراءة لصاحبها، وأحيانا يُغفل ذلك، فيُبهم، ويقول: «وقرئ بكذا» كما أنه يذكر أحيانًا بعض القراءات الشاذة.

موقفه من أسباب النزول:

من الواضح فى تفسير ابن عجيبة استناده إلى أسباب النزول، ليستعين بها على فهم الآيات، مثال ذلك ما ذكره عند تفسير قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾ (البقرة: ١٩٨).

وكذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾ (البقرة: ٢٠٤).

موقفه من تفسير القرآن بالقرآن:

يولى ابن عجيبة تفسير القرآن بالقرآن عناية خاصة، مثال ذلك ما جاء عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ...﴾ (البقرة: ٣٧) فيذكر ابن عجيبة أن الكلمات التى تلقاها آدم هى قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الأعراف: ٢٣).

موقفه من التفسير بالمأثور:

اعتماد ابن عجيبة على السنة الشريفة فى تفسيره للقرآن الكريم سمة واضحة فى كتابه، مثال ذلك ما جاء عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ...﴾ (البقرة: ١٣٣) حيث استدل على أن إسماعيل عُد من آباء يعقوب مع أنه عمه، بقوله ﷺ: «عم الرجل صنو أبيه»، وقال فى العباس: «هذا بقية آبائى».

كما حفل تفسير ابن عجيبة بأقوال الصحابة والتابعين ﭫ - وحين تتعدد الروايات

عن الصحابة فى تفسير كلمة أو آية، فإنه يذكرها، ولا يرجح بعضها على بعض، أو يقدح فى شىء منها، وذلك إشارة منه إلى أن معنى الآية يحتمل جميع المعانى.

والمتتبع لما أورده ابن عجيبة فى تفسيره من أحاديث وآثار يتبين له عدم التزامه - غالبًا - بتخريج الأحاديث أو نسبتها إلى مصادرها، وكثيرًا ما يدرج الحديث فى سياق الكلام دون أن يُنبه إلى أنه من السُّنَّة.

ويكثر ابن عجيبة فى تفسيره من إيراد الأحاديث الضعيفة والموضوعة، مثال ذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾ (البقرة: ١٨٧) حيث ذكر عن عائشة - رضي الله عنها - فى قصة الحولاء - امرأة من الأنصار - قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من امرأة حملت من زوجها حين تحمل إلا لها من الأجر مثل القائم ليله الصائم نهاره والغازى فى سبيل الله، وما من امرأة يأتيها الطلق إلا كان لها بكل طلقة عتق نسمة وبكل رضعة عتق رقبة، فإذا فطمت ولدها ناداها مناد من السماء: قد كُفيت العمل فيما مضى، فاستأنفى العمل فيما بقى» قالت عائشة رضي الله عنها: قد أُعطى النساء خيرًا كثيرًا، فما لكم يا معشر الرجال؟! فضحك النبى صلى الله عليه وسلم ثم قال: «ما من رجل مؤمن يأخذ بيد امرأته يراودها إلا كتب الله له حسنة، وإن عانقها فعشر حسنات، وإن ضاجعها فعشرون حسنة، وإن أتاها كان خيرًا من الدنيا وما فيها، فإذا قام ليغتسل لم يمس الماء شعرة من على جسده إلا مُحى عنه سيئة، ويُعطى له درجة، وما يُعطى بغسله خير من الدنيا وما فيها، وإن الله تعالى يباهى الملائكة فيقول: انظروا إلى عبدى قام فى ليلة قرَّة يغتسل من الجنابة يتيقن بأنى ربه، اشهدوا أنى قد غفرت له».

موقفه من اللغة والإعراب:

ولابن عجيبة فى تفسيره عناية بالإعراب، وإذا كانت الآية تحتمل أوجهًا من الإعراب، فإنه يذكرها، ويذكر المعنى على اختلاف الأعاريب، وكثيرًا ما يطنب فى الكلام على مسألة نحوية، ومن ذلك كلامه الذى عقده لبيان الفرق بين (بلى) و (نعم) عند تفسير قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ (البقرة: ٨١).

كما يعنى ببيان معنى المفردات القرآنية، ويكثر من الشواهد الشعرية فى بيان المعانى اللغوية مثل ما جاء عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾

(البقرة: ١٦٦)، حيث قال: «والأسباب: العهود والوصل التى كانت بينهم فى الدنيا، يتوادون عليها، وأصل السبب: كل شىء يتوصل به إلى شىء، ومنه قيل للحبل الذى يصعد به: سبب، وللطريق: سبب، قال الشاعر:

ومَنْ هَابَ أسباب المنية يلقها ولو رام أسباب السماء بسلم»

وابن عجيبة غالبًا ما يذكر النص الشعرى مجردًا من اسم قائله، باستثناء بعض الأبيات.

موقفه من بعض الفرق الأخرى كالقدرية والجبرية والروافض:

هذا، ولم يخل «البحر المديد» من الرد ولو بطريقة مقتضبة على بعض الفرق والمذاهب الأخرى، مثال ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة: ٥) حيث قال: «قال ابن جزى: أى نطلب العون منك على العبادة وعلى جميع أمورنا فهذا دليل على بطلان قول القدرية والجبرية وأن الحق بين ذلك».

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ (سورة ص: ٣٧) يقول: «أما القرآن العظيم فلا بد من الإيمان أنه منزل على نبينا محمد ﷺ، فمن اعتقد أنه منزل على غيره كالروافض فإنه كافر بالإجماع».

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ (الأنعام: ٣٥) قال: «أى لو شاء الله جمعهم على الهدى لوفقهم للإيمان حتى يؤمنوا، ولكن لم تتعلق به مشيئته، وفيه حجة على القدرية».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾ (الأنبياء: ٩٥) قال: «وفيه رد على مذهب القائلين بالرجعة من الروافض وأهل التناسخ».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (يونس: ٨) قال: «قال ابن عطية: وفى هذه اللفظة رد على الجبرية، ونص على تعلق العقاب بالكسب».

موقفه من المسائل الفقهية:

يتعرض ابن عجيبة فى تفسيره للأحكام الفقهية، عند مروره بآيات الأحكام، وهو فى ذلك لا يكتفى - غالبا - بذكر رأى مذهبه المالكى، بل ربما يقدم رأيًا يخالف

مذهبه، بناء على قوة الأدلة والحُجج، وأحيانًا يكتفى برأى الإمام مالك، ولا يذكر آراء المذاهب الأخرى.

موقفه من الإسرائيليات:

وابن عجيبة يكثر فى تفسيره من ذكر الإسرائيليات بغير تمحيص أو تعقيب، مثال ذلك ما نقله عن الرازى عند تفسير قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الفاتحة: ٢) حيث قال: «﴿الْعَالَمِينَ﴾ روى أن بنى آدم عشر الجن، وبنى آدم والجن عُشْر حيوانات البر، وهؤلاء كلهم عشر الطيور، وهؤلاء كلهم عشر حيوانات البحار، وهؤلاء كلهم عشر ملائكة الأرض الموكلين ببنى آدم، وهؤلاء كلهم عشر ملائكة السماء الدنيا، وهؤلاء كلهم عشر ملائكة السماء الثانية، ثم على هذا الترتيب إلى ملائكة السماء السابعة، ثم الكل فى مقابلة الكرسى نزر قليل، ثم هؤلاء عشر ملائكة السرادق الواحد فى سرادقات العرش التى عددها مائة ألف، طول كل سرادق وعرضه - إذا قوبلت به السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما يكون شيئًا يسيرًا ونزرًا قليلا، وما من موضع شبر إلا وفيه ملك ساجد أو راكع أو قائم وله زجل بالتسبيح والتهليل، ثم هؤلاء كلهم فى مقابلة الذين يجولون حول العرش كالقطرة فى البحر ولا يعلم عددهم إلا الله تعالى.

وقال وهب بن منبه رضي الله عنه: قوائم العرش ثلاثمائة وست وستون قائمة، وبين كل قائمة وقائمة ستون ألف صحراء، وفى كل صحراء ستون ألف عالم، وكل عالم قدر الثقلين».

مقامات التوحيد عند ابن عجيبة:

قال ابن عجيبة عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ (البقرة: ١٦٣): «واعلم أن توحيد الخلق لله تعالى على درجات:

الأولى: توحيد العامة: وهو الذى يعصم النفس والمال وينجو به من الخلود فى النار وهو نفى الشركاء والأنداد والصاحبة والأولاد والأشباه والأضداد.

الثانية: توحيد الخاصة: وهو أن يرى الأفعال كلها صادرة من الله وحده ويشاهد ذلك بطريق الكشف لا بطريق الاستدلال فإن ذلك حاصل لكل مؤمن، وإنما مقام

الخاصة يقين فى القلب بعلم ضرورى لا يحتاج إلى دليل، وثمرة هذا العلم الانقطاع إلى الله والتوكل عليه وحده فلا يرجو إلا الله ولا يخاف أحدًا سواه إذ ليس يرى فاعلاً إلا الله فيطرح الأسباب وينبذ الأرباب.

الدرجة الثالثة: ألا يرى فى الوجود إلا الله ولا يشهد معه سواه، فيغيب عن النظر إلى الأكوان فى شهود المكون، وهذا هو مقام الفناء، فإن رد إلى شهود الأثر بالله سمى مقام البقاء».

مقامات الأولياء عند ابن عجيبة:

ومن يقرأ فى هذا التفسير يلحظ فيه غلو صاحبه فى مقام الأولياء، فمثلاً عند تفسير قوله تعالى: ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ (البقرة: ١٤٣) يقول: «ثم إن العلماء بأحكام الله، إذا لم يحصل لهم الكشف عن ذات الله يكونون حجة على العامة يشهدون على الناس، والأولياء يشهدون على العلماء فيزكون من يستحق التزكية، ويردون من لا يستحقها؛ لأن العارفين بالله عالمون بمقامات العلماء أهل الظاهر، لا يخفى عليهم شىء من أحوالهم ومقاماتهم بخلاف العلماء لا يعرفون مقامات الأولياء ولا يشمون لها رائحة كما قال القائل:

تركنا البحور الزاخرات وراءنا فمن أين يدرى الناس أين توجهنا»

الأقطاب والأوتاد والغوث والنجباء والنقباء عند ابن عجيبة:

وابن عجيبة يلوى عنق الآيات، ويُخرج الألفاظ عن مدلولاتها ليؤيد بها عقائد الصوفية، فعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الأنعام: ١٦٥) يقول: «من شرف هذا الآدمى أن جعله خليفة عنه، فى ملكه، يتصرف فيه بنيابته عنه، ثم إن هذا التصرف يتفاوت على قدر الهمم، فبقدر ما ترتفع الهمة عن هذا العالم يقع للروح التصرف فى هذا الوجود، فالعوام إنما يتصرفون فيما ملّكهم الله من الأملاك الحسية، والخواص يتصرفون بالهمة فى الوجود بأسره، وخواص الخواص يتصرفُون بالله، أمرُهم بأمر الله، إن قالوا لشىء: كن؛ يكون بإذن الله، مع إرادة الله وسابق علمه وقدره، وإلا فالهمم لا تخرق أسوار الأقدار.

والحاصل: أن من بقى مع الأكوان شهودًا وافتقارًا، كان محبوسًا معها، ومن كان مع المكون كانت الأكوان معه، يتصرف فيها بإذن الله، خليفة عنه فيها، وهم متفاوتون فى ذلك، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ﴾ أى: خلفاء عنه تتصرفون فى الوجود بأسره بأرواحكم، وأنتم فى الأرض بأشباحكم ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾؛ من أقطاب وأوتاد ونجباء ونقباء وغير ذلك».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (فصلت: ١١، ١٢) قال: «ثم استوى إلى سماء الأرواح، أى: قصدها بالدعاء إليه، وهى لطائف، فقال لها ولأرض النفوس: ائتيا إلى حضرتى، طوعًا أو كرهًا، قالتا: أتينا طائعين، فقضاهن سبع طبقات، وهى دوائر الأولياء، دائرة الغوث، ثم دائرة الأقطاب، ثم الأوتاد، ثم النقباء، ثم النجباء، ثم الأبرار، ثم الصالحين».

تحامل ابن عجيبة على أهل الشريعة:

وابن عجيبة فى «بحره المديد» يغمز ويلمز أهل الشريعة فى مواضع كثيرة من إشاراته مثال ذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ﴾ (البقرة: ٩٠، ٩١) حيث قال: «اعلم أن قاعدة تفسير أهل الإشارة هى أن كل عقاب توجه لمن ترك طريق الإيمان وأنكر على أهله، يتوجه مثله لمن ترك طريق مقام الإحسان وأنكر على أهله، وكل وعيد توعد به أهل الكفران يتوعد به من ترك السلوك لمقام الإحسان، غير أن عذاب أهل الكفر حسىّ بدنى، وعذاب أهل الحجاب معنوىٌّ قلبىٌّ، فنقول فيمن رضى بعيبه، وأقام على مرض قلبه، وأنكر الأطباء ووجود أهل التربية: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ﴾ وهو كفرهم بما أنزل الله من الخصوصية على قلوب أوليائه بغيًا وحسدًا، أو جهلاً وسوء ظن، أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده، فباءوا بغضب الحجاب على غضب البعد والارتياب، أو بغضب سقم القلوب، على غضب الإصرار على المساوئ والعيوب، من لم يتغلغل فى علمنا هذا مات مصرًا على الكبائر وهو لا يشعر، كما قال الشاذلى ﷺ، ولا يصح التغلغل فيه إلا بصحبة أهله، وللكافرين

بالخصوصية عذاب الطمع وسجن الأكوان، وهما شجرة الذل والهوان، وإذا قيل لهم: آمنوا بما أنزل الله من أسرار الحقيقة وأنوار الطريقة، قالوا: نؤمن بما أنزل علينا من ظواهر الشريعة، ويكفرون بما وراءه من أسرار الحقيقة ككشف أسرار الذات، وأنوار الصفات».

وقد ضاهى ابن عجيبة فى منهجه ذلك الشيعة فى تفسيرهم للقرآن الكريم حيث جعلوا كل آية ذم وقدح فى أبى بكر وعمر والصحابة ﷺ، وكل آية مدح وثناء فى علىٍّ وأهل البيت، فبئس المنهج وبئس المضاهاة والمتابعة.

وأيضًا عند تفسير قوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِى الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ** ﴾ (البقرة: ١١) قال: «وإذا قيل لمن يشتغل بالتعويق عن طريق الله، والإنكار على أولياء الله: أقصر عن هذا الإفساد، وارجع عن هذا الغى والعناد، فقد ظهرت معالم الإرشاد لأهل المحبة والوداد، قال: إنما أنا مصلح ناصح، وفى أحوالى كلها صالح، يقول الحق جل جلاله: بل أفسدت قلوب عبادى، ورددتهم عن طريق محبتى ووداى، وعوّقتهم عن دخول حضرتى، وحرمتهم شهود ذاتى وصفاتى، سددت بابى فى وجه أحبابى، آيستهم من وجود التربية، وتحكمت على القدرة الأزلية، ولكنك لا تشعر بما أنت فيه من البلية، ولقد صدق من سبقت له العناية، وأتحف بالرعاية والهداية حيث قال:

فهذه طريقة الإشراقِ كانت وتبقى ما الوجود باقِ

وقال أيضًا:

وأنكروه ملأٌ عوامُ لم يفهموا مقصوده فهاموا

فتب أيها المنكر قبل الفوات، واطلب من يأخذ بيدك قبل الممات، لئلا تلقى الله بقلب سقيم، فتكون فى الحضيض الأسفل من عذابه الأليم، فسبب العذاب وجود الحجاب، وإتمام النعيم النظر لوجهه الكريم، منحنا الله منه الحظ الأوفر فى الدنيا والآخرة، آمين».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿ **وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ...** ﴾ (البقرة: ١١٣) الآية، قال: «كل ما قصه الحق تعالى علينا من مساوئ غيرنا فالمقصود به التنفير والتحذير من مثل ما ارتكبوه، والتخلق بضد ما

فعلوه، فكل من تراه ينقص الناس ويصغّرُهم فهو أصغرهم، وكل من تراه يقول: أصحاب سيدى فلان ليسوا على شىء، وأصحاب سيدى فلان ليس عندهم شىء، فليس هو على شىء، وقد ابتلى بعض المتصوفة بهذا الوصف الذميم، ينصب الميزان على الناس، فيسقط قومًا ويرفع آخرين، وهو يتلو كتاب الله، ويسمع قوله تعالى ﴿وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ (الحجرات: ١٢) الآية، وأكثر ما تجد هذا الوصف فى بعض الفقهاء المتجمدين على ظاهر الشريعة، يعتقد ألا علم فوق علمه، ولا فهم فوق فهمه، كيف؟ والله تعالى يقول: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (الإسراء: ٨٥)، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ (يوسف: ٧٦)».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً (٥١) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ (النساء: ٥١، ٥٢) قال: «قال الورتجبى: وبّخ الله تعالى أهل ظاهر العلم الذين اختاروا الرياسة، وأنكروا على أهل الولاية، وآثروا صحبة المخالفين، يقبلون هواجس نفوسهم التى هى الجبت، ويَخطون على آثار الطاغوت، التى هى إبليس. اهـ.

قلت: وينسحب التوبيخ على من فضل أهل الظاهر على أهل الباطن، وفضّل العلماء على الأولياء، ويقولون: هم أهدى منهم سبيلاً، هيهات! بينهم من البَون ما بين السماء والأرض.

والكلام إنما هو فى التفضيل بين العارفين بالله، الذين جمعوا بين الفناء والبقاء، وبين العلماء الأتقياء، وأما العُبَّاد والزهاد والصالحون فلا شك أن العلماء الأتقياء أفضل منهم، وإليهم أشار ﷺ بقوله: «فَضلُ العَالِمِ على العابد كَفَضْلِى عَلَى أدناكُم» وكذلك الأحاديث التى وردت فى تفضيل العلماء، وأما العارفون بالله فهم أعظم العلماء، لأن علمهم متعلق بذات الله كشفًا وذوقًا، وعلماء الظاهر علمهم متعلق بأحكام الله، مُفرقُون عن الله، بل هم أشد حجابًا من غيرهم عن الله، قال بعض الأولياء: أشد الناس حجابًا عن الله: العلماء، ثم العباد، ثم الزهاد. اهـ. لأن حلاوة ما هم فيه تمنعهم عن الانتقال عنه».

موقفه من علماء الحقيقة:

وابن عجيبة يثنى فى تفسيره على علماء الحقيقة ثناء حارًا، ويعظِّم من شأنهم، فيقول عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾ (النساء: ١٦٣) الآيات: «الإشارة: علماءُ هذه الأمة كأنبياء بنى إسرائيل، العارفون منهم كالرسل منهم، قال ابن الفارض ـ رضي الله عنه ـ:

فَعَالِمُنَا منهم نبىٌّ، ومَن دَعَا إلى الحقِّ منّا قَامَ بالرسُلِيّه
وعارفنا فى وقتنا الأحمَدىُّ من أولى العزمِ منهم آخِذٌ بالعَزِيمَه

فإنهم يشاركونهم فى وحى الإلهام، ويحصل لهم المكالمة مع المشاهدة، فيسمعون من الحق كما ينطقون به، كما قال الششترى:

أَنَا بالله أنطِقُ ومِنَ الله أسمَع!

فتارة يسمعون كلامه بالوسائط، وتارة من غير الوسائط، يعرف هذا أهل الفن من أهل الذوق، وشأن من لم يَبلغُ مقامهم: التسليم.

إن لم تَرَ الهِلاَلَ فَسَلِّم لأُناس رأوه بالأبصَار»

أقول: ودعوى التسليم للقوم أشبه ما تكون بالإكراه لنا على قبول وجدانيات القوم وشطحاتهم مهما أوغلت فى البعد والغرابة وتوريط لنا بالتسليم لهم بكل ما يقولون.

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ (آل عمران: ٧) قال: «﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ﴾ على الحقيقة ﴿إِلاَّ اللَّهُ﴾ تعالى، وقد يُطلع عليه بعض خواص أوليائه، وهم ﴿وَالرَّاسِخُونَ﴾ أى: الثابتون فى العلم، وهم العارفون بالله أهل الفناء والبقاء، وهم أهل التوحيد الخاص... فقد أطلعهم سبحانه تعالى على أسرار غيبه، فلم يبق عندهم متشابه فى الكتاب ولا فى السنة، حال كونهم ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ وصدقنا أنه من كلامه ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ المحكم والمتشابه، وقد فهمنا مراده فى القسمين، وهم أولو الألباب، ولذلك مدحهم فقال: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ أى: القلوب الصافية من ظلمة الهوى وغَبَش الحس».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (الحجر: ٤٢) قال: «الإشارة: لا ينقطع عن العبد تسلط الشيطان حتى يدخل مقام الشهود والعيان، حين يكون عبدًا خالصًا لله، حرًا مما سواه، وذلك حين ينخرط فى سلك القوم، ويزول عنه لوث الحدوث والعدم، فيفنى من لم يكن، ويبقى من لم يزل، وذلك بتحقيق مقام الفناء، ثم الرجوع إلى مقام البقاء».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ (التوبة: ٩١) قال: «قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى ﷺ: من لم يتغلغل فى عملنا هذا، مات مصرًا على الكبائر وهو لا يشعر».

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (الأنفال: ٢٤) قال ابن عجيبة بعد أن ذكر كلامًا للإمام الغزالى فى القلب: «وقد أنشد من وجد قلبه، وعرف ربه، وغنَّى لما وجد، فقال:

أَنَا القُرآنُ والسَّبْعُ المَثَانى ... وروحُ الرُّوح لا روح الأَوَانى
فؤادى عند معلوم مقيم ... تناجيه وعندكم لسانى
فَلاَ تَنْظُرْ بِطَرْفِكَ نَحْوَ جِسْمِى ... وعُدْ عن التنعيم الأوانى
فأَسْرارى تراءت مبهمات ... مُسَتَّرَةُ بأَنْوار المَعَانى
فَمَنْ فَهِمَ الإشَارَةَ فليَصُنْها ... وإلا سوف يُقتل بالسنانِ
كَحَلاَّج المحبة إذْ تبدَّتْ ... له شمسُ الحقيقة بالتدانى»

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِى الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (يونس: ٦٢ - ٦٤) قال: «وقال أبو سعيد الخراز ﷺ: إذا أراد الله أن يوالى عبدًا من عباده فتح عليه باب ذكره، فإذا اشتد ذكره فتح عليه باب القرب، ثم رُفع إلى مجلس الأنس، ثم أجلسه على كرسى التوحيد، ثم رفع عنه الحجب وأدخله دار الفردانية، وكشف له عن الجلال والعظمة، فإذا عاين ذلك بقى بلا هو، فحينئذٍ تفنى نفسه ويبرأ من دعاويها. اهـ.

فأنت ترى كيف جعل الفناء هو نهاية السير والوصول إلى الولاية، فمَن لا فناء له لا محبة له، ومن لا محبة له لا ولاية له، وإلى ذلك أشار ابن الفارض ﷺ فى تائيته بقوله:

فلمْ تهْوَنى ما لم تكنْ فىَّ فانيا
ولم تَفنَ ما لَمْ تَجتَل فيكَ

قال ابن عجيبة: «وقال سعيد بن جبير: «هى النار بعينها» وهى إحدى حجب الله تعالى، ثم استدل بالحديث: «حجابه النار»، ومعنى كلامه: أن الله تعالى احتجب فى مظاهر تجلياته، وهى كثيرة، ومن جملتها النار، فهى إحدى الحجب التى احتجب الحق تعالى بها، وإليه أشار ابن وفا بقوله:

* هو النورُ المحيط بكل كَون *

ولا يفهم هذا إلا أهل الفناء فى الذات، العارفون بالله، وحسب من لم يبلغ مقامهم التسليم لِما رمزوا إليه، وإلا وقع الإنكار على أولياء الله بالجهل، والعياذ بالله».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ (طه: ٩) الآيات، قال: «وهل أتاك أيها العارف حديث موسى، كيف سار إلى نور الحبيب، ومناجاة القريب، إذ رأى نارًا فى مرأى العين، وهو نورُ تَجَلِّى الحبيب بلا بين، فقال لأهله ومن تعلق به: امكثوا، أقيموا فى مقام الطلب، واصبروا وصابروا ورابطوا على قلوبكم، فى نيل المُطَّلَبِ، إنى آنست نارًا، وهو نور وجه الحبيب فى مرائى تجلياته، وهذا مقام الفناء، لعلى آتيكم منها بقبس، تقتبسون منه أنوارًا لقلوبكم وأسراركم أو أجد على النار هدى يهدينى إلى مقام البقاء والتمكين، فلما أتاها، وتمكن من شهودها، نودى يا موسى: إنى أنا ربك، فلا نار ولا أثر، وإنما وجه الحبيب قد تجلى وظهر، فى مرأى الأثر، فاخلع نعليك، أى: اخرج عن الكونين إن أردت شهود حضرة المكون، كما قال القائل:

واخلع النعلين إن جئتَ إلى ذلك الحى ففيه قدسنا
وعن الكونين كن منخلعًا وأزل ما بيننا من بَيْنِنَا

إنك بالواد المقدس، أى: بحر حضرة القدس ومحل الأنس، قد طويت عنك

الأكوان، وأبصرت نور الشهود والعيان، وأنا اخترتك لحضرتى، واصطفيتك لمناجاتى، فاستمع لما يوحى إليك منِّى، فأنا الله لا إله إلا أنا وحدى، فإذا تمكنت من شهودى فانزل لمقام العبودية شكرًا، وأقم الصلاة لذكرى، إن الساعة آتية لا محالة، فأكرم مثواك، وأُجل منصبك، وأرفعك مع المقربين، فلا يصدنك عن مقام الشهود أهلُ العناد والجحود، فتسقط عن مقام القرب والأنس، وتصير فى جوار أهل حجاب الحس، ولعل هذا المنزع هو الذى انتحى ابنُ الفارض، حيث قال فى كلام له:

آنستُ فى الحَىِّ نارًا	لَيْلاً فَبَشَّرْتُ أهلى
قُلْتُ: امْكُثُوا فلعَلى	أجِدْ هُداى لَعَلى
دَنَوْتُ مِنها فكانَتْ	نار التكلم قبلى
نودِيتُ منها كفاحًا	رُدُّوا لَيالِىَ وَصْلى
حتى إذا مال تَدانى الـ	ـميقاتُ فى جَمْعِ شَملى
صارت جِبالى دكّا	من هيبة المُتَجلى
ولاحَ سر خفىٌّ	يدْرِيه مَنْ كَانَ مِثْلى
فالموتُ فِيهِ حياتى	وفى حَياتَى قَتلى
وصِرْتُ مُوسَى زَمَانى	مذ صار بَعْضِىَ كُلى

قوله:

* صارت جبالى دكًا *

أى: جبال وجوده، فحصل الزوال من هيبة المتجلى، وهو الكبير المتعال. وهذا إنما يكون بعد موت النفس وقهرها، فإنها حينئذ تحيا بشهود ربها، حياة لا موت بعدها، وقوله: «مذ صار بعضى كلى»، يعنى: إنما حصلت له المناجاة والقرب الحقيقى حين فنيت دائرة حسه، فاتصل جزء معناه بكل المعنى المحيط به، وهو بحر المعانى المُفنى للأوانى».

إقحامه للتفسير الإشارى فى التفسير الظاهر:

هذا.. وقد أقحم ابن عجيبة فى تفسيره الظاهر الكثير من الشطحات الصوفية، على الرغم من كون ذلك مخالفًا لمنهجه الذى ذكره فى مقدمته، فمثلاً عند تفسير قوله

تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الفاتحة: ٦) قال: «فإن قلت: إذا كان العبد ذاهبًا على هذا المنهاج المستقيم، فكيف يطلب ما هو حاصل؟ فالجواب: أنه طلب التثبيت على ما هو حاصل، والإرشاد إلى ما هو ليس بحاصل، فأهل مقام الإسلام الذى هو حاصل، يطلبون الترقى إلى مقام الإيمان الذى ليس بحاصل، على طريق الصوفية الذين يخصون العمل الظاهر بمقام الإسلام، والعمل الباطن بمقام الإيمان، وأهل الإيمان يطلبون الثبات على الإيمان الذى هو حاصل، والترقى إلى مقام الإحسان الذى ليس بحاصل، وأهل مقام الإحسان يطلبون الثبات على الإحسان والترقى إلى ما لا نهاية له من كشوفات العرفان ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ (يوسف: ٧٦).

قال الشيخ أبو العباس المرسى رضي الله عنه: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ بالتثبيت فيما هو حاصل والإرشاد بما ليس بحاصل، ثم قال: عموم المؤمنين يقولون: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أى بالتثبيت فيما هو حاصل والإرشاد لما ليس بحاصل، فإنه حصل لهم التوحيد، وفاتهم درجات الصالحين، والصالحون يقولون: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ معناه: نسألك التثبيت فيما هو حاصل، والإرشاد إلى ما ليس بحاصل فإنهم حصل لهم الصلاح وفاتهم درجات الشهداء، والشهداء يقولون: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أى: بالتثبيت فيما هو حاصل، والإرشاد إلى ما ليس بحاصل، فإنهم حصلت لهم الشهادة، وفاتهم درجات الصديقين، والصديقون يقولون: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أى بالتثبيت فيما هو حاصل، والإرشاد إلى ما ليس بحاصل، فإنهم حصل لهم درجات الصديقين، وفاتهم درجات القطب، والقطب يقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ بالتثبيت فيما هو حاصل، والإرشاد إلى ما ليس بحاصل، فإنه حصل له رتبة القطبانية وفاته علم ما إذا شاء الله أن يطلعه عليه».

وكذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (الفاتحة: ٧) حيث قال: «والشكر على ثلاث درجات: فدرجة العوام: الشكر على النعم، ودرجة الخواص: الشكر على النعم والنقم وعلى كل حال، ودرجة خواص الخواص: أن يغيب عن رؤية النعم بمشاهدة المُنعم، قال رجل لإبراهيم بن

أدهم رضي الله عنه: الفقراء إذا أُعطوا شكروا، وإذا مُنعوا صبروا، فقال إبراهيم: هذه أخلاق الكلاب، ولكن القوم إذا مُنعوا شكروا، وإذا أُعطوا آثروا».

قلت: وهذا تنطع ومخالفة للهدى القرآنى، حيث قال تعالى: ﴿ **الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ** ﴾ (البقرة: ١٥٦، ١٥٧)، وقال: ﴿ **وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ** ﴾ (الحج: ٣٥)، وقال: ﴿ **وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ** ﴾ (البقرة: ١٧٧).

ومخالف ـ أيضًا ـ للمنهج النبوى القائل: «عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سرَّاء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له».

ولا شك أن هذا منهجٌ منافٍ لأصل العبادة ولُبِّها ـ وهو الدعاء ـ لأن الذى يشكر على المصائب كيف يدعو برفعها؟ مع ما فيه من حطٍّ لشأن الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ الذين قابلوا الابتلاء بالدعاء لا بالشكر!.

الجانب الصوفى فى هذا التفسير:

وهذا هو الجانب المهم فى هذا التفسير، يقول ابن عجيبة عند تفسيره لأول فاتحة القرآن: «لما تجلى الحق سبحانه من عالم الجبروت إلى عالم الملكوت، أو تقول: من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، حمد نفسه بنفسه، ومجَّد نفسه بنفسه، وعظَّم نفسه بنفسه، ووحد نفسه بنفسه، ولله در الهروى حيث قال:

ما وحَّدَ الواحدَ من واحد … إذ كُلُّ من وحده جاحدُ
توحيد من ينطقُ عن نعته … عارية أبطلها الواحدُ
توحيده إياه توحيدُهُ … ونعتُ من ينعته لاحدُ

فقال فى تمجيد نفسه بنفسه مترجمًا نفسه بنفسه: ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ (الفاتحة: ١)».

وهذا انحراف عقدى خطير إن لم يكن كفرًا، والعياذ بالله؛ لأن «ما» النافية مع «من» تفيد الاستغراق، وتنكير لفظة «واحد» تدل على شمول ذلك للرسل صلوات الله

عليهم أجمعين، وهم قد وحدوا الله حق توحيده، أما توحيد هؤلاء فلا شك أن الرسل لم يوحدوا به الله لأنه عين الشرك؛ وقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (الزمر: ٦٥، ٦٦)، وقال تعالى عن أنبيائه ورسله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ (الأنعام: ٩٠).

ويقول أيضًا فى أول تفسيره لسورة الفاتحة: «قال فى الرسائل الكبرى: لا عبرة بظواهر الأشياء وإنما العبرة بالسر المكنون وليس ذلك إلا بظهور الحق وارتفاع عطاياه، وزوال أستاره وخفاياه، فإذا تحقق ذلك التجلى والظهور، استولى على الأشياء الفناء والدُّثور، وانقشعت الظلمات بإشراق النور، فهناك يبدو عين اليقين، ويحق الحق المبين، وعند ذلك تبطل دعوى المدعين، كما يفهم العامة بطلان ذلك يوم الدين، حين يكون الملك لله رب العالمين، وليت شعرى أى وقت كان الملك لسواه حتى يقع التقييد ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ (الحج: ٥٦)، وقوله: ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ (الانفطار: ١٩) لولا الدعاوى العريضة من القلوب المريضة».

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (الفاتحة: ٧) قال ابن عجيبة: «الطريق المستقيم التى أمرنا الحق بطلبها هى: طريق الوصول إلى الحضرة، التى هى العلم بالله على نعت الشهود والعيان، وهو مقام التوحيد الخاص الذى هو أعلى درجات أهل التوحيد، وليس فوقه إلا مقام توحيد الأنبياء والرسل، ولا بد فيه من تربية على يد شيخ كامل عارف بطريقة السير، قد سلك المقامات تذوقًا وكشفًا، وجاز مقام الفناء والبقاء، وجمع بين الجذب والسلوك؛ لأن الطريق عويص، قليل خُطَّاره، كثير قُطَّاعه، وشيطان هذه الطريق فقيه بمقاماته ونوازله، فلا بد فيه من دليل وإلا ضل سالكها عن سواء السبيل».

أقول: والدليل كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، والصراط الذى أُمرنا باتباعه هو صراط النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، لا طريق الأقطاب والأغواث والأبدال.

وأيضًا عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿الٓمٓ﴾ فى أول سورة البقرة، يقول: «وقد حارت العقول فى رموز الحكماء، فكيف بالأنبياء؟ فكيف بالمرسلين؟ فكيف بسيد

المرسلين؟ فكيف يطمع أحد فى إدارك حقائق رموز رب العالمين؟! قال الصِّدِّيق ﷺ: «فى كل كتاب سر، وسر القرآن فواتح السور» فمعرفة أسرار هذه الحروف لا يقف عليها إلا الصفوة من أكابر الأولياء، وكل واحد يلمع له على قدر صفاء شربه».

ثم قال: «قال: قلت: والأظهر أنها حروف تشير للعوالم الثلاثة، فالألف لوحدة الذات فى عالم الجبروت، واللام لظهور أسرارها فى عالم الملكوت، والميم لسريان أمدادها فى عالم الرحموت، والصاد لظهور تصرفها فى عالم الملك، وكل حرف من هذه الرموز يدل على ظهور أثر تصرف الذات فى عالم الشهادة، فالألف يشير إلى سريان الوحدة فى مظاهر الكون، واللام يشير إلى فيضان أنوار الملكوت من بحر الجبروت، والميم يشير إلى تصرف الملك فى عالم الملك... إلخ».

وقد مر بك سابقًا ما ذكرنا حول هذه الدعاوى فى تفسير الحروف المقطعة التى فى أوائل السور.

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ٢) يقول: «قال جعفر الصادق: لقد تجلى الله تعالى لخلقه فى كلامه ولكن لا يشعرون، وقال أيضا وقد سألوه عن حالة لحقته فى الصلاة حتى خرَّ مغشيا عليه، فلما سُرى عنه قيل له فى ذلك فقال: ما زلت أردد الآية على قلبى حتى سمعتها من المتكلم بها فلم يثبت جسمى لمعاينة قدرته، فدرجات القراءة ثلاث:

أدناها: أن يقرأ العبد كأنه يقرأ على الله تعالى واقفًا بين يديه، وهو ناظر له ومستمع منه، فيكون حاله السؤال والتملق والتضرع والابتهال.

والثانية: أن يشهد بقلبه كأن الله تعالى يخاطبه بألفاظه، ويناجيه بإنعامه وإحسانه، فمقامه الحياء والتعظيم والإصغاء والفهم.

والثالثة: أن يرى فى كلام المتكلم، فلا ينظر إلى نفسه ولا إلى قراءته، بل يكون فانيًا عن نفسه، غائبًا فى شهود ربه، لم يبق له عن نفسه إخبار، ولا مع غير الله قرار.

فالأولى لأهل الفناء فى الأفعال، والثانية لأهل الفناء فى الصفات، والثالثة لأهل الفناء فى شهود الذات».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ...﴾ (البقرة: ٣) قال ابن عجيبة:

«يا من غرق فى بحر الذات وتيار الصفات، ذلك الكتاب الذى تسمعه من أنوار ملكوتنا وأسرار جبروتنا، لا ريب فيه أنه من عندنا، فلا تسمعه من غيرنا ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ (القيامة: ١٨) فهو هادٍ لشهود ذاتنا، ومرشد للوصول إلى حضرتنا لمن اتقى شهود غيرنا، وغرق فى بحر وحدتنا».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا﴾ (البقرة: ٢٨) قال ابن عجيبة: «وقد كنتم أمواتا بالغفلة وغم الحجاب، فأحياكم باليقظة والإياب، ثم يميتكم بالفناء عن شهود ما سواه، ثم يحييكم بالرجوع إلى شهود أثره بالله، ثم إليه ترجعون فى كل شىء، لشهود نوره فى كل شىء، وقبل كل شىء، وبعد كل شىء، وعند كل شىء، كان الله ولا شىء معه وهو الآن على ما عليه كان».

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا...﴾ (البقرة: ٢٩) يقول: «وفى بعض الكتب المنزلة يقول الله تعالى: يا عبدى إنما منحتك صفاتى لتعرفنى بها، فإن ادعيتها لنفسك سلبتك الولاية ولم أسلبك صفاتى، يا عبدى أنت صفتى، وأنا صفتك فارجع إلىَّ أرجع إليك. يا عبدى فيك للعلوم باب مفتاحه أنا، وفيك للجهل باب مفتاحه أنت، فاقصد أى البابين شئت...».

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ...﴾ (البقرة: ٣٠) قال: «اعلم أن الروح القائمة بهذا الآدمى، هى قطعة من الروح الأعظم، التى هى المعانى القائمة بالأوانى، وهى آدم الأكبر، والأب الأقدم، وفى ذلك يقول ابن الفارض:

وإنى وإن كنتُ ابن آدم صورة ... فلى فيه معنىً شاهدٌ بأبوتى»

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ...﴾ (البقرة: ١١٥) قال ابن عجيبة: «اعلم أن الأماكن والجهات وكل ما ظهر من الكائنات قائمة بأنوار الصفات ممحوة بأحدية الذات، كان الله ولا شىء معه، وهو الآن على ما عليه كان، إذ لا وجود لشىء مع الله ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ (البقرة: ١١٥) محق الآثار بأفلاك الأنوار، وانمحت الأنوار بأحدية الأسرار، وانفرد بالوجود الواحد القهار، ولله در القائل:

مُذ عرفتُ الإله لم أر غيرا ... وكذا الغير عندنا ممنوعُ
مُذ تجمعت ما خشيتُ افتراقًا ... فأنا اليوم واصلٌ مجموعُ»

وأخيرًا . . فهذا هو تفسير «البحر المديد» وهذه بعض النماذج من إشارياته ذكرتها لك، منها ما هو مقبول لجريانه على مقتضى الظاهر من الآيات، ومنها ما فيه شطحات لا نستطيع أن نسلمها له على ظاهرها، وإنما أقول: «على ظاهرها» لأنه ربما كان يعنى من وراء هذا الظاهر معنًى لا غبار عليه ـ أراده هو، وجهلته أنا.



الباب الثامن

كتب تفسير آيات الأحكام

١- أحكام القرآن الكريم للطحاوى.

٢- فقه القرآن للقطب الراوندى.



١- أحكام القرآن الكريم

للطحـــاوى

التعريف بصاحب الكتاب[(١)]:

هو أحمد بن محمد بن سلامة بن سلمة بن عبد الملك الحَجْرى الأزدى الفقيه، أبو جعفر الطحاوى - نسبة إلى «طحا» مدينة بصعيد مصر - المصرى، الحنفى.

ولد سنة تسع وثلاثين ومائتين، وقيل غير ذلك، وكان شافعيًا أول أمره، يقرأ على خاله أبى إبراهيم المزنى.

وارتحل إلى الشام عام ثمان وستين ومائتين فلقى القاضى أبا حازم عبد الحميد بن عبد العزيز، وتفقه أيضًا عليه.

ثم خالف خاله ولزم القاضى أحمد بن أبى عمران ودرس عليه فقه أبى حنيفة.

وبرز بعد ذلك فى مذهب أبى حنيفة حتى انتهت إليه رئاسته بمصر.

وذُكر أنه كان مجتهدًا، وربما خالف أبا حنيفة عند قيام الدليل.

وللطحاوى من المصنفات: اختلاف العلماء، الشروط، أحكام القرآن، وهو ما نحن بصدده، معانى الآثار، شرح الجامع الصغير، شرح الجامع الكبير، وتاريخ كبير، وغيرها.

توفى الطحاوى فى ذى القعدة سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة بمصر، ودفن بالقرافة الصغرى - قرافة الإمام الشافعى - بمصر.

التعريف بالكتاب:

وكتاب أحكام القرآن للطحاوى يقع فى أربعة أجزاء، عُثر فقط على النصف الأول منه، وطبع فى مجلدين فى إسطنبول لأول مرة عام ١٤١٦هـ، بتحقيق الدكتور سعد الدين أونال، وهو أقدم ما وصل إلينا من كتب أحكام القرآن عند الأحناف، بل عند أهل السنة جميعًا.

---

(١) مصادر الترجمة: مختصر تاريخ دمشق (٣/ ٢٦٤ برقم ٣١٢)، سير أعلام النبلاء (٧/ ١٥ برقم ١٢٠٥)، الجواهر المضية (١/ ١٠٢)، حسن المحاضرة (١/ ٢٧٧).

مقصد الطحاوى من تأليف هذا الكتاب وبيان منهجه:

وقد أوضح الإمام الطحاوى مقصده من تأليف كتابه ومنهجه الذى سار عليه حيث قال فى مقدمته: «وقد ألفنا كتابنا هذا نلتمس فيه كشف ما قدرنا على كشفه من أحكام كتاب الله - عز وجل - واستعمال ما حكينا فى رسالتنا هذه فى ذلك، وإيضاح ما قدرنا على إيضاحه منه، وما يجب العمل به فيه بما أمكننا من بيان متشابهه بمحكمه، وما أوضحته السنة منه، وما بينته اللغة العربية منه، وما دل عليه مما روى عن السلف الصالح من الخلفاء الراشدين المهديين، ومن سواهم من أصحاب رسول الله - ﷺ - وتابعيهم بإحسان رضي الله عنهم» (١/ ٦٥).

ترتيب الطحاوى لكتابه:

وقد رتب الإمام الطحاوى كتابه هذا على حسب أبواب الفقه المتعارفة، وجمع فى كل باب ما يتعلق به من الآيات دون النظر إلى ترتيب الآيات والسور، وهو فى مسلكه ذلك - من حيث تسمية كتابه وترتيبه - مساير لمنهج الإمامية الاثنى عشرية فى مؤلفاتهم الخاصة بأحكام القرآن.

موقفه من الظاهر والباطن:

والطحاوى فى أحكامه يقدم المعنى الظاهر للآية على المعنى الباطن حيث قال فى مقدمته: «وكان من القرآن ما قد يخرج على المعنى الذى يكون ظاهرًا لمعنى، ويكون باطنه معنًى آخر، وكان الواجب علينا فى ذلك استعمال ظاهره، وإن كان باطنه قد يحتمل خلاف ذلك، لأنَّا إنما خوطبنا ليبين لنا، ولم نخاطب به لغير ذلك، وإن كان بعض الناس قد خالفنا فى هذا، وذهب إلى أن الظاهر ليس بأولى به من الباطن، فإن القول عندنا فى ذلك ما ذهبنا إليه، للدلائل التى قد رأيناها تدل عليه وتوجب العمل به، من ذلك: أنَّا رأينا رسول الله - ﷺ - لما أُنزل الله عليه: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ (البقرة: ١٨٧) قرأها على الناس، فعمد غير واحد، منهم: عدى بن حاتم الطائى، إلى خيطين، أحدهما: أسود والآخر أبيض، فاعتبر بهما ما فى الآية، ثم ذكروا ذلك للنبى - ﷺ - فلم يعنفهم على ما كان منهم، ولم يقل لهم: قد كان الأبيض والأسود اللذان عُنيا فى هذه الآية غير ما ذهبتم إليه، بل

قال: «إنك لعريض الوساد، إنما ذلك على سـواد الليل وبياض النهار» ولم يعب عليهم - ﷺ - استعمال الظاهر فى ذلك.

وفى استعمالهم ما استعملوا من ذلك قبل توقيف رسول الله - ﷺ - إياهم على المراد بذلك، دليل أن لهم استعمال القرآن على ظاهره، وإن لم يوقفوا على تأويله نصًّا كما وقفـوا على تنزيله نصًّا، وفى ثبوت ذلك استعـمال الظاهر، وإنه أولى بتأويل الآى من الباطن» (١/ ٦٤).

موقفه من المعنى العام والمعنى الخاص:

كما يقدم الطـحاوى فى أحكامه المعنى العام على المعنى الخـاص ويعبر عن ذلك فى المقدمـة بقوله: «وفى وجوب حمل هذه الآيات على ظاهرها وجـوب حملها على عمومـها، وإن كان بعض الناس قد ذهب إلى أن العام ليـس بأولى بها من الخاص إلا بدليل آخر يدل عليه، إما من كتاب، وإمـا من سنة، وإما من إجماع، فإنا لا نقول فى ذلك كما قال، ولكنا نذهب إلى أن العام فى ذلك أولى بها من الخاص؛ لأنه لما كانت الآيات فيها ما يُراد به العام، وفيها ما يُراد به الخاص، وكانوا قد استعملوا قبل التوقيف على ما ظهر لهم من المراد بها من عموم أو خصوص، وكان الخصوص لا يوقف عليه بظاهر التنزيل، وإنما يوقف عليه بتوقيف ثان من الرسول - ﷺ - أو من آية أخرى من التنزيل تدل عليه.

ثبت بما ذكرنا أن الذى عليهم فى ذلك استعمالها على عمومها، وأنه أولى بها من استعمالها على خصوصها حتى يعلم أن الله - عز وجل - أراد بها سوى ذلك» (١/ ٦٥).

موقفة من النسخ:

كـمـا عنى الإمـام الطحـاوى فى كـتـابه بتبـيين الـناسخ والمنسـوخ من الآيات والأحاديث، وذكر نسـخ السنة بالقرآن، ثم ضرب أمثلة كـثيرة لذلك، وقال مـعبرًا عن ذلك فى مقدمة كتابه: «. . . ثم وجدنا أشياء قد كانت مستعملة فى الإسلام فرضًا غير مذكورة فى القرآن، منها: التوارث بالهـجرة. . . ومنها: الصلاة إلى بيت المقدس. . . ومنها: بيع الأحـرار. . .»، ثم أثبت الطحاوى نسخ القرآن بالسنة بحـديث: «لا وصية لوارث» حيث إن الله - عـز وجـل - كان قـد فرض الـوصـيـة للـوالدين والأقـربين

بقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾ (البقرة: ١٨٠)، وقال: «فثبت بما ذكرنا أن السنة قد تنسخ القرآن كما ينسخ القرآن السنة، **فإن قال قائل:** فقد قال الله - عز وجل - لنبيه - ﷺ: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ (يونس: ١٥) فدل ذلك على أن التبديل إنما يكون عن الله - عز وجل - ولا يكون ذلك إلا بالقرآن، **قيل له:** ومن قال له أن الحكم الذى نسخ ما نسخ من القرآن ليس من قبل الله - عز وجل؟ أو أن السنة ليست عن الله - عز وجل؟ - بل هما عنه ينسخ بهما ما شاء من القرآن، كما ينسخ منهما ما شاء بالقرآن» (١/ ٦٣، وما بعدها).

هذا.. ولا يغفل الإمام الطحاوى فى كتابه ذكر القراءات - إن كانت ثمة قراءات - والخلاف فيها مع عزو القراءات إلى أصحابها بأسانيدها كما عنى بذكر سبب نزول الآيات، إن وجد.

ثم يمضى الإمام الطحاوى فى شرح الآيات المتشابهات بالآيات المحكمات ثم يوضحها ويبينها بالسنة، وبما روى عن السلف الصالح من الخلفاء الراشدين ومن سواهم من الصحابة وتابعيهم، ثم بما بينته اللغة العربية.

وهو فى ذلك يذكر أقوال الأئمة - دون أية إشارة إلى مذهب الإمام أحمد - فى الآية المراد تفسيرها، ثم يورد دليل كل إمام من الأحاديث والآثار بجميع طرقها المتعددة ورواياتها المختلفة، ولم يرد بذلك إلا التوثق من صحة الحديث وتحرير ألفاظه وما به من زيادة أو نقص، وإظهار ما صح عنده من أقوال الأئمة وما ذهب إليه فى ذلك؛ لأن الحديث قد يرد فى رواية مختصرة، ويذكر فى أخرى بتمامه، وقد يكون قد ورد على سبب معين يُعين على فهم ما يُراد فهمه، ويُذكر فى رواية عُريًا من السبب الذى قيل لأجله، أو يكون الحديث مطلقًا أو عامًا فى رواية، ويرد فى رواية أخرى مقيدًا خاصًا فيخص به العام الذى جاء فى تلك الرواية، أو يكون فى سند أحد الطرق مجهول أو مدلس أو مَنْ رُمِىَ بالاختلاط فيجىء من طرق أخرى ترتفع بها الجهالة وشبهة التدليس والاختلاط.

قال العلامة الكوثرى - رحمه الله - فى الحاوى (ص ٢١): «من قصر فى جمع الروايات واكتفى بخبر يعده صحيحًا، لا يكون وفّى العلم حقه، لأن الروايات تختلف

زيادةً ونقصًا، ومحافظةً على الأصل، وروايةً بالمعنى، واختـصارًا، فلا تحصل طمأنينة فى قلب الباحث إلا باستعراض جميعها مع آراء فقهاء الصحابة والتابعين، ومن بعدهم، فيتمكن بذلك من رد المردود وتأييد المقبول».

ثم تحدث الـكوثرى ـ رحمه الله ـ عن مـنهج الإمام الطحـاوى (الحاوى ص ٢١) فقـال: «وله منهج حكيم فى ترجيح الروايات بعـضها على بعض من غـير اكتفـاء بنقد رجال السنـد فقط، وهو دراسة الأحكام الـمنصوصة، وتبـيين الأسس الجـامعـة لشتى الفروع من ذلك، فإذا شذ الحكم المفهوم من رواية راوٍ عن نظائره فى الشرع يعد ذلك علة قـادحة فـى قبـول الخبر؛ لأن الأصل الجـامع لشـتى الفـروع والنظائر فى حكم المتـواتر، وانفراد راو بحـكم مخالف لـذلك لا يرفعـه إلى درجة الاعتـداد به مع هذه المخالفة الصارخة».

هذا. . . وقد أثبت الطحـاوى فى كتابه هذا قدرة علمـية فائقة فى الفـقه والحديث حيث استـخرج الأحكام الفقهية واسـتنبطها من مصادرها الأصلية وأورد خـلالها أقوال الأئمة الفقـهاء من الصحابة والتابعين وتابعى التـابعين، وعزا كل قول فيه إلـى صاحبه بسنده المـتصل، ثم رجَّح قول واحـد منهم أو استـقل به بعد مناقشـة أدلة كل منهم، ويلجأ إلى الاعتمـاد على القياس والنظر فى الترجيح عند تكافـؤ الأحاديث التى يستدل بها الأئمة بحيث يتـعذر ترجيح أحد الأقوال، وإلا فإنه يعتـمد أصلا على أصول علمى الحديث والفقه فنجده يقول: «إن المـتصل الإسناد أولى أن يقبل ممن خالفه، والرواية التى تتضمن زيادة صحيـحة الإسناد العمل بها أولى، وكل زيادة أو نقص ترد من رواية الحافظ تؤخذ بما فـيها فى موضع التعارض، لأنها أولـى من رواية غيره ممن هو دونه فى الحفظ».

وأخيـرًا. . فإن كتاب أحكام القـرآن للإمام الطحاوى يُعـد فى مصاف كتب الفـقه المقارن أو اخـتلاف الفقهاء، مع عـفة اللسان والقلم، والحيدة التـامة فى عرض الآراء وأدلتها.

٢- فقـــه القـــرآن

لقطب الدين الراوندى

التعريف بصاحب هذا التفسير[(١)]:

هو: الشيخ الإمام الفقيه المفسر المحدث الأديب الكبير قطب الدين أبو الحسين سعيد بن عبد الله بن الحسين بن هبة الله بـن الحسن الراوندى، ويعرف اختصاراً بسعيد ابن هبة الله الراوندى، والراوندى نسبة إلى «راوندى» قرية بين كاشان وأصبهان.

وكان من أجلة فقهاء الإمـامية، محدثًا، مفسرًا، متكلمًـا، مشاركًا فى فنون أخرى من العلم.

روى عن طائفـة مـن العلمـاء، منهم: السيـد أبو السعـادات هبـة الله بن على الشجرى، والمفـسر الفضل بن الحسن الطبرسى، وعماد الدين مـحمد بن أبى القاسم على الطبرى، والحسن بن محمد الحديقى، وأبو افضل عـبد الرحيم بن أحمد الشيبانى المعروف بابن الإخوة البـغدادى، والسيدان المرتضى والمجـتبى ابنا الداعى ابن القاسم الحسنى الرازى، والسـيد أبو البركات مـحمد بن إسماعـيل الحسينى المـشهدى، وأبو جعفر محمد بن على ابن المحسن الحلبى، وأبو جعفر محمد بن المرزبان.

روى عنه: القاضى أحـمد بن على بن عـبد الجبـار الطوسى، وابن شهـر آشوب محمـد بن على السروى المازندرانى، وأبو جعـفر محمد بن عـبد الحميد بن مـحمود الدعويدار، ومنتجب الدين على بن عبـيد الله بن بابويه الرازى، وناصر الدين راشد بن إبراهيم البـحرانـى، وبابويه بن سعـد بن مـحمـد بن بابويه، والخليل بـن خمـرتكين الحلبى، وأولاده الثلاثة: عماد الدين على، ونصير الدين حسين، وظهير الدين محمد، وآخرون.

---

(١) **مصادر الترجمة:** لسان الميزان (٣/ ٤٨ برقم ١٨٠)، أمل الآمل (٢/ ١٢٥ برقم ٣٥٦)، لؤلؤة البحرين (٣٠٤ برقم ١٠٣)، روضات الجنات (٤/ ٥ برقم ٣١٤)، أعـيان الشيعة (٧/ ٢٦٠) الأعلام (٣/ ١٠٤)، معجم المؤلفين (٤/ ٢٣٣).

من آثاره العلمية:

١ - إحكام الأحكام.

٢ - الاختلافات بين المفيد والمرتضى فى بعض المسائل الكلامية.

٣ - أسباب النزول.

٤ - الإغراب فى الإعراب.

٥ - ألقاب الرسول وفاطمة والأئمة (عليهم السلام).

٦ - تفسير القرآن الكريم، مختصر فى مجلدين.

٧ - تهافت الفلاسفة.

٨ - جواهر الكلام فى شرح مقدمة الكلام.

٩ - حل المعقود فى الجمل والعقود.

١٠- خلاصة التفاسير، فى عشرة مجلدات.

١١- الرائع فى الشرائع، مجلدان.

١٢- زهر المباحث وثمر المناقشة.

١٣- الشافية فى الغسلة الثانية.

١٤- شجار العصابة فى غسل الجنابة.

١٥- شرح آيات الأحكام، وهو غير كتابه فقه القرآن.

١٦- شرح الأبيات المشكلة فى العربية.

١٧- شرح العوامل المائة.

١٨- شرح الكلمات المائة من جمع الجاحظ.

١٩- شرح ما يجوز وما لا يجوز من النهاية.

٢٠- شرح مشكلات النهاية.

٢١- صحة أحاديث أصحابنا.

٢٢- صلاة الآيات.

٢٣- الصلاة الحاضرة لمن عليه الفائتة.

٢٤- ضياء الشهاب فى شرح الشهاب.

٢٥- فقه القرآن، وهو ما نحن بصدده، وغير ذلك من الكتب.

وفاتــــــه:

توفى القطب الراوندى ضحوة يوم الأربعاء رابع عشر شهر شوال سنة ٥٧٣هـ ودفن بـ «قم».

الباعث على تأليف الكتاب، وطريقة مؤلفه فيه:

قال الراوندى فى مقدمة كتابه:

«أما بعد: فإن الذى حملنى على الشروع فى جمع هذا الكتاب أنى لم أجد من علماء الإسلام قديمًا وحديثًا من ألف كتابًا مفردًا يشتمل على الفقه الذى ينطق به كتاب الله، ولم يتعرض أحد منهم لاستيعاب ما نص عليه لفظه أو معناه وظاهره أو فحواه، فى مجموع كان على الانفراد صائب هدف المراد، وإن صنفوا فى الفقه وتفسير القرآن ما لا يحاط به إلا على امتداد الزمان. والعذر لنا خاصة واضح؛ لأن حجة هذه الطائفة فى صواب جميع ما انفردت به من الأحاديث الشرعية والتكاليف السمعية أو شاركت فيه غيرها من الفقهاء هى إجماعهم؛ لأن إجماعهم حجة قاطعة ودلالة موجبة للعلم بكون المعصوم الذى لا يجوز عليه الخطأ فيه، فإن انضاف إلى ذلك كتاب الله أو طريقة أخرى توجب العلم وتثمر اليقين فهى فضيلة ودلالة تنضاف إلى أخرى، وإلا ففى إجماعهم كفاية. فرأيت أن أؤلف كتابًا فى «فقه القرآن»، يغنى عن غيره بحسن مبانيه، ولا يقصر فهم القارئ عن معانيه، متجنبًا فيه الإطالة والتكثير، ومتحريًا الإيجاز والتيسير ليكون الناظر فيه أنيسا يصادقه، وللفقيه ردءًا يصدقه. فجمعت منه بعون الله تعالى جملة مشروحة أخرجها الاستقراء، وإن نسأ الله فى الأجل ذكر بعد ذلك ما يقتضيه الاستقصاء، ودعوى الإجماع هذه دعوى كثيرًا ما تكون كاذبة، يلجأ إليها عندما يعوزهم الدليل وتخونهم الحجة.

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

وهذا الكتاب من أقدم ما وصل إلينا من كتب أحكام القرآن عند الإمامية الاثنى عشرية، ويتعرض هذا التفسير لآيات الأحكام فقط، وهو لا يتمشى مع القرآن سورة سورة على حسب ترتيب المصحف ذاكرًا ما فى كل سورة من آيات الأحكام، كما فعل الجصاص وابن العربى مثلا، بل طريقته فى تفسيره: أنه يعقد فيه أبوابًا كأبواب الفقه،

ويدرج فى كل باب منها الآيات التى تدخل تحت موضوع واحد - وذلك صنيع الإمامية جميعًا فى كتب فقه القرآن - فمثلاً يقول: باب الطهارة، ثم يذكر ما ورد فى الطهارة من الآيات القرآنية، شارحًا كل آية منها على حدة، مبينًا ما فيها من الأحكام على حسب ما يذهب إليه الإمامية الاثنا عشرية فى فروعهم، مع تعرضه للمذاهب الأخرى، ورده على من يخالف ما يـذهب إليه الإمامية الاثنا عـشرية، ويسير على هذا المنـوال حتى يختم كتابه بكتاب الديات.

والكتاب مطبوع فى مجلدين بمطبعة الولاية بـ «قم» عام ١٤٠٥هـ، وبتحقيق السيد أحمد الحسينى.

وإليك بعض ما جاء فى هذا الكتاب لتقف على مقدار تعصب صاحبه:

فرض الرجلين فى الوضوء:

يقول القطب الراوندى - كغيره من علماء مذهبه - بأن المسح هو فرض الرجلين فى الوضوء، فلهذا تراه يجادل بكل قوة، ويدافع عن مذهبه وينصره بأدلة إن دلت على شىء فهو قـوة عقلية هذا الرجل وسعة ذهنه وكـثرة اطلاعه، فعند تفسيـر قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ..﴾ الآية (المائدة: ٦) يقول ما نصه (١/ ١٩ وما بعدها):

«وقوله: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ من قرأها بالجر عطفها على اللفظ، وذهب إلى أنه يجب مسح الرجلين كما وجب مسح الرأس، ومن نصب فكمثل؛ لأنه ذهب إلى أنه معطوف على موضع الرءوس، فإن مـوضعهما نصب لوقوع المـسح عليهما، فالقراءتان جـميعًا تفيدان المسح على ما نذهب إليه. وممن قال بالمسح: ابن عباس، والحسن البصرى، والجبائى، والطبرى وغيـرهم. وعندنا أن المسح على ظاهرهما من رءوس الأصابع إلى الكعبين. قال ابن عـباس وأنس: الوضوء غسلتان ومسحـتان. وقال عكرمة: ليس على الرجلين غسل إنما فيهما المسح، وبه قال الشعبى، وقال: ألا ترى أن فى التيمم يمسح ما كان غسلا ويلغى مـا كان مسحًا. وقال قتادة: افتـرض الله مسحين وغسلين. وروى أوس بن أوس قال: رأيت النبى ﷺ توضأ ومسح على نعليه ثم قام وصلى. وكذلك روى حذيفة. وروى حبة العرنى: رأيت عليًا - عليه السلام - شرب فى الرحبة قائمًا ثم

توضأ ومسح على نعليه. ووصف ابن عباس وضوء رسول الله ﷺ وأنه مسح على رجليه وقال: إن كتاب الله المسح ويأبى الناس إلا الغسل».

. . . ثم قال: «وقال على ـ عليه السلام: ما نزل القرآن إلا بالمسح. وأما الكعبان فهما عندنا الناتئان فى وسط القدم، وبه قال محمد بن الحسن الشيبانى، وإن أوجب الغسل. وقال أكثر الفقهاء: هما عظما الساقين. يدل على ما قلناه أنه لو أراد ما قالوا لقال سبحانه: «إلى الكعاب» لأن فى الرجلين منهما أربعة. فإن ادعوا تقديرًا بعد قوله: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ﴾ أى كل واحدة إلى الكعبين، كما فى قولهم: «اكسنا حلة» أى اكس كل واحد منا حلة. فذلك مجاز، وحمل الكلام على الحقيقة إذا أمكن أولى، وهو قولنا.

فإن قيل: كيف قال: ﴿إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾، وعلى مذهبكم ليس فى كل رجل إلا كعب واحد؟.

قلنا: إنه تعالى أراد رجلى كل متطهر، وفى الرجلين كعبان، ولو بنى الكلام على ظاهره لقال: «وأرجلكم إلى الكعاب»، والعدول بلفظ «أرجلكم» إلى أن المراد بها رجلا كل متطهر أولى من حملها على كل رجل.

فصل: إن قيل: القراءة بالجر فى ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ ليست بالعطف على الرءوس فى المعنى، وإنما عطف عليها على طريق المجاورة، كما قالوا: «جُحْرُ ضَبٍّ خَرِبْ» وخرب من صفات الجحر لا الضب؟.

قلنا: أولا: أن العرب لم تتكلم به إلا ساكنًا فقالوا: «خرب» فإنهم لا يقفون إلا على الساكن، فلا يستشهد به. وبعد التسليم فإنه لا يجوز فى الآية من وجوه:

أحدها: ما قال الزجاج أن الإعراب بالمجاورة لا يكون مع حرف العطف، وفى الآية حرف العطف الذى يوجب أن يكون حكم المعطوف حكم المعطوف عليه، وما ذكروه ليس فيه حرف العطف، فأما قول الشاعر:

فهل أنت إن ماتت أتانك راحل ... إلى آل بسطام بن قيس فخاطب

قالوا: جر مع حرف العطف الذى هو الفاء، فإنه يمكن أن يكون أراد الرفع وإنما جر الراوى وهمًا، ويكون عطفًا على راحل، فيكون قد أقوى لأن القصيدة مجرورة.

وقال قوم: أراد بذلك الأمر وإنما جر لإطلاق الشعر.

والثانى: أن الإعراب بالمجاورة إنما يجوز مع ارتفاع اللبس، فأما مع حصول اللبس فلا يجوز، ولا يلتبس على أحد أن «خرب» صفة جحر لا ضب، وليس كذلك فى الآية، لأن الأرجل يمكن أن تكون ممسوحة ومغسولة، فالاشتباه حاصل هنا ومرتفع هناك، وأما قوله: «وحورٍ عينٍ» فى قراءة من جرهما، فليس بمجرور على المجاورة، بل يحتمل أمرين:

أحدهما: أن يكون عطفًا على قوله: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ۝١٧ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ (الواقعة: ١٧، ١٨) إلى قوله: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾، فهو عطف على أكواب، وقولهم: أنه لا يطاف إلا بالكأس، غير مُسَلَّم، بل لا يمتنع أن يطاف بالحور العين كما يطاف بالكأس، وقد ذكر فى جملة ما يطاف به الفاكهة واللحم.

والثانى: أنه لما قال: ﴿أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ (الواقعة: ١١، ١٢) عطف بقوله: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ على ﴿جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾، فكأنه قال: هم فى جنات النعيم وفى مقاربة أو معاشرة حور عين، ذكره أبو على الفارسى. ومن قال: القراءة بالجر تقتضى المسح على الخفين، فقوله باطل؛ لأن الخف لا يسمى رجلا فى لغة ولا شرع، والله أمر بإيقاع الفرض على ما يسمى رجلا على الحقيقة.

فصل: وإن قيل: فى القراءة بالنصب فى ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾: هى معطوفة على قوله: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ﴾ فى الجملة الأولى. فيقال: إن هذا غير صحيح؛ لأنه لا يجوز أن يقول القائل: (اضرب زيدًا وعمرًا وأكرم بكرًا وخالدًا)، ويريد بنصب خالدا العطف على «زيدا وعمرًا» المضروبيْن لأن ذلك خروج عن فصاحة الكلام ودخول فى معنى اللغز، فإن أكرم المأمور خالدًا فيكون ممتثلاً لأمره معذورًا عند العقلاء، وإن ضربه كان ملومًا عنده. وهذا مما لا محيص عنه. على أن الكلام متى حصل فيه عاملان - قريب وبعيد - لا يجوز إعمال البعيد دون القريب مع صحة حمله عليه. وبمثله ورد القرآن وفصيح الشعر: قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ (الجن: ٧) ولو أعمل الأول لقال: «كما ظننتموه». وقال: ﴿آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ (الكهف: ٩٦) ولو أعمل الأول لقال: «أفرغه» وقال: ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾

(الحاقة: ١٩) ولو أعمل الأول لقال: «هاؤم اقرأوه» وإليه ذهب البصريون. فأما من يختار إعمال الأول من الكوفيين فإنه لا يجيز ذلك فى مثل الموضع الذى نحن فيه، وليس قول امرئ القيس:

فلو أن ما أسعى لأدنى معيشة كفانى ولم أطلب قليل من المال

من قبيل ما نحن بصدده، إذا لم يوجه فيه الفعل الثانى إلى ما وجه إليه الأول، وإنما أعمل الأول لأنه لم يجعل القليل مطلوبًا، وإنما كان المطلوب عنده الملك وجعل القليل كافيًا، ولو لم يرد هذا ونصب لفسد المعنى.

وعلى هذا يعمل الأقرب أبدًا، أنشد سيبويه قول طفيل:

* جرى فوقها فاستشعرت لون مذهب *

وقال كثير:

قضى كل ذى دَيْنٍ فوفَّى غريمَهُ وعزةُ ممطولٌ مُعَنّى غريمُها

ولو أعمل الأول لقال: «فوفاه غريمه»، والاستدلال بقوله: «ممطول معنى غريمها» أولى، لأن قوله «عزة» مبتدأ، و «ممطول» خبره، و «معنى» كذلك، وكل واحد منها فعل للغريم، فلا يجوز رفعه بممطول، فيبقى (معنى) قد جرى خبرًا على عزة، وهو فعل لغيرها، فيجب إبراز ضميره.

فأما من قال: إن قوله فى: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ منصوبة بتقدير (واغسلوا أرجلكم) كما قال:

* متقلدًا سيفًا ورمحا *

وقال:

* وعلفتها تبنًا وماءً باردا *

فقد أخطأ أيضًا، لأن ذلك إنما يجوز إذا استحال حمله على ما فى اللفظ، فأما إذا جاز حمله على ما فى اللفظ فلا يجوز هذا التقدير.

فصل: وقد ذكرنا من قبل أن قوله: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ بالنصب معطوف على موضع (برءوسكم) لأن موضعها النصب، والعطف على الموضع جائز حسن كما يجوز على اللفظ، لا فرق بينهما عند العرب فى الحسن؛ لأنهم يقولون: «لست بقائم ولا قاعدًا»

أو «لا قاعـد» و «أن زيدًا فى الدار وعمرو» فرفع عـمرو بالعطف على الموضع، كـما نصب قاعد لأنه معطوف على محل بقائم. قال الشاعر:

مُـعـاوىَ إننـا بشـرٌ فـأسـجـح فلسـنا بالجـبـال ولا الحـديد

مقدرًا لكل شبهة وصح أن الحكم فى الآية المسح فى الرجلين، وقد تقل الشبهة فى القراءة بالجر على ما قدمناه.

ومن قال: يجب غسل الرجلين لأنهما محـدودتان كاليدين فقوله ليس بصحيح، لأنَّا لا نسلم أن العلة فى كـون اليدين مـغسـولتين كـونهمـا محدودتيْن، وإنـما وجب غـسـلهمـا لأنهـمـا عُطفـتـا على عـضـو مغسـول وهو الوجـه، وكـذلك إذا عطـف الرجـلان على ممـسـوح ـ وهو الرأس ـ وجب أن يكونا ممسوحـتين، والفصاحة فـيما قال الله فى الجملتين ذكر مـعطوفًا ومعطوفًا عليه أحدهما محدود والآخـر غير محدود فيهمـا. وروى أن الحسن قرأ: «وأرجلُكم» بالرفع. فإن صحت هذه القـراءة فالوجه أنه الابتداء وخبره مضمر، أى: وأرجلكم ممـسوحة، كما يقال: «أكرمت زيدًا وأخوه» أى وأخوه أكـرمته، فأضـمره على شريطة التـفسير واستغنى بذكره مـرة أخرى، إذ أن فى الكلام الذى يلـيه ما يـدل عليه وكان فـيـما أبقى دليل على ما ألقى، فكأن هذه القراءة ـ وإن كانت شاذة ـ إشـارة إلى أن مسح الرأس ببقية النداوة من مـسح الرأس كما هو. ويدل أيضًا على وجـوب الموالاة لأن الواو إذًا واو الحـال فى قوله: ﴿وَأَرْجُلُكُمْ﴾ بالرفع».

الخمس وأحكامه:

ولما كانت الإمامية الاثنا عشرية لهم فى الغنائم نظام خاص يخالفون به من عداهم فيوجبون الخمس لمستحقيـه فى مطلق الغنيمة، فهو غير مختص عندهم بغنائم الحرب بل يشمل أنواعًا سـبعة هى: غنائم الحرب، وغنائم الغوص، والكنز الذى يعـثر عليه، والمعـدن الذى يستـنبط من الأرض، وأرباح المكاسب، والحلال المـختلط بالـحرام، والأرض المنتقـلة من المسلم إلى الذمى، وليس الخـمس الهاشمـى الذى يرون وجوبه فيما عدا الغنائم الحربية من الصدقات كما يتوهم البعض، ولكنهم يعتبرونه حقًا امتيازيًا لآل محـمد الذين حرمت عليهم الصـدقات نظير مـا تمتاز به الأسر المـالكة اليوم من التمتع بمخـصصات خاصة، وقد تضافر الحـديث عن الأئمة بأن الخمس حق سلطانى

بإرادة ملكية، هى إرادة مليك الكائنات لمستحقيه الذين ذكرهم القرآن، لما كان هذا فإنا نجد الراوندى ينزل ما ورد فى الغنائم من الآيات على مذهبه.

قال الراوندى فى قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ (الأنفال: ٤١): «وأما قسمة الخمس فهو عندنا على ستة أقسام على ما ذكره الله: سهم لله، وسهم لرسوله، وهذان مع سهم ذى القربى القائم مقام النبى ﷺ ينفقهما على نفسه وأهل بيته من بنى هاشم، وسهم لليتامى، وسهم للمساكين، وسهم لأبناء السبيل كلهم من أهل بيت الرسول - ﷺ - لا يشركهم فيها باقى الناس؛ لأن الله عوضهم ذلك عما أباح لفقراء سائر المسلمين ومساكينهم وأبناء سبيلهم من الصدقات الواجبة، والمحرمة على أهل بيت النبى ﷺ، وهو قول زين العابدين والباقر - عليهما السلام - روى الطبرى بإسناده عنهما: والذين يستحقون الخمس عندنا من كان من ولد عبد المطلب، لأن هاشمًا لم يعقب إلا منه من الطالبيين والعباسيين والحارثيين واللهبيين، فأما ولد عبد مناف من المطلبيين فلا شيء لهم منه».

ثم قال: «وعن ابن عباس ومجاهد: ذوو القربى بنو هاشم. وقد بيّنا أن المراد بذى القربى من كان أولى من أهل بيته فى حياته، وبعد النبى ﷺ هو القائم مقامه، وبه قال على بن الحسين - عليهما السلام - فى رواياتهم. وقال الحسن وقتادة: سهم الله ورسوله: سهم ذى القربى لولى الأمر من بعده، وهو مثل مذهبنا.

فصل: قال المرتضى رضي الله عنه: إن تمسك الخصم بقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ وقال: عمر الكلام يقتضى ألا يكون ذو القربى واحدًا، وعموم قوله: ﴿وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ يقتضى تناوله لكل من كان بهذه الصفات ولا يختص ببنى هاشم، ومذهبكم يخالف ظاهر الكتاب لأنكم تخصون الإمام بسهم ذى القربى ولا تجعلونه لجميع قرابة الرسول من بنى هاشم، وتقولون: إن الثلاثة الأسهم الباقية هى ليتامى آل محمد ومساكينهم وأبناء سبيلهم ولا تتعدونهم إلى غيرهم ممن استحق هذا الاسم وهذه الأوصاف؟ **وأجاب عنه** فقال: ليس يمتنع تخصيص ما ظاهره العموم بالأدلة، على أن لا خلاف بين الأمة فى تخصيص

هذه الظواهر؛ لأنَّ ذا القربى عـام وقد خصوه بقربى النـبى - ﷺ - دون غيره. ولفظ اليتامى والمـسكين وابن السبيل عام فى المشـرك والذمى والغنى والفقير، وقد خـصته الجماعة ببعض من له هذه الصفة. على أن من ذهب من أصحابنا إلى أن ذا القربى هو الإمام القائم مقام النبى ﷺ خاصة، وسمى بذلك لقربه منه نسبًا وتخصصًا، فالظاهر معه لأن قوله: «ذى القربى» لفظ واحد، ولو أراد الجمع لقال ذوى القربى، فمن حمل ذلك على الجمع فهو مخالف للظاهر. فـأما الاستدلال بأن ذا القربى فى الآية لا يجوز أن يحمل على جميع ذوى القرابات من بنى هاشم، فإن ما عطف على ذلك من اليتامى والمسـاكين وابن السبـيل إذا يلزم أن يكونوا غير الأقـارب؛ لأن الشىء لا يعطف على نفسـه. فضعيف، وذلك غـير لازم؛ لأن الشىء وإن لم يعطف على نفسه فـقد يعطف صفة على أخرى والموصوف واحد».

وقال: «قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم...﴾ إلى آخر الآية، ناسخ للآية التى فى الحشـر من قوله: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ (الحشر: ٧) قالوا: لأن الله بين فى آية الغنيـمة أن الأربعة الأخماس للمقاتلة وخمسـها للرسول ولأقربائه، وفى آية الحشر كلها له. وعلى القول الأول لا يحـتاج إلى هذا لأنه الفىء. وعندنا الفىء للإمام خـاصة، يفرقه فـيمن يشاء يضعـه فى مؤنة نفسه وذى قرابتـه واليتامى والمساكيـن وابن السبيل من أهل بيت النبى ﷺ، ليس لسائر الناس فيه شىء. وكذلك قيل فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَىٰ﴾ (النحل: ٩٠) أن الأمر فيه بإعطاء ذى القربى هو أمر بصلة قـرابة النبى - ﷺ - وهم الذين أرادهم الله بقـوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾».

نكاح الكتابيات:

لما كان مذهب الراوندى عدم جواز نكاح أهل الـكتاب من اليهود والنصارى، فإنا نجده متـأثرًا بهذا المذهب، ويفسـر كلام الله على مقتـضاه، فنجده عند تفسيره لقوله تعـالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ (البقرة: ٢٢١) يقول

ما نصه (٢/ ٧٦): «هذه الآية على عمومها عندنا فى تحريم مناكحة جميع الكفار، وليست منسوخة ولا مخصوصة.

قال ابن عباس: فرَّق عُمر . . ابن طلحة وحذيفة اللتين كانتا تحتهما كتابيتين.

وقال الحسن: إنها عامة إلا أنها نسخت بقوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ (المائدة: ٥).

وقال ابن جبير: هى على الخصوص.

فصل: وقال بعض المفسرين: لا يقع اسم المشركات على نساء أهل الكتاب، فقد فصل الله تعالى بينهما فى قوله: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ (البينة: ١) وفى قوله: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ﴾ (البقرة: ١٠٥) إذ عطف أحدهما على الآخر.

وهذا التعليل من هذا الوجه غير صحيح، فالمشرك يطلق على الكل؛ لأن من جحد نبوة محمد ﷺ فقد أنكر معجزه فأضافه إلى غير الله، وهذا هو الشرك بعينه، وهذا ورد للتفخيم، كما عطف على الفاكهة النخيل والرمان مع كونهما منها تخصيصًا فى قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ (الرحمن: ٦٧)».

نكاح المتعة:

والقطب الراوندى كغيره من الإمامية الاثنى عشرية، يقول بجواز نكاح المتعة، ولا يعترف بنسخه، فلهذا حاول أن يأخذ هذا المذهب بدليله من كتاب الله تعالى، فقال فى «باب المتعة وأحكامها» (٢/ ١٠٤ وما بعدها): «قال الله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ (النساء: ٢٤) قال الحسن: هو النكاح، وقال ابن عباس والسدى: هو المتعة إلى أجل مسمى، وهو مذهبنا؛ لأن لفظ «الاستمتاع» إذا أطلق لا يستفاد به فى الشرع إلا العقد المؤجل، وإن كان فى أصل الوضع معناه الانتفاع.

ولا خلاف أن الشىء إذا كان له وضع وعرف شرعى يجب حمله على العرف دون الوضع؛ لأنه صار حقيقة والوضع مجازًا والحكم للطارئ، ألا ترى أنهم يقولون: «فلان يقول بالمتعة وفلان لا يقول بالمتعة» ولا يريدون إلا العقد المخصوص.

ولا ينافى ذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ

أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ (المؤمنون: ٥، ٦) لأنَّا نقول: إن هذه زوجة، ولا يلزم أن يلحقها جميع أحكام الزوجات من الميراث والطلاق والإيلاء والظهار واللعان؛ لأن أحكام الزوجات تختلف. ألا ترى أن المرتدة تبين بغير طلاق، وكذا المرتد عندنا، والكتابية لا ترث.

وأما العدة فإنها يلحقها عندنا ويلحق به الولد أيضًا فى هذا النكاح فلا شنعة بذلك، ولو لم تكن زوجة لما جاز أن يضم ما ذكر فى هذه السورة إلى ما فى تلك الآية، وإن ذلك جائز لأنه لا تنافى بينهما، فيكون التقدير: إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم، أو ما استمتعتم به منهن. وقد استقام الكلام.

وقد روى عن ابن مسعود وابن عباس وأبى بن كعب وسعيد بن جبير أنهم قرأوا «فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى» وذلك صريح بما قلناه.

على أن لو كان المراد به عقد النكاح الدائم لوجب لها جميع المهر بنفس العقد لأنه قال تعالى: ﴿فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ يعنى مهورهن عند أكثر المفسرين.

وذلك غير واجب بلا خلاف، وإنما يجب الأجر بكماله فى عقد المتعة بنفس العقد.

ولا يعترض هذا بقوله تعالى: ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ (النساء: ٣) لأن آية الصدقة مطلقة وهذه مقيدة بما قبلها، مع أنه فصل سبحانه فقال: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ (البقرة: ٢٣٧).

وفى أصحابنا من قال: قوله: ﴿أُجُورَهُنَّ﴾ يدل على أنه تعالى أراد المتعة؛ لأن المهر لا يسمى أجرًا بل سماه الله تعالى صدقة ونحلة، وهذا ضعيف؛ لأن الله سمى المهر أجرًا فى قوله: ﴿فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ (النساء: ٢٥) وفى قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ (النساء: ٢٤) ومن حمل ذلك كله على المتعة كان مرتكبًا لما يعلم خلافه.

ومن حمل لفظ «الاستمتاع» على الانتفاع فقد أبعد؛ لأنه لو كان كذلك لوجب أن لا يلزم من لا ينتفع بها شىء من المهر».

ثم قال: «وأما الخبر الذى يروونه أن النبى - ﷺ - نهى عن المتعة، فهو خبر واحد لا يترك له ظاهر القرآن، ومع ذلك يختلف لفظه وروايته: فتارة يروونه أنه نهى عنها فى عام خيبر، وتارة يروون أنه نهى عنها فى عام الفتح، وقد طعن أيضًا فى طريقه بما هو معروف.

وأدل دليل على ضعفه قول عمر: «متعتان كانتا على عهد رسول الله ﷺ أنا أنهى عنهما ومعاقب عليهما» فأخبر أن هذه المتعة كانت على عهد رسول الله ﷺ وأنه هو الذى نهى عنها لضرب من الرأى.

فإن قالوا: إنما نهى لأن النبى - ﷺ - كان نهى عنها.

قلنا: لو كان كذلك لكان يقول: متعتان كانتا على عهد رسول الله ﷺ أنا أنهى عنهما أيضًا، فكان يكون آكد فى باب المنع، فلما لم يقل ذلك دل على أن التحريم لم يكن صدر عن النبى ﷺ، وصح ما قلناه.

وقال الحكم بن عيينة: قال على - عليه السلام: لولا أن عمر نهى المتعة ما زنى إلا شفى.

وذكر البلخى عن وكيع عن إسماعيل بن خالد عن قيس بن أبى حازم عن ابن مسعود قال: كنا مع النبى ﷺ ونحن شباب فقلنا: يا رسول الله ألا نستخصى؟ قال: «لا» ثم رخص لنا أن ننكح المرأة بالثوب إلى أجل.

وقوله تعالى: ﴿**وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِنۢ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ**﴾ (النساء: ٢٤) قال السدى وقوم من أصحابنا: معناه لا جناح عليكم فيما تراضيتم به من استئناف عقد آخر بعد انقضاء المدة التى تراضيتم عليها، فتزيدها فى الأجر وتزيدك فى المدة.

فصل: فإذا ثبت أن نكاح المتعة جائز وهو النكاح المؤجل، وقد سبق إلى القول بإباحة ذلك جماعة معروفة الأحوال عند المخالفين وقد أثبتوا فى كتبهم منهم أمير المؤمنين - عليه السلام - وابن مسعود، ومجاهد، وعطاء، وقد رووا عن جابر وسلمة ابن الأكوع وأبى سعيد الخدرى والمغيرة بن شعبة وابن جبير وابن جريح أنهم كانوا يفتون بها، وادعاؤهم الاتفاق على حظر المتعة باطل.

وقد ذكرنا أن الحجة لنا بعد الإجماع من القرآن قوله تعالى: ﴿**فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً**﴾ (النساء: ٢٤) ولفظ الاستمتاع والتمتع - وإن كان واقعًا على

الالتذاذ والانتفاع فى أصل اللغة ـ فقد صار بعرف الشرع مخصوصًا بهذا العقد المعين، لا سيما إذا أضـيف إلى النساء، ولا يفهم من قول القائل: «متعـة النساء» إلا هذا العقد المخصوص، كما أن لفظ الظهار اخـتص فى عرف الشرع بهذا الحكم المخصوص وإن كانت فى اللغة مشتـركة، فكأنه قال: إذا عقدتم عليهن هذا العقـد المخصوص فآتوهن أجورهن.

ولفظ: «استمـتعتم» لا تعدو وجـهين: إما أن يراد بها الانتـفاع والالتذاذ الذى هو أصل اللغة، أو العقد المؤجل المخصوص الذى اقتضاه عرف الشرع.

فلا يجوز أن يكون هو الوجه الأول لأمرين:

أحدهـما: أنه لا خلاف بين محصلى من تكلم فى أصول الفقه نفى أن لفظ القرآن إذا ورد، وهو محتمل لأمرين: **أحدهما:** أصل اللغة، **والآخر:** عرف الشرع، أنه يجب حمله على عرف الشرع، ولهذا حملوا كلهم لفظ صلاة وزكاة وصيام وحج على العرف الشرعى دون اللغوى.

والأمر الآخـر: أنه لا خلاف فى أن المهـر لا يجب بالالتذاذ، لأن رجلاً لو وطئ امرأته ولم يلتذ لوطئها لأن نفسه عافتـها وكرهتها، أو لغير ذلك من الأسباب لكان دفع جميع المهر واجبًا وإن كان الالتذاذ مـرتفعًا، فعلمنا أن الاستمتاع فى الآية إنما أريد به العقد المخصوص دون غيره.

ومـمـا يبين ذلك ويقويه قـوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾ (النسـاء: ٢٤) ومعناه على ما روى عن آل محمـد عليه وعليهم السلام: أن تزيدها أنت فى الأجر وتزيدك هى فى الأجل.

وما يقوله مخالفـونا من أن المراد به رفع الجناح فى الإبراء والنقصان أو الزيادة فى المهر أو ما يستقر بتراضيهما من النفقة ليس بصحيح؛ لأنَّا نعلم أن العفو والإباء مسقط للحقوق بالعقـول ومن الشرع ضرورة لا بهذه الآية، والزيادة فى المهر كالهـبة، والهبة أيضًا معلومة لا من هذه الآية، وأن التراضى مؤثر فى النفقات وما أشبهها، فحمل الآية والاستـفادة بها مـا ليس بمستـفاد قبلهـا ولا معلوم هو الأولى، فـالحكم الذى ذكرناه مستفاد بالآية غير معلوم قبلها، فيجب أن يكون أولى.

فإن قيل: كيف يصح حمل لفظة «استمتعتم» على النكاح المخصوص، وقد أباح الله بقوله: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ﴾ النكاح المؤبد بلا خلاف، فمن خصص ذلك بعقد المتعة فهو خارج عن الإجماع؟

قلنا: قوله تعالى بعد ذكر المحرمات من النساء: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ (النساء: ٢٣) يبيح العقد على النساء والتوصل بالمال إلى استباحتهن ويعم ذلك العقد المؤبد و المؤجل، ثم خص المؤجل بالذكر، فقال: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ﴾ فالمعنى: فمن نكحتموها منهن نكاح المتعة فآتوهن أجورهن فريضة ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾ (النساء: ٢٤) لأن الزيادة فى الأجر لا يليق إلا بالعقد المؤجل.

فإن قيل: الآية مجملة لقوله تعالى: ﴿مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ ولفظة الإحصان تقع على أشياء مختلفة من العقد والتزويج وغير ذلك؟.

قلنا: الأولى أن تكون لفظة «محصنين» محمولة على العقد والتنزيه من الزنا؛ لأنه فى مقابلة قوله: ﴿غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ والسفاح: الزنا بغير شبهة، ولو حملت اللفظة على الأمرين من العفة والإحصان الذى يتعلق به الرجم لم يكن بعيدًا.

فإن قيل: كيف يحمل لفظة «الإحصان» فى الآية على ما يقتضى الرجم وعندكم أن المتعة لا تحصن؟ قلنا: قد ذهب أكثر أصحابنا إلى أنها تحصن، وإنما لا تحصن إذا كانت المتمتع بها يغيب عنها فى أكثر الأوقات، والغائب عن زوجته فى النكاح الدائم لا يكون بحكم المحصن فى الرجم.

وبعد، فإذا كانت لفظة «محصنين» تليق بالنكاح الدائم رددنا ذلك إليه، كما أنّا رددنا لفظة «الاستمتاع» إلى النكاح المؤجل لما كانت تليق به، فكأنه تعالى أحل النكاح على الإطلاق وابتغاءه بالأموال ثم فصل منه المؤبد بذكر الإحصان والمؤجل بذكر الاستمتاع»

طعن الراوندى على أبى بكر وعمر:

كما أننا نلاحظ أن الراوندى يطعن على أبى بكر وعمر فيقول فى: «باب الأنفال»: «روى أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي

الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ....﴾ (الحشر: ٧) الآية، قال رسول الله ﷺ لجبرائيل - عليه السلام: لمن هذا الفىء؟ فأنزل الله قوله: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ ...﴾ (الإسراء: ٢٦) فاستدعى النبى ﷺ فاطمة - عليها السلام - فأعطاها فدكا وسلمها إليها، فكان وكلاؤها فيها طول حياة النبى ﷺ من عند نزولها، فلما مضى رسول الله ﷺ أخذها أبو بكر ولم يقبل بينتها ولا سمع دعواها، فطالبت بالميراث لأن من له حق إذا مُنِعَ من وجه جاز له أن يتوصل إليه بوجه آخر، فقال لها: سمعت رسول الله يقول: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة» فمنعها الميراث هذا الكلام، وهذا مشهور. وروى على بن أسباط قال: لما ورد أبو الحسن موسى - عليه السلام - على المهدى الخليفة وجده يرد المظالم، فقال: ما بال مظلمتنا لا تُردُّ؟! فقال: ما هى يا أبا الحسن؟ فقال: إن الله لما فتح على نبيه فدك وما والاها ولم يوجف عليها بخيل ولا ركاب فأنزل الله على نبيه: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ ...﴾ فلم يدر رسول الله ﷺ من هم، فراجع فى ذلك جبريل، فسأل الله عن ذلك، فأوحى الله إليه أن ادفع فدكًا إلى فاطمة، فدعاها رسول الله ﷺ فقال لها: «يا فاطمة إن الله أمرنى أن ادفع إليك فدك». فقالت: قد قبلت يا رسول الله من الله ومنك. فلم يزل وكلاؤها فيها حياة رسول الله ﷺ، فلما ولى أبو بكر أخرج عنها وكلاءها، فأتته فسألته أن يردها عليها، فقال: ايتنى بأسود أو أحمر، فجاءت بأمير المؤمنين والحسن والحسين وأم أيمن، فشهدوا لها، فكتب بترك التعرض، فخرجت والكتاب معها، فلقيها عمر فقال: ما هذا معك يا بنت محمد؟ قالت: كتاب كتبه لى ابن أبى قحافة. قال: فأرينيه، فأبت، فانتزعه من يدها فنظر فيه ثم تفل فيه ومحاه وخرقه، وقال: هذا لأن أباك لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب، وتركها ومضى. فقال له المهدى: حدها، فحدها، فقال: هذا كثير وانظر فيه».

وهكذا نجد القطب الراوندى يمضى فى كتابه ويناقش مخالفيه من أصحاب المذاهب الأخرى مناقشة حادة، إن دلت على شىء فهو قوة ذهن الرجل وسعة اطلاعه.

فهرس الموضوعات

الموضـــــــوع | الصفحة

الموضـــــــوع الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــــــوع	الصفحة

الموضـــــوع الصفحة

الموضـــــــــوع	الصفحة

الموضـــــــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــــــوع | الصفحة

الموضـــــــوع الصفحة

الموضـــــــوع الصفحة

الموضــــــــوع الصفحة

الموضـــــــــوع	الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع — الصفحة

الموضـــــــوع الصفحة